

أسس الاشتراكية العالمية

المبادئ الأدبية الاشتراكية

تأليف
جماعة من الأساتذة السوفيت

نقله عن الروسية

عزنان جاموس
مجازي الأدب الروسية

بدر الدين السباعي
دكتور في الحقوق والاقتصاد

فؤاد مرعي
مجازي الأدب الروسية

اصدار
دار الجاهل



أُسِّسَ لِإِسْتِرَاكِيَةِ الْعَالَمِيَّةِ

الْمَلَأَتِ بِرَأْيِ الْكُتَيْبَةِ

تَأَلَّفَ

جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَسَاتِذَةِ السُّوفِيَّةِ

نَفَلَهُ عَنِ الرُّوسِيَّةِ

عَدْنَانُ جَامُوسُ
مَجَازِي فِي الْأَدَبِ الرُّوسِيَّةِ

بَدْرُ الدِّينِ السَّبَاعِي
دَكْتُورِي فِي الْحُقُوقِ وَالْأَدْوَعَادِ

فُوَادُ مَرْعِي
مَجَازِي فِي الْأَدَبِ الرُّوسِيَّةِ

اصْبَحَارُ
وَلَا رَجَاءَ هِيرَ

المؤلفون

- ف. كونساتينوف : عضو مراسل في اكااديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- ف. بيرستيف : دكتور في العلوم الفلسفية
- غ. غليزيرمان : دكتور في العلوم الفلسفية
- م. دينيك : عضو مراسل في اكااديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- م. كاماري : عضو مراسل في اكااديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- ي. كوزنيتسوف : دكتور في العلوم الفلسفية
- ب. كوبنين : دكتور في العلوم الفلسفية
- م. روزنيتال : دكتور في العلوم الفلسفية
- ا. شيشكين : دكتور في العلوم الفلسفية
- ل. فيدوسنييف : اكايمي في اكااديمية علوم الاتحاد السوفيتي
- يو. فرانتسيف : عضو مراسل في اكااديمية علوم الاتحاد السوفيتي

ترجم

- فؤاد مرعي : الفصل الاول والثاني
بدر الدين السباعي : من الفصل الثالث وحتى الفصل التاسع
عدنان جاموس : الفصل التاسع

تدقيق

عدنان جاموس

” الفِصْلُ الْأَوَّلُ ”

” موضوع الفلسفة ”

الماركسية نظرية كاملة منسجمة تتألف من ثلاثة أجزاء مكوّنة : الفلسفة والاقتصاد السياسي ونظرية الشيوعية العلمية . وهذه الأجزاء المكونة للماركسية مرتبطة ، داخلياً ، بعضها ببعض ، ارتباطاً وثيقاً . والمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية هما الأساس النظري الفلسفي العام للماركسية ولإقتصادها السياسي وشيوعيتها العلمية واستراتيجية وتاكتيك الأحزاب الماركسية . ولا يمكن أن تُفهم الماركسية اللينينية فهماً عميقاً بدون تفهم الفلسفة الماركسية . ان ما يعترف به حتى أعداء ماركس من انسجام الماركسية داخلياً وتكاملها ومنطقها الحديدي وعلميتها ، هو نتيجة تطبيق طريقة واحدة ووجهة نظر واحدة في الأجزاء المكونة كلها . ان المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية هما النظرية الفلسفية للطبقة العاملة الثورية وأحزابها الماركسية .

ما الذي تدرسه الفلسفة الماركسية وما هو موضوعها ؟ وما هي علاقة الفلسفة الماركسية بالعلوم الأخرى وبمختلف أشكال الوعي الاجتماعي ؟ من السهل الاجابة على هذه الاسئلة لدى معالجتها تاريخياً . ان الفلسفة الماركسية نتيجة مقنونة لكل التطور الذي سبقها في الفكر الفلسفي والعلمي التقدمي للانسانية ؛ وهي تعتمد على مكتسبات ذلك الفكر . وهي ، في الوقت ذاته ، مرحلة جديدة نوعياً وأكثر رقياً في تطور الفلسفة . لذا فمن الضروري أولاً أن نحدد أية مسائل عالجت الفلسفة التي سبقت الماركسية وكيف حلتها ؟ وبعد ذلك يتضح لنا ما يميز الفلسفة الماركسية عن التيارات الفلسفية الأخرى كلها ولماذا كان ظهور المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية انقلاباً ثورياً في مجال الفلسفة .

١ - سؤال الفلسفة الأساسي • المادية والمثالية هما

الاتجاهان الأساسيان في الفلسفة

ان تعبير « فلسفة » يتكون من كلمتين يونانيتين : « فيليو » - أحب و « سوفيا » - الحكمة ، أي حب الحكمة • ولكن المعنى الحرفي لكلمة «فلسفة» لا يكفي لتحديد موضوع ومحتوى ومهام الفلسفة • ولا يمكن أن يعطى التعريف الصحيح للفلسفة إلا بمعرفة خصائصها بالمقارنة مع العلوم الأخرى وأشكال الوعي الاجتماعي الأخرى التي تطورت الفلسفة بالتفاعل معها •

وصفة الفلسفة الأساسية هي في كونها ، منذ نشأتها ، نظرة كاملة ، إلى هذا الحد أو ذاك ، أي انها مجموعة من النظرات الشاملة إلى العالم والطبيعة والمجتمع والانسان •

تكون لدى كل انسان هذه النظرة أو تلك • غير انها يمكن أن تكون غير متعمدة وإنما تتكون تحت تأثير ظروف حياته ، وفي أحيان غير قليلة تتكون من مقتطفات مختلفة من آراء ونظرات متناقضة إلى العالم • والفلسفة ليست مجرد مجموعة من الآراء والتصورات عن العالم ، وإنما هي منظومة لها ، وهي نتيجة لتطبيق وجهة نظر محددة تطبيقاً واعياً على الواقع المحيط ، ومجموعة من المبادئ • وهذه المبادئ تعبر عن ايدولوجية هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك وظروف حياتها ومصالحها •

كانت الفلسفة ، في مختلف مراحل تطورها ، تدرس مسائل متنوعة • وكانت تحتوي في المراحل الأولى كثيراً من المسائل التي أصبحت فيما بعد مواضيع للعلوم المتخصصة • ولكن مهما تبدل مفهوم موضوع الفلسفة فإن مسائلها الرئيسية كانت دائماً المسائل الجذرية للنظرة إلى العالم ، وكانت تجيب على مسائل طبيعة العالم المحيط ، وهل هو موجود وجوداً أزلياً أم نشأ بهذه الطريقة أو تلك ، وأي مكان يشغل الانسان في العالم ، وما هو وعينه ، وما علاقته بالعالم المحيط بنا ، وهكذا دواليك •

والسؤال الأساسي في النظرة إلى العالم هو حول علاقة الفكر ، الوعي ، بالوجود ، الروح بالطبيعة • وما هو الأسبق ، الأول : الطبيعة (الوجود ، المادة) أم الروح (العقل ، الوعي ، الفكرة) ؟ وبكلمات أخرى ، ما الذي كان أولاً : المادة قبل الوعي ، أم بالعكس : الوعي قبل المادة ؟ هل الوجود ، المادة ، تحدد الفكر ، الوعي ، أم بالعكس ؟

ان كل الظواهر التي نعالجها إما أن تكون مادية أي خارجة عن وعينا (الاشياء وعمليات العالم الخارجي) ، واما روحية فكرية أي لا توجد إلا في وعينا (المشاعر والأفكار والتفكير وغيرها) • مادي وروحي - هذان هما المفهومان الواسعان للغاية ، اللذان يشملان كل ما هو موجود في العالم • ولذا فمهما كانت النظرة إلى العالم فهي ستطلق حتماً من هذا الجواب أو ذاك على مسألة العلاقة بين ما هو مادي وما هو روحي • لقد كانت هذه المسألة وما زالت المسألة الرئيسية في صياغة النظرة الفلسفية إلى العالم • وهذا الجواب أو ذاك على هذه المسألة يحدد ، قبل أي شيء آخر ، النظرة الفلسفية إلى العالم •

وتبعاً لحل المسألة الأساسية تنقسم النظريات الفلسفية إلى اتجاهين أساسيين : المادية والمثالية • والفلاسفة الذين يعترفون بأولوية المادة يدعون بالماديين ، وهم يعتبرون أن العالم الذي يحيط بنا لم يُخلقه أحد وأن الطبيعة موجودة أزلياً • ويفسر الماديون العالم منطلقين منه ذاته دون اللجوء إلى الاعتماد على قوى خارقة للطبيعة يُزعم وجودها خارج العالم • هكذا كان ينظر الى العالم الفيلسوفان الاغريقيان ديموقريط واپيقور ، والماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر لاميتري ، وغولباخ ، وديدرو ، والمادي الالماني الذي سبق ماركس وانجلز ، لودفيغ فيورباخ وغيرهم • ويقابل الماديين المثاليون الذين اعتبروا أن الفكر أو « الروح » هو الاسبق • وهم يؤكدون ان الروح والوعي كانا موجودين قبل الطبيعة وغير مرتبطين بها • وقد تبنى هذه النظرة الفيلسوف الاغريقي أفلاطون والفيلسوف الانكليزي بيركلي الذي عاش في القرن الثامن عشر والفيلسوف الالماني هيغل الذي عاش في الربع الأول من القرن التاسع عشر •

ان أية نظرة إلى العالم ، منسجمة إلى هذا الحد أو ذاك ، يجب أن تنطلق من الاعتراف بأولوية احدى البديتين - المادة أو الروح . وتدعى هذه النظرة نظرة احادية . حقا ، ظهر في التاريخ فلاسفة اعترفوا بالبديتين وباستقلال كل منهما عن الأخرى . ويسمى هؤلاء الفلاسفة بالثنائيين . ان الثنائية التي تعترف بالمادة والروح كبديتين مستقلتين لا تستطيع اقامة علاقة بينهما . ولذا فان الثنائي ، لدى تفسير ظواهر العالم ، يتخبط حتماً في تناقضات لا يمكن لمنظومته حلها ، ويقف اما إلى جانب المادية واما إلى جانب المثالية . والثنائية ليست بالنسبة الى المادية والمثالية حلاً جديداً ، مبدئياً ، لقضية الفلسفة الأساسية ، وانما هي تعبير عن عدم الانسجام الفلسفي .

ان مسألة العلاقة بين التفكير والوجود هي المسألة الاساسية لكل وجهة نظر فلسفية . لأن حلها يحدد الاجابات على المسائل الأخرى التي تدرسها الفلسفة . وهكذا فانطلاقاً من حل مسألة أولوية الروح أو الطبيعة أجب الفلاسفة اجابات مختلفة حول المسائل التالية : هل العالم موجود أزلياً أم ان له بداية في الزمن ؟ وهل هو غير محدود أم انه محدود في المكان وغير ذلك ؟ ويرتبط بالاعتراف بأولوية المادة أو الوعي حل مسألة وجود وطبيعة قنونة⁽¹⁾ ظواهر العالم . فيعتبر الماديون ان العالم موجود بغض النظر عن وعي الانسان . فاذا كان الأمر كذلك ، فان العلاقات بين مختلف ظواهر العالم ليست من وضع وعي الانسان وانما هي موجودة موضوعياً أي مستقلة عن الوعي . ولذا فان الماديين يعترفون بالقوانين الموضوعية التي تخضع لها كل الظواهر والعمليات في العالم المحيط بنا .

ويحل المثاليون هذه المسألة حلاً مختلفاً . فبعضهم (ما يسمون بالمثاليين الذاتيين) يعترفون بأولية الوعي الانساني . وهم يزعمون أن الانسان يعالج مباشرة ظواهر وعيه واحساساته وتصوراتهِ ومفاهيمه وما شابه ذلك ، ولا يحق له أن يسمح بوجود أي شيء خارج الوعي . ان المثالية الذاتية، اذ تنفي وجود العالم الموضوعي وتعتبر الاشياء نتاجاً للاحاساسات والافكار، تنفي أيضاً القنونات

(1) قنونة ظواهر العالم : تعبير يقصد به القوانين والصلوات القانونية التي تخضع لها ظواهر العالم (المغرب) .

الموضوعية للعالم • ومن وجهة نظر المثاليين الذاتيين لا تعبر قوانين الطبيعة والمجتمع وأسباب الظواهر والعمليات ، التي اكتشفها العلم إلا عن الانسجام الذي اعتدنا أن نراه في الظواهر • ولكن ليس لهذا الانسجام ، على حد زعمهم ، أية قوة ضرورية • والاتجاه الآخر في المثالية - المثالية الموضوعية - يعترف بأولوية الروح ، والفكرة الموجودين ، على حد زعمه ، خارج الانسان ومستقلين عنه • ويعترف المثاليون الموضوعيون بنظام محدد في الطبيعة وبقنونة الظواهر • ولكنهم يبحثون عن مصدر هذه القنونة ، لا في الطبيعة ذاتها ولا في العلاقات الطبيعية بين الأسباب والنتائج ، وإنما في « العقل الشامل » وفي « الفكرة المطلقة » و « الارادة المطلقة » • وليس من الصعب أن نرى أن الفكرة المطلقة والعقل الشامل أو الارادة الشاملة ليست سوى أسماء أخرى للإله الذي خلق العالم ووضع له غايات محددة •

وأية مسألة فلسفية تأخذها - سواء أزلية العالم أو وحدته أو قانونية الظواهر وغيرها ، فإن معالجة هذه المسائل مرتبطة ، على هذا النحو أو ذاك ، بحل المسألة الأساسية في الفلسفة • فهنا يمر الحد الفاصل بين اتجاهين أساسيين في الفلسفة - المادية والمثالية • ويمكن أن يبدو من النظرة الأولى ان مسألة الفلسفة الأساسية تقف ، نظراً لشمولها ، بعيداً عن الحياة وعن نشاط الناس العملي • ولكن هذا التصور خاطيء • فمن حل هذه المسألة تنتج نتائج اجتماعية معينة : هذا الموقف أو ذاك يقفه الانسان من الواقع ومن الحياة الاجتماعية والمهام التاريخية ومن المبادئ الأخلاقية وغير ذلك •

فاذا اعترفنا ، مثلاً ، مع المثاليين بأولوية الوعي ، الروح ، فإن مصدر الكوارث الاجتماعية التي يعاني منها الشغيلة بشدة في المجتمعات الطبقة ، وخاصة في ظل الرأسمالية (استغلال وفقر جماهير الشغيلة والحروب المدمرة وغير ذلك •) ، يجب أن نبحث عنه لا في ظروف حياة الناس المادية ولا في نظام المجتمع الاقتصادي ولا في البنية الطبقة وإنما في ظروف الحياة الروحية وفي ضلال الناس وفي عيوبهم الأخلاقية • ومثل هذه النظرة لا تمكن من تحديد الطرق الحقيقية لتغيير الحياة الاجتماعية • ولا تستطيع أن تدل الشغيلة على

سبل حل مسائل العصر الاساسية : تأمين السلام ودرء واجتثاث الحروب العالمية من حياة المجتمع ، والقضاء النهائي على الاستعمار والاضطهاد القومي والطبقي .
ان النظرة المثالية إلى العالم تدعم ، على هذا النحو أو ذاك ، مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، اللاهوت المرتبط بالأوهام . واللاهوت في المجتمع الطبقي يلعب دوراً محدداً تماماً . إنه يخدم كسلاح فكري في استغلال الجماهير . ان اللاهوت الذي يدعو إلى الايمان بما وراء الطبيعة يوحى للشغيلة بفكرة تفاهة الحياة الدنيا وعدم جدوى نضالهم من أجل التحرر من الظلم الطبقي ، ويجعل السلبية والخضوع وروح الاستسلام للظلم الاجتماعي على الارض تدبّ فيهم واعداءً بالثواب في السماء .

ان المثالية واللاهوت يلتقيان في ما هو رئيسي ، في حل المسألة الاساسية في النظرة إلى العالم . ان كل لاهوت هو قائم على الايمان بقوى خارقة للطبيعة توجه العالم . وهذا أيضاً ما تقوله المثالية من أنه توجد قوة غير مادية في أساس كل شيء وهي تخلق العالم . حقاً ، ان الفلاسفة المثاليين ، خلافاً للاهوت ، لا يسمون دائماً ، البداية الروحية التي تخلق العالم ، على حد زعمهم ، خالقاً . غير ان هذا لا يبدل شيئاً . فحتى في تلك الاحوال التي ينكرون فيها الايمان البدائي الساذج بما وراء الطبيعة كوجود ذاتي قادر على كل شيء ، تؤدي تعاليمهم حتماً ، وفي نهاية المطاف ، إلى البابوية وتدعيم اللاهوت .

وهذا ، لا يعني طبعاً ، ان من السهل مطابقة الفلسفة المثالية واللاهوت . فاللاهوت ليس شكلاً من أشكال معرفة الواقع . . . انه يستبدل الايمان الاعمي بالمعرفة ، ويبعد المرء عن المعرفة إلى مجال الاختلاقات الاسطورية ، ويعطي تفسيراً مشوهاً مقلوباً للواقع . والفلسفة المثالية نظرية كاذبة أيضاً ولكن بعض النظم المثالية كانت تحتوي على بذرة عقلانية لمعرفة العالم . لقد دفع الفلاسفة المثاليون العظام إلى أمام معرفة بعض جوانب الواقع رغم انهم جميعاً فهموا العالم فهماً مثالياً مقلوباً وحيد الجانب . فهيغل ، مثلاً ، صاغ في فلسفته فكرة التطور الديالكتيكي . ولكن تكوّناته المثالي جعله يتصور هذا التطور مقلوباً ويعده مظهراً للتطور الذاتي « للفكرة المطلقة » المختلفة .

ان للفلسفة جذوراً اجتماعية ومعرفية • واذا كانت الطبقات التقدمية ، عادة ، قد دافعت عن الفلسفة المادية ، فان الطبقات الرجعية ، عادة ، دافعت عن مختلف أشكال المثالية •

والجذور المعرفية والنظرية للمثالية هي في المعالجة الوحيدة الجانب للمعرفة ، وفي تضخيم أحد جوانب عملية المعرفة ذات الجوانب المعقدة المتعددة وجعله أمراً مطلقاً • ففي عملية معرفة الواقع ، مثلاً ، ينشئ الناس تعميمات ، مفاهيم عامة ولتقل مثلاً مفهوم - « البيت » • ان مفهوم « بيت » قد صيغ عن طريق تجريد علائم عامة معينة من البيوت الموجودة وجوداً واقعياً ، وفي عملية التجريد هناك امكانية لانقطاع الافكار عن الواقع • وما أن ننسى منشأ المفهوم الشامل فنعتبره شيئاً موجوداً وجوداً مستقلاً لا يرتبط بالاشياء الموجودة وجوداً واقعياً ، حتى ننزلق إلى مواقع المثالية • والفلسفة المثالية ، على حد تعبير لينين ، زهرة عقيمة ولكنها زهرة تنمو على شجرة حية خصبة قوية جبارة هي شجرة المعرفة الانسانية • وقد شبه لينين عملية المعرفة بالحركة لا على خط مستقيم وانما على خط متعرج معقد لولبي • ولدى المعالجة الذاتية الوحيدة الجانب لأي قسم من اللولب يمكن أن يتحول هذا القسم إلى خط مستقيم • وعندئذ يتعد الانسان عن الخط الرئيسي للمعرفة إلى خط تشويه الحقائق • والابتعاد عن الحقيقة يلائم في كثير من الاحيان مصالح الطبقات الاجتماعية الرجعية ويدعمها وتتحول الأخطاء المثالية المتفرقة إلى نظم فلسفية مثالية • لقد لاحظ لينين أن المعالجة الوحيدة الجانب الضيقة ، وجمود الافكار والذاتية ، والعمى الذاتي ، هي الجذور المعرفية للمثالية •

ان ظهور انفصال العمل الفكري في المجتمع الطبقي عن العمل الجسدي ، ومن ثم التناقض فيما بينهما ، يخلقان وهماً وكأن الافكار منفصلة عن التطبيق بل وتحدد التطبيق • وهذه النظرة المثالية إلى العالم تشوه الواقع وتفسره تفسيراً مقلوباً وتستخدمها الطبقات المستغلة من أجل تبرير وتدعيم سيادتها • هكذا تكون النظرة المثالية إلى العالم وتنتشر تحت تأثير علاقات ومصالح طبقية معينة •

وليس من قبيل الصدفة أن تقف الفلسفة البرجوازية المعاصرة في صف المثالية في حين ان الفلاسفة الذين كانوا يعبرون عن ايدولوجية البرجوازية قبل قرنين في فرنسا ، مثلاً ، كانوا يدافعون عن المادية • ان هذا التبدل في الآراء الفلسفية يفسر بالتبدل في وضع تلك الطبقة التي تعبر هذه الآراء عن ايدولوجيتها : فقد تحولت البرجوازية من طبقة تقدمية ثورية صاعدة إلى طبقة رجعية في طريقها إلى الزوال •

وعلى عكس المثالية ، عبرت النظرة المادية إلى العالم ، عادة ، عن مصالح قوى المجتمع التقدمية الطبيعية المهتمة بتطوير الانتاج الاجتماعي وبالتالي بتطور العلم •

وبعد أن ظهرت علوم الطبيعة تطورت المادية كنظرة فلسفية إلى العالم ، متلاحمة تلاحماً شديداً مع علم الطبيعة • ان كل تفسير علمي هو في جوهره تفسير مادي ، لأن العلم يعطي تفسيرات طبيعية للظواهر فأدره على تسليح الانسان من أجل إعادة تنظيم العالم • ان العلم ينطلق من أن المواضيع التي يدرسها ، وكل العالم المحيط ، وكل علاقاته القانونية موجودة وجوداً موضوعياً مستقلاً عن وعينا • والعلم في جذوره ينفي وجود قوى خارقة للطبيعة • وكل تطور علم الطبيعة يبرهن على أن الطبيعة ليست مخلوقة ، ويدل على أزلية المادة وحركتها • ان المادة وحركتها تتحول باستمرار من أشكال إلى أخرى ولكنها لا تنشأ أبداً من العدم أو تنعدم •

وخلال النضال الطويل بين العلم واللاهوت وقفت المثالية ، كقاعدة ، إلى جانب اللاهوت ووقفت المادية إلى جانب العلم • ان المادية في جوهرها تناقض اللاهوت • لذا فان المدافعين عن المادية تاريخياً ، كانوا عادة من تلك القوى الاجتماعية التي ناضلت ضد اللاهوتيات والخرافات ومن أجل نشر العلم • وقد لاحظ لينين انه عبر التاريخ الحديث كله « كانت المادية الفلسفة المنسجمة الوحيدة ، الأمنية لكل نظريات العلوم الطبيعية المعادية للخرافات والشعوذات وما شابه ذلك » (١) •

(١) لينين : الطبعة ٤ الجزء ١٩ الصفحة ٤ • في المستقبل تعتمد دائماً الطبعة ٤ •

ان مسألة الفلسفة الأساسية ، إلى جانب السؤال عن أولوية الفكر أو الوجود ، تشمل جانباً آخر : ما هي علاقة أفكارنا ومعارفنا بالعالم؟ وكيف نتقف منه ؟ هل يستطيع تفكيرنا أن يعرف العالم الحقيقي ؟

منذ نشوء الفلسفة ، تقريباً ، كانت إحدى مهامها الأساسية البحث في عملية وطرق ووسائل معرفة الواقع . وقد حاولت أن تفسر كنه مصدر معرفتنا ، وما إذا كان بإمكاننا اعتبار احساساتنا وتصوراتنا ومفاهيمنا انعكاساً للواقع واعتبارها قادرة على عكسه عكساً صحيحاً . ويظهر في حل هذه المسائل أيضاً التناقض بين المادية والمثالية .

وتؤكد المادية ان العالم موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الوعي ، وأن الناس جزء من الطبيعة يعكسونها في وعيهم . من هنا ينجم ، طبعاً ، الاعتراف بإمكانية معرفة العالم وقنونه .

ان كثيراً من المثاليين لم ينفوا أيضاً إمكانية معرفة العالم . ولكنهم جميعاً يرفضون ان ينظروا إلى المعرفة كأنعكاس للواقع الموضوعي . فبعض المثاليين (الفيلسوف الاغريقي أفلاطون ، مثلاً) زعم أن مصدر المعرفة هو « في العالم الآخر المثالي » . ولذا فان على الانسان الذي يريد أن يعرف الحقيقة أن يشيح عن العالم المحيط بنا وأن يغمض عينيه ويغلق أذنيه ، ويتذكر ما كانت «روحه الخالدة» قد لاحظته في عالم المثل . وعالج مثاليون آخرون (هيجل ، مثلاً) المعرفة على انها معرفة الفكرة المطلقة لذاتها ، تلك الفكرة التي تخلق العالم وتتعرف على ذاتها في شخص الانسان . ورغم تنوع المذاهب المثالية واختلاف نظرتها إلى المعرفة فانها جميعاً ترفض أن ترى في أحاسيس ومفاهيم وأفكار الانسان انعكاساً للاشياء ، وترفض أن تعتبر العالم الموضوعي مصدر المعرفة .

وإلى جانب الفلاسفة الذين يعترفون بإمكانية معرفة العالم ، كان ولايزال هناك فلاسفة يشكون بمثل هذه الامكانية (الريبون) أو انهم يحاولون البرهان على عدم إمكانية معرفة العالم . والاتجاه الفلسفي الذي ينفي إمكانية الوصول إلى معلومات موثوقة سمي بالاتجاه اللامعرفي .

وكثيراً ما تظهر اللامعرفية كمحاولة للتهرب من الاجابة على سؤال الفلسفة الاساسي ، وتعلن أنه سؤال لاتمكن الاجابة عليه، بل وتعلن أنه لايمكن التأكد من وجود العالم الموضوعي • ولكن اللامعرفية ، في تطلعها إلى خط « وسط » مزعوم بين المادية والمثالية تلتقي في أغلب الاحيان مع المثالية^(١) •

ومن النموذجي جداً أن الفلسفة البرجوازية المعاصرة تقف كلها تقريباً موقف اللامعرفية • فتنفي قدرة العقل الانساني على معرفة العالم وجوهر الظواهر، وتؤكد عجز التفكير المنطقي • وهذا أحد مظاهر انهيار الرأسمالية والبرجوازية التي فقدت منذ أمد بعيد الايمان العزيز في قدرة العقل الانساني المبدعة وفي التقدم الاجتماعي •

ان نفي معرفة العالم يحط من قدر العلم • واللامعرفية ، اذ تؤكد عدم امكانية معرفة العالم ، تفتح الطريق للايمان الديني ولتهادن العلم والدين • واذا اعتبرنا من غير الممكن التوصل إلى معرفة صحيحة للعالم ، فلا يبقى لنا إلا أن نعترف بأن على الانسان أن يبني نشاطه العملي لا على معطيات العلم وانما على معتقدات ما وراء الطبيعة الجامدة • وفي البلدان البرجوازية المعاصرة تسعى اللامعرفية إلى نسف ثقة الطبقة العاملة بامكانية معرفة شروط تحررها من العبودية الرأسمالية وبالتالي بامكانية تحطيم قيود هذه العبودية عملياً •

لقد كشف غوركي بوضوح المعنى الاجتماعي لهذه الدعوة في هذا المقطع من مذكراته :

« تعيش في العالم فكرتان : واحدة تنظر بجرأة في ظلام الحياة الغامضة وتسعى إلى حل هذا الغموض • والثانية تعترف بأن هذه الاسرار لا تُفسر وتعبدها خوفاً منها •

(١) كانت اللامعرفية في الماضي تظهر احياناً كشكل خجول من اشكال المادية • فبعض دارسي الطبيعة في انكلترا في القرن التاسع عشر (هيكسلي وغيره) الذين خافوا أن يعلنوا ماديتهم تحت تأثير الانذارات البرجوازية ، ارتدوا لبوس اللامعرفية •

الأولى لا تؤمن بوجود ما لا تمكن معرفته وانما تؤمن بوجود غير المعروف ، والثانية تؤمن بأن العالم مجهول إلى الابد •

الأولى تسير عبر ظواهر الوجود ، وتعرض دون وجل إلى كل ما يصادفها في طريقها الصعب ، وتشدد من عزيمتها باستمراره ، وترغم حتى الحجارة الصماء على أن تروي قصة بدء الحياة بأسلوب بليغ • والثانية تندفع هالعة من جانب إلى جانب محاولة في فشل أن تجد تبريراً لوجودها •

— هل أنا موجودة؟ — تسأل نفسها ، في حين أن الأولى تقول :

— أنا - أفعل !

الأولى تهب نفسها في أحيان كثيرة إلى آلام الشك في قوتها ، ولكن صقيع الشك لا يفعل سوى أن يقويها فتهد من جديد لترى غاية الوجود في العمل ؛ والثانية تعيش باستمرار في الخوف أمام ذاتها ويبدو لها أن هناك شيئاً ما عداها أرقى منها - بداية من جنسها ولكنها معادية لها ، وتحفظ سر الوجود بصورة مرعبة •

هدف الأولى - الحركة الدائمة من حقيقة إلى أخرى وعبر كل الحقائق إلى الاخيرة مهما كانت ؛ وهدف الثانية أن تجد في عالم الحركة الازلية والاتجاهات الدائمة نقطة مينة لتثبت عليها فكرة جامدة وتفيد روح البحث والنقد. بسلاسل الأيحاء الحديدية •

احدهما - تفلسف جأ بالحكمة وهي المؤمنة بقوتها بطولة ، والأخرى تفكر بخوف آملة أن تنصر على الخوف •

الفكرتان حرتان - احدهما ككل طاقة ، والثانية كالكلب المتشرد ، يعوي أمام كل باب يحس الدفء والهدوء والراحة الرخيصة خلفه •

وكثيراً ما تلتصق هذه الفكرة الثانية بجدران المعابد متوسلة لتجلب الانتباه إليها - متوسلة إلى الخوف الذي ابتدعه هي نفسها •

انها هي التي تتفسخ فتنتف في الأرض سنومها وتنفت القنوط ، أما الفكرة الأولى فتزين العالم بمعطيات العلم والفن ،^(١) .

ان تاريخ الفلسفة ، منذ القدم حتى يومنا ، هو تاريخ النضال بين المادية والمثالية . وقد جرى النضال بينهما ويجري حامي الوطيس ، الأمر الذي يبرهن على مدى علاقة الفلسفة بالمصالح الحياتية للناس . وفي كتاب « المادية ومذهب النقد التجريبي » المكرس للدفاع عن النظرة المادية إلى العالم وللنضال الدائب ضد الفلسفة المثالية الرجعية ، عرف لينين المادية والمثالية على انهما اتجاهان في الفلسفة ؛ وأكد لينين على أن الفلسفة الحديثة متحزبة أيضاً كما كانت الفلسفة لألفي سنة مضت . والاتجاهان المتصارعان، هما في جوهر الامر، المادية والمثالية ، ونضالهما في نهاية المطاف يعبر عن ميول واتجاهات الطبقات الاجتماعية المتصارعة فيما بينها .

ولم يكن النضال بين المادية والمثالية علنياً دائماً حيث يعلن الفلاسفة ، بصراحة ، انتماءهم إلى هذا المعسكر أو ذاك . فقد كانت في تاريخ الفلسفة وتوجد في عصرنا الحاضر محاولات كثيرة تسعى بجبن إلى تجنب المادية والمثالية وايجاد خط ثالث مزعوم في الفلسفة لا هو مادي ولا مثالي . ولكن هذه المحاولات غير مجدية . وهي تؤدي إلى الاكليكتية^(٢) أو (الانتقائية) أو الى مثالية مموهة يعبر عنها باصطلاحات جديدة . وهذا نموذجي بصورة خاصة للفلسفة البرجوازية المعاصرة . وهناك في الفلسفة البرجوازية المعاصرة اتجاهات تدافع ، إلى هذا الحد أو ذاك من العلنية، عن المثالية واللاهوت (الذريون الجدد - مثلاً - أحدث المدافعين عن نظرية فوما اكويفسكي ، ايدولوجي الكاثوليكية) . ولكن هناك عدداً أكبر من الفلاسفة الذين يعلنون أنهم ليسوا ماديين ولا مثاليين . فالوضيعون ، مثلاً ، ينفون الفلسفة قولاً ، ويعلنون أنهم لا يعترفون إلا بالمعرفة الوضعية الايجابية . ويزعم الكثير من الفلاسفة البرجوازيين أن الروح

(١) م . غوركي : المؤلفات الجزء ١٤ ، ١٩٥١ الصفحة ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) هكذا يسمى الجمع الآلي اللامبدي بين آراء وتيارات واتجاهات فكرية مختلفة .

والمادة ان هما إلا كلمتان بلا معنى ، ولذا فان الفلسفة عموماً لا يجب أن تدرس مسألة العلاقة بينهما • وفي رأيهم ليست مسألة العلاقة بين الوجود والوعي مسألة الفلسفة الاساسية • وهي إلى جانب ذلك مسألة لا تستحق حتى اهتمام الفلاسفة وهي بلا موضوع •

إلى أين يمضي هؤلاء الفلاسفة ، في هذه الحالة ، بموضوع الفلسفة ؟ ان أحد مؤسسي ما يسمى بالوضعية المنطقية أو الوضعية الجديدة الفيلسوف الانكليزي المعروف « ب. راسل » يعلن بأن الفلسفة لا تستطيع أن تعطي أية معرفة جديدة عن العالم وتنحصر مهمتها في أن تعطي التحليل المنطقي للمعرفة العلمية ؛ لذا فان المنطق الذي ينظر اليه كعلم شكلي ، هو جوهر الفلسفة • وهذا الموقف يعني محاولة الابتعاد عن المسألة الرئيسية ، مسألة النظرة إلى العالم •

ويعتبر ممثل آخر من ممثلي الوضعية الحديثة هو « كارناب »، أن التحليل المنطقي هو في أساسه تحليل للغة ، وان المنطق هو علم اللغة • ومهمة الفلسفة هي في النهاية التحليل المنطقي للكلمات والجمل وما شابه ذلك • ويجب على الفيلسوف أن يفهم مرة واحدة وإلى الأبد انه لا يمتلك الوسائل للاجابة على الاسئلة المتعلقة بالعالم « ••• » يقول « كارناب » ان مسائل الفلسفة لا تمت بصلة إلى الطبيعة النهائية للوجود ، وانما إلى بناء المعاني في لغة العلم بما في ذلك الجزء النظري للغة المتداولة «⁽¹⁾» • وهكذا فان الوضعيين الجدد يعتبرون ان الهدف الوحيد للفلسفة هو التحليل المنطقي للمفاهيم والاصطلاحات العامة وان الفلسفة ، خلافاً للعلم ، لا تؤكد الحقائق وانما تعلم فقط كيف يتم التعبير عنها •

إن وجهة النظر هذه تعني محاولة حرمان الفلسفة من موضوع دراستها الحقيقي • فالفلسفة كانت تعالج دائماً ، على هذا النحو أو ذاك ، مسائل جوهر العالم والعلاقة بين الفكر والواقع الموضوعي باعتبارها مسائلها الاساسية • ولكن

(1) R. Carnap. Introduction to Semantics. U.S.A. 1946 p. 250.

شتى أنواع الوضعيين ، اذ يحاولون الهرب من حل هذه المسائل، الاساسية في النظرة إلى العالم ، ويتهربون بجبن من الصراع بين المادية والمثالية، لا يستطيعون، في الواقع ، ان يبقوا بعيداً عن هذا الصراع . انهم ينفون امكانية معرفة العالم الموضوعي ويطرحون جانباً مفهوم الوجود الموضوعي ذاته ، وبذلك يتفنون إلى جانب المثالية الذاتية .

ويلتقي مع الوضعيين في هذا الموقف اتجاه آخر من الفلسفة البرجوازية المعاصرة هو الوجودية . والوجوديون لا يعترفون بالوجود الموضوعي لا كأساس ولا كموضوع ، لها . ومسألة العلاقة بين التفكير والوجود هي ، على حد تعبير الفيلسوف الوجودي الفرنسي « كامو » مسألة « بلا معنى » إلى حد عميق ، و « فارغة » كآية مسألة علمية ، مثل مسألة دوران الارض حول الشمس أو بالعكس . ان الشيء الوحيد الذي له معنى هو « الوجود » الذي يفهم منه الوجود الشخصي الفردي لد « أنا » ، « أنا كما أبدو لنفسي » . ولدى هذه الذاتية تنقلب الفلسفة كلها إلى أخلاقية فردية ، إلى نفسية ذاتية ، وتفسر هذه الأخيرة بروح الانانية . وسمي الوجودي الألماني الغربي « ياسيرز » فلسفته بـ « النظرة النفسية إلى العالم » . وهو اذ ينسف الثقة بقوى العقل الانساني والتفكير المنطقي ، يدعو اتباعه إلى أن يلاحظوا نفسية روحانية، ويسألوا بنفسية روحانية ، ويحللوا بنفسية روحانية ، ويتعلموا التفكير بنفسية روحانية⁽¹⁾ .

ولكن ماذا يعني رفض الاعتراف بالوجود الموضوعي ورفض الاعتراف بامكانية معرفة الوجود ومعرفة الحقيقة الموضوعية ؟ ان هذا يعني الدفاع عن خط المثالية .

ومهما سعى الفلاسفة البرجوازيون المعاصرون إلى التهرب من حل المسألة الاساسية في الفلسفة وإلى الوقوف بعيداً عن المادية والمثالية والتعالوي عنهما ، فان هذا غير ممكن . وهم مضطرون ، على هذا النحو أو ذاك ، رغم أن ذلك لا يكون صريحاً دائماً ، إلى الاجابة على مسألة وجود أو عدم وجود عالم

(1) K. Jaspers : Psychologie der Weltanschauungen. Berlin 1954 S6.

موضوعي مستقل عن وعينا وكيف يقف تفكيرنا من العالم المحيط بنا • ان كل الاتجاهات الفلسفية المتنوعة تلتحم في التالي اما بمعسكر المادية واما بمعسكر المثالية •

ان العصر الحاضر هو عصر النضال الحاد بين قوى الاشتراكية النامية والرأسمالية المحتضرة • وهذا النضال ليس اقتصادياً وسياسياً فحسب ، وانما هو ايدولوجي أيضاً وهو يلاقي تعبيره في مسائل النظرة إلى العالم • واذا كانت القوى الرجعية تتسلح بالفلسفة المثالية واللاهوت ، فان سلاح الطبقة العاملة الفكرية وسلاح طليعتها الشيوعية هو المادية الديالكتيكية • ولا توجد ولا يمكن أن توجد فلسفة فوق الطبقات في المجتمع الطبقي • ويجدر بنا تذكّر ذلك ، خاصة عندما يحتدم النضال الفكري بين قوى التقدم والرجعية • ويقود الكثير من الرجعيين في البلدان الرأسمالية ، بما في ذلك رجال الدولة ، هجوماً شرساً ضد الماركسية والعلمانية والشيوعية • ولا يتحاشون أثناء ذلك الافتراء المفضوح على الشيوعية المادية • وكم يظهر هنا الجهل المتعالي ! انهم ، اذ يرغبون بالقضاء على المادية بأي ثمن ، يعلنون أن الشيوعيين أناس اجلاف يفضلون الخيرات المادية على الروحية •

وهذه التصورات الجاهلة الحمقاء عن الشيوعية والمادية ليست جديدة • لقد سخر منها انجلز في كتابه « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » • ان البرجوازي الألماني المترهل « يفهم من المادية النهم إلى الطعام والسكر والتبجح واللذائذ الجنسية والجشع إلى النقود والبخل والفسق والركض وراء البورصة والقمار ، وباختصار - كل تلك الرذائل التي يستسلم لها في السر • أما المثالية فتعني بالنسبة له الايمان بالفضيلة وحب الانسانية جمعاء • وبشكل أشمل الايمان «بعالم أفضل» ، وهو ما يصرح به الآخريين ولا يؤمن به إلا عندما يحس بالصداع بعد سكرة شديدة أو عندما يفلس •»^(١) •

والاسلوب المحب لايدولوجي البرجوازية في مجال دحض المادية

(١) ف • انجلز : « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » ١٩٥٥ الصفحة ٢٥ •

الماركسية هو مطابقتها مع المادية العامة التي كانت في منتصف القرن التاسع عشر ، أو مع المادية الميكانيكية في القرنين ١٧ - ١٨ . في حين أن الفلسفة الماركسية هي مادية حديثة تختلف كثيراً عن سائر أشكال المادية التي كانت قبل ماركس .

ان ضعف المدارس المادية السابقة هي في كون طرق تفكيرها ميتافيزيكية في الغالب ؛ وهي لم تكن مسلحة بطريقة المعرفة الصحيحة ، الطريقة الديالكتيكية .

والطريقة الميتافيزيكية^(١) هي ذلك الموقف من معالجة الموضوع حيث الأشياء وظواهر الطبيعة تعالج بعيداً عن علاقاتها المتبادلة العضوية . وهذه الطريقة تعكس من جانب واحد بعض صفات الواقع : تلاحظ ثبات الأشياء النسبي متجاهلة تطورها ، وتأخذ العناصر منفصلة ناسية الوحدة التي تشكلها هذه العناصر .

والطريقة الثانية المقابلة للطريقة الميتافيزيكية هي الديالكتيكية^(٢) . وهي تعالج الأشياء والظواهر وانعكاسها في العقل والمفاهيم في علاقاتها المتبادلة وحركتها - في نشوئها وتطورها المتناقض واختفائها . وعدم معرفة الديالكتيكية كانت الضعف الخطير في بعض مدارس الماضي المادية^(٣) . وقد أعاقت هذه المدارس

(١) لكلمة « ميتافيزيكا » في تاريخ الفلسفة معان مختلفة ، فقد كانت الكلمة (من اليونانية ميتافيزيكا حرفياً ما بعد الفيزياء) تعني في البدء مؤلفات أرسطوطاليس التي وضعها بعد مؤلفاته في الفيزياء . بما أن أرسطوطاليس بحث في مؤلفاته هذه « بدايات الوجود التي تتوصل اليها عزو طريق العقل » فقد أصبح اصطلاح « ميتافيزيكا » يطلق على كل تعاليم فلسفية عن هذه « البدايات » عادة كأشياء ثابتة لا تتغير . ثم فيما بعد (منذ عهد هيجل) أصبحت كلمة ميتافيزيكا تطلق على منهج المعرفة المضاد للديالكتيك والذي ينظر الى العالم والأشياء والظواهر على أنها ثابتة لا تتطور .

(٢) كلمة : ديالكتيك من اليونانية دياليغوماي بمعنى : أتبادل أطراف الحديث . وكان يفهم من كلمة ديالكتيك في القديم فن التوصل الى الحقيقة عن طريق اصطدام الافكار المتضادة .

(٣) من بين ماديي الماضي كانت هناك فئة تتمتع بنظرة مادية للعالم تمتزج بطريقة ديالكتيكية ساذجة لمعرفة العالم ، أو تمتزج بعناصر الديالكتيك (نذكر هنا من الفلاسفة القدماء الفيلسوفين ميرقليط وايفيس (القرن الخامس قبل الميلاد) والفيلسوف ديدرو وغيره من فلاسفة العصور الحديثة . بيد أن عناصر الديالكتيك الساطعة التي نصادفها لديهم لا تؤلف بعد منهجاً ديالكتيكياً علمياً . ولم يوضح هذا النهج الا على أيدي ماركس وانجلز .

عن تطبيق نظرتها المادية تطبيقاً منسجماً • وقد ظهر هذا بشكل خاص في فهم ظواهر الحياة الاجتماعية التي كانت تفسرها تفسيراً مثالياً •

لقد تغلب ماركس على ضيق أفق المادية القديمة وأغنى المادية بالديالكتيكية - أشمل وأعمق نظرية عن التطور •

ان الطريقة الديالكتيكية العلمية للمعرفة هي طريقة ثورية لأن الاعتراف بأن كل شيء يتبدل ويتطور يؤدي الى نتائج تحتم دمار كل ما هو قديم يعيق التقدم التاريخي • وهذا بالذات ما جعل الديالكتيك الماركسي موضع حقد ايدولوجيي البرجوازية • وفي الكلمة الملحقة بالطبعة الثانية من « رأس المال » لاحظ ماركس في معرض وصفه لطريقته : « ان الديالكتيك في شكله العقلاني لا يبعث في نفوس البرجوازية وايدولوجيها إلا الغضب والرعب لأنه يشتمل إلى جانب الفهم الوضعي لما هو قائم فهم نقضه وحتمية زواله • وهو ينظر إلى كل شكل متحقق في حركته ، وبالتالي ، ينظر إلى الجانب الزائل منه ، وهو لا ينحني أمام شيء ، وهو في جوهره نقدي وثوري^(١) » •

وبفضل صياغة الطريقة الديالكتيكية العلمية ارتفعت المادية إلى درجة أرقى • وواصل مؤسس الماركسية ، كارل ماركس وفريدريك انجلز ، التطوير الذي دام قروناً للخط المادي في الفلسفة ، وخلقاً إلى جانب ذلك نظرة جديدة تماماً إلى العالم ، هي المادية الديالكتيكية حيث الطريقة الديالكتيكية للمعرفة متحدة عضوياً بالتفسير المادي للظواهر ليس فقط في الطبيعة وانما في المجتمع أيضاً •

٢- علاقة الفلسفة بالعلوم الاخرى

موضوع الفلسفة الماركسية

ان المادية الديالكتيكية هي الفلسفة الوحيدة التي تعتمد على أساس وطيدي بين سائر العلوم الحديثة •

(١) ماركس : رأس المال الجزء ١ ، ١٩٥٥ الصفحة ٢٠ •

ان الكثير من الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين لا يضعون الفلسفة في مصاف العلوم الاخرى • بل وينظر اليها بعضهم على انها حلقة الوصل بين الدين والعلم • ويؤكدون أن رسالتها هي « توحيد نتائج العلوم الحسية ومبادئ الاخلاق والدين » • أو يعدونها شيئاً وسطاً بين العلم والبيولوجيا (علم الروحانيات) • يقول راسل في « تاريخ الفلسفة الغربية » : « ان الفلسفة في مفهومي هي شيء ما وسط بين البيولوجيا والعلوم • فهي من ناحية تشبه البيولوجيا فتبحث في المسائل والعلاقات التي لما تُعرف معرفة دقيقة حتى الآن ؛ ولكنها من ناحية أخرى تشبه العلم ، فهي تعتمد على العقل الانساني أكثر مما تعتمد على المسلمات التي لها جذورها في التقاليد وغيرها • ان كل معرفة دقيقة ، وهذا ما أو من به تماماً ، هي من صنع العلم ؛ أما ما يتعلق بالمسلمات في الأمور التي تخرج عن نطاق المعرفة الدقيقة فهو يخص البيولوجيا • ولكن بين البيولوجيا والعلم أرض محايدة هي الفلسفة»⁽¹⁾ • ان هذا التعريف ينطبق في الواقع على الفلسفة المثالية البرجوازية المعاصرة التي لا تتميز كثيراً في محتواها عن الدين وتأخذ من العلم شكل تفكيره فقط • ان راسل محق هنا • ولكنه يخطئ خطأ عميقاً عندما يعمم هذا التعريف على كل فلسفة • فهناك فلسفة علمية أصيلة ، استنتاجاتها وطرقها في المعرفة علمية، ولا تتفق مع اللاهوت، تماماً ، كمعطيات الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والى آخر ما هنالك • وهذه الفلسفة هي المادية الديالكتيكية ، نظرة الطبقة العاملة إلى العالم •

لقد نشأت المادية الديالكتيكية نتيجة التطور التاريخي للفلسفة والعلوم الحسية • وفي عملية تطور الفلسفة تبدل مفهوم موضوع ومهام الفلسفة ومكانها بين العلوم •

نشأت الفلسفة في العالم القديم كمجموعة من المعارف الشاملة • وكان الناس قد حصلوا على بعض المعارف الرياضية والفلكية والفيزيائية وغيرها ، ولكن هذه المعارف لم تكن قد توضع في علوم خاصة مستقلة وانما كانت داخلة

(1) B. Russell, A History of western Philosophy. N. Y. 1945, p. XIII .

انظر الترجمة الروسية : ب راسل • تاريخ الفلسفة الغربية ، منشورات دار الادب الاجنبي،

• ١٩٥٩ الصفحة ٧ •

في الفلسفة • وكثيراً ما كانت تسمى مؤلفات الفلاسفة القدماء : «حول الطبيعة» ،
« حول الكون » ما شابه ذلك • ولم تكن الدراسة في هذه المؤلفات تقتصر على
المسائل الفلسفية وانما كانت تدرس الكثير من المسائل المتخصصة كمنشأ النبات
والحيوان والانسان وظهور اللغة وأشكال الحياة الحكومية وذلك ذلك • وفي
هذه المؤلفات نجد الكثير من التنبؤات العبقريّة التي بشرت بتطور العلم اللاحق •
هكذا كانت ، مثلاً فكرة تكون الجسم من ذرات ، وهي الفكرة التي طرحتها الفلسفة
القديمة قبل الفي عام من اثبات علم الطبيعة بالتجربة نظرية البناء الذري
للأجسام • ان الفلسفات المادية القديمة قد طرحت منذ ذلك الحين نظرية خلود
المادة وانها لا تفتنى ولا تخلق ؛ وقد لاقت هذه النظرية مؤخراً الدعم العلمي •
وفي بداية تطور الفلسفة تكونت إلى جانب النظرة المادية البدائية الساذجة
العفوية إلى العالم ، وبصورة عفوية أيضاً ، الطريقة الديالكتيكية في معرفة العالم •
ان فكرة كل شيء يتحرك « كل شيء يجري ، كل شيء يتبدل » وهو
موجود في علاقة متبادلة مع غيره ، قد نشأت نتيجة لملاحظة ظواهر الطبيعة
والمجتمع • ولكن هذا الامر كان معرفة ، أو ، على الأصح ، تخميناً لما هو شامل ،
ولم يكن قائماً على دراسة تفصيلية للظواهر الجزئية ، أي الاشياء والظواهر
المنفردة • وفي هذا تنحصر المحدودية التاريخية التي اتصفت بها مادية العالم القديم •
ولا بد من الانتقال من النظرة البدائية الشاملة إلى العالم التي اشتملتها
النظريات الفلسفية التقدمية في العصر القديم إلى البحث العلمي للاشياء المنفصلة
وعمليات الطبيعة • وأصبح هذا ضرورياً بصورة خاصة عندما تطلب تطور
الاتاج تطبيق العلوم في التكنولوجيا • وقد ارتبط بهذا نشوء العلوم التي
كانت تخدم حاجات النشاط العملي الاجتماعي • فأخذت العلوم
الطبيعية تنفصل ، علماً اثر علم ، عن الفلسفة : لقد انفصلت منذ القدم
علوم الفلك والرياضيات والميكانيك • وتسارعت هذه العملية منذ عصر النهضة
وخاصة في القرن السابع عشر • فلم يعد باستطاعة تطور الاتاج أن يحدث بدون
علم الطبيعة • واعطت حاجة الاتاج دفعة إلى أمام في نشوء علوم قائمة على
البحث التجريبي في الطبيعة كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وغيرها بعد ذلك •

كانت علوم تلك الفترة تقوم ، في الغالب ، بجمع الوقائع وتصنيفها وتبويبها أي بدراسة ما هو جزئي • أما العلاقة بين مختلف مجالات المعرفة فقد حاولت الفلسفة إقامتها • كتب انجلز في معرض وصفه لحالة المعارف في ذلك العصر : « كانت فكرة الموسوعة فكرة نموذجية في القرن الثامن عشر ! وكانت تسيطر على الوعي فكرة كون هذه العلوم جميعاً مترابطة فيما بينها ولكنها لم تكن قادرة على الانتقال من علم إلى آخر ، بل انها كانت تكتفي بوضع هذه العلوم جنباً إلى جنب »^(١) •

وقد حاولت الفلسفة توحيد هذه العلوم وربطها في نظام واحد • وكثيراً ما كانت العلوم المنفصلة تعالج كأجزاء من الفلسفة • وظهرت الفلسفة كموسوعة من نوع خاص للمعارف الانسانية وطمحت إلى القيام بدور « علم العلوم » • كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت في القرن السابع عشر في مقدمة كتابه « بداية الفلسفة » : « الفلسفة كلها تشبه الشجرة التي جذورها - ما وراء الطبيعة (الميتافيزيك - المترجم)^(٢) وجذعها - الفيزياء ، وغصونها المتفرعة عن هذا الجذع - كل العلوم الاخرى التي تنقسم إلى ثلاثة فروع رئيسية وهي : الطب والميكانيك والاخلاق »^(٣) •

كان لطموح الفلسفة إلى القيام بدور « علم العلوم » مبرراته حين كانت معرفة الطبيعة على أساس التجربة ماتزال ضعيفة • فقد بقيت في وعي الانسان ثغرات كثيرة وكان على الفلسفة أن تسدها • فالمسائل العامة لعدة علوم ، تلك المسائل التي لم يكن بالإمكان حلها عن طريق التجربة ، كانت تحل فكراً ، أي عن طريق المحاكمات المنطقية • إلا ان هذا خلق ، إلى جانب التنبؤات العبقريّة ، كثيراً من الاوهام التي أعاقت تطور علوم الطبيعة •

وبقدر ما كانت العلوم المنفصلة تتدعم على قاعدة المعرفة التجريبية الصلبة ، كانت تنفصل عن الفلسفة وتنال استقلالها • وكان هذا تقدماً ليس فقط للعلوم

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ ، ١٩٥٥ الصفحة ٥٩٩ •

(٢) يطلق ديكارت اسم « ميتافيزيك » على علم بداية الوجود والمعرفة •

(٣) ر • ديكارت ، مؤلفات مختارة • دار النشر الحكومية ، ١٩٥٠ الصفحة ٤٢١ •

الحسية وانما للفلسفة ذاتها أيضاً ، لأنه حثها على رفض المهمة التي لا يمكن تحقيقها وهي أن تحل محل العلوم الأخرى جميعها .

وفي القرن التاسع عشر ، وبفضل اكتشافات العلوم الطبيعية ، تقدمت تقدماً كبيراً معرفة العلاقات المتبادلة بين العمليات الجارية في الطبيعة ، وليس فقط العلاقات بين العمليات الطبيعية في مجالات منفصلة ، وانما أيضاً العلاقات بين المجالات المختلفة التي تدرسها علوم مختلفة . وبمساعدة معطيات علوم الطبيعة ظهرت امكانية اعطاء صورة شاملة للطبيعة ككل مترابط : وبما ان كل علم أصبح قادراً الآن على اظهار مكانه في منظومة المعرفة الشاملة فان فلسفة الطبيعة لم تعد ذات موضوع ، تلك الفلسفة التي حاولت أن تنشئ صورة الطبيعة الشاملة عن طريق التفكير المجرد . ان التطور المائل في العلوم الاجتماعية وخاصة وضع ماركس وانجلز لنظرية تطور المجتمع - المادية التاريخية ، قد جعل فلسفة التاريخ غير لازمة ، تلك الفلسفة التي كانت سابقاً ، وحاولت عن طريق التفكير المجرد ، أن تعطي صورة مترابطة لتاريخ الانسانية واستبدلت العلاقة الواقعية بين ظواهر التاريخ بملاقة مختلقة .

ان نشوء الفلسفة الماركسية في الأربعينيات من القرن التاسع عشر عنى نهاية الفلسفة القديمة التي طمحت إلى القيام بدور « علم العلوم » . وقد اعترفت الماركسية علناً بأن الفلسفة التي تحاول الوقوف فوق العلوم غير لازمة . وكما أكد إنجلز فان المهمة ليست اختلاق العلاقات بين الظواهر وانما كشف العلاقات والقوانين في الواقع نفسه . ان الفلسفة الماركسية - كما يقول إنجلز هي - « نظرة إلى العالم مدعوة لاثبات نفسها واظهار نفسها لا كعلم خاص للعلوم وانما في العلوم الواقعية » (١) .

ان العلوم المعاصرة هي نظام للمعرفة متعدد الفروع كثيراً . فلو أخذنا أي مجال لظواهر العالم المحيط بنا لوجدناه يدرس من قبل علم خاص من العلوم . ترى ما الذي يبقى في هذه الحالة من نصيب الفلسفة ؟ ألا يذكر وضعها بين العلوم

(١) ف . إنجلز : « ضد دوهرينغ » ، ١٩٥٧ ، الصفحة ١٣٠ .

بالوضع المحزن للملك « لير » (شكسبير) الذي قسم مملكته بين بناته وبقي بدون أملاك ؟

كلا ، ان هذا الاستاج غير صحيح • فبزوال الفلسفة القديمة « كعلم العلوم » لم تفقد الفلسفة موضوعها الخاص • ان الفلسفة تدرس ذلك العالم الذي تدرسه العلوم المتخصصة • ولكنها تتعرف على علاقات وروابط أشمل من العلوم المتخصصة التي تدرس هذا المجال المنفصل أو ذاك من الظواهر • ان تطور العلوم الخاصة لم يقض على ضرورة حل المسائل الجذرية للنظرة إلى العالم ، تلك المسائل التي كانت الفلسفة تدرسها دائماً • لقد أكد لينين أكثر من مرة في كتاب «المادية ومذهب القدر التجريبي» ان المسألة الفلسفية الجذرية هي مسألة أولوية المادة أو الوعي ، وأيهما يعتبر مصدراً لمعرفتنا • وهذه المسألة التي تدخل في كل نظرة إلى العالم لا يمكن أن تخلط بتلك المسائل المحددة التي تحلها الفيزياء والكيمياء والعلوم الأخرى • وعارض لينين بحزم محاولات الماخيين خلط « ••• » دراسة هذا البناء أو ذاك للمادة بالمفهوم المعرفي - خلط مسألة الصفات الجديدة والأشكال الجديدة للمادة (الالكترون مثلاً) بمسألة نظرية المعرفة القديمة ، المسألة التي تبحث مصادر وعينا ووجود الحقيقة الموضوعية وما شابه ذلك « (١) •

يقول لينين : إن مسألة الاعتراف بوجود المادة كمصدر موضوعي لأحاساساتنا هي بالذات مسألة معرفية ليست فيزيائية و كيميائية (٢) • وتعد من المسائل المعرفية مسألة علاقة الوعي بالمادة ولأيهما الأولوية ؟ وهل احساساتنا وتصوراتنا ومفاهيمنا انعكاس للعالم الموضوعي ؟ وفي أي الظروف يكون هذا الانعكاس حقيقة موضوعية ؟ وما هو مقياس الحقيقة ؟ وما هي المادة ؟ وما هي أشكال وجودها ؟ وهكذا دواليك •••

ان تطور علوم الطبيعة والمجتمع حرر الفلسفة من مهام دراسة القوانين الخاصة • فكل علم متخصص يبحث قوانين هذه الأشكال أو تلك من الحركة:

(١) لينين • المؤلفات • الجزء ١٤ الصفحة ١٦ •

(٢) المصدر نفسه الصفحة ٢٥٨ •

الميكانيك - قوانين الحركة الميكانيكية وانتقال الاجسام ، والكيمياء - حركة واتحاد الذرات وهكذا . . . ، والبيولوجيا - قوانين تطور الاجسام الحية ، والعلوم الاجتماعية - قوانين تطور هذه العمليات والظواهر أو تلك في الحياة الاجتماعية .

وإذا كانت العلوم المتخصصة تدرس هذه المجالات والجوانب أو تلك من ظواهر العالم، فإن المادية الديالكتيكية تكشف عن الاساس الشامل لكل الظواهر والعمليات . انها تُعرِّفُ بتلك القوانين الشاملة التي تخضع لها كل حركة وتطور في أي مجال من الظواهر كانت : في الطبيعة والمجتمع أو في التفكير الانساني .

ان العالم واحد لأن كل الظواهر فيه عبارة عن أشكال مختلفة من المادة المتحركة . فتؤثر فيه ، لا القوانين الجزئية فقط وإنما قوانين التطور الشاملة أيضا . ان القوانين الشاملة حقيقية بقدر ما هي عليه القوانين الجزئية .

ان المادية الديالكتيكية تدرس أشمل القوانين التي تعمل في العالم كله وكذلك تدرس انعكاسها في معرفة الانسان . ان القنونات الشاملة لتطور المعرفة لا تدرس من قبل أي علم متخصص وإنما تدخل في موضوع دراسة الفلسفة .

ما هي العلاقة بين القوانين الشاملة لتطور العالم الموضوعي وقوانين تطور المعرفة ؟

كما سبق وقلنا فإن معرفة الانسان تعكس العالم الموضوعي . ولذا فإنها لا تستطيع أن تتطور حسب قوانين تتميز كلية عن قوانين تطور العالم ذاته . وعندما يفكر الانسان حسب قوانين المنطق ، منطلقاً من مقدمات صحيحة ، فإنه يصل إلى نتائج تتطابق مع الواقع . وهذا يبين أن التفكير والواقع خاضعان ، في الجوهر ، لذات القوانين الشاملة .

ان المادية التاريخية تدرس العالم كما هو موجود ، أي بتبدله وتطوره الدائمين . وإذا كانت كل الاشياء تتطور فإن هذا يشمل أيضاً المفاهيم التي تعكسها .

ان كل علم يستخدم مفاهيم شاملة تترابط فيما بينها منطقياً • والرابطة المنطقية وانسجام المفاهيم في العلم يظهران كانعكاس معمم للتطور التاريخي للواقع ذاته ، ولتطور المعرفة •

وعلى سبيل المثال ، يبدأ ماركس في « رأس المال » تحليل الرأسمالية بدراسة مفهوم السلعة ، فيكشف عن تناقضات السلعة وتطور هذه التناقضات ، ويبين ان التطور الديالكتيكي لهذه التناقضات يؤدي إلى تشكل النقد ، ويظهر كيف ان النقد يتحول إلى رأسمال • هذه العلاقة المنطقية للمفاهيم (سلعة - نقد - رأس مال) - ليست بناءً فكرياً وانما هي انعكاس معمم للعملية التاريخية لتطور الرأسمال • ومن المعروف أن السلعة لا تسبق رأس المال في الظهور منطقياً بل وتاريخياً أيضاً ، والانتاج الرأسمالي يتولد من الانتاج السلعي •

ان المقولات الفلسفية ، على خلاف مقولات العلوم المتخصصة ، الاقتصاد السياسي مثلاً (السلعة ، النقود ، رأس المال وغير ذلك) - هي أكثر المفاهيم عمومية تستخدم في كل علم • فلا يوجد عالم ، سواء كان عالم طبيعة أو تاريخ أو أدب ، يستطيع أن يستغني عن مفاهيم شاملة مثل مفاهيم ! قانون ، قوّة ، تناقض ، جوهر وظاهر ، سبب ونتيجة ، ضرورة وصدفة ، محتوى وشكل ، امكانية وواقع وهكذا دواليك ••• ان المفاهيم الفلسفية أو المنطقية تعبر عن أشمل الروابط بين ظواهر الواقع ، وهي تمثل ، في الوقت نفسه ، درجة معرفة العالم وتخدم كسلاح للتفكير ، وتعمم التجربة التاريخية لدراسة الانسان للعالم •

ومن المفهوم انه لا يمكن احلال دراسة المقولات المنطقية محل دراسة العمليات الحسية • ان الفلسفة الماركسية اللينينية هي مرشد لمعرفة شتى مجالات الواقع ، ولكنها لا تحل محل العلوم المتخصصة ، وهي لا تعطي حلولاً جاهزة لتلك المسائل التي تدرسها العلوم المتخصصة ، وانما تسلح كل العلوم بالنظرية الصحيحة للتفكير ، وبطريقة ايجاد حلول لها •

ان للطريقة الصحيحة أهمية كبيرة من أجل معرفة الواقع • وقد شبه الفيلسوف الانكليزي المادي الشهير «ف • بيكون» في القرن السابع عشر الطريقة بالمصباح الذي ينير الطريق للسائر • فالعالم الذي لا يمتلك الطريقة الصحيحة هو كالسائر الذي يهيم في الظلام متمسكاً بالطريق •

ولكن ما هي الطريقة التي يجب أن نعتبرها صحيحة ؟ أليس هناك اختيار بين هذه الطريقة أو تلك حسب ذوق العالم ، كما يستطيع السائر الموشك على الانطلاق أن ينتقي برغبته هذا المصباح أو ذاك ؟

كلا ، ان الطريقة الصحيحة للمعرفة لا يمكن أن تكون نتيجة للانتقاء الذاتي • ان طريقة المعرفة ليست جمعاً بسيطاً لعدد من الاساليب التكنيكية والعادات في البحث ؛ انها يجب أن تكون مماثلة للواقع ، أي انعكاساً لقوانين العالم الموضوعي •

ولكي تكون الطريقة علمية أصيلة ، أي لكي نخدم الطريقة كوسيلة للحصول على معارف صحيحة ، يجب أن تقود فكر الانسان بشكل مواز لتلك الطريق التي يسير فيها تطور الواقع المدروس ذاته • ويجب أن تعكس الطريقة تلك العلاقات بين الظواهر الموجودة فعلاً ، وأن تعبر عن تبدلات الموضوع ، تلك التبدلات التي تطرأ عليه في الواقع •

ان الطريقة العلمية للمعرفة تستند ، بالتالي ، إلى تطبيق أشمل قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير في مجال المعرفة • وتعطي المادية الديالكتيكية معرفة هذه القوانين • كتب انجلز يقول : «... ان الديالكتيك بالذات هو أهم شكل من أشكال التفكير بالنسبة لعلم الطبيعة المعاصر ، لأنه هو وحده المائل لعمليات التطور الجارية في الطبيعة وللروابط الشاملة فيها ، وبذا يكون طريقة تفسيرها والانتقال من مجال بحث إلى مجال بحث آخر » (١) •

ان المادية الديالكتيكية هي نظرة إلى العالم وطريقة للمعرفة والعمل ، وهي

(١) انجلز - ديالكتيك الطبيعة ١٩٥٥ الصفحة ٢٢ •

تسلح علماء سائر مجالات المعرفة بنظرية كاملة ومنسجمة وعلمية للتفكير وبأشمل طريقة للبحث . ان الفصل بين الفلسفة والعلم يعني الحكم على العلماء بأن يقوموا بعملهم العظيم في معرفة الواقع على نحو عشوائي ، وعن طريق التلمس وبدون أفكار عن العالم موجهة طرائقية . وهذا يعني اجبارهم على أن يحلوا من جديد تلك المسائل التي حلت منذ أمد بعيد ، وان يحلوا بمعطيات محدودة وغير كاملة ، وبدون حسابان الحساب لتجربة تاريخ الفكر الانساني كلها . ان مثل هذا التصرف يعني تجميد العلم ودفعه إلى مأزق .

وتدفع العلم إلى هذا المأزق شتى أنواع الوضعية - التيار المنتشر في الفلسفة البرجوازية منذ أواسط القرن التاسع عشر . ان الوضعيين يؤكدون ان العلم لا يحتاج إلى أية فلسفة وشعارهم « العلم - فلسفة نفسه » .

ولكن الوضعيين ينفون الفلسفة بالقول فقط ، عندما يدعون العلماء إلى التزام جنب المعرفة التجريبية الايجابية . انهم ، في الواقع ، يدعون أيضا إلى فلسفة ، ولكن إلى فلسفة غير علمية تجعل من التجربة مجموعة من الاحساسات والمشاعر ، وترفض حل مسألة منشأ هذه المدركات الحسية . ونتيجة لذلك ، يصل الوضعيون إلى نفي امكانية معرفة العالم الموضوعي ، إلى اللامعرفية والمثالية .

ويجدر القول هنا بأنه ما من علم يستطيع أن يتطور تطوراً خصباً بدون الاعتقاد العميق بامكانية الانسان أن يعرف قنونات الواقع ويستخدم المعارف في النشاط العملي . ان نفي هذا يؤدي بالعلم إلى العقم ، لأنه ، كما لاحظ تيمير بازييف عن حق ، « عندما نحاول تفسير أية ظاهرة لا يجوز أن ننطلق من أنها لا تفسر » (١) .

ان الكثير من علماء الطبيعة ، تحت تأثير الوضعية ، أعلنوا رفضهم لكل فلسفة . ولكن هذا الرفض غير ممكن في الواقع . فلا يجوز في العلم البقاء « مع الوقائع على انفراد » ، وابقاء النظرية على عتبة المخبر وارغامها على الصمت

(١) تيمير بازييف : المؤلفات الجزء ٥ - ١٩٣٨ الصفحة ١٨٨ .

بانتظار ما تقول الوقائع « بشكلها المجرد » ، « بذاتها » • فبدون التفكير النظري لا يستطيع العلم أن يوجد لأنه ليس مدعواً لوصف الظواهر فقط وإنما عليه أيضاً أن يفسرها •

وهناك، حيث ينتقل العلم من جمع ووصف الوقائع والعمليات إلى وضع القوانين والاستنتاجات النظرية يصل أي مفكر ذو تفكير واسع ، سواء كان فيزيائياً أو كيميائياً أو بيولوجياً أو عالم مجتمع ، إلى وضع لا يستطيع فيه تجنب الفلسفة والنظرة إلى العالم ونظرية المعرفة • ان المسألة كلها تنحصر في الفلسفة التي يتبعها - أهي الفلسفة العلمية المادية أم المثالية غير العلمية ، أم الاكليكتيكية ، التي هي خليط من المثالية والمادية، وهو الأمر الذي يحدث كثيراً • انها تنحصر في هل يأخذ المفكر بالفكر الدارجة السائدة في العالم البرجوازي التي يقدمها الفكر السطحي الانتقائي ، أم بالفلسفة المادية الديالكتيكية التي تعتبر أرقى نتاج لتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية خلال قرون طويلة •

وفي مقالة « علم الطبيعة في عالم الأرواح » كتب انجلز أن الفلسفة تثار لنفسها من علماء الطبيعة الذين هجروها • وعلى مثال البيولوجي « ويليس » والفيزيائي « كروس » وغيرهما ممن آمنوا بوجود الأرواح وأصبحوا ضحية للخرافات الفظيعة والروحانية ، بيّن انجلز ان التجريبية المجردة التي تحتقر النظرية تقود من علم الطبيعة إلى الصوفية •

ان الفلسفة العلمية ، اذ تعطي نظرة موحدة إلى العالم ، وتكون نظرية كاملة للباحث ، تسكنه من النظر إلى كل مسألة يدرسها من وجهة نظر أشمل • وهذا يتيح امكانية التغلب على وحدة الجانب في معالجة موضوع البحث ، تلك الوحدة التي تنشأ حتماً في ظل تخصص العلوم •

ومهما كان تطور بعض العلوم كبيراً ومهما تنوعت وتفرعت شجرة العلم، فإن الفلسفة لن تفقد أبداً حقها في الوجود • فمن ناحية ، حدد تطور العلم، وكأنه ضيق ، دائرة المسائل التي تتطلب تعميماً فلسفياً ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، وسع هذه الدائرة • ان تقدم العلم يضع أمام العلوم المتخصصة ذاتها مسائل لا يمكن أن يحلها العلماء المتخصصون اذا لم تكن لديهم نظرية علمية •

وفي ظروف الصراع الايديولوجي الحاد يغدو العالم المتخصص في هذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة ، غير المسلح بالفلسفة المادية الصحيحة ، في كثير من الاحيان ، عاجزا عن الصمود أمام هجوم الايديولوجية الرجعية . ويقع في أسر الفلسفة المثالية غير العلمية التي تعرقل تطور العلم . وقد أكد لينين انه « من أجل الصمود في هذا الصراع وإيصاله إلى نهايته بنجاح تام ، يجب على عالم الطبيعة ، أن يكون مادياً عصرياً ومؤيداً واعياً لتلك المادية التي قدمها ماركس ، أي يجب أن يكون مادياً دياكتيكياً » (١) .

ان نجاحات العلم المعاصر التي لا تتيح امكانيات المعرفة النظرية فحسب ، بل وتتيح يتمكن من الفضاء الكوني عملياً، والسيطرة على الطاقة الذرية، لا تقلل، وانما تزيد، من أهمية التعميم الفلسفي لقضايا علم الطبيعة . وقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : « انه في عصر تطور العلم العاصف ، تزداد أهمية صيغة القضايا الفلسفية لعلم الطبيعة المعاصر على أساس المادية الديالكتيكية باعتبارها الطريقة العلمية الوحيدة للمعرفة » (٢) .

ان الفلسفة الماركسية طريقة قائمة في العلوم الاجتماعية أيضاً . وهي تسليحها بفهم التطور التاريخي للانسانية . فالقوانين الشاملة لكل حركة وتطور، التي تشكل دراستها موضوع المادية الديالكتيكية ، تجد تطبيقها أيضاً في معرفة الحياة الاجتماعية . لقد عمم ماركس وانجلز المادية والديالكتيك على معرفة ظواهر الحياة الاجتماعية ، وصاغوا الفهم العلمي للحياة الاجتماعية - المادية التاريخية .

ان المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من النظرية الفلسفية التي انشأها ماركس وانجلز . وبدون الفهم الصحيح لأشمل قوانين تطور المجتمع لا يمكن أن تكون هناك نظرية علمية كاملة . ان المادية، كنظرية فلسفية، لم تكن مكتملة ، ولم تتمكن أن تشمل بتفسير واحد العالم كله قبل تعميم مسألة الفلسفة الاساسية

(١) لينين - المؤلفات - الجزء ٣٣ الصفحة ٢٠٧ .

(٢) « منهاج الحزب الشيوعي في لاتحاد السوفييتي » دار النشر السياسية الحكومية - ١٩٦١
الصفحة ١٢٧ .

على معرفة المجتمع الانساني • وقد كان من الضروري أن تحل مسألة العلاقة بين التفكير والوجود حلاً مادياً في الحياة الاجتماعية أيضاً • «واذا كانت المادية، عموماً تفسر الوعي بالوجود وليس العكس ، ففي الحياة الاجتماعية للانسانية طالبت المادية بتفسير الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي» (١) •

وبعد أن حل ماركس وانجلز هذه المسألة أتمّ بناء المادية إلى القمة • وهكذا ، وباكتشاف المادية التاريخية انشئت ، لأول مرة ، نظرية مادية كاملة منسجمة متطورة من جميع الجوانب تشمل الطبيعة والحياة الاجتماعية •

وعلى قاعدة الفهم المادي للتاريخ فقط ، ذلك الفهم الذي أظهر معنى لنشاط الناس التاريخي الاجتماعي ، تم التغلب على عيب من أهم عيوب المادية السابقة وهو المعالجة التأملية للواقع ومعرفة • وقد أشار ماركس ، في معرض توضيحه لاختلاف فلسفته المبدئي عن كل ما سبقها ، إلى أن الفلاسفة ، حتى عصره ، كانوا يكتفون بتفسير العالم ، غير أن المهمة المطروحة هي تغييره • وهذا الدور الفعال تؤديه الفلسفة الماركسية التي تخدم كسلاح ثوري لاعادة تكوين العالم •

٣ - المادية الديالكتيكية والتاريخية هما السلاح الفكري في النضال من أجل الشيوعية

ان كل عصور الانعطاف في التاريخ تتصف باحتدام الصراع لا في مجال السياسة والاقتصاد فحسب وانما في مجال الايديولوجية أيضاً. وفي هذه العصور تصبح الحاجة أكثر إلحاحاً ، إلى التفسير الفلسفي للتبدلات العميقة الجارية في الحياة الاجتماعية • ويظهر بوضوح أكبر التصادم بين النظريات المختلفة • ويكفي أن نذكر ، على سبيل المثال ، عصر النهضة عندما بدأ انهيار الاقطاعية ودعامته الفكرية - الكنيسة • ففي هذا العصر جرى، علناً ، أو خلف ستار ديني شكلي ، الصراع بين القوى التقدمية والرجعية ، ولأقى هذا تعبيره في صراع

(١) لينين المؤلفات الجزء ٢١ الصفحة ٢٨ - ٣٩ •

النظريات الفلسفية • ففي ابداعات « كوبرنيك » و « بروتو » و « غاليله » و « توماس مور » وغيرهم من مفكري ذلك العصر نجد مناهضة الافكار الفلسفية التقدمية والافكار الانسانية لديكتاتورية الكنيسة • ونجد مثل ذلك في فرنسا في القرن الثامن عشر ، حيث سبق الاستيلاء على الباستيل هجوم على الدعامات الروحية الرجعية للعالم القديم • فقد أحدثت مؤلفات المنورين الفرنسيين التي انتقدت ايديولوجية المؤسسات الاقطاعية ، ثورة في العقول كانت مدخلاً للثورة الاجتماعية •

ان العصر الجديد هو عصر أعمق انقلاب اجتماعي في التاريخ ، وهدفه أن يضع نهاية ، في كل مكان ، للمجتمع الطبقي القائم على استغلال الانسان للانسان ، وأن ينشئ مجتمعا شيوعياً جديداً متحرراً من كل أشكال الاضطهاد الطبقي والقومي • وهو إلى جانب ذلك ، عصر الصراع الحاد بين النظرة إلى العالم التي تعتقها البرجوازية الهادفة بكل قواها إلى الذود عن البناء الرأسمالي المهترى ، وبين نظرة البروليتاريا إلى العالم •

نشأت الفلسفة الماركسية كايديولوجية للبروليتاريا - أكثر الطبقات ثورية في التاريخ ؛ هذه الطبقة التي تترأس الجماهير الشعبية في الصراع من أجل قلب الرأسمالية وبناء الشيوعية • ان للنظرية العلمية الصحيحة أهمية كبيرة في نضال الشغيلة التحرري • وكما لاحظ لينين ، فان مادة ماركس الفلسفية بيّنت للبروليتاريا المخرج من العبودية الروحية التي رسخت في قيودها كل الطبقات المضطهدة حتى الآن • لقد أعطت الفلسفة الماركسية للعمال التقدميين امكانية تحرير أنفسهم من اضطهاد اللاهوت الروحي ومن الايمان الساذج في النوايا الطيبة للحكام وأصحاب العالم الرأسمالي ، كما جعلتهم يدركون أن الطبقة العاملة لا تستطيع أن تتحرر من الاستثمار إلا بنضالها الفعال الخاص •

وبفضل صياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية وبفضل نظريتهما الاقتصادية ، استطاع ماركس وانجلز تحويل الاشتراكية من حلم طوباوي ، من حلم بمستقبل أفضل ، إلى علم بدل حزب البروليتاريا على الطريق الصحيحة للنضال من أجل بناء المجتمع الجديد •

لقد أعطت الماركسية ، لأول مرة في التاريخ ، قاعدة علمية منسجمة من أجل الممارسة العملية لإعادة بناء العالم ثورياً .

وكانت في تاريخ النظريات الاجتماعية أمثلة كثيرة يعلن فيها الناس عن نظريات ثورية للغاية ، ولكنهم ، إذ يقفون إلى جانب المثالية ، يحصرون مهام تحرير الشغيلة بتحرير هؤلاء من الأفكار الخادعة والاهام فقط . لقد انتقد ماركس وانجلز ، منذ بداية نشاطهما، الهيجليين اليساريين^(١) انتقاداً مدمراً . وكان هؤلاء يرون أن سبب اضطهاد العمال هو تفكيرهم . وكانوا يزعمون للعمال ان باستطاعتهم ابطال مفعول الرأسمال بازالة مفهومه من رؤوسهم . وأكد ماركس وانجلز ان العمال يعرفون ان الملكية الخاصة ورأس المال والعمل المأجور واستغلال العمال من قبل الرأسماليين ، كل هذا ليس أبداً مجرد أوهام في الخيال وانما هي علاقات واقعية ، ولذا فيجب أن تزال بصورة عملية .

وليس من الصعب أن نرى أن التناقض بين المادية والمثالية هو الذي يبرز هنا أيضاً ، ذلك التناقض الذي رأيناه لدى دراسة مسألة الفلسفة الأساسية . ان ماركس وانجلز يقفان هنا أيضاً كمادين أصليين يريان أن سبب اضطهاد الطبقة العاملة هو الظروف الرأسمالية في البيئة الاجتماعية . ولذا فهما يعتبران من الضروري تبديل هذه البيئة عملياً ، وتدمير النظام الرأسمالي بطريقة ثورية . وعلى عكسهما وقف الذين ينتقدانهم (الهيجليون اليساريون) كلية موقف الفهم المثالي للتاريخ الذي يرجع الدور المحدد في الحياة الاجتماعية إلى أفكار الناس وآرائهم .

ومن وجهة نظر هذا الرأي المثالي « يكف العمال عن أن يكونوا عمالاً مأجورين فعلاً فقط عندما ينسخون من عقولهم فكرة العمل المأجور ، فقط عندما يمتنعون فكرياً عن اعتبار أنفسهم عمالاً مأجورين ، وتمشياً مع هذا

(١) الهيجليون اليساريون (أو الشبان) هم ايديولوجيو الليبرالية البرجوازية في سنوات ٣٠-٤٠ من القرن التاسع عشر (برونو بارو وشتراوى وغيرهما) .

الوهم المريض لا يسمحون بأن تدفع لهم أجورهم بصفتهم أفراداً معينين ، وهم بالطبع ، سيستطيعون بعد ذلك ، كمثاليين مطلقين ومخلوقات روحانية أن يعيشوا بروح التفكير المجرد»^(١) .

ومثل هذا الموقف المثالي يقفه الاشتراكيون اليمينيون المعاصرون الذين يحاولون ، مثل قائد الاشتراكيين اليمينيين الفرنسيين « بلوم » أن يضعوا محل مهمة إعادة بناء المجتمع الرأسمالي بناء ثورياً ، الموعظة حول كمال الناس الاخلاقي . انهم يدعون مخادعين « ان علينا أن نجعل الحياة أفضل عن طريق السعي بأنفسنا نحو الكمال » . وهم يزعمون أن مصدر الظلم الاجتماعي هو في عيوب الناس الاخلاقية ، وطريقة ازالته هي تحسين الذات . أما في الواقع ، فالامر على العكس . فمصدر العيوب الأخلاقية هي ظروف الحياة اللا إنسانية في العالم الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . لذا فعلى عكس المثاليين يعتبر أنصار المادية التاريخية ان التبدل الجذري للبيئة الاجتماعية الذي تحدثه ثورة البروليتاريا الاشتراكية هو الشرط الضروري للقضاء على الظلم الاجتماعي . وهكذا فإن المعالجة المادية لظواهر الحياة الاجتماعية ، تؤدي إلى الاعتراف بحتمية الثورة الاجتماعية .

إن لفكرة الثورة الاجتماعية التي خلقها الواقع الرأسمالي أساسها النظري في النظرة المادية الديالكتيكية إلى تطور الطبيعة والمجتمع . فإذا كان كل شيء يتبدل ، كما يعلم الديكالكتيك ، فلماذا لا يمكن أن يحدث التبدل في البناء الاجتماعي ؟ ان كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية قد أنشأته في حينه حاجة التطور التاريخية ، ثم يعيش عصره ، ويجب أن يحل محله شكل جديد أكثر رقياً . وهذا التحول يحدث في المجتمع الطبقي المتطور من خلال صراع الطبقات ، عن طريق الثورة الاجتماعية .

ومن الخطأ ، طبعاً ، أن نفهم أن فكرة الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا وكل الشيوعية العلمية ، ليست إلا استنتاجاً منطقياً من المادية

(١) ماركس وانجلز : المؤلفات . الجزء ٢ - ١٩٥٥ الصفحة ٥٨ .

الماركسية والديالكتيك • ان الشيوعية العلمية هي نتيجة لتحليل الرأسمالية وقوانين تطورها تحليلاً عميقاً • وبين الاقتصاد السياسي الماركسي تناقضات الرأسمالية التي تؤدي حتماً إلى زيادة حدة الصراع الطبقي وإلى الثورة الاشتراكية • ولكن ، إذ نوّكد أهمية النظرية الاقتصادية الماركسية من أجل تأسيس الشيوعية العلمية ، لا يجوز إلا أن نرى العلاقة الداخلية بين ديالكتيك ماركس المادي ونظريته عن الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا •

ان لنظرية ماركس الاقتصادية أيضاً أساسها الميتودولوجي (الطرائقي) الفلسفي وهو المادية الديالكتيكية والتاريخية • لقد كتب لينين انه في « رأس مال » ماركس « قد طُبّق في علم واحد ، منطق وديالكتيك ونظرية معرفة المادية » ، وان « ديالكتيك المجتمع البرجوازي عند ماركس هو مجرد حالة خاصة من الديالكتيك »^(١) • ولذا فمن المستحيل فهم « رأس مال » ماركس وخاصة الفصل الأول منه بدون دراسة الديالكتيك •

ان المادية الفلسفية وطريقة ماركس الديالكتيكية تشتملان على كل الاجزاء المكونة لنظريته وتوحدانها في نظرية واحدة منسجمة •

ان انتهازيي الأممية الثانية والمحرفين المعاصرين أكدوا بكل الوسائل ويؤكدون الزعم بأن الماركسية لا فلسفة لها ، وحاولوا أن ينسبوا تعاليم ماركس إلى النظريات الاقتصادية والتاريخية التي يمكن أن تضم إلى أي نظام فلسفي^(٢) •

(١) لينين • المفاتيح الفلسفية • ١٩٤٧ الصفحة ٢١٥ ، ٢٢٨ •

(٢) في عام ١٨٩٨ كتب كاوتسكي الى بليخانوف ، عندما حاول المحرفون ضم الماركسية الى الكانتية الجديدة ، وكان كاوتسكي آنذاك نظرياً بارزاً في الاممية الثانية : « وعلى كل حال ، يجب أن أعلن صراحة أن الكانتية الجديدة لا تربكني مطلقاً • لقد كنت ضعيفاً في الفلسفة دائماً ، وعلى الرغم من أنني أقف كلية الى جانب وجهة نظر المادية الديالكتيكية فإني أعتقد أن وجهة نظر ماركس وانجلز الاقتصادية والتاريخية ممكن أن تتفق ، في نهاية الامر ، مع الكانتية الجديدة » • وبعد عشر سنوات ، عندما شرع المحرفون يضمون الماركسية الى فلسفة ماخ المثالية أعلن كاوتسكي انه ينظر الى الماركسية لا كنظرية فلسفية وانما كعلم تجريبي ، كفهم خاص للمجتمع • وقال : ان هذه النظرة لا تتفق ، حقاً ، مع الفلسفة المثالية ولكنها لا تناقض نظرية ماخ في المعرفة •

ان الاكليكتيكيين الذين حاولوا توحيد تعاليم ماركس عن المجتمع مع الأنظمة الفلسفية اللا ماركسية قد أفلسوا حتماً • وتشهد محاولاتهم على انهم لم يفهموا ولم يرغبوا حقاً في أن يفهموا الفلسفة الماركسية أو الاقتصاد السياسي أو الاشتراكية العلمية • ان التكرار لفلسفة الماركسية - المادية الديالكتيكية والتاريخية - يعني قتل الروح الثورية في النظرية الماركسية وحرمان نظرية ماركس ، عن المجتمع ، ونظريته عن الاشتراكية ، من الاساس العلمي الفلسفي •

ولا تقل عداء للماركسية محاولات المحرفين المعاصرين لاعلان « اهتراء » تقسيم الفلسفة إلى اتجاهين مادي ومثالي • وهذا الزعم يعني ، في الواقع ، زحف المحرفين إلى مواقع الفلسفة البرجوازية وتكرهم للمادية الديالكتيكية وإعادة نفس البداية التي ابتدأها كل من بيرنشتين وبوغدانوف وكاوتسكي وماكس آدلر وغيرهم من محرفي الماركسية ، في خيانتهم للماركسية •

ان استراتيجية وتاكتيك الحزب الماركسي متصلان اتصالاً وثيقاً بالمسلمات الاساسية لنظريته - المادية الديالكتيكية والتاريخية • ولقد أشار لينين أكثر من مرة ، إلى أن سياسة الحزب الشيوعي لا تقوم على موضوعات ذاتية ، وانما على مراعاة صارمة مادية للظروف الموضوعية وخاصة نسبة القوى الطبقية • إن الحزب ، إذ يرسم استراتيجيته وتاكتيكة يدرس الطبقات والتناسب بينها لا في حالة الركود وانما في الحركة ، وليس فقط من وجهة نظر الماضي وانما من وجهة المستقبل أيضاً ، كما يقتضي الديالكتيك الثوري •

وفي فترة التبدل السريع للأحداث والتغير الحاد في الظروف وفي القوى المتصارعة ، يجب بشكل خاص أن يجري بتحديد تاريخي دقيق تقييم الأحداث ومسائل الصراع الطبقي • أما المعالجة الجامدة المجردة فيمكن أن تكون خطيرة جداً في مثل هذه الظروف •

ان مسائل النظرية لم تكن بالنسبة للحزب وليست ولا يمكن أن تكون « قضية خاصة » لبعض أعضائه • ويؤكد الانتهازيون أن الآراء الفلسفية

والعقائد الدينية هي قضية خاصة بالنسبة لكل اشتراكي ديمقراطي ، وان الحزب لا يربط نفسه بأية فلسفة • ان هذه الدعوة تفتح الباب واسعاً لنفاذ الآراء البرجوازية إلى حزب العمال ولتحريف الماركسية واحلال الفلسفة البرجوازية وعلم الاجتماع البرجوازي محلها • وعلى عكس مساعي الانتهازيين نما الحزب الشيوعي وتقوى كمنظمة منسجمة توحيدها مبادئ شاملة فكرية وسياسية وتكتيكية وتنظيمية • ان الحزب الشيوعي يعتبر الدفاع عن الأسس النظرية والفلسفية للماركسية قضيته الحزبية الخاصة ، لأنه يرى أن الماركسية هي سلاح الطبقة العاملة الفكري •

لنتساءل ، أو لا تناقض الحزبية الشيوعية البروليتارية للنظرية علميتها؟ ان ايديولوجي البرجوازية والمحرفين من بعدهم يعتبرون أنّ لالحزبية النظرية ترادف موضوعيتها وحيادها وعلميتها • ولكن كل نظرية فلسفية أو اجتماعية أو اقتصادية تحاول تفسير مسائل حيوية في الحياة الاجتماعية ، تعبر في الواقع عن مصالح هذه الطبقة أو تلك ، وهي بهذا المعنى حزبية • والأمر كله ينحصر في ماهية هذه الطبقة ، وما هو موقف مصالحها من التقدم الاجتماعي • ان مصالح البرجوازية الرجعية تتطلب تخليد الاستغلال واضطهاد الانسان للانسان • وهذه المصالح تدفع ايديولوجي البرجوازية إلى تحريف الحقيقة باسم المصالح الانانية الضيقة للطبقة ، وإلى التصوير الكاذب للواقع • ومن أجل الحفاظ على النظام الرأسمالي وسيطرة الطبقة البرجوازية يحاول ايديولوجيو البرجوازية المعاصرة تصوير الرأسمالية في أحلى الصور ويطمسون تناقضاتها ويذمون الاشتراكية بشتى المذمات •

ان الطبقات الرجعية لا تستطيع بنى الديالكتيك المادي الثوري • وعلى العكس فالبروليتاريا ، كطبقة ثورية للنهائية ، مهتمة بتغيير المجتمع جذرياً وبالقضاء على كل اضطهاد • انها تأخذ السلطة ، لا من أجل احلال شكل من الاستغلال محل شكل آخر ، وانما من أجل القضاء على كل استغلال وعلى كل طبقة • وتحقيق هذه المهمة واعادة بناء العالم غير ممكنة إلا بمعرفة قنونه • ولذا فان البروليتاريا وحزبها الماركسي مهتمان بمعرفة العالم كما هو ، بدون

أي تحريف • انهما مهتمان بالكشف عن تلك الاتجاهات في التطور التي تنشأ في الواقع ذاته • والنظرية العلمية وحدها يمكن أن تكون دليلاً صحيحاً في العمل النوري • وهذا هو السبب في كون الحزبية الشيوعية البروليتارية في العلم ، وخاصة في الفلسفة ، لا تناقض الموضوعية وانما تتطلب المعرفة الموضوعية في العالم وتتطابق مع العلمية الصارمة والموضوعية •

ان المحرفين المعاصرين ، اذ يعترفون بحزبية النظرية ، يعلنون أن الماركسيين ينحدرون إلى تقسيم الفلسفة، تقسيماً ساذجاً ، إلى معسكرين - معسكر الماديين ومعسكر المثاليين • فيعدون عنهم قسماً كبيراً من الفلاسفة وممثلي العلوم الاجتماعية الأخرى ، ويرفضون كل ما هو قيم وموجود في الفلسفة غير الماركسية وعلم الاجتماع ونظرية الاقتصاد وعلم التاريخ وغير ذلك •

لا يحتاج الماركسيون لان يقسموا الفلاسفة إلى معسكرين ، فهذا التقسيم موجود في الحياة وجوداً مستقلاً عن تقييم أي كان • ان نفي هذه الحقيقة عديم الجدوى تماماً كنفى وجود الطبقات وصراعها في المجتمع الرأسمالي المعاصر • ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة لا يطابق أبداً الموقف اللامبالي من النتائج الايجابية لابحاث العلماء البرجوازيين • ان الماركسيين يعرفون كيف يفرقون بين الابحاث الواقعية القيمة للغاية التي يقدمها العلماء البرجوازيون في كثير من الأحيان ، أولئك العلماء الذين يدرسون الواقع بشرف، وبين استنتاجاتهم وتعميماتهم الفلسفية النظرية الخاطئة • والماركسيون يرمون جانباً ما يحمل طابع ضيق الأفق البرجوازي والأوهام ، ثم يستخدمون كل مكتسبات الباحثين البرجوازيين في مجال العلوم الحسية • ان تجاهل المكتسبات يعني الانحدار إلى مواقع الانعزالية ، اما تبني الاستنتاجات الفلسفية لاصحاب هذه المكتسبات فيعني تسليم مواقعنا والسقوط في أسر الايديولوجية المعادية •

ثم ان رجعية المثالية المعاصرة ، كنظرية فلسفية ، لا تعني ان كل واحد من أنصارها رجعي سياسياً وعدو للمسلم والديمقراطية • ان توهانات العلماء البرجوازيين المثالية ليست بالضرورة ناجمة عن المصلحة الشخصية في الدفاع

عن الرأسمالية كما يزعم الماركسيون العاميون • وهذه التوهانات كثيراً ما تكون نتيجة لنفوذ الأوهام البرجوازية وضيق الأفق الاجتماعي وغير ذلك • ان الاحزاب الماركسية ، في الوقت الذي لا تسمح فيه بأي تنازل أمام الايديولوجية البرجوازية والمثالية الفلسفية ، لا تنفّر فئات المثقفين البرجوازيين المشبعين بهذه الايديولوجية وانما ، على العكس ، تسعى إلى اجتذابهم إلى النضال الشامل من أجل السلام والديمقراطية والاشتراكية •

وكلما تعمقت أزمة الرأسمالية يزداد وضوحاً عجزها عن تأمين التطور اللاحق الاقتصادي والسياسي والفكري في المجتمع الانساني •

وحتى أعداء الماركسية يضطرون ، في الوقت الحاضر ، مغتاضين ، إلى الاعتراف بالنفوذ المتزايد للفلسفة الماركسية في جماهير الشغيلة في العالم كله • ويسمي بعضهم تعاليم الماركسية أهم ، وفي الوقت نفسه ، أخطر قوة فكرية في العالم المعاصر • وفي عام ١٩٦١ نشرت في الجريدة الاميركية «واشنطن بوست أند تايمس هيرالد» رسالة نموذجية في هذا المجال لاستاذ الفلسفة جيمس • ب • هودجسن يقول فيها : « ان الفيلسوف الألماني الرائع صاغ وهو جالس في المتحف البريطاني أقوى فلسفة اجتماعية • انا نعني طبعاً كارل ماركس •

لم تكن عنده دبابة واحدة أو طائرة نفثة أو صاروخ ورغم ذلك فان أعماله العلمية هي القوة الاساسية التي تهدد في الوقت الحاضر الغرب • ويبدو لي ان الاعتقاد العميق بالنصر النهائي للشيوعية لدى السيد خروشوف نابع من أعمال أستاذ الفكرة الرائع هذا •

وحسبما أفهم ليس بين الفلاسفة الغربيين في الوقت الحاضر حركة مماثلة تهدف إلى وضع رد على ماركس يمكن أن يستخدم بفعالية في هذه الازمة المتنامية • وليس ، على حد علمي ، حول الرئيس كندي فيلسوف واحد •

ان ماركس ينتظر الرد من الغرب • •

ان قلق المدافعين عن الرأسمالية ليس عبثاً • ومن الطبيعي ان الأمر ليس في عدد الفلاسفة المحيطين بالرئيس وانما بكون الايديولوجيين البرجوازيين

ينظرون إلى الماضي ويدافعون عن العالم الزائل • لذا فهم غير قادرين على صياغة أفكار يستطيعون بها إلهاب قلوب الملايين • أما الشيوعية فتحمل للعالم أفكاراً نبيلة ملهمة توطد على الأرض السلم والعمل والحرية والمساواة والأخوة والسعادة لجميع الشعوب •

ان التبدلات التاريخية العظيمة التي جرت في العالم خلال عشرات السنين الأخيرة - الانتصار النهائي التام للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وانتقاله الناجح نحو الشيوعية وتكون ونمو النظام الاشتراكي العالمي وتحوله إلى عامل حاسم في تطور المجتمع ، وانهيار النظام الاستعماري - لامبريالية - تؤكد صدق الماركسية اللينينية • ان شغلة العالم كله يرون ان ما تنبأ به ماركس يتحقق فتنهار الرأسمالية ويتحقق ما تنبأ به لينين ، فتحل فترة في التاريخ العالمي تحدد بها شعوب الشرق بنفسها مصيرها ، وتصبح عاملاً جباراً في العلاقات الدولية •

ان أفكار الماركسية اللينينية هي وحدها التي استطاعت أن تدل الشعوب إلى طريق تحررها الحقيقي وتعطيها الجواب على المسائل التي تطرحها أمامها المرحلة المعاصرة من التاريخ العالمي •

وفي هذه الظروف التي تعيشها البشرية الآن تنمو بشكل خاص أهمية النظرية العلمية الصحيحة التي تفتح آفاق واضحة وتزرع في جماهير الشغلة الثقة في انتصار قضيتهم العادلة • ولذا جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفيتي: انه «لأبد من الدفاع بصمود، في المستقبل أيضاً، عن المادية الديالكتيكية والتاريخية وتطويرهما كعلم عن أشمل قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير الانساني» (١) •

ان عملية نشوء وتطور النظرية العلمية - المادية الديالكتيكية والتاريخية، والكشف عن موضوعها الاساسي هو موضوع الفصول التالية من هذا الكتاب •

(١) « برنامج الحزب الشيوعي السوفيتي » الصفحة ١٢٨ •

الفصل الثاني

نشوء وتطور الفلسفة الماركسيّة

١ - الظروف التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية

ماركس وانجلز - المبدعان العظيمان للمادية الديالكتيكية والتاريخية

في الأربعينيات من القرن التاسع عشر جرى في تطور الفكر الفلسفي انعطاف ثوري عظيم : فقد نشأت الفلسفة الماركسية - المادية الديالكتيكية والتاريخية • والفلسفة الماركسية ، التي يحق لنا تماماً أن نعدّها النظرية العلمية الاصلية الوحيدة في العصر ، هي ، ككل نظرية فلسفية ، نتاج عصر تاريخي محدد • واذا كان الفلاسفة من قبل لم يعطوا ولم يستطيعوا أن يعطوا مثل هذه النظرية فان سبب هذا ليس الضعف وانما هو قبل كل شيء الظروف التاريخية التي عاشوها •

أصبح منتصف القرن الماضي عصر ولادة المادية الديالكتيكية والتاريخية لأن كل مجرى التطور الاجتماعي وكذلك تكدرس المعارف عن الطبيعة وكل التطور السابق للفلسفة ، أدى بشكل مقنون وحتمي إلى نقطة الانعطاف هذه • ان الماركسية ككل ، والفلسفة الماركسية كجزء مكون لها، نشأتا بقوة الاحتياجات التاريخية الملحة ، وكرد على المتطلبات التي قدمها التطور الموضوعي للمجتمع وتطور المعارف الانسانية •

كتب لينين : « ان تاريخ الفلسفة وتاريخ علم المجتمع يبينان بوضوح تام أنه ليس في الماركسية ما يشبه «الانعزالية» ، بمعنى انها ليست نظرية مغلقة جامدة نشأت بعيداً عن الطريق الرئيسية لتطور المدنية العالمية • بل على العكس فكل

عبرية ماركس هي في كونه بالذات أعطى الردود على المسائل التي طرحها فكر البشرية التقدمي . لقد نشأت نظريته كاستمرار مباشر وصريح لتعاليم أعظم ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية ،^(١) .

هذه الكلمات اللينينية الرائعة تصف العلاقة الداخلية والاتصال القائم بين الماركسية والفلسفة الماركسية وبين التطور السابق لفكر الانسانية ، وتصف أيضاً ذلك الجديد الذي يجعل نشوء الماركسية حداً ، وانقلاباً ثورياً في تاريخ الانسانية الفكري . فبدون الاستيعاب الناقد لما أعطاه الفكر الفلسفي التقدمي في الأعوام الماضية ، وبدون صياغة هذه المعطيات ، لم يكن بالإمكان نشوء المادية الديالكتيكية والتاريخية . ان الفلسفة الماركسية هي نتيجة وقمة التطور الطويل للفكر الفلسفي ، وهي الوريثة الشرعية لأفضل ما أنشئ خلال طريق صياغة النظرية العلمية المعقد المليء بالمتناقضات .

وكما قيل في الفصل الأول ، فإن الصراع بدأ ثم ازداد حدة بين اتجاهين في الفلسفة - المادية والمثالية، منذ أن ولد الفكر الفلسفي . لقد كانت لتطور الفكر الفلسفي ، تاريخياً ، قنوته ، وهي انه في هذا الصراع تكونت وتطورت النظرية الصحيحة الوحيدة - النظرية المادية ، مقابل المثالية واللاهوت ، رغم التعرجات المعروفة في التطور الروحي للشعوب . وقد نشأت المادية في الماضي البعيد . وكانت تستجيب للنظرة الانسانية الصحيحة السليمة إلى الطبيعة كواقع موضوعي موجود وجوداً مستقلاً عن الوعي .

لقد اعترف الفلاسفة الاغريقون في القرن السادس قبل الميلاد : فاليس ، واناكسيمندر واناكسيمين بالطبيعة المادية للظواهر الطبيعية ورأوا أساسها في « البداية » الواحدة . واعتبر فاليس أن « البداية » المادية هي الماء ، و « أناكسيمندر » : المادة اللامحدودة اللاموصوفة (البيرون) ، واناكسيمين - الهواء . وكل التبدلات الفضائية في نظريات هؤلاء الفلاسفة هي حركة أزلية « للبدايات » المادية ، وهي تحولاتها اللانهائية .

(١) لينين - المؤلفات ، الجزء ١٩ الصفحة ٣ .

وتطورت الفلسفة المادية لاحقاً في نظرية هيرقليط الذي عاش في نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد . فحسب نظرية وديالكتيك المادي الاغريقي هيرقليط، لم يخلق الله العالم وانما كان هذا موجوداً منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد . ويفسر وحدة جميع ظواهر العالم بكون أساسها هو « بداية » واحدة ، عملية مادية ، هي النار . وكل ما في العالم والفضاء يتطور بشكل مقنون بفضل اشتعال وانطفاء النار . « هذا الفضاء ، واحد بالنسبة لكل ما هو موجود ، لم يخلقه أي اله أو أي انسان ، ولكنه كان دائماً وهو موجود وسيكون إلى الأبد ناراً حية ، تارة، تشتعل وتارة تخبو »^(١) . ويصف لينين أقوال هيرقليط هذه كعرض جيد أولي للفهم الديالكتيكي للطبيعة^(٢) .

وتظهر في نظرية هيرقليط علاقة عضوية بين مادية القدماء والنظرة الديالكتيكية للواقع . ان أول ما يبرز للعين لدى تأمل الطبيعة والحياة الاجتماعية هو لوحة التبدل الشامل ، وحلول ظواهر محل ظواهر أخرى ونشوؤها واختفاؤها . والفلاسفة الماديون القدماء الذين أخذوا العالم كما هو ، وكما بدا للملاحظة الأولية ، عكسوا في نظرياتهم عملية التبدل الشاملة والحركة والتطور .

وأورد الفيلسوفان الاغريقيان ليفكيب وديموقريط (القرن الخامس قبل الميلاد) فكرة رائعة عن البناء الذري للمادة والعلاقة السببية بين جميع ظواهر الطبيعة . ووضع ليفكيب أسس الفلسفة الذرية الاغريقية القديمة وطور ديموقريط نظاماً كاملاً للمادية الذرية .

والكون ، حسب آراء ديموقريط ، أزلي ولا نهائي ؛ وهو يتألف من عوالم لا حصر لها ، نشأت أزلياً وتتطور وتموت . وليس في العالم سوى الذرات والفراغ . ان فكرة ديموقريط القائلة بأن حركة الذرات، التي تتكون منها كل الاشياء ، وجدت منذ الأزل وستبقى إلى الأبد ، لعبت دوراً كبيراً في تطور مفاهيم المادة والحركة .

(١) « ماديو اليونان القديمة . مجموعة نصوص هيرقليط وديموقريط وايפור » .

(٢) لينين - الدفاتر الفلسفية الصفحة ٢٩٤ .

وتطورت النظرية المادية تطوراً واسعاً في بلاد الشرق القديم (الصين والهند وغيرهما) وكانت القرون الوسطى عصر سيادة الدين ، والفلسفة الدينية . وطوردت في هذا العصر الفلسفة المادية وهي بالطبع لم تستطع أن تتطور . وبدأ النهوض الجديد للفلسفة المادية في القرنين ١٦ - ١٧ تقريباً . وكان هذا مرتبطاً بتفسخ المجتمع الاقطاعي وبداية تطور الاسلوب الرأسمالي في الانتاج وظهور قوى اجتماعية تقدمية جديدة على مسرح التاريخ .

ان متطلبات تطور الانتاج الرأسمالي الوليد والتكنيك الجديد والتجارة والملاحة ، كل هذا استدعى تطور علم الطبيعة ، وبالدرجة الأولى ، الميكانيك والرياضيات وعلم الفلك . ومع تطور علم الطبيعة تطورت الفلسفة المادية . وهي لم تقم فقط بتعميم معطيات علم الطبيعة وانما أعطته أيضاً دفعة قوية بصياغة النظرة المادية إلى العالم ونظرية المعرفة المادية والطريقة لدراسة الواقع .

وقدمت الفلسفة المادية في هذه الفترة مجموعة ضخمة من الاسماء المجيدة من أمثال بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) وهوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) في انكلترا ، وسينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) في هولاندة ، ثم قدمت ، في القرن الثامن عشر عشية الثورة الفرنسية العظمى ، مفكرين عظاماً من أمثال لاميتري (١٧٠٩ - ١٧٥١) وغولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩) وهيلفيتسي (١٧١٥ - ١٧٧١) وديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) وغيرهم .

كانت المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، نظرية نضالية بصورة خاصة ، فقد أعدت البرجوازية الفرنسية للثورة ايدولوجياً .

حارب الماديون الفرنسيون بحزم النظرية الدينية والكنيسة الكاثوليكية التي كانت سائدة ووقفوا ضد النظام الاقطاعي والحكم المطلق .

يقول انجلز : « ان الناس العظماء الذين نوروا الرؤوس في فرنسا من أجل الثورة المقتربة ، وقفوا هم أنفسهم موقفاً ثورياً للغاية . فهم لم يكونوا يعترفون بأي ضغط معنوي مهما كان نوعه . فاللاهوت وفهم الطبيعة والمجتمع ونظام الدولة - كل هذا

انتقد من قبلهم انتقاداً لا هوادة فيه ، وكل شيء كان عندهم يخضع لمحاكمة العقل فاما أن يبرر وجوده أو يرفض « (١) » .

لقد خطا الفلاسفة الفرنسيون في القرن الثامن عشر خطوة كبيرة إلى أمام بالنسبة لمادبي القرن السابع عشر ، وقبل كل شيء ، في فهم العالم المادي ذاته وفي فهم الطبيعة . فالمادة بالنسبة لهم هي المجموع اللانهائي للأشياء الموجودة في حالة الحركة ، وهي العالم المادي كله بكل تنوعاته .

ولكن المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ، كالمادية الانكليزية في القرن السابع عشر ، كان يغلب عليها الطابع الميكانيكي والميتافيزيكي . ان ضيق أفق مادية القرن الثامن عشر كان أيضاً في عدم قدرتها على الارتفاع إلى مستوى الفهم المادي للحياة الاجتماعية . ففلاسفة القرن الثامن عشر في نظريتهم عن المجتمع كانوا يتبنون نظرة مثالية : « الآراء تدير العالم » .

وقبل نشوء الماركسية بقليل انتشر نضال حاد جداً بين المادية والمثالية في ألمانيا . وكان يمثل الفلسفة المثالية هنا فلاسفة مثل كانت (١٧٤٢ - ١٨٠٤) وهيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) وغيرهما ، والفلسفة المادية - فرباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) . كان هيجل مثالياً موضوعياً . ونقطة الانطلاق في فلسفته كانت الاعتراف بما سماه « الفكرة المطلقة » التي وجدت قبل الطبيعة ومستقلة عنها .

ان « الفكرة المطلقة » الهيجلية ليست سوى تأليه للوعي الانساني الذي فصله عن المادة والطبيعة وجعله مقابلاً لهما كقوة مبدعة عليا لكل ما هو موجود . ولكن هيجل لم يكن مثالياً فحسب وإنما كان ديبالكتيكياً أيضاً . وحسب نظريته توجد « الفكرة المطلقة » في تطور وتبدل دائم . وفي عملية تطورها الديالكتيكي تخلق الطبيعة والانسان والمجتمع الانساني الذي يؤدي عنده دور « الوجود الخارجي » ، لهذه « الفكرة المطلقة » المؤلهة . ومأثرة هيجل العظمى هي أنه صاغ الطريقة الديالكتيكية ، رغم انه فعل ذلك على أساس مثالي خاطيء . وكما لاحظ لينين فان هيجل ضمنَّ (ضمن فقط) بعقرية، عن طريق ديبالكتيكة

(١) ماركس وانجلز - مؤلفات مختارة الجزء الثاني ١٩٥٥ الصفحة (١٠٧) .

الفكرة والمفهوم ، دياكتيك الأشياء ذاتها ، الواقع الموضوعي ذاته • لقد أعطى هيجل ، على أساس مثالي ، أول صياغة لقوانين الديالكتيك الأساسية : كقانون تحول الكمية إلى كيفية ، والتناقض وصراع الأضداد كمصدر للتطور ، وقانون نفي النفي • ورغم ان مبادئ التطور هذه صيغت من قبل هيجل بشكل مثالي وبدون انسجام ، فان هذه الصياغة كانت خطوة كبرى في تطور الفكر الفلسفي وفي اعداد نظرية التطور الديالكتيكية • وقد وجه هيجل ، بحته التطور الديالكتيكي ، ضربة شديدة إلى الطريقة الميتافيزيقية التي كانت سائدة آنذاك •

ولكن هيجل لم يستطع أن يلحق الهزيمة الكاملة بالنظرية الميتافيزيقية لان نظمه المثالي كان يتناقض مع الديالكتيك وبقيدته ، ولم يتح له أن يظهر بكل قوة • أضف إلى ذلك انه دفع فلسفته إلى استنتاجات ميتافيزيقية في مرحلة أخيرة مزعومة لتطور المجتمع ••• الخ وظهر هذا بصورة خاصة في آرائه الاجتماعية - السياسية (الخوف من الانهيار الثوري للنظام الاقطاعي في ألمانيا ، والتهادن مع الواقع القائم وما شابه ذلك) •

لقد سلط فيرباخ نقداً لا رحمة فيه إلى فلسفة هيجل المثالية • وكان فيرباخ نفسه ، في البداية ، تلميذاً لهيجل ، ولكنه سرعان ما فهم خطأ المثالية وبدأ نضالاً شجاعاً من أجل المادية • وبين فورباخ كل اسطورية « فكرة هيجل المطلقة » ودافع بصلاية عن مبدأ أولوية المادة وثنوية الوعي • وكانت فلسفته انسانية (انترولوجية) ، لأنه وضع الانسان في مركز فلسفته • الانسان كوجود مادي فيزيولوجي له مشاعر وتفكير يتعرف على الطبيعة الموجودة وجوداً موضوعياً • ولا وجود لأي شيء آخر أعلى من الطبيعة ولا يمكن أن يوجد • ولكن كان لانترولوجية فيرباخ جانبها السلبي : انه يفهم الانسان ككائن بيولوجي وحسب • في حين ان الانسان الواقعي لا يمكن أن يدرس في اللا مجتمع ، وبدون علاقات اجتماعية • ولذلك ما ان يشرع فيرباخ في معالجة مسائل الحياة الاجتماعية حتى تظهر مثاليته في فهم المجتمع وتجريده لانسانه • كان فيرباخ في آرائه عن الطبيعة مادياً منسجماً • ونظريته الفلسفية لم تكن فقط موجهة ضد المثالية واللاهوت ولم تكن فقط دفاعاً عن التقاليد المادية

في القرنين ١٧ - ١٨ ، وانما تغلبت على بعض صفات ضيق أفق الشكل الميكانيكي للمادية • لقد رفض فيرباخ الفهم الميكانيكي المجرد للمادة كشيء وحيد النوع • ان للطبيعة ، عند فيرباخ ، تنوعاً كبيراً ، تحسه كل حواس الانسان •

لقد قال فيرباخ الكثير من الأفكار الجديدة الخصبة في مسائل نظرية المعرفة أيضاً • وطور المادي الالماني نظرية المعرفة كانعكاس للمخائص الموضوعية للاشياء • واذا كان هيغيل قد قلل من دور المعرفة الحسية فان فيرباخ أكد الاهمية الكبرى للمشاعر والاحساسات بالنسبة للعكس الصحيح للطبيعة في التفكير الانساني •

غير أن فيرباخ لم يفهم على الاطلاق دياكتيكية هيغيل وبقي بصورة أساسية في المواقع الميتافيزيكية من حيث تفسير الطبيعة • وهذا أكبر عيب في فلسفته • وكان في آرائه الاجتماعية أكثر تقدمية إلى حد كبير بالنسبة لهيغيل ، اذ غدا ايدولوجيَّ البرجوازية الديمقراطية في فترة الاعداد لثورة عام ١٨٤٨ في ألمانيا •

وقام الماديون الروس العظام والثوريون الديمقراطيون: غيرتسين (١٨١٢ - ١٨٧٠) وتشيرنيشيفسكي (١٨٢٨ - ١٨٨٩) وغيرهما بنقد المثالية الفلسفية وخاصة الهيغلية نقداً شديداً متحمساً • وكانت آراؤهم المادية خطوة إلى أمام بالنسبة لفيرباخ لانهم أدركوا أهمية الديالكتيك وأعادوا صياغته بروح مادية • وهكذا فان التطور الذي دام قروناً عديدة في الفكر الفلسفي ونضال المادية ضد المثالية قد أعدا التربة لانتصار النظرية الصحيحة الوحيدة ، المادية ، انتصاراً نهائياً •

ولكن عمل ماركس وانجلز - ايدولوجي البروليتاريا - لم يقتصر على كونهما استطاعا أن ينشأ فلسفة مادية منسجمة علمية هي المادية الديالكتيكية • ان الماركسية التي كانت الاستمرار المباشر لأفضل تقاليد التطور الفلسفي السابق تتميز تميزاً عميقاً على كل النظريات التي سبقتها لكونها استطاعت أن تجيب

على كل الأسئلة التي كانت مطروحة ولكن الفلسفات السابقة عجزت عن الاجابة عليها بسبب ضيق الافق التاريخي والطبقي • لقد استطاعت الماركسية فعل ذلك لأنها كانت التعبير النظري عن الظروف التاريخية الجديدة والقوى الاجتماعية الجديدة التي ظهرت على المسرح الاجتماعي في عشرات السنين الاولى من القرن التاسع عشر •

في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر جرى انهيار النظام الاقطاعي القديم وانتصار النظام الرأسمالي الجديد في عدد من البلدان اولها انكلترا وفرنسا • وتطورت الرأسمالية في بلدان أخرى • ونضجت الثورة البرجوازية في المانيا • وحملت الرأسمالية معها تطوراً لم يكن له مثل من قبل في قوى المجتمع المنتجة ، بدأ على أساسه تطور سريع في علم الطبيعة • ولكن المجتمع البرجوازي الجديد حمل معه أيضاً تناقضات اجتماعية جديدة لا مثل لقوتها وحدتها • ولاقت هذه التناقضات أعمق تعبير عنها في الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا •

لقد كانت التناقضات الطبقية موجودة أيضاً في المجتمع الاقطاعي • ولكن هذه التناقضات وحلّها لم يكونا يحملان في ذاتهما امكانيات انشاء مجتمع خال من استغلال الانسان للانسان • ان اسلوب الانتاج الرسمالي ينشأ لأول مرة في التاريخ بفعل قوانينه الاقتصادية الخاصة مقدمات موضوعية لتدمير كل استغلال وكل شكل للعبودية الاجتماعية • وهو قد خلق البروليتاريا - تلك القوة الاجتماعية القادرة على تحقيق أعمق انقلاب ثوري في حياة الانسانية وبناء مجتمع جديد قائم على التعاون بين أناس متحررين من الاستغلال • ان نضال البروليتاريا ، خلافاً للنضال الطبقي في النظم الاجتماعية السالفة ، لا يهدف إلى استبدال شكل من الاستغلال بشكل آخر وإنما إلى تدمير الاستغلال عموماً وتحرير الانسان اجتماعياً وتحرير الانسانية •

ومنذ الخطوات الاولى لوجود المجتمع البرجوازي يبدأ نضال البروليتاريا ضد البرجوازية • وفي الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر ينتشر النضال ويتزايد حدة • وتفجر ثورات البروليتاريا ، واحدة اثر أخرى ، في

البلدان المختلفة ، ثورة العمال الفرنسيين في ليون ، وحركة التشارتستيين الجبارة التي قامت بها البروليتاريا الانكليزية ، وثورة عمال نسيج سيليزيا في ألمانيا - هذه الاحداث وغيرها كانت أولى البشائر الجدية للنضال التحرري المتنامي الذي كانت الطبقة العاملة تخوضه ضد البرجوازية •

ولكن العمال لم يكونوا في هذا النضال يمتلكون بعد برنامجاً واضحاً • لقد ناضلوا من أجل وجودهم ، من أجل حقهم في الحياة ومن أجل تخفيف وطأة الاستغلال القاسي للانساني • ولكنهم لم يكونوا يرون أو يدركون المعنى التاريخي العالمي للحركة العمالية • ولم تكن لديهم منظماتهم التي تترأس نضالهم وتوجهه في الطريق الصحيح • ولم تكن أعمالهم موجهة بالنظرية العلمية الثورية التي لا يمكن أن تنجح حركة ثورية بدونها •

وكانعكاس للتناقضات الصارخة في المجتمع البرجوازي ، التناقض بين فقر جماهير الشغيلة المدقع وغنى الطبقات السائدة ، نشأت نظم الاشتراكية الطوباوية • وكان ألمع ممثلي الاشتراكية الطوباوية في بداية القرن التاسع عشر هنري سان سيمون ، وشارل فورييه ، وروبرت أوين • وقد أصبحت آراؤهم الاشتراكية أحد المصادر النظرية للماركسية • وكانت الجوانب القوية في الاشتراكية الطوباوية هي نقدها للنظام البرجوازي وتصويرها العميق لتناقضات وعيوب الرأسمالية • وآمن الاشتراكيون الطوباويون ايماناً شديداً في المستقبل الأفضل للانسانية ، وخبثوا ، بعقريه ، بعض صفات المجتمع المقبل ، ودعوا ببسالة لفكرة الاشتراكية • ولكن هذه الاشتراكية كانت اشتراكية غير علمية • انهم لم يدركوا الطبيعة الاجتماعية للبروليتاريا ولم يستطيعوا أن يروا فيها تلك القوة الاجتماعية التي تحقق التحول الاشتراكي في المجتمع • ان الاشتراكيين الطوباويين لم يعرفوا أبداً طرق ووسائل تدمير النظام الرأسمالي وانشاء المجتمع الاشتراكي • ولم يتوجهوا بمواعظهم إلى الشعب ولا إلى جماهير الشغيلة وإنما إلى كل الطبقات وإل رجال السياسة والبرجوازية وإلى « الملوك المتورين » ، آمليين أن يحققوا بمساعدتهم خططهم • ومن المفهوم ، انه بالرغم من كل الصفات الايجابية للاشتراكية الطوباوية فهي لم تستطع أن تساعد البروليتاريا

في نضالها ضد البرجوازية • بل وأكثر من ذلك، فإن نظريات الطوباويين أصبحت مع الزمن ، تعيق حل المسائل الملحة لحركة الطبقة العاملة الثورية • وذلك لعدم فهم واضعها أن الاشتراكية تصبح حلاً لا يمكن بلوغه بدون نضال البروليتاريا الطبقي •

ان انشاء الاشتراكية العلمية ، أو الشيوعية العلمية ، وهي الأمر ذاته ، أصبح المهمة التاريخية الملحة للعصر الجديد الذي بدأ بانتصار الرأسمالية واتساع النضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية • لقد طرح كل مجرى التاريخ هذه المهمة ونفذها ايدولوجيا البروليتاريا - ماركس وانجلز •

وكان انشاء الاشتراكية العلمية عملاً في غاية التعقيد والصعوبة • لقد كتب انجلز فيما بعد : « من أجل تحويل الاشتراكية إلى علم كان من الضروري قبل كل شيء ، أن توضع على أساس واقعي »^(١) • ووضعها على أساس واقعي كان يعني البرهنة علمياً على أن الاشتراكية ليست اكتشافاً مصادفاً من ابداع هذا العقل العبقري أو ذلك كما ظن الاشتراكيون الطوباويون ، وانما هي نتيجة حتمية وقانونية لتطور الرأسمالية الاقصادي وصراع الطبقات • ومن أجل هذا كان من الضروري الكشف عن جوهر أسلوب الانتاج الرأسمالي ، ومعرفة قوانين تطوره واكتشاف آلية الاستغلال الرأسمالي التي تحتم صراع الطبقتين الاساسيتين في المجتمع البرجوازي - البروليتاريا والبرجوازية •

ان أهم مقدمة لانشاء نظرية الاشتراكية العلمية كانت صياغة النظرية الفلسفية العلمية • فبدون ذلك كان من المستحيل التقدم خطوة واحدة من الاشتراكية الطوباوية نحو الاشتراكية العلمية • لم تكن للاشتراكية الطوباوية تربة واقعية للاسباب التي أوردناها ولأنها كانت تعالج الحياة الاجتماعية معالجة ميتافيزيكية على الرغم من بعض اللمحات الديالكتيكية العبقرية •

(١) ف • انجلز • ضد دوهرينغ الصفحة ٢٠ •

ومن مواقع الميتافيزيكية والمثالية كان من غير الممكن انشاء حتى نظرية اقتصادية علمية تفسر جوهر الاسلوب الرأسمالي للانتاج .
ولا يجوز أن نقول انه قبل ماركس وانجلز لم تكن هناك محاولات لمعرفة جوهر وقوانين الرأسمالية . ويعود فضل كبير في هذا المجال إلى أبرز ممثلي علم الاقتصاد السياسي الانكليزي -سميث وريكاردو المدين وضعا لبداية نظرية القيمة والعمل . ان نظريتهما الاقتصادية ، كالاشرائية الطوباوية ، كانت احدى المصادر النظرية للماركسية . وعندما وضع ماركس اقتصاده السياسي استخدم استخداماً نقدياً نظرية سميث وريكاردو . ولكن هذين الاقتصاديين ، كمعبرن عن مصالح البرجوازية ، لم يستطيعا أن يريا الطابع المرحلي للرأسمالية ، ودرسها ميتافيزيكياً ، كشكل أبدي لا يتبدل للمجتمع الانساني . وقد عاقهما هذا عن كشف جوهر الاسلوب الرأسمالي في الانتاج .

ولكي تتحول الاشرائية من طوباوية إلى علم ، كان لا بد من التغلب نهائياً على المثالية ككل ، وخاصة الفهم المثالي للتاريخ الذي كان يتبناه الفلاسفة من قبل وحتى أولئك الذين كانوا يتبنون النظرة المادية في تفسير الطبيعة . كان لا بد من التغلب على الطريقة الميتافيزيكية في التفكير التي أعاقت النظر إلى المجتمع في تطوره وتبدله ، في انتقاله من الاشكال القديمة المهترئة إلى الاشكال الجديدة . وكان لا بد من صياغة طريقة علمية فلسفية لمعرفة الواقع . وباختصار ، ان نشوء الماركسية والاشترائية الماركسية لم يكن ممكناً بدون انقلاب في الآراء الفلسفية التي كانت سائدة آنذاك . وقد قام ماركس وانجلز بهذه الثورة في الفلسفة بانشائهما المادية الديالكتيكية والتاريخية .

وبفضل المادية الديالكتيكية والتاريخية فقط ، استطاع مؤسس الماركسية أن يعطيا التحليل العلمي للرأسمالية ، ويظهرا أن الاشرائية هي نتيجة مقنونة لتطور المجتمع ، ويوضحا الاهمية التاريخية العالمية لدور البروليتاريا كحفار قبر الرأسمالية ، ويدلا الطبقة العاملة إلى طريق الاستيلاء على السلطة السياسية وإنشاء مجتمع جديد أي مجتمع اشتراكي . لقد نشأت الفلسفة الماركسية ، بالتالي ، في ارتباط وثيق بعملية تكون الماركسية كأيديولوجية للبروليتاريا .

وإلى جانب الاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية تقف المادية الديالكتيكية والتاريخية كجزء مكون للماركسية يشكل أساسها الفلسفي •

وإذا كان ماركس وانجلز قد أحدثا ثورة في الفلسفة وأنشأ نظرية فلسفية تعطي النظام الصحيح العميق ، عملياً، من الآراء عن العالم، فإن هذا يفسر، ليس فقط ، بأنهما كانا مفكرين عميقين ، وإنما ، وقبل كل شيء ، بأنه قيل ظهورهما تكونت كل المقدمات اللازمة لذلك • ان تطور العلوم ، وخاصة علم الطبيعة ، كان قد بلغ حداً أصبح باستطاعة المرء معه أن ينشئ نظرية فلسفية مادية ديالكتيكية علمية أصيلة • وقد لاحظ انجلز في معرض تقويمه لنتائج تطور علم الطبيعة ان النظرة الجديدة إلى الطبيعة معادية للمثالية وللميتافيزيك وان علم الطبيعة قد هيا لها منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً •

ولا نستطيع أن نفهم عملية نشوء وتكوين المادية الديالكتيكية ، بغض النظر عن العلاقة العضوية بين هذه العملية وتطور علوم الطبيعة • وقد تابع مؤسس الماركسية ، منذ أولى خطواتها في العمل وحتى نهاية حياتها ، باهتمام نجاحات العلم والتكنيك • ان المبادئ الجذرية للمادية الديالكتيكية وهي علم عن جوهر العالم المادي وعن المادة وأشكال وجودها وعن أشمل قوانين تطور البيئة وعن علاقة المادة والفكر – لم تكن لتتطور بانسجام إلا على أساس صلب من المعارف التي تم التوصل إليها عن الطبيعة • ان الثورة التي صنعها ماركس وانجلز في مجال الفلسفة كانت تعني نشوء المادية الديالكتيكية وكانت نتاج التعميم العميق لتطور علم الطبيعة والممارسة الاجتماعية التاريخية • ان البحث العلمي عن الرأسمالية وتناقضاتها والنضال الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، كل هذا أتاح امكانية طرد المثالية من آخر معاقلها – من مجال علم المجتمع ومن التاريخ – وانشاء المادية التاريخية •

غير ان الظروف الموضوعية وحدها لم تكن كافية لانشاء المادية الديالكتيكية • وكان لا بد من وجود ايدولوجيين يستطيعون أن يقدموا تحليلاً شاملاً عميقاً ويعمموا المعطيات الجديدة للعلم والتناقضات الجذرية للرأسمالية ؛ كان لا بد من تحليل صادق لا يخشى الوقائع ولا يرتبط بالمصالح البرجوازية النفعية •

وكان من الممكن فعل ذلك فقط من مواقع الطبقة العاملة ، الطبقة الأكثر ثورية في المجتمع الرأسمالي . مآثرة ماركس وانجلز التاريخية هي في انها انتقلا بشجاعة إلى مواقع البروليتاريا وقاما بالعمل العلمي العظيم .

كانت المانيا ، حيث عاش ماركس وانجلز ، على أبواب الثورة البرجوازية . ورغم انها كانت متأخرة اقتصادياً بصورة نسبية ، اذ انها سلكت طريق التطور الرأسمالية متأخرة عن انكلترا وفرنسا ، فقد كانت فيها بروليتاريا متطورة نسبياً . وانتقل مركز الحركة الثورية في ذلك العصر إلى المانيا . وهذا يفسر لنا كونها هي بالذات موطن الماركسية .

كانت الماركسية ، التي نشأت على تربة المانيا الاجتماعية ، إلى جانب ذلك ، نتيجة لتطور تناقضات الرأسمالية العالمية ، نتيجة لتعميم التجربة التاريخية العالمية لتطور الانسانية كلها . وثمة أهمية خاصة في صياغة الماركسية كانت لدراسة الحياة الاجتماعية في انكلترا ، أرقى بلد رأسمالي آنذاك .

لم يقف ماركس وانجلز مباشرة ومن أولى خطواتهما إلى جانب الطبقة العاملة . ولم يصيغا رأساً مبادئ النظرية الجديدة . فعندما ظهر مؤسساً الماركسية المقبلان على المسرح الاجتماعي في المانيا كانت فلسفة هيغل المثالية هي السائدة . ولعبت هذه الفلسفة دوراً كبيراً في تطور وآراء ماركس وانجلز . وقد قدرا دائماً تقديراً عظيماً أهمية هيغل في تطور الفكر الفلسفي عموماً وفي تطورهما هما بصورة خاصة . ان الفلسفة الهيجلية متناقضة كما سبق وذكرنا . واذا كانت طريقتهما الديالكتيكية ثورية في جوهرها فان نظامها المثالي محافظ . ولدى قيام ماركس وانجلز بصياغة نظريتهما العلمية صاغاً الديالكتيك الهيجلي بروح نقدية . فأخذنا جوهره الثوري ، أي فكرة التطور من خلال التناقضات وعلى شكل قفزات . وعملية تكون آرائهما الفلسفية تنحصر في التحرر الحاسم من المثالية الهيجلية والانتقال إلى مواقع المادية . وفي نهاية الثلاثينيات انضم ماركس وانجلز إلى الهيجليين الشبان .

وكان الهيجليون الشبان يمثلون الجناح اليساري في الفلسفة الهيجلية ،

والمعبرين عن أفكار البرجوازية الراديكالية الناهضة الساعية إلى اجتثاث
الاقطاعية في البلاد • وتنطبع مؤلفات ماركس وانجلز الأولى (١٨٤١-١٨٤٢)
بطابع الهيجيلية • ولكن تميّز آرائهما آنذاك ينحصر في انهما كانا مشبعين
بروح النضال الثوري الديمقراطي دفاعاً عن حقوق الشعب • وميز هذا منذ
البداية مواقع ماركس وانجلز عن مواقع بقية الهيجيليين الشبان الذين أهملوا
الشعب وخافوه والذين سرعان ما تعرضوا لنقد لا هوادة فيه من قبل
ماركس وانجلز •

وكان لعمل ماركس في « الجريدة الرينانية » أهمية كبيرة في تطور آرائه
الفلسفية والسياسية • وكانت هذه الجريدة تنطق باسم المعارضة البرجوازية
المعادية للأقطاعية • أعطى ماركس للجريدة اتجاهاً نضالياً ثورياً ديمقراطياً •
واصطدم خلال عمله في « الجريدة الرينانية » بالتناقضات الاجتماعية وبعدد من
المسائل الاقتصادية • ورأى أن فلسفة هيغيل المثالية تلاقي الهزيمة اثر الأخرى
لدى اصطدامها بالحياة • وهكذا ، فعندما عالج ماركس احدى مسائل العصر
الملحة معالجة مثالية ، وهي مسألة حرية الصحافة معتبراً الصحافة تعبيراً عن
« الروح الحرة » ، اقتنع بأن الصحافة ، في الواقع ، كانت تدافع عن مصالح طبقات
ضد مصالح طبقات أخرى ، عن مصالح المستغلين ضد الشعب • كما أن الفهم
المثالي للدولة ، كتجسيد للروح الشاملة ومصالح جميع الطبقات ، لم يصمد
للامتحان • ويقتنع ماركس بأن الدولة البروسية ، في الواقع ، وقوانينها
وتشريعاتها لا تدافع إلا عن مصالح الاغنياء ، أما « الفقير فيذهب ضحية الكذب
القانوني » • ويبدأ ماركس بالتكلم باسم الشعب الشغيل • فهو يكتب في احدى
مقالاته المبكرة : « انا نطالب بالحق الطبيعي للفقراء ••• بل انا نمضي إلى
أبعد من ذلك ونؤكد أن الحق الطبيعي بطبيعته لا يمكن إلا أن يكون حق
ذلك الجمهور الفقير المشرد غير المنظم »^(١) • وخطوة اثر خطوة يقتنع ماركس
بأولوية العلاقات المادية في المجتمع على العلاقات الفكرية • ويبين في
عدد من المقالات أن المصالح المادية هي التي تحدد ، قبل كل شيء ، سلوك

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ - ١٩٥٥ الصفحة ١٢٥ •

الطبقات والمجموعات الاجتماعية • وفي مقالاته حول قانون سرقة الحطب يكشف ، بسطوح ، دور الدولة البروسية كسلاح للدفاع عن المصالح الاقتصادية للملكية الغابات • كتب ماركس : « ان مصلحة مالك الغابة يجب أن تصيح الروح الموجه لكل الآلة »^(١) • وبشجاعة متناهية يكشف عن التناقض بين الطبقات السائدة وجماهير الشغيلة : « ... اذا كانت النحللات العاملات في عالم الطبيعة والحيوان تقتل اليعاسيب ففي عالم الاحياء المفكرين يجري العكس فتقتل اليعاسيب النحللات العاملات - تقتلها من شدة تشغيلها » • وسرعان ما أغلقت « الجريدة الريمانية » بسبب اتجاهها الثوري • وواصل ماركس عمله في اعادة النظر في الفلسفة الهيجلية وفي تكوين آرائه المادية الخاصة به •

وسار انجلز في هذه الطريق بصورة مستقلة • وكانت لاقامة انجلز في انجلترا أهمية كبرى في تطور آرائه • وقد كتب انجلز فيما بعد متذكراً طريق تطوره : « عندما كنت أعيش في مانشستر اصطدم أنفي ، كما يقولون ، بحقيقة أن الوقائع الاقتصادية التي كانت حتى آنذاك لا تلعب دوراً ، أو تلعب دوراً هزيبلاً في المؤلفات التاريخية ، هي ، على أقل تقدير ، القوة التاريخية الحاسمة في العالم المعاصر ... »^(٢) •

وأثرت فلسفة فيرباخ تأثيراً عظيماً على تكوين آراء ماركس وانجلز الفلسفية • ان النقد الحار الساطع الذي يوجهه فيرباخ إلى المثالية الهيجلية قد ساعدهما بالانفصال عن المثالية الفلسفية والوقوف نهائياً في صف المادية • وقد كتب انجلز في مؤلفه « لودفيغ فيرباخ ... » عن كتاب فيرباخ « جوهر المسيحية » الذي ضمنه فلسفته المادية : « كان من الضروري على المرء أن يعيش التأثير التحرري لهذا الكتاب حتى يتصور ذلك » • أي يتصور دور فيرباخ في التحرر من المثالية الهيجلية • ويسمي انجلز مادية فيرباخ « الحلقة الاخيرة » بين فلسفة هيجل والفلسفة الماركسية • ولكن ماركس وانجلز ، خلافاً لفيرباخ ، لم

(١) المصدر ذاته الصفحة ١٤٢ •

(٢) ماركس وانجلز - مؤلفات مختارة - الجزء ٢ الصفحة ٣٢٦ •

يطرحا جانباً الناحية القيمة في فلسفة هيغيل - الديالكتيك ، نظرية التطور ، بل صاغاً الديالكتيك بروح مادية • وهكذا فإن الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وخاصة ديالكتيك هيغيل ومادية فيرباخ ، كانت أحد المصادر النظرية الهامة جداً لصياغة الماركسية والفلسفة الماركسية •

أصبح عام ١٨٤٤ ، بالنسبة لماركس وانجلز ، حداً تم فيه الانتقال من الآراء القديمة إلى الآراء الجديدة • فقد صاغاً ، كل مستقلاً عن الآخر ، آراءهما الفلسفية وأصبحا ثوريين بروليتاريين • وفي عام ١٨٤٤ نشر ماركس وانجلز في « المجلة السنوية الألمانية الفرنسية » وفي وقت واحد مقالتين صاغاً فيهما الآراء الجديدة •

كان هذا حدثاً مؤثراً في تاريخ الفكر الانساني • فخلال قرون كانت الفلسفة بعيدة عن الشعب ، عن متتجي الخيرات المادية الذين كان عملهم ، في جميع العصور ، أعمق أساس للتقدم الاجتماعي • أضف إلى ذلك ان أغلب نظم الماضي الفلسفية ، كانت ترى في عمل الجماهير الشعبية أقل أشكال النشاط الانساني خصوبة في مجال تطور المجتمع •

وها قد حلت اللحظة التي هبطت فيها الفلسفة من السماء إلى الأرض • لقد أكدت الفلسفة الماركسية أن الدور الحاسم في حياة المجتمع هو دور عمل الجماهير الشعبية • وقد أعلنت ، على عكس التقاليد المثالية ، ان أناس العمل بالذات هم « ملح الارض » • وبين ماركس في مقاله « نحو نقد فلسفة الحق الهيجيلية » عدم ثبات المثالية الفلسفية والفهم المثالي للتاريخ • وينادي بالدور التاريخي العالمي للبروليتاريا باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على منح الحرية للانسانية الشغيلة كلها • وهو يعلن أن « الفلسفة تجد في البروليتاريا سلاحها المادي ••• وتجد البروليتاريا في الفلسفة سلاحها الروحي ••• » (١) •

وقد عبر الماركسي الألماني ميرينغ تعبيراً ناجحاً عن ذلك فقال انه كان يعني أن الفلسفة فهمت البروليتاريا والبروليتاريا فهمت الفلسفة •

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ - ١٩٥٥ الصفحة ٤٢٨ •

وفي عام ١٨٤٢ كان اللقاء الأول وفي عام ١٨٤٤ - اللقاء الثاني بين ماركس وانجلز • ومنذ ذلك التاريخ قاما بتشابكي الايدي بصياغة النظرية المادية الديالكتيكية • وفي المؤلفين اللذين كتبهما خلال أعوام ١٨٤٤ - ١٨٤٦ « العائلة المقدسة » و « الايديولوجية الالمانية » حللا تحليلياً وافياً فلسفة هيغيل وفيرباخ وكشفا عن جوانبهما القوية والضعيفة وانتقدا الهيجيليين الثبان وخطما نظريتهم المثالية حول ان « الفرد الفكر الناقد » هو كل شيء في التاريخ، أما الشعب - فلا شيء، وقدما أول صورة للمادية التاريخية^(١) •

وكان كتاب ماركس « بؤس الفلسفة » خطوة هامة في صياغة النظرية الماركسية ككل وصياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية بصورة خاصة • ويحطم ماركس في هذا المؤلف طوباوية برودون البرجوازية الصغيرة ويصوغ مبادئ الاشتراكية العلمية وأسس المادية الديالكتيكية والفهم المادي للتاريخ •

لم ينحصر عمل ماركس وانجلز في صياغة نظريتهما الجديدة • فقد كان هدفهما الرئيسي هو ربط الاشتراكية العلمية بالحركة العمالية وتوجيه نضال العمال العقوي في سيل ثوري واع • وفي عام ١٨٤٧ نشأت أول منظمة بروتيتارية بمساهمتهما النشيطة وهي اتحاد الشيوعيين •

وظهر في عام ١٨٤٨ « بيان الحزب الشيوعي » ، الذي كتبه ماركس وانجلز بطلب من اتحاد الشيوعيين • ويتضمن هذا المؤلف الشهير ، ليس فقط أول منهاج علمي للحزب الشيوعي ، وانما يعرض أيضاً النظرة الجديدة إلى العالم التي صاغها ماركس وانجلز • فقد كتب لينين يقول : فيه رسمت «بوضوح عبقرى وسطوع النظرية الجديدة، المادية المنسجمة التي شملت المجال الاجتماعي أيضاً ، والديالكتيك كنظرية شاملة وعميقة عن التطور ، ونظرية الصراع

(١) - يمجّد بعض المحرّفين المعاصرين أعمال ماركس وانجلز المبكرة ويقولون من أهمية أعمالهما الأساسية الناضجة • وهم يحاولون تفسير هذه الاعمال المبكرة بروح « الانسانية » المثالية المجردة، صامتة عن محتواها الثوري ومشوهين له • لكن هذه المحاولة غير مجدية ، لأن مؤسسي الماركسية ، حتى في هذه الاعمال المبكرة ، يقفان بصلابة في مواقع البوليتاريا الثورية •

الطبقي والدور الثوري التاريخي العالمي للبروليتاريا مبدعة المجتمع الشيوعي الجديد» (١) .

وضع ماركس وانجلز ، قبل عام ١٨٤٨ أسس نظريتهما بما في ذلك الفلسفة . وبعد عام ١٨٤٨ تبدأ الصياغة الشاملة العميقة لهذه النظرية ويبدأ تطورها . وكان العمل التاريخي الرئيسي في هذه الطريق هو مؤلف ماركس الأساسي - « رأس المال » الذي عمل فيه طوال حياته والذي يعد المؤلف الأساسي في الماركسية . ان لـ « رأس المال » ، وهو المؤلف الاقتصادي ، أهمية فلسفية لا تقدر . فقد طبق فيه ماركس تحليل الاسلوب الاجتماعي الاقتصادي الرأسمالي بطريقة مادية دياكتيكية وكشف المبادئ الأساسية لهذه الطريقة وصاغ ، على أساس بحث الرأسمالية ، النظرية المادية في المعرفة والمنطق . وكتب لينين يقول : - انه إذا كان ماركس ، خلافاً لهيجل ، لم يؤلف كتاب « المنطق » ، أي لم يضع مؤلفاً خاصاً بالديالكتيك ، فانه قد قدم لنا منطق « رأس المال » . وأشار لينين إلى ان المادية التاريخية ، قبل « رأس المال » كانت فرضية . وبفضل « رأس المال » الذي أعطى تفسيراً لاسلوب معقد بكل جوانبه ، كالرأسمالية ، أصبحت المادية التاريخية النظرية الاجتماعية العلمية الوحيدة المبرهن عليها والتي لا يمكن دحضها .

وكتب انجلز عدة أعمال مكرسة بصورة خاصة لتأسيس وصياغة المادية الديالكتيكية والتاريخية . ومن هذه الاعمال كتاب « ضد دوهرنغ » و « لودفيغ فيرباخ ... » و « أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » وغيرها من المؤلفات التي سلطت فيها أضواء ساطعة على كل جوانب الفلسفة الماركسية - المادية والديالكتيك ونظرية المعرفة والفهم المادي للتاريخ - وذلك على أساس تعميم علم الطبيعة والممارسة التاريخية وعلى أساس نقد التيارات الفلسفية المعادية للماركسية . ومن بين هذه المؤلفات يتصف عمل انجلز غير المنتهي « دياكتيكية

(١) لينين - المؤلفات - الجزء ٢١ الصفحة ٢٢ .

الطبيعة ، بأهمية كبيرة • فقد باشر انجلز في هذا العمل محاولة ضخمة على أساس معطيات العلوم المعاصرة له - الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، محاولة لتأسيس الديالكتيك المادي باعتباره الطريقة الفلسفية الوحيدة الصحيحة لعلم الطبيعة المعاصر ، ولييان الطابع الديالكتيكي لتطور الطبيعة •

ويحقق مؤسس الماركسية صياغتهما لنظريتهما في ترابط وثيق مع النشاط التنظيمي الثوري على أساس تعميم ممارسة الحركة العمالية •

وقد أسس ماركس وانجلز في عام ١٨٦٤ « زمالة العمال العالمية » - الاممية الاولى • وخلال كل نشاطهما كانا يقودان النضال من أجل تطهير الحركة العمالية من الافكار البرجوازية الصغيرة والانتهازية بما في ذلك الانتهازية الانعزالية « اليسارية » والفوضوية ، ومن أجل انتصار الشيوعية العلمية •

فما هو جوهر الانقلاب الثوري الذي أحدثه ماركس وانجلز في الفلسفة ؟ وما هي الصفات الانسانية الجديدة التي ترقى بالفلسفة الماركسية فوق كل الفلسفات السابقة وتحدد ميزاتها النوعية الجذرية عن الآراء والنظم الفلسفية السابقة ؟

٢ - جوهر الانقلاب الثوري الذي

أحدثته الماركسية في الفلسفة

عبر ماركس عن الخاصة الحاسمة في المادية الديالكتيكية والتاريخية في احدى المشروعات المبكرة لنظريته الجديدة - في « موضوعات عن فرباخ » : « ان الفلاسفة اکتفوا بتفسير العالم بصور مختلفة ، ولكن القضية هي في تبديله » •

تظهر في هذه الموضوعة ميزة جذرية من ميزات الفلسفة الماركسية عن كل الفلسفات السابقة • ولا يجوز طبعاً أن نفسر كلمات ماركس هذه بمعنى أن كل الفلسفات القديمة تأملت العالم تأملاً سلبياً وانه لم يكن بين الفلاسفة مناظرون ثوريون سعوا إلى تبديل النظم الاجتماعية • لقد سبق وتحدثنا عن الدور

الرائع الذي لعبه الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر ، الذين قادوا حرباً لا هوادة فيها ضد الاستعباد الاقطاعي للانسان . ولكن موضوعة ماركس تحدد بدقة ، رغم ذلك ، جوهر الفلسفة القديمة . وحتى أولئك الفلاسفة القدماء ، بما فيهم الماديون الفرنسيون ، الذين سعوا إلى التحولات الاجتماعية ، افترضوا أن مصدر الشرور الاجتماعية ، وحرمان الانسان من الحقوق في ظل الاقطاعية والحروب والفقر والحذر الديني وما شابه ذلك - إنما يكمن في الفهم الخاطيء للعالم وطبيعة الانسان وغير ذلك . ويكفي ، حسب آرائهم ، أن نطرح الآراء الخاطئة جانباً ونفسر العالم تفسيراً صحيحاً ونفهم فهماً صحيحاً طبيعة الانسان التي هي - حسب رأيهم - طبيعية وأزلية ، لكي يصبح بالامكان تبديل الوضع في المجتمع . انهم لم يعرفوا أن أسباب النظم الاجتماعية ، وتلك الافكار الخاطئة التي انتقدوها ، أيضاً ، إنما تكمن في الظروف التاريخية الموضوعية للحياة المادية للمجتمع ولذا فان تبديل هذه الظروف هو الطريق الواقعية الوحيدة للتقدم الاجتماعي .

فالماديون الفرنسيون ، مثلاً ، انتقدوا اللاهوت بحدة وناضلوا من اجل تحرير الانسان من الآراء اللاهوتية ، ورأوا بذلك ، عن حق ، احدى وسائل تحرير الانسان . ولكنهم ظنوا ان تدمير اللاهوت وتحرير الانسان من أسرهِ ممكن فقط عن طريق تفسير العالم تفسيراً صحيحاً وبدون إعادة بناء تلك الظروف الاجتماعية التي تعتبر التربة المغذية لللاهوت .

لذا ففي مركز النظم الفلسفية القديمة لم يحتل التطبيق ولا النشاط الثوري العملي للانسانية مكانه ، هذا النشاط الوحيد القادر على إعادة بناء العالم ، وانما كان في مركزها ، وبصورة رئيسية ، النشاط الفكري والتأمل وتفسير العالم . في هذا ترى الماركسية النقص الاساسي للمادية السابقة كلها . وجاء في « موضوعات عن فيرباخ » : ان الواقع والاشياء تؤخذ فقط بشكل تأملي ودون ربطها بالنشاط العملي .

وعلى عكس هذه الفلسفة ، تعطي الفلسفة الماركسية أهمية حاسمة لنشاط الناس العملي المحوّل . وهذا لايعني أن الماركسية تقلل من دور النشاط

الفكري للانسانية • فلما ركس بالذات ، الذي وضع ايدولوجية البروليتاريا ، تعود الموضوعه الرائعة التي تكشف الأهمية العظيمة للأفكار في تطوير الحياة الاجتماعية • وفي العمل الذي ذكرناه سابقاً « نحو نقد فلسفة الحق الهيجيلية » حيث صاغ ماركس آراءه الجديدة ، أشار إلى أن « النظرية أيضاً تصبح قوة مادية حالما تملك الجماهير »^(١) •

ولكن النظرية تصبح قوة مادية عندما ترتبط بالتطبيق وتخضع له وتستند اليه كأساس لها • ان ماركس وانجلز في نقدهما للفلسفة الهيجيلية في أعمالها المبكرة ، تلك الفلسفة التي لا تعترف إلا بالنشاط الفكري والروحي كنشاط انساني ، كشف عن الجذور الطبقيه لضيق الافق هذا • ان الفلسفة المثالية ، اذ تعطي الأهمية الاولى في تطور المجتمع للنشاط الروحي ، تحول انظار جماهير الشغيلة عن الأسس المادية لعبوديتها • والمثالية تستطيع أن تتيح لنفسها متعة نقد العبودية الاجتماعية والاضطهاد • ولكن هذا ، كما بين ماركس وانجلز ، ليس إلا « نقداً أخرس » : فالشيء الواقعي يتحول عند المثالية إلى شيء فكري ويُنْتَقَد كظاهرة روحية • لذلك فإن التغلب على الاضطهاد لا يتجاوز حدود الافكار المجردة •

لقد أكد هيجيل ، مثلاً ، انه « في أساس العبودية ، عموماً ، يوجد كون الانسان لايحي حريته ••• » مما لا شك فيه ان وعي الانسان لاستعباده هو خطوة نحو الحرية • ولكن القيود الحقيقية لايمكن أن تتحطم في أطر الوعي وحده • تحدث أتباع هيجيل الثبان كثيراً عن « الحرية » وعن « استعباد » الانسان ، ولكن الوسيلة الوحيدة لتحرير الانسان ، في نظرهم ، هي النقد الفلسفي للاهوتية وسعي الناس نحو الكمال الأخلاقي • وقد أشار ماركس ، متنبهاً اياهم ، إلى انهم تعلموا من هيجيل « فناً واحداً - هو فن تحويل السلاسل الواقعية الموضوعية الموجودة خارج ذاتي إلى سلاسل مثالية

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ١ - ١٩٥٥ الصفحة ٤٢٢ •

تماماً وذاتية تماماً وموجودة في ذاتي تماماً ، ولذا فان كل المعارك الخارجية المحسوسة تتحول إلى معارك بين الافكار المجردة » (١) .

ان السلاسل العبودية الحقيقية في الواقع يمكن أن تدمر بطريقة واقعية ، أي بالنشاط العملي ، بالنضال ، والقوة المادية للاضطهاد يمكن أن تقهر بالقوة المادية أيضاً . والبروليتاريا بحكم ظروفها ذاتها مضطرة إلى التفريق بين الحياة الواقعية والحياة المتخيلة ، بين الواقع والوعي . كتب ماركس يقول : « ... ان جماهير العمال الشيوعيين الذين يعملون ، مثلاً ، في ورشات مانشستر وليون لا يفكرون انه من الممكن « عن طريق التفكير المجرد » بمساعدة المحاكمات المنطقية وحدها أن يتخلصوا من أرباب عملهم ومن ذلهم العملي . انهم يحسون بحدّة الفرق بين الوجود والتفكير ، بين الوعي والحياة . انهم يعرفون أن الملكية ورأس المال والنقود والعمل الأجور وما شابه ذلك ليست أبداً أو هام خيال وإنما هي نتاجات عملية جداً وملموسة جداً لتجريد العمال ذاته من وسائل العمل . ولذا فان ازالتها يجب أن تكون أيضاً بصورة عملية وملموسة من أجل أن يصبح الانسان انساناً ليس فقط في التفكير والوعي ، وإنما في الوجود الجماهيري في الحياة » (٢) .

ان الماركسية فلسفة وضعت في مركزها كل مسائل التطبيق وبينت الطريق الحقيقية الواقعية لتبديل العالم ، وتبديله لصالح تحرر الانسانية من الاضطهاد الاجتماعي . لذا فان الفلسفة الماركسية تتميز بتأثيرها واتجاهها نحو التغيير الثوري العملي للمجتمع . انها تفسر عملياً العالم ولكنها لا تكتفي بذلك: فكل معنى تفسيرها هو من أجل أن يفهم الناس ان العالم القائم على الاستغلال والاضطهاد لا يجب أن يفسر وحسب ، وإنما أن يعاد بناؤه أيضاً . وتعتبر الماركسية ان اقامة ديكتاتورية البروليتاريا هي الوسيلة الرئيسية لتحويل المجتمع اشتراكياً .

ان الماركسية والفلسفة الماركسية تسلحان ملايين الناس من الطبقة العاملة

(١) ماركس وانجلز المؤلفات الجزء ٢ - ١٩٥٥ الصفحة ٩٠ .

(٢) المصدر نفسه - الصفحة ٥٨ .

وسائر الشغيلة وطلبتها - الحزب الشيوعي بمعرفة قوانين تحويل العالم ثورياً .
لقد كانت الفلسفة من قبل ، في متناول دائرة محدودة من الناس • ولكن
الفلسفة الماركسية أصبحت وتصبح في كل يوم في متناول جماهير متزايدة من
الناس المناضلين في سبيل الاشتراكية • ان التاريخ العالمي يتحرك في عصرنا
نحو الشيوعية ، والمادية الديالكتيكية والتاريخية هي الأساس الفلسفي النظري
لهذه الحركة •

ان الأهمية التاريخية العالمية لنشوء الفلسفة الماركسية هي ، بالتالي ، في
كونها حملت النصر النهائي للاتجاه المادي العلمي الوحيد في الفلسفة وخلقت
شكلاً أرقى من المادية هو المادية الديالكتيكية •

ان مادية ما قبل عصر ماركس لعبت دوراً عظيماً في النضال ضد المثالية
الفلسفية واللاهوت وفي الدفاع عن مواقع العلم • ولكن ضيق الافق التاريخي
لمادية ما قبل عصر ماركس اعاقها عن ربح المعركة الحاسمة ضد الفلسفة
المثالية وعن تأكيد مبادئ المادية تأكيداً نهائياً • وكان من غير الممكن من مواقع
الطريقة الميتافيزيقية التي تعالج الطبيعة كمجموعة من الأشياء الجامدة غير
المتبدلة ، تفسير وحدة العالم والعلاقة القانونية والانتقال من الطبيعة غير العضوية
إلى الطبيعة العضوية ونشوء الوعي والكثير غير ذلك من المسائل الأخرى ذات
الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة للمنظرية العلمية • وقد استفاد المثاليون من
هذا لتأكيد الايمان باللاهوت وبالقوة الخارقة للطبيعة ، التي يزعمون أنها تدير
الطبيعة والانسان •

ويجدر القول بأن علم الطبيعة ازداد بتطوره تناقضاً مع طريقة التفكير
الميتافيزيقية • وكان من النموذجي للمرحلة الجديدة في علم الطبيعة منذ نهاية
القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، تسرب فكرة التطور والترابط والتأثير
المتبادل بين ظواهر الطبيعة وفكرة وحدة العالم إلى هذا العلم • وقد أشار انجلز
إلى انه « إذا كان علم الطبيعة من قبل علماء عن الأشياء الكاملة ، فإنه أصبح
في القرن التاسع عشر علماً عن العمليات ، عن منشأ وتطور هذه الأشياء وعن
العلاقات التي تربط عمليات الطبيعة في كل واحد عظيم » (١) •

(١) انجلز • لودفيغ فيرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية الصفحة ٣٨ •

وثمة أهمية خاصة في انتصار أفكار التطور في علم الطبيعة، تعود لاكتشافات ثلاثة عظيمة في علم الطبيعة : اكتشاف الخلية النباتية والحيوانية ، وقانون حفظ وتحول الطاقة ، ونظرية داروين عن منشأ وتطور أجناس النبات والحيوان .
لقد أظهرت هذه الاكتشافات الطابع الديالكتيكي لتطور الطبيعة . وبالاستناد إلى تطور علم الطبيعة تغلب ماركس وانجلز على ضيق الافق الميتافيزيكي الذي عانت منه المادية القديمة ، وأعطيا المادية طابعاً ديالكتيكياً .

وكان هذا انتصاراً عظيماً في تاريخ الفكر الانساني : فقد نشأت نظرية فلسفية تعالج الطبيعة كلها من مظاهرها البسيطة إلى مظاهرها المعقدة ككل موحد وتفسر علمياً كل العمليات والظواهر بالتطور القانوني للمادة وانتقالاتها الذاتية من حالة إلى أخرى ، من أشكال أدنى إلى أشكال أرقى . وعنى هذا انهزام المثالية الفلسفية التي كانت تعيش عيشة طفيلية على حساب بعض مسائل العلم التي لما تحل وعلى حساب المادية الميتافيزيكية .

ولعب استخدام الجوانب الديالكتيكية القيمة في طريقة هيغيل دوراً عظيماً في انشاء الشكل الديالكتيكي الارقي للمادية . لقد أعاد ماركس وانجلز صياغة ديالكتيك هيغيل على أساس مادي وأنشأ طريقة ديالكتيكية علمية منسجمة جديدة ، هي الدليل في المعرفة العلمية وفي إعادة بناء الواقع ثورياً . وكما أتاح تطبيق الديالكتيك في المادية ، امكانية إعادة بناء المادية واعطائها شكلاً علمياً عصرياً فان الصياغة المادية للديالكتيكية انشأت أرقى أشكال الديالكتيك - الديالكتيك المادي الماركسي .

قال ماركس : « ان طريقتي الديالكتيكية ، لا تتميز فقط جذرياً عن طريقة هيغيل ، ولكنها نقيضتها تماماً . فعملية التفكير بالنسبة لهيغل هذه العملية التي يحولها تحت اسم الفكرة إلى ذات مستقلة ، هي مبدعة الواقع ، الذي يمثل المظهر الخارجي لها . أما عندي ، فعلى العكس ، ليس الشيء المثالي إلا الشيء المادي المنقول إلى الرأس الانساني والمعاد تشكيله هناك »^(١) .

(١) ماركس - رأس المال - الجزء ١ الصفحة ١٩ .

نفى هيجيل المثالي التطور في الطبيعة مفترضاً أن القادر على التطور ليس المادة ، التي عدها شيئاً ، وإنما الروح فقط ، الفكرة المطلقة • ولقد برهنت الفلسفة الماركسية بصورة قاطعة على الطابع الديالكتيكي للطبيعة • والديالكتيك الماركسي ، كما كتب انجلز : « يصبح ضرورة مطلقة لعلم الطبيعة الذي ترك ذلك المجال الذي لاقى فيه مفاهيم جامدة بما فيه الكفاية ... » (١) •

وفي عصرنا ينتقل عدد متزايد من علماء الطبيعة إلى صف الديالكتيك الماركسي • وهذا يؤكد فكرة انجلز على نحو رائع •

ان الديالكتيك الماركسي ، خلافاً لديالكتيك هيغل ، لا يضع أية حدود أمام تطور المجتمع وكذلك تطور الطبيعة • انه ليس موجهاً إلى الماضي وحده ، وإنما إلى الحاضر والمستقبل أيضاً ، وهو يكشف امكانيات لا محدودة لتطور الانسانية • وميزة الديالكتيك المادي هذه ، المتحرر من ضيق أفق ديالكتيك هيجيل المثالي ، هي تعبير عن وجهة نظر أكثر الطبقات ثورية - البروليتاريا •

وصاغت الماركسية ، بتطبيقها الديالكتيك المادي في مجال التفكير الانساني ، نظرية علمية عميقة منسجمة حول المعرفة ، هي نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية •

وكان للمادية التي سبقت الماركسية الفضل في الاعتراف بالتفكير والمعرفة كانعكاس للعالم الخارجي الموجود موضوعياً • ولكن المادية القديمة لم تفهم الجوهر الديالكتيكي للمعرفة ولم تعالج المعرفة كعملية تطور ولم تر الصياغة المعقدة في الفكر لمعطيات الواقع ، وكانت تفكر بمفاهيم جامدة ولم تضع في مركز علم المعرفة نظرية معرفة الممارسة الاجتماعية •

ان الفلسفة الماركسية والمنطق المادي الديالكتيكي ، كشفاً ، لأول مرة في تاريخ العلوم الفلسفية ، على أساس مادي ، كل غنى عملية وأشكال المعرفة ، وقدمتا التطبيق باعتباره الأساس والمقياس الوحيد الموثوق لصدق المعرفة • ان نظرية معرفة المادية الديالكتيكية هي احدى المكتسبات الرائعة للفكر الانساني •

(١) انجلز ديالكتيك الطبيعة الصفحة ١٦٠ •

لقد حملت الماركسية النصر الحاسم للفلسفة المادية ليس فقط لأنها صاغت في أرقى شكل - المادية الديالكتيكية ، ولكن لكونها أيضاً عممتها على الحياة الاجتماعية . فقبل ماركس وانجلز كان مجال الظواهر الاجتماعية حصناً حصيناً للمثالية . وكان كل الفلاسفة مقتنعين بأن الأهمية الأولى للحاسمة في حياة المجتمع هي للأفكار والآراء الانسانية وصراعها . ومن الطبيعي أننا قد نجد بعض عناصر المعالجة المادية للمجتمع في آراء عدد ممن سبقوا ماركس : عند الماديين الفرنسيين والمؤرخين الفرنسيين في بداية القرن التاسع عشر - تيريه ، غيزو ، ومينييه ، وعند الاقتصاديين التقدميين الانكليز ، وعند فيرباخ ، وهيجل والاشتراكيين الطوباويين . ولكن هذه اللمحات إنما كانت تخمينات لا تبدل الوضع العام - السيادة المثالية الكاملة في مجال التاريخ .

لقد انتصر ماركس وانجلز على المثالية في هذا المجال بتطبيقهما المادية الديالكتيكية في الحياة الاجتماعية وانشائهما نظرية المادية التاريخية . والأهمية الاساسية لهذه النظرية هي في كونها حولت التعاليم حول المجتمع وقوانينه إلى علم قادر ، ككل العلوم ، على اعطاء معلومات وتنبؤات دقيقة عن مجرى الاحداث واتجاه التطور الاجتماعي .

ولعبت دراسة المجتمع الرأسمالي دوراً في انشاء نظرية المادية التاريخية . لقد كشفت الرأسمالية والصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، كما لم يفعل أي نظام آخر ، كشافا المصالح المتضاربة الكامنة في أسس كل مجتمع فيه طبقات متناقضة . كتب ماركس وانجلز في « البيان الشيوعي » ، أن العصر البرجوازي « قد بسَّط التناقضات الطبقيّة » ؛ « فالاستثمار الذي كان يغطى بالاوهام اللاهوتية والسياسية ، حوله هذا العصر إلى استثمار مفضوح وقسح مباشر خشن » . ان التحليل الموضوعي العميق للنظام الرأسمالي دحض الفهم المثالي للتاريخ وتوصل إلى نتيجة لا تقبل الجدل وهي أن الحاجات المادية وانتاج الخيرات المادية هما القوة المحركة في المجتمع وليس العقل أو الافكار . ان بحث القوى المحركة للمجتمع الرأسمالي سلط الضوء على التاريخ

الماضي كله • فأصبح تشريح المجتمع البرجوازي ، إلى حد كبير ، مفتاحاً
لتشريح التطور الاجتماعي السابق •

لقد برهن ماركس وانجلز على أن هناك قوانين موضوعية مستقلة عن
وعي الناس وإرادتهم تؤثر في تطور المجتمع ، كما في الطبيعة • واكتشفاً
القوانين الشاملة لكل عملية اجتماعية ، هذه القوانين التي تشكل محتوى المادية
التاريخية •

لقد بدلت الماركسية طابع وموضوع الفلسفة بصياغة المادية الديالكتيكية •
وقضت ، إلى الأبد ، على طموح الفلسفة لأن تكون « علم العلوم » ، أي لأن تضم
كل العلوم وكل فروع المعرفة فتجعل منها جوانب وأجزاء مستقلة من الفلسفة •
إن المادية الديالكتيكية تكشف جوهر العالم المادي ، وتقدم نظرية عن أشمل
قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير ، وتقدم نظرية المعرفة والطريقة اللتين
تمكنان المرء ، على نحو صحيح ، من دراسة وتفسير العالم وتغيير بناء المجتمع
الرأسمالي تغييراً ثورياً عملياً ، وجعله مجتمعاً اشتراكياً •

هذه هي ، باختصار ، الصفات الأساسية للثورة التي أحدثها ماركس
وانجلز في الفلسفة ، والتي أدت إلى نشوء المادية الديالكتيكية والتاريخية ،
النظرية العلمية الوحيدة عن العالم في عصرنا •

٣ - الطابع الإبداعي للفلسفة الماركسية

وتطوير لينين لها

إن إحدى الصفات الأساسية للفلسفة التي أنشأها ماركس وانجلز
- المادية الديالكتيكية والتاريخية - هي طابعها الإبداعي • فهي إذ تعكس ، بامتياز
الدقة ، العالم الموضوعي وتطوره وتبدله ، تتطور ذاتها وتغتنى وتتجسد مع تبدل
الظروف التاريخية وظهور معطيات جديدة في العلم • وما من شيء أغرب على
الماركسية والفلسفة الماركسية من تصور النظرية كمجموعة من الأفكار الجامدة
والحقائق الساكنة • إن الجمود العقائدي والركود الفكري يناقضان الديالكتيك
الماركسي ومبدأه في الحركة المتواصلة الخالدة •

ان المادية الديالكتيكية والتاريخية قائمة على دراسة وتعميم معطيات كل المجالات المحددة للمعرفة الانسانية وكل التجربة التاريخية لتطور المجتمع الانساني . ومن المفهوم أن الفلسفة الماركسية لا تستطيع أن تمر، مرور الكرام، على أحدث تطور للعلم والممارسة الاجتماعية التاريخية . ولكي تؤدي دورها، بنجاح، كمنظريّة وطريقة لدراسة الواقع ووسيلة للمعرفة والنشاط العملي، يجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار مكتسبات العلم والتطبيق الجديدة وان تعممها باستمرار وتفني مبادئها وموضوعاتها على أساسها وتصيح أكثر حسية وتجسداً .

ان قول غوته المشهور « النظرية يا صديقي جامدة أما الذي يورق فهو شجرة الحياة » صادق ، لأنه يعبر عن أولوية الحياة بالنسبة الى النظرية ، وألوية الواقع بالنسبة الى انعكاسه الفكري . ولكن النظرية أيضاً قادرة على ألا تضع قوتها ونضارتها، ولا لحظة واحدة، اذا أخذت، بعين الاعتبار، التطور المستمر للحياة وتطورت معها . هكذا بالضبط هي النظرية الماركسية والفلسفة الماركسية .

بعد موت ماركس وانجلز لاقت الماركسية كلها والمادية الديالكتيكية والتاريخية كجزء مكوّن لها وأساس فلسفي ، تطورها المبدع في أعمال لينين . ويرتبط باسم لينين عصر جديد في تطور الماركسية بدأ عند الحد الفاصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين . فقد دخلت الرأسمالية مرحلة تطورها الاخيرة - الامبريالية . وفي هذا العصر الجديد تجري عملية انهيار الرأسمالية وظهور المجتمع الاشتراكي الجديد . ويحل محل التطور المتصل الهاديء نسبياً للمجتمع الذي كان يجري في عصر ماركس - انجلز ، تطور صدامي ثوري . وتطرح بشكل جديد مهام البروليتاريا وحزبها ومسائل الاستراتيجية والتاكتيك في الحركة الثورية . ولم يراع قادة الأممية الثانية الانتهازيون كل هذه التبدلات الجذرية في المرحلة التاريخية الجديدة . وبدلاً عن النضال الثوري سلكوا سياسة المهادنة مع البرجوازية وسياسة طمس واخفاء تناقضات الرأسمالية التي تزايدت حدتها .

ان اشتداد روح الرجعية السياسية الذي تتصف به الأمبريالية ، لاقي تعبيره في مجال الفلسفة البرجوازية . ويسعى ايديولوجيو الامبريالية إلى القضاء

على المادية فيعشون من الماضي أشد أشكال المثالية رجعية • انهم ، اذ يروجون ، حسب تعبير لينين ، مثالية أخط وأضحل بألف مرة من مثالية هيجل ، يقومون بنضال ضد الديالكتيك الذي يحقدون عليه لانه « جبر الثورة » ، ويحاولون بكل الوسائل تدعيم الميتافيزيكية • وتنجر التحريفية كذيل للفلسفة البرجوازية حيث يناضل ممثلوها ضد المادية الديالكتيكية ويعتبرون ، متخلين عن كل مبدأ ، ان من الممكن ربط الماركسية بهذا اللون أو ذاك من المثالية •

لقد طرحت المسائل الفلسفية في المرحلة الجديدة على المستوى الأول ليس فقط ، بسبب ازدياد حدة التناقضات الاجتماعية ، وانما أيضاً بسبب التطور السريع للعلم وخاصة الفيزياء • ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تعيش الفيزياء ثورة حقيقية • لقد أحدث اكتشاف الالكترين والاشعاع الذري وتحول العناصر الكيماوية وغير ذلك من الاكتشافات العظيمة انقلاباً في التصورات التي كانت سائدة عن المادة وخصائصها • وخلق انهيار الآراء السابقة عن المادة التي كانت قائمة على المادية الميكانيكية ، اضطراباً في مفاهيم بعض الفيزيائيين المادية في صالح المثالية • ولم ينس المثاليون استغلال هذا الاضطراب • ان المثالية لا تعيش طفيلية على « النقاط البيضاء » على ثغرات المعرفة الانسانية فحسب ، بل انها تحاول أيضاً أن تفسر مكتسبات العلم التي تؤكد المادية الديالكتيكية ، بروح تناسبها • والمآخيه - أحد تيارات الفلسفة المثالية الذاتية الشائعة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - حاولت أن تفسر مثالياً أحدث مكتسفات الفيزياء • وقدم المآخيون فلسفتهم المثالية الذاتية على انها فلسفة « محايدة » مزعومة تقف فوق المعسكرين المتصارعين في الفلسفة - المادية والمثالية • وكان لابد من محاربة المثالية من مواقع الفلسفة العلمية وتعميم أحدث مكتسفات الفيزياء وعلم الطبيعة تعميماً ديالكتيكياً مادياً •

وهكذا فان الظروف الاقتصادية والسياسية في المرحلة التاريخية الجديدة وكذلك مكتسبات علم الطبيعة الحديثة ، تطلبت التطوير المبدع اللاحق للماركسية والفلسفة الماركسية • وكان هذا العمل من نصيب لينين وتلامذته • لقد طور لينين الاجزاء الثلاثة المكونة للماركسية كلها - الفلسفة والاقتصاد

السياسي والشيوعية العلمية ، ورفعها إلى درجة أعلى مستجيباً للمسائل الملحة الحيوية التي نشأت في العصر الجديد • ان اللينينية استمرار مباشر وتطوير مبدع للماركسية في الظروف الجديدة ، في عصر انهيار الرأسمالية وبناء الاشتراكية والشيوعية • ان الماركسية اللينينية هي وحدة كاملة لا تتجزأ ، ونظرية عصرية عظيمة للطبقة العاملة وحزبها الشيوعي •

وليس من قبيل الصدفة أن تكون روسيا موطن اللينينية ، بل كان ذلك أمراً مقنوناً • فمنذ بداية القرن العشرين أصبحت روسيا مركز الحركة الثورية العالمية • ومنذ الثمانينيات في القرن التاسع عشر لاقت الماركسية في روسيا نقطة ارتكاز قوية • ويعود فضل كبير في ذلك إلى بليخانوف وجماعة «العمل الحر» ، التي كان يرأسها • لقد قدم بليخانوف قسطاً قيماً في الدفاع عن النظرية الماركسية وخاصة الفلسفة الماركسية والدعوة لها وتطويرها • لقد فضح براءة المثالية الفلسفية من جميع الألوان بما فيها النظرية المثالية الذاتية للشعبيين الروس ، وشق طريقاً للنظرية الماركسية في حركة التحرر في روسيا •

ان أعماله في تاريخ الفلسفة والمادية الديالكتيكية والتاريخية ، رغم انها لا تخلو من عدة عيوب وأخطاء ، تكون أحدى الصفحات الرائعة في تاريخ تطور الفلسفة الماركسية • لقد قدر لينين كثيراً أعمال بليخانوف الفلسفية • ولكن بليخانوف لم يفهم طبيعة العصر الجديد الذي حل ، ولم يستطع أن يطور الماركسية بما يلائم ظروف عصر الامبريالية ، والمتطلبات الجديدة لحركة الطبقة العاملة الثورية في روسيا والعالم • ونضجت ، في هذا الوقت ، في روسيا ، الثورة البرجوازية الديمقراطية التي أخذت بالتحول إلى ثورة بروليتارية • لقد كانت الطبقة العاملة الروسية أول من مزق قيود الامبريالية ، وحققت في عام ١٩١٧ الثورة الاشتراكية التي وضعت بداية لعصر تاريخي جديد • وعلى أساس تعميم التجربة الغنية جداً للحركة الثورية الروسية والحركة العالمية للبروليتاريا في المرحلة التاريخية الجديدة ، نشأت اللينينية •

طور لينين ، مثل ماركس وانجلز ، الفلسفة الماركسية بترابط وثيق مع متطلبات حركة الطبقة العاملة والنضال ضد أعداء النظرية الماركسية • لقد

أسس لينين في روسيا حزباً ماركسياً من طراز جديد - الحزب الشيوعي •
وبقيادة هذا الحزب قامت الطبقة العاملة الروسية بأعظم ثورة اشتراكية
وانشأت أول دولة اشتراكية في التاريخ • لقد طور لينين الماركسية تطويراً
شاملاً على أساس التعميم النظري للخبرة العملاقة لنضال الجماهير الشعبية
من أجل الاشتراكية •

ان ذلك الجديد الذي صنعه لينين من أجل تطوير المادية الديالكتيكية
والتاريخية يمكن أن نحدده باختصار في الامور التالية • ان لينين ، بتعميمه ،
انطلاقاً من مواقع الفلسفة الماركسية، المكتسبات العظيمة للعلم، وخاصة في الفيزياء
في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لم يفضح التشويه المثالي
الماخي لهذه الاكتشافات فحسب ، انما طور أيضاً نظرية المادية الديالكتيكية
في ضوء المكتسبات الجديدة لعلم الطبيعة • لقد نفذ لينين المهمة التي تحدث عنها
انجلز ، وهي بالذات انه يجب على المادية أن تأخذ شكلاً جديداً نظراً
للاكتشافات الجديدة العظيمة التي توصل اليها علم الطبيعة • وحدد لينين في
مؤلفه « المادية ومذهب النقد التجريبي » وطور ، على أساس مكتسبات العلم
الجديدة ، كل المسائل الاساسية في المادية الديالكتيكية • ومن هذه المسائل مسائل
المادة والحركة والمكان والزمان والسبية والحرية والضرورة والطابع الديكالتيكي
للتطور ونظرية الانعكاس وغيرها من المسائل • طرح لينين أفكاراً فلسفية
جديدة تلقي الضوء على طريق علم الطبيعة الحديث • ويكفي أن نشير هنا ولو إلى
تعريف لينين للمادة وإلى موضوعته حول أن الالكترون لا نهائي أيضاً كالذرة •
قال لينين هذه الموضوعة قبل البرهان العملي على تبدل وتحول الالكترونات وقبل
اكتشاف « جزئيات أولية » أخرى ، وقد تأكدت هذه الموضوعة فيما بعد على
نحو رائع بتطور الفيزياء •

وطرحت في العصر الجديد بكل حدة مسائل علم المعرفة ونظرية المعرفة •
وفي كتاب « المادية ومذهب النقد التجريبي » أشار لينين إلى أن ماركس وانجلز
« اهتموا اهتماماً كبيراً في بناء الفلسفة المادية حتى القمة ، أي انهما لم يوجها

اهتمامهما إلى علم المعرفة المادي وانما إلى الفهم المادي للتاريخ»^(١) • إن تطور علم الطبيعة الحديث وانهار الآراء الفيزيائية القديمة حول المادة تطلبا صياغة نظرية المعرفة وحل عدة مسائل معرفية • وكان هذا مهماً أيضاً لأن الفلسفة البرجوازية ، كما أشار لينين ، أصبحت « تتخصص » في علم المعرفة وتوجه « اهتماماً كبيراً إلى الدفاع عن المثالية أو إعادة تشييدها من أسفل ، لا من أعلى»^(٢) • وصاغ لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » نظرية معرفة المادية الديالكتيكية صياغة شاملة كنظرية انعكاس للعالم الموجود موضوعياً • وبين الطابع الديالكتيكي المعقد لعملية تطور المعرفة تاريخياً وأسس ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبة • وأعطى لينين ، اذ بين ان الديالكتيك هو نظرية المعرفة ، نموذجاً لتحليل وتعميم المعطيات الجديدة في العلم انطلاقاً من مواقع الطريقة الماركسية ، وكشف حدودها والوانها الجديدة ، وغنى أساليبها في معالجة ظواهر الطبيعة •

لقد اهتم لينين اهتماماً فائقاً بمسألة التطور اللاحق للطريقة الديالكتيكية الماركسية ، وهذا طبيعي • فعلى أساس الديالكتيك المادي فقط وعن طريق تطبيقه تطبيقاً مبدعاً كان بالإمكان ادراك خصائص العصر الجديدة وعكسها في سياسة واستراتيجية وتاكتيك الحزب البروليتاري - خصائص عصر الانهيار العاصف للقديم وولادة الجديد • وقاد لينين نضالاً دؤوباً ضد النظريات العامية الانسيابية التي أتى بها الاصلاحيون والانتهازيون الذين حرفوا الديالكتيك الماركسي •

ان أعمال لينين الفلسفية المتخصصة ، وأعماله المكرسة للمسائل الاقتصادية والسياسية والتاكتيكية ، كلها تشكل كنزاً قيماً من الأفكار والآراء حول مسائل الديالكتيك (موضوعته حول العلاقة بين العام والخاص في التطور التاريخي وحول الحلقة الأساسية في سلسلة التطور وهكذا ...) •

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١١٧ •

وقيل وخلال الحرب العالمية الأولى درس لينين بصورة خاصة الديالكتيك المادي والمنطق الديالكتيكي • وبحث لينين في دراسته للديالكتيك ووجد الاساليب الميتودولوجية لحل أعقد مسائل ذلك العصر • ونتيجة لهذا العمل ظهرت « الدفاتر الفلسفية » اللينينية المكرس أغلبها لمسائل الديالكتيك • ورغم ان « الدفاتر الفلسفية » ليست عملاً كاملاً فمن الصعب تقدير قيمتها الكبرى من أجل التطور الخلاق للديالكتيك المادي • هذه الدفاتر لا تشمل على موضوعات عميقة في الطريقة الماركسية فحسب ، وانما تشمل أيضاً على منهاج كامل للتطور اللاحق للديالكتيك كعلم • وثمة أهمية خاصة لتوجيهات لينين حول ضرورة صياغة الديالكتيك كمنطق ونظرية معرفة •

وتعد المسودة الصغيرة « حول مسألة الديالكتيك » كنزاً فلسفياً ثميناً ، حيث عَمَمَ لينين بشكل موجز نتائج عمله في مسائل الديالكتيك •

وساهم لينين مساهمة كبيرة في تطوير علم المجتمع الماركسي ونظرية المادية التاريخية • واعتبر مادية ماركس التاريخية أعظم مكتسب للفكر العلمي • ان لينين نفسه ، لم يدافع عن هذا المكتسب ضد شتى أعداء الماركسية وحسب ، وانما زاد أيضاً غناه مستخدماً الفهم المادي للتاريخ من أجل دراسة المسائل الجديدة في تطور المجتمع • وفي مؤلفاته تعميم لكل جوانب العملية الاجتماعية المعقدة في عصر الصدمات الاجتماعية والانقلابات الضخمة والاكتشافات العلمية العظيمة ، التي أضاعت طريق ملايين الناس المناضلين في سبيل حياة جديدة • واهتم لينين اهتماماً شديداً بمسألة دور الجماهير الشعبية والحزب الشيوعي كطليعة لها في عصر الثورة البروليتارية والتحول الاشتراكية •

وبعد لينين طور تلامذته الفلسفة الماركسية • وتطور الفلسفة الماركسية تطوراً خلاقاً على أيدي رجالات الحزب الشيوعي السوفيتي • ففي خطابات قادة الحزب ومواد الاجتماعات الموسعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي حول مسائل بناء الشيوعية ومسائل الاقتصاد والسياسة والثقافة ، وفي مؤلفات كادرات الحزب النظرية يجري تعميم التجربة التاريخية العالمية للحركة الثورية ولتحويل المجتمع تحويلاً اشتراكياً •

وساهم المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي مساهمة كبرى في تطوير كل الأجزاء المكونة للماركسية بما فيها الفلسفة • وفي البرنامج الجديد الذي أقره المؤتمر صيغت مسائل التطور العالمي المعاصر والانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية في الاتحاد السوفيتي صياغة علمية خلاقة • ومن « البيان الشيوعي » لماركس وانجلز الذي أعلن لأول مرة أفكار وأهداف الطبقة العاملة إلى البرنامج الجديد للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي الذي تضمن خطة محددة علمية للبناء العملي المباشر للشيوعية - يرتسم الطريق الذي قطعه الماركسية في فترة لا تزيد عن مئة سنة • لقد كان طريق اغتناء وتطوير النظرية الماركسية تطوراً مبدعاً مستمراً •

ويتحقق التطور الخلاق للماركسية والفلسفة الماركسية من قبل الأحزاب الشيوعية والعمالية الأخرى أيضاً ، ومن قبل قادتها ورجالها عن طريق تعميم التجربة التاريخية للثورات الاشتراكية وبناء الاشتراكية في بلدان الديمقراطية الشعبية ، والتجربة المعاصرة للنضال من أجل الثورة الاشتراكية في البلدان التي ما تزال البرجوازية فيها طبقة سائدة •

وفي ضوء كل هذا يظهر التزييف للموضع الحقيقي والافتراء على الماركسية في مزاعم المحرفين المعاصرين القائلين بأن الماركسية كفت عن التطور بل وتجمدت في عشرات السنين الأخيرة • ان التحريفية تسعى إلى تكييف الماركسية بما يلائم أذواق البرجوازية وانتزاع المحتوى الثوري منها - نظرية الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا •

وبما أن الأساس الفلسفي للنظرية الماركسية اللينينية عن الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا هو المادية الديالكتيكية فمن الطبيعي أن يحاول المحرفون المعاصرون مثل بيرنشتين وكاوتسكي وبوغدانوف وغيرهم إعادة النظر في النظرية الفلسفية الماركسية • ويزحف المحرفون إلى مواقع الإصلاحيين فيستبدلون نظرية التطور الانسيابي بالديالكتيك الثوري • والماركسية معادية ، من ناحية أخرى ، للجمود العقائدي الذي يكمن جوهره في المعالجة الحرفية للاتارخية الميتافيزيكية للواقع المتطور تطوراً عاصفاً ، وفي عدم القدرة وعدم

الرغبة في تطبيق موضوعات النظرية الماركسية تطبيقاً خلاقاً على ظروف التطور المعاصرة • وهذا هو سبب كون النضال من أجل الماركسية الثورية يتطلب في الظروف الراهنة نضالاً متواصلاً ضد التحريفية والجمود العقائدي •

ان قوة وحيوية أية نظرية فلسفية تختبران بقدر ما تتأكد هذه النظرية في التطبيق وتكون قادرة على التطور تطوراً خلاقاً وعلى التعميم واستيعاب وصياغة التجربة الجديدة • وبهذا تكون قادرة على خدمة حاجات التقدم الاجتماعي • لقد انقضت مئة سنة تقريباً على نشوء النظرية المادية الديالكتيكية • وهذه المئة عام تعادل من حيث الأهمية مئات كثيرة من أعوام التطور في الماضي • فقد جرت خلال هذه المدة أحداث تاريخية ضخمة حولت وجه المجتمع • وأحرز العلم نجاحات عملاقة وقام باكتشافات كثيرة • ان كل « النظريات » البرجوازية والمدارس الفلسفية التي نشأت خلال هذه الفترة قد انهارت على كثرتها • أما النظرية الماركسية ، نظرية الطبقة العاملة ، فهي لم تتضرر بسبب تبدلات العصر الكبرى ، وانما ، على العكس ، تدعمت واثبتت باستمرار بمعارف جديدة وخبرة عملية دون أن تكف لحظة عن كونها محركاً فكرياً جباراً للتطور المعاصر •

ان الماركسية اللينينية ، باعتبارها نظرية تتطور تطوراً خلاقاً ، لم تبلغ من قبل المجد الذي تعيشه في المرحلة التاريخية المعاصرة • وهذا ينطبق أيضاً على النظرية الفلسفية الماركسية •

ما هو سر قدرة الماركسية على الحياة ، هذه القدرة التي لا تنضب ؟

لقد أعطى لينين جواباً مختصراً على ذلك ولكنه جواب كاف :

« ان نظرية ماركس أقوى من كل شيء لانها صحيحة » •

ان صدق المادية الديالكتيكية والتاريخية ، والماركسية – اللينينية ككل ، ثابت بالبرهان القاطع من خلال الممارسة التاريخية العالمية للنضال الظافر الذي تخوضه الطبقة العاملة في سبيل الاشتراكية •

الفصل الثالث

المادة وأشكال وجودها

في الفصول السابقة تحدثنا عن تعريف الفلسفة الماركسية وأبنا كيف نشأت هذه الفلسفة وتطورت • والآن ننتقل إلى عرض متسلسل لأسس هذه الفلسفة ، أسس المادية الديالكتيكية • ان نقطة انطلاق المادية الديالكتيكية هي الاعتراف بالوجود الموضوعي للمادة ، للطبيعة ، المتطورة ، المتحركة ، بشكل خالد • لهذا لا بد ، في البداية ، من دراسة المادة وأشكال وجودها •

١ - المادة

يحيط بنا عدد لا حصر له من الكائنات المتباينة أعظم تباين في خصائصها • بعضها يحشر في عداد الكائنات الحية • وبعضها لا يتوفر فيه أي دليل على الحياة • بعضها قابس وبعضها طري أو سائل • بعضها متناه في الصغر وخفيف ، وبعضها ذو أجسام هائلة وثقيلة جداً • بعض الاجسام مشحونة بالكهرباء ، وبعضها غير مشحون بها ••• الخ • كل هذا بمجموعه يشكل ما يدعى بالطبيعة • ومهما تباينت أجسام الطبيعة وتمايزت عن بعضها ، فالخاصة الجامعة بينها هي إنها موجودة خارج وعي الانسان ، وإحساسه ونفسه وبشكل مستقل عنه • وهو أمر مؤيد بتجارب حياة كل فرد ، وتجارب الانسانية كلها وبالمعطيات العلمية •

لقد أثبت علم الطبيعة ، بشكل لا يقبل الجدل ، أن الطبيعة ليست الآن كما كانت عليه من قبل • كانت الأرض ، قبل زمن سحيق ، في وضع انتهى

فيه وجود الانسان والكائنات الحية باحساساتها ووعيتها ، في حين كانت ، كما هي عليه الآن ، تدور حول الشمس ، تحت تأثير جاذبيتها ، وتدخل ، مع غيرها من الكواكب ، ضمن المجموعة الشمسية . وهو أمر يدل على أن الشمس والارض والمنظومة الشمسية ، على أن الطبيعة ، على العموم ، توجد خارج اي وعي ، وبشكل مستقل عنه . ولم ينشأ الانسان ووعيه الا في درجة معينة من تطور الطبيعة كنتاج ربيع لها ، في حين وجدت الطبيعة ذاتها بشكل خالد . ولم يوجد ولا يمكن أن يوجد أي « وعي ما فوق الانسان » ، أي « وعي مطلق » ، أية « روح مطلقة » . وعلى هذا فالفلسفة المادية تعلم أن الطبيعة ، أن المادة ، هي السابقة ؛ وأن الروح ، أن الوعي ، هو اللاحق . وعندما تؤثر أجسام العالم المحيط بنا على أعضاء حواسنا فهي تولد الاحساسات المناسبة : كاحساس الضوء أو الظلمة ، والدفء أو البرودة ، والحلاوة أو المرارة .

ان الفلسفة المادية ، إذ تعمم حصيلة التطور التاريخي الطويل ، تطور الفلسفة وعلم الطبيعة ، إذ تعمم حصيلة معطيات النشاط العملي ، تصوغ ، شيئاً فشيئاً ، مفهوم المادة العلمي . يقول لينين : « ان المادة هي مقولة فلسفية للدلالة على الواقع الموضوعي الذي تعرفنا عليه إحساساتنا ، الواقع الذي تنسخه هذه الاحساسات وتصوره وتعكسه ، ويوجد بشكل مستقل عنها »^(١) .

في هذا التعريف ينعكس جوهر النظرة المادية عن العالم ، وانتصاب المادية ضد المثالية وضد نظرية استحالة المعرفة .

لنأخذ مثلاً المثالية الذاتية . فرغم أن المثاليين الذاتيين كثيراً ما يطيب لهم الحديث عن وجود فارق بين الموضوعي والذاتي ، بين النفسي والمادي ، فان جوهر هذه المثالية يبقى اعتبار احساساتنا وكل ما هو حقيقي وموضوعي ومادي ، شيئاً واحداً ، يبقى ارجاع كل شيء إلى الاحساس : ان الاحساس الذاتي هو الموجود الوحيد . وعلى هذا ، فكل أشياء العالم المحيط بنا ، كما يقول بيركلي وماخ وغيرهما من المثاليين الذاتيين ، انما هي « مجتمعات » أو « مركبات »

(١) لينين المؤلفات الجزء ١٤ :الصفحة ١١٧ .

من الاحساسات • والشيء الموضوعي هو الشيء الثابت في احساسات الانسان، أو ما هو مشترك في احساسات عدد من الناس ، أي « ما هو معترف به من قبل الجميع » •

وعلى العكس من هذا ، فإن الفصل المبدئي من جهة ، بين العالم الخارجي ، بين جميع الاشياء التي تحيط بنا ، وبين الاحساسات ، من جهة أخرى ، هو الأساس الرئيسي في تعريف لينين للمادة • فالاشياء ليست هي الاحساسات ، ليست هي الوعي • وليس الشيء الموضوعي هو أكثر الاشياء ثباتاً في احساسات الانسان ، ليس هو الشيء الواحد في احساسات عدد من الناس ، كما يؤكد المثاليون الذاتيون • إن الشيء الموضوعي هو الشيء الموجود خارج كل احساس ، وبشكل مستقل عنه •

ان المثاليين الذاتيين يسمون التفريق بين الواضح بين الواقع الموضوعي والاحساسات يسمونه « ازدواجية العالم » و « ثنائيته » ويدعون انحرافاً عن النظرة الأحادية للعالم • بيد أن هذا الاتهام بالثنائية ، بالابتعاد عن النظرة الوجدانية للعالم ، لا أساس له • ورغم أن التعريف الذي ذكرناه يفصل ، بوضوح ودقة ، بين المادة والاحساسات ، فهو لا ينطوي على ما يؤكد أن المادة والاحساس هما « أساسان » مستقلان كل الاستقلال ، أو « جوهران » يشكلان أساساً لفتين مستقلتين من الظواهر ، أساساً لعالمين • ليس الاحساس «جوهراً» منتصباً أمام المادة مستقلاً عنها ، بل هو نسخة ، صورة ، هو انعكاس للمادة • وهذا الانعكاس موجود في المادة ، وبفضل المادة •

ان المثاليين الذاتيين يأخذون بـ « وحدانية » الكون ، المثالية ، جاعلين من المادة والاحساسات شيئاً واحداً • هذه الوجدانية ليست أكثر من تخيل لا يقوم على أساس واقعي • لأن جعل المادة والاحساسات أمراً واحداً مستحيل في الواقع • ويضطر هؤلاء المثاليون ، في حياتهم العملية ، الى الاعتراف ، صامتين ، لا بوجود احساساتهم الذاتية فحسب ، بل وبوجود الناس الآخرين المستقل عن هذه الاحساسات ، وبوجود العالم المحيط بنا أيضاً • وبما أن الطابع الحقيقي للعلاقات بين الاحساسات والعالم المادي يظل غامضاً ، فإن

تناقضاً صارخاً يظهر في نظرات المثاليين الذاتيين ويقوض « وحدانيتهم »
المزعومة كلها •

ان تعريف لينين هو تعبير دقيق عن الوجدانية المادية المنسجمة التي تعطي
نظرة صحيحة كاملة عن العالم •

والمثاليون الذاتيون ينكرون وجود الارض والطبيعة والعالم المادي بدون
الانسان • في حين أن المثاليين الموضوعيين ، رغم أنهم يؤمنون بأن الطبيعة ،
بأن العالم المادي ، موجود من دون الانسان ، من دون احساساته الشخصية ،
الا أنهم يقولون أيضاً مثاليين ، لاعتقادهم أن العالم كله ، أن الطبيعة ، مرتبطة ،
كلياً ، بـ « فكرة مطلقة » . ما ، مرتبطة بروح محضة مستقلة ••• الخ ، ككائن
ما موجود ، كما يقولون ، منذ الازل ، يقول للطبيعة كوني فتكون • الا أن
الروح « المحضة المستقلة » ، الا أن « الفكرة المطلقة » ••• الخ ليست ، كما
يقول لينين ، الا احساسات الانسان ذاتها ، الا فكره ، الا وعيه ، بعد انفصالها
عنه وتحولها إلى تجريد تخيلي • لهذا ، فالتقول بأولوية الواقع الموضوعي
واستقلاله عن الاحساس ، عن الوعي ، عن الروح ، هذا القول الذي يشكل
نواة تعريف لينين للمادة ، وجه ضد المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية على
السواء • ويحاول المثاليون دعم نكرانهم لواقع الطبيعة الموضوعي بالاعتماد على
أن الانسان ، في زعمهم ، لم يعط ، مباشرة ، غير احساساته الخاصة فقط •
فالتحدث عن شيء مستقر خارج الاحساسات ، انما يعني ، في زعمهم ، هجر
تربة الوقائع الحقيقية ، والسماح بالخروج عن حدود التجربة • وعلى هذا ،
فنحن ، كما يزعم ، لا نعرف غير احساساتنا الشخصية ، ولا شيء بعد هذا •
ومن هنا تُستنتج النتيجة المضحكة ، تستنتج النتيجة التي تزعم أن الاحساسات
هي الواقع الوحيد • ان التأكيد الزاعم أن الانسان لم يرزق غير الاحساسات
فقط ، أي أن الانسان لا يحس الا احساساته الشخصية ، هذا التأكيد يشكل
منطق المثالية الاساسي الكاذب ، الذي يطبق تطبيقاً جامداً ليس إلا • وتعريف
مفهوم المادة اللينيني يدحض هذا المبدأ الجامد للمثالية • ويشار في هذا التعريف
الى تلك الفكرة الهامة جداً ، فكرة أن الانسان يحس ويدرك لا الاحساس

والادراك ، بل أشياء العالم المادي وظواهره ، أي أن الانسان يتعرف الى المادة عن طريق الاحساسات •

هذه الفكرة الاخيرة تضع حداً أيضاً للشك السحيق الذي يثيره أنصار نظرية استحالة المعرفة عندما يتساءلون : هل يوجد عالم خارجي أم لا يوجد ؟ لأنه ، بهذا ، يتوضح خطل ذلك المنطلق الزراعم أننا لم نرزق غير الاحساسات ، وهو الذي يأخذ به القائل باستحالة المعرفة ، كما يأخذ به المثالي ، ولا يتعد عنه الأول بخطوة حاسمة نحو المثالية أو المادية ، بل يراوح فيما بينهما • وعندما أشار لينين في تعريفه إلى أن الواقع الموضوعي تنسخه الاحساسات وتصوره وتعكسه ، دل على الامكانيات التي لا حد لها ، إمكانيات التعرف الموضوعي على المادة ، على الطبيعة •

ويتميز التعريف المذكور أيضاً بخاصة عميقة : انه تعريف شامل عام لا يقتصر على أنواع معروفة من المادة ، عرفها العلم في وقت ما ، وتمتعت فقط بخصائص كيميائية أو فيزيائية معينة • مثل هذا التعميم أصبح أمراً ممكناً نتيجة التطور المديد الذي حققته العلوم الطبيعية والفلسفة • فالفيلسوف اليوناني القديم « فارلس » جعل من المادة والماء شيئاً واحداً • في حين ذهب « أناكسيمسن » الى أن الهواء هو أساس كل شيء • أما « ديموقريط » فقد رأى في الذرة الأساس الأول • وقد نحا هذا النحو ، بالنسبة الى المادة ، كثير من بحاثه الطبيعة وفلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • انهم ذهبوا الى أن الذرات هي صغيريات لا تتبدل ولا تتجزأ ولا تدرك • ولكنه توضحت ، شيئاً فشيئاً ، ضرورة تحرير مفهوم المادة من التحديدات الناجمة عن المستوى العابر الذي بلقناه ، تاريخياً ، في معرفة بنية المادة وخواصها الفيزيائية •

إن الميل الى اكساء المادة بخصائص فيزيائية « مطلقة » اتسمت بها مرة واحدة والى الابد (كعدم تجزئتها ، وعدم تبدلها ، مثلاً) كان لا بد له ، عاجلاً أم آجلاً ، من أن يتناقض تناقضاً حاداً مع ما هو قائم ، عملياً ، في الطبيعة • وهو أمر حدث خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عندما كانت الفيزياء تعيش تطوراً ثورياً عاصفاً • فبفضل اكتشاف تفكك نواة الذرة المشع الذي أثبت امكان

تفكك الذرات انهارت الفكرة التي عاشت دهوراً ، فكرة أن الذرات لا تتبدل ولا تتجزأ • وقد أعطى اكتشاف الاليكترون (أصغر الصغريات المشحونة بالكهرباء وهو الداخـل في تركيب الذرة ومتميز عنها تميزاً جوهرياً) ، هذا الاليكترون الذي ربط الميـتافيزيكيون الماديون مفهوم المادة به ، أعطى المثاليين حجة للدعاء كما لو أن الذرة « خرجت عن نطاق المادة » •

في هذا الوقت بالذات ، وفي جو من النضال الضاري ضد المثالية ، قدم لينين تعريفه السابق ، للمادة • في هذا التعريف الفلسفي بدأ مفهوم المادة العام متحرراً من الارتباط الالزامي بهذه الخصائص الفيزيائية الحسية أو تلك ، الملازمة للأشياء المادية فقط في شروط معينة ، في أوضاع معينة • ونتيجة لذلك فقد أصبح واضحاً أن الأسئلة التي تدور حول ما إذا كانت الذرة مؤلفة فقط من الاليكترونات ، أو انها مؤلفة من صغريات ما غير تلك الاليكترونات ، وحول ما إذا كانت كتلة الذرة تتبدل بتباين الشروط أو تبقى ثابتة ••• الخ ، أصبح واضحاً أن هذه الأسئلة لا يمكن أن تنال مفهوم المادة الفلسفي ، لأن « الخاصة الوحيدة للمادة ، كما أشار لينين ، وهي التي تأخذ المادية الفلسفية بها ، هي خاصة كون المادة واقعاً موضوعياً ، خاصة كونها موجودة خارج وعينا » (١) •

ولقد لعب وضع هذه الفكرة الهامة دوراً كبيراً جداً لا في تطور الفلسفة الماركسية فحسب ، بل وفي تطور العلوم الطبيعية أيضاً •

ان ظهور هذا الواقع ، واقع أن تكوين الذرات يشتمل على الاليكترونات التي تتميز خصائصها تميزاً واسعاً عن خصائص الذرات ، ان ظهور هذا الواقع وضع البحـاثـة الطبيعيين في وضع صعب أمام ضغط المثاليين الذين يؤكدون « أن المادة تستبدل بالكهرباء » ، وأن « المادة تنعدم » • فقضى لينين على هذه الصعوبة قضاءً تاماً ، وأثبت ، في تعريفه للمادة كواقع موضوعي ، عدم امكان انهيار المادية • فسواء أشابه الاليكترون ، بخصائصه الفيزيائية ، الشيء العادي أم لا ،

(١) لينين : المؤلفات ج ١٤ ص ٢٤٧ •

وسواء أتبذلت خصائصه في شروط معينة أم لا ، فهذا كله لا أهمية له من أجل حل قضية الفلسفة الأساسية • ان السؤال الأساسي الذي يتوقف عليه تحديد الاتجاهات الفلسفية جمعاء ، وعلاقتها بهذه المدرسة أو تلك ، يتلخص في اعتبار أو عدم اعتبار أن الالكترونات أو غيرها من الصغريات واقع موضوعي ، وهل هي موجودة خارج الوعي ومستقلة عنه أم لا • ان العلوم الطبيعية تجيب على ذلك بالإيجاب القاطع • وعلى هذا ، فان القول بانعدام مادية الذرة ، و بـ « استبدال المادة بالكهرباء » •• يصبح قولاً نافلاً ، ذلك أن الالكترونات ليس غير مظهر خاص للمادة ، يتمتع بصفات خاصة •

وعندما اكتشف تحول الالكترونات والبوزيترونات الى فوتونات (صغريات الضوء) ، بدأ الفيزيائيون ، أصحاب التفكير المثالي ، يأخذون بمبدأ « تلاشي المادة » • الا أن هذا الاكتشاف ، شأنه شأن اكتشاف الالكترونات ، لم يدحض المادية ، بل أبان بوضوح صحة المفهوم المادي الديالكتيكي عن المادة • ترى هل الفوتونات اللذان تحول اليهما الالكترونات والبوزيترون هما لا شيء ؟ أليس واقعاً موضوعياً موجوداً خارج وعينا ومستقلاً عنه ؟ ان الفيزياء الحديثة تجيب على هذين السؤالين اجابة محددة واضحة • انها تجيب بأن الفوتونات (صغريات الضوء) عبارة عن جزئيات المادة ، رغم تمايزها عن الالكترونات والبوزيترونات بعدد من الخصائص الفيزيائية • هذه الفوتونات موجودة خارج وعينا ومستقلة عنه ، شأنها في ذلك ، شأن جميع أشكال المادة الأخرى • وهناك عملية عكسية ، أي تحول الفوتونات الى زوج من الصغريات : الى الالكترونات وبوزيترون • اذن فالمادة لا تفنى ، وانما هناك عملية تحول متبادل بين وجوه مختلفة من المادة • هكذا يؤكد العلم ، مرة أخرى ، صحة ما ذهب اليه المادية الديالكتيكية عن خلود المادة وعدم فنائها •

الا أنه ينشأ هنا سؤال آخر : هل نعتبر الالكترونات والفوتونات الموجودين خارج وعينا ، واللامدركين بأعضاء حواسنا ، هل نعتبرهما رغم ذلك ، مدركين باحساساتنا ، ونطبق عليهما تعريف لينين للمادة ؟ لا شك انه يمكن ويجب اعتبارهما كذلك • ان التعريف لا ينصب على الطريقة بالذات التي يجب أن

يؤثر بها هذا الشيء المادي أو ذاك على أعضاء حواسنا ، موقفاً فينا الحس المناسب . فالتأثير المذكور يمكن أن يكون مباشراً أو غير مباشر عبر أشياء مادية ما ، تحول هذه الأشكال من المادة الى أشكال تدركها أعضاء حواسنا بشكل مباشر . فنحن نلجأ دائماً ، عملياً ، الى مثل هذه الوسائط المادية التي تجمع أعضاءنا الحسية مع أجسام أخرى نود ادراك أثرها ، ولكنها لا توجد أو لا يمكن أن توجد ، لهذا السبب أو ذاك ، في احتكاك مع أجسامنا . فعندما ننظر الى الشمس ندرك وجودها حسياً . انها تؤثر علينا من خلال وساطة شيء مادي هو الضوء . وعندما نسمع صوت انسان ما بعيد عنا ، فالصوت يصلنا عبر الهواء ، وبفعل حركة اهتزازية . كذلك تجري الامور بالنسبة الى الاليكترونات والفوتونات . ان ادراكها ممكن عند الاستعانة بأجهزة خاصة ، مهمتها تحويل تأثير الأشياء المغنية ، وهو التأثير الذي لا تدركه حواسنا مباشرة ، تحويله الى شكل يمكن ادراكه . فهذه الاجهزة ليست ، من حيث الدور الذي تقوم به ، غير امتداد وتحسين لأعضاء حسنا الطبيعية ، غير امتداد يربط بين الذات المدركة وبين ميادين جديدة وجديدة من العالم .

ان المادية الديالكتيكية ، خلافاً للمادية الميتافيزيكية ، تنفي وجود أي جوهر يتمتع بصفات نهائية ، لا متغيرة ، وتدحض فكرة الجوهر البسيط المطلق الذي يتمتع بصفات وأشكال بروز « نهائية » والذي هو أساس كل ما هو موجود . ليس في الطبيعة أي جوهر بسيط مطلق ، أي شيء ثابت غير متبدل . ومهما تبدى لنا هذا الشيء المادي أو ذاك ، بسيطاً ، فهو ، في الواقع ، معقد كل التعقيد ، ولا يمكن حصر خواصه . ان المادة غير محدودة الخواص ، ككيان .

ان فكرة لينين عن عدم محدودية المادة ككيان ، وعن لانهايتها ، تعتبر من أهم أسس فكرة المادية الديالكتيكية عن المادة . وتاريخ العلم كله يثبت ذلك ببراهين لا تدحض . ليس من حاجة لاثبات أن الكيان الانساني وما يتمتع به من نشاط عصبي رفيع معقدان كل التعقيد . لناخذ ، مثلاً ، ما يسمى بالصغريات الاولى للمادة ، أي الالكترتون والبروتون والنيوترون التي هي أساس الكائنات

المادية الاخرى كلها ، وتبدو أبسط جسم بين الاجسام المادية المعروفة حتى الآن .

لقد اعتقد ، عند اكتشاف الاليكترون ، أن له كتلة وشحنة كهربائية ، فقط ، وأن هاتين الخاصتين ، ثابتان غير متحولتين ، انهما فطريتان تلازمانه أزلياً ولا ترتبطان بأي شيء سواه .

ولم يلبث أن تبدى أن كتلة الاليكترون تتغير عند تحركه ، وهي مرتبطة بالحقل الكهرومغناطيسي ، أي بالشيء المادي المحيط به . بيد ان الامر لم يتوقف عند ذلك . اذ اكتشفت خصائص جديدة تموجية للاليكترون ، وبذلك بدا أمامنا شيئاً شديداً التعقد ، يتمتع بخصائص للجسيمات والموجات . كما أن امكانية تحويل الاليكترون الى فوتون ، نتيجة تفاعله مع البوزيترون ، كانت خطوة أخرى في طريق اكتشاف تعقيد صغيريات المادة المتناهية بالصغر .

ان واقع كون الاليكترونات عند تفاعلها مع البوزيترونات يمكن أن تختفي ، متحولة الى فوتونات ، كما يمكن أن تظهر عند تحليل هذه الاخيرة ، هذا الواقع يبين بشكل واضح بعد الاليكترون الشاسع عن ذلك المفهوم المثالي الذي يصوره جوهراً بسيطاً مطلقاً ثابتاً لا يتبدل ، يصوره جوهراً نهائياً كما كان يحلم به العلماء الميتافيزيكيون . ثم ان الفيزياء الحديثة اكتشفت خصائص أخرى للاليكترون . ومن الواضح أننا لا نستطيع القول بأن جميع خصائصه قد عرفت ، وبأن طبيعته قد اكتشفت كلياً .

وما قيل عن الاليكترون يمكن أن يقال عن الصغيريات الاولى الاخرى التي يزداد عدد المكتشف منها (عرف منها حتى الآن أكثر من ٣٠ صغيرة) . بما فيها ما اكتشف حديثاً من أضداد الصغيريات : كأضداد البروتونات ، وأضداد النيوترونات وغيرها ، المتميزة عن الانتبؤات بالاتجاه المعاكس في احدى خواصها: كالشحنة الكهربائية والعامل المغناطيسي وغير ذلك . ان الصغيريات الاولى هي أشكال للمادة متمايزة نوعياً ، الا أنها لا توجد كأشياء منفردة عن بعضها ، ساكنة لا تتبدل . انها ، على العكس ، تتبدل بهذا الشكل أو ذاك وفقاً للشروط

الملائمة • وخاصتها الأساسية تستقر في امكان تحول أي من هذه الصغريات الى الآخر • فالبروتون والانتيريوتون يمكن تحويلهما لدى التفاعل الى فوتونين، مصحوبين بطاقة كبيرة جداً • في حين أن الفوتونين المصحوبين بطاقة كبيرة جداً يمكن أن يتحولا الى بروتون وأنتيريوتون • ثم ان تقصي الصغريات الاولية يكشف يوماً بعد يوم ، عن خصائص أخرى لها • وكل خاصة لا تبدو معقدة فحسب ، بل وتضع أمام العلم مهمات بحث جسيمة • وعندما يحدد الفيزيائيون السمات الجديدة لهذه الصغريات الاولية ، السمات التي لم تكن معروفة من قبل ، يوجدون مفاهيم جديدة كالمفاهيم التالية : السبين^(١) النظائري ، الزوجية ، الغرابة ، شحنة النواة (الشحنة الثقيلة) ، الشحنة المحايدة (الشحنة الخفيفة) ، الحلزونية • ان ظهور مثل هذه المفاهيم الجديدة يبين لنا تفاقم التعقيد في هذه الصغريات المعتبرة أبسط ما اكتشف من الاجسام المادية حتى الآن •

ان آفاقاً لا تحد تتكشف أمام العلم في استقصائه أعماق المادة • وقد تم الوصول ، حتى الآن ، الى معطيات أولية هامة تبين البنية الداخلية للصغريات الاولية بما يتيح لنا أن نقول بكل تأكيد بأن هذه الصغريات الاولية^(٢) هي كيانات مادية مفرقة في التعقيد من حيث البنية •

ان العقل البشري لا يتوقف عند الحدود التي عرفها بل يحاول أن يتعدها ليتعمق في معرفة جوهر المادة وجزئياتها • وكما يقول لينين : تستقر وراء الحقائق التي عرفناها ، حقائق أخرى لم نعرفها بعد ، وهذه تمهد لاكتشاف حقائق ثالثة وهكذا الى ما لانهاية •

فمنذ أكثر من خمسين عاماً ، وبعد فترة وجيزة من اكتشاف الاليكترون ،

(١) السبين : Spin هو العزم الميكانيكي الذاتي لكمية الحركة في الصغريات • والسبين النظائري هو هذا العزم في صغريات النظائر •

(٢) لهذا فان تعبير « الصغريات الاولية » هو مجرد تعبير اصطلاحي • انه يوحي لنا بأن هذه الاجسام المادية غاية في البساطة • ولكن واقع هذه الصغريات الاولية يثبت أن صفة البساطة هذه لا يطلق الا لان كل جزئي من هذه الصغريات يتألف من صغريات أخرى ليست معروفة حتى الآن •

كتب لينين يقول : ان الاليكترون ، شأنه شأن الذرة ، هو جسم غير محدود الخواص ، والطبيعة لا نهاية لها . يا لها من نبوءة مدهشة جريئة وهي نبوءة لا تقوم على التخمين العرضي ، بل هي حصيلة طبيعية لفهم المادة دياكتيكياً ، هذا الفهم الذي أغناه لينين بأفكار جديدة كثيرة .

ثم انه لا ينبغي الخلط بين سؤالين اثنين :- أولهما هو هل للأجسام الطبيعية كيان خارج وعينا ومستقل عنه ؟ وثانيهما : ما هي بنية هذه الاجسام ، وما هي العناصر الفيزيائية التي تتكون منها ؟ وما هي الصفات الفيزيائية لهذه العناصر ؟ السؤال الأول فلسفي ويتعلق بنظرية المعرفة ، أما الاجابة على الثاني فمن مهمات العلوم الطبيعية ، ولا سيما الفيزياء . بيد أننا حين نؤكد على الفارق بين السؤالين ، لا نستطيع الفصل بينهما . ان العلوم الطبيعية تدرس العالم الواقعي والاجسام المختلفة في هذا العالم ، كما تدرس بنية هذه الاجسام وخواصها ، وارتباط بعضها ببعض ، والقانونيات الملازمة لها . بيد أن هذه العلوم لا يمكن وجودها من غير الاعتراف بالواقع الموضوعي للعالم المحيط بنا . ومفهوم المادة هو انعكاس لهذا الواقع الموضوعي . ولهذا فمفهوم المادة ، بالمعنى الفلسفي الماركسي ، يتمتع بأهمية كبرى بالنسبة الى العلوم الطبيعية .

ان المفاهيم الاساسية التي أوجدتها العلوم الطبيعية ، للدلالة على مواضيع هذه العلوم : كالصفيرة الاولى ، والذرة ، والجزيء ، والعنصر الكيماوي والتشكيلة الجيولوجية ، والمنظومة الفضائية ... الخ ، ان هذه المفاهيم ترتبط حتماً بمفهوم المادة الفلسفي ، ويعبر عنها من خلاله .

لقد لاقى مفهوم المادة هجوماً أعنف من أي هجوم تعرضت له الفلسفة المادية . ولا عجب في ذلك لان هذا المفهوم هو حجر الزاوية في المفهوم المادي عن العالم ، لذا يهاجمه أعداء المادية باستمرار . لقد أكد المثاليون مراراً وتكراراً ان مفهوم المادة الذي يعني الواقع الموضوعي انما دحض أو شاخ ؛ غير أن تطور العلم ، ومعطيات ممارسة النشاط العملي أثبتا ، بشكل لا يدحض ، عكس ما ذهبوا اليه .

ان تقدم العلوم الطبيعية يجبر المثاليين على الاعتراف بوجود الذرات

والإليكترونات والفوتونات وما شابه ذلك . و « الامر الوحيد » الذي ينكرونه هو أن هذه الصغريات عبارة عن واقع موضوعي ، ومادية . ولكن هذا « الامر الوحيد » هو الذي يميز ، بشكل جذري ، الماديين عن المثاليين . ولهذا فالمثاليون يناضلون بكل ضراوة ضد مفهوم المادة . وغالية هؤلاء انما تقتفي من حيث الجوهر ، الأسقف بركلي الذي انتقده لينين في كتابه : « المادية والنقد التجريبي » . يقول « بركلي » : « هذه الاشياء التي أراها بعيني ، وأمسها بيدي ، موجودة فعلياً ، ولا شك في ذلك اطلاقاً . أما الشيء الوحيد الذي تنكر وجوده فهو ما يسميه الفلاسفة مادة أو جوهرأ ذا جسم » . وقد أراد بركلي من هذا أن يقول بأن الناس لا يفقدون شيئاً اذا نفوا وجود المادة . لكن هذا ليس أكثر من تلاعب صادر عن فيلسوف مثالي . اذ عندما يعترف بوجود الاشياء فعلياً انما يقصد وجودها في وعينا ، في احساساتنا . أما الماديون ، فعلى العكس من ذلك ، فيقصدون بوجود الاشياء الفعلي ماديتها ، أي وجودها بشكل مستقل عن وعي واحساسات الذات . وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع مجموع النشاط العملي للناس .

ان احدى الحجج التي يحاول بواسطتها المثاليون المعاصرون اثبات نفيمهم للمادة كواقع موضوعي تقوم على ما يلي : لنفرض أن الفيزيائي يحاول تحديد مكان الجسم المتناهي الصغر وسرعته في برهنة معينة وبدقة كبرى . لهذا فهو مطالب باعداد الشروط التجريبية اللازمة . بيد أن القياس الدقيق للمكان (الاحداثيات) يتطلب توفر شروط معينة ، في حين يتطلب قياس السرعة توفر شروط أخرى . ان وجود الجسم المتناهي في الصغر في الشروط الاولى يجعله في حالة لا يمكن معها قياس سرعته بالدقة اللازمة . أما وجوده في الشروط الثانية فيحول دون تحديد مكانه بالدقة اللازمة . وهو أمر يدعو المثاليين الى القول باستحالة الحديث عن الجسم المتناهي الصغر كجسم قائم بذاته . وكل ما يمكن الحديث عنه هو في الحديث عن الجسم المتناهي في الصغر في صلاته الوثيقة بالشروط المحددة اللازمة لبحته ، وفي صلاته بباحته . وهذا يعني أن الشيء المادي لا يوجد بدون الذات الواعي . ولكن الاعتراف بوجود الشيء المادي « في صلة

وثيقة مع الذات الواعي » انما يعني نكران المادة كواقع موضوعي • وليست كل هذه التصورات ، عملياً ، غير محاولات لاحياء النظرية المثالية القديمة تحت شكل جديد • تلك النظرية التي تدعى بنظرية التناسق المبدئي بين الذات والموضوع والتي وضعها « أفيناريوس » •

هذه النظرية تدعى أن الموضوع (الطبيعة) لا يمكن أن يوجد بدون الذات • وقد برهن لينين على خطأ هذه النظرية ودخضها كلياً • ولم تكن الالوان الحديثة لهذه النظرية بأفضل منها • فلو أن « الصلة الوثيقة بين الموضوع والذات كانت متوفرة عملياً ، لادى هذا الى نتيجة مضحكة • كما أن الموضوع لا يمكن أن يوجد بدون الوعي المدرك له ، بدون الاحساسات • وفي المثال الذي أوردناه نرى أن الشروط التجريبية المستخدمة لبحث الجسم المتناهي في الصغر تؤثر عليه تأثيراً معيناً • بيد أن الشروط التجريبية ، رغم أنها مستخدمة من قبل الباحث ، ليست هي الباحث ذاته ، وبالتالي ، ليست وعيه أو احساساته • انها جسم فيزيائي «أو مجموعة أجسام» موجودة فعلاً ، وتفاعله المتبادل مع الجسم المتناهي في الصغر هو أمر مادي موجود موضوعياً • هذه الصلة الحقيقية بين الاجسام المادية ذاتها ، هي صلة موجودة ، خارج أي وعي كان ، وبشكل مستقل عنه شأنها شأن تلك الاجسام ، وهي ليست اطلاقاً تلك الصلة المتخيلة « الوثيقة » القائمة بين الاشياء والوعي •

ان بعض الوضعيين الذين لا يصرون على اعتبار الشروط التجريبية والذات شيئاً واحداً ، يذهبون الى أن الجسم المتناهي في الصغر يرتبط ارتباطاً مبدئياً بالشروط التجريبية باعتبارها جسماً فيزيائياً بالذات • ذلك لان هذه الشروط ، حسب رأيهم ، تحدد الحال التي سيكون عليها الجسم • وعلى هذا فالحديث عن الجسم المتناهي في الصغر ، بشكل منفصل عن جهاز التجربة ، بمعزل عن المراقبة التي تجري بواسطة الجهاز المذكور ، أمر لا معنى له حتى من الوجهة الفيزيائية المحضة • وبما أن الاجهزة التجريبية والتجارب والمراقبة يوجدونها ويجريها الباحث ذاته ، فينشأ عن هذا أن وجود الجسم المتناهي في الصغر مرهون بوجود الباحث • وتعبير آخر لا موضوع من غير ذات واع •

هنا ، كما في السابق ، يحدث استبدال فكرة بأخرى مع خرق فاضح لقوانين المنطق . يحدث استبدال الفكرة القائلة « بأن حالة الجسم المتناهي في الصغر الموجود في شروط تجريبية معينة تتحدد بهذه الشروط » . يحدث استبدالها بفكرة مختلفة تمام الاختلاف لا تتطابق مع الاولى ، ولا تنتج عنها ، بفكرة « أن الجسم المتناهي في الصغر لا يوجد الا في صلة مع الشروط التجريبية ، ولا يوجد الا بفضل توفر المراقبة » .

صحيح أن الجسم المتناهي في الصغر عند وجوده في الشروط التجريبية لا يمكن بحثه منفصلاً عن هذه الشروط ، ومتحرراً من تأثيرها . بيد أن الواقع هو أن هذا الجسم لا يوجد فقط في الشروط التجريبية ولا يوجد فقط في صلة معها . ان الشروط التجريبية والاجهزة التجريبية ليست أكثر من أحد الاجسام العديدة التي يمكن للجسم المتناهي في الصغر التفاعل معها ، وتحدد وضعه . وبالإضافة الى ذلك فان جزء ضئيلاً جداً من الاجسام المتناهية في الصغر الموجودة في العالم فعلياً ، هو وحده الذي يبرز في تلك الصلات ، وهذا أولاً . كما أن امتداد هذه الصلات الزمني جد قصير ، بصورة عامة ، وهذا ثانياً . ان الذهاب الى أن الجسم المتناهي في الصغر يوجد مبدئياً فقط ، في الشروط التجريبية ، وأن إخضاعه للبحث يتطلب منا دائماً النظر اليه في صلة مع الاجهزة التجريبية ، وانه لا يوجد الا بفضل المراقبة التي تجري بالاعتماد على هذه الاجهزة ، هذا القول ، يضيف على الاجهزة التجريبية قوة خيالية ما تفصلها عن عالم الاشياء الحقيقية الاخرى كله . وهذا القول يعني ، عملياً ، نكران الوجود الحقيقي لاجسام العالم المادي كلها ، باستثناء الاجهزة التجريبية وما تطبق عليه من أجسام . ان عذبة عبارة عن « مثالية جهازية » من نوع خاص . ورغم أن هذه المثالية تنحو الى الادعاء بأنها تعتمد على الميكانيك الكوانتي الحديث ، فهي ، في الواقع ، تعتمد بشكل جامد ، الى ابراز ما ترغب به ، على انه أمر مبرهن عليه . ان وجود الاجسام المتناهية في الصغر لا يرتبط ، ولا يمكن أن يرتبط بوجود الشروط التجريبية ، بوجود الاجهزة التجريبية وعملية المراقبة . ذلك أن هذه الاجهزة وعمليات المراقبة تستخدم ، علمياً ، لا على انها

سبب وجود الاجسام المتناهية في الصغر • كما أن حقيقة وجود هذه الاجسام لا يتوقف على توفر هذه الشروط ولا على اللحظات التي تجري فيها المراقبة • ان الاجهزة تصنع لبحث الاشياء المستقلة عنها وعن عمليات المراقبة • وهذا رغم أن طريق البحث يجري ، بالضرورة ، عبر تقصي العمليات التي تجري في الاجهزة • ان ضرورة توفر الاجهزة التجريبية من أجل معرفة الاجسام المتناهية في الصغر لا تعني ضرورة توفر هذه الاجهزة من أجل وجود هذه الاجسام •

في المنشورات التي تعالج الميكانيك الكوانتي يمكن أن نتعرف الى آراء تذهب الى أن كل جسم على العموم ، متفاعل مع جسم ما متناه في الصغر عبارة عن « جهاز » والى أن تفاعلها عبارة عن « قياس » • هذه النظرة الخاطئة تلمس كلياً جوهر الأمر • وهي تفسح المجال لظهور التخرصات المثالية والتصورات الخيالية المحضة • ان الاجهزة التجريبية ليست مجرد أجسام فيزيائية ، بل هي أجسام فيزيائية جعلها الانسان واسطة بين أعضاء حواسه وبين أشياء العالم الخارجي لاستقصائها • ولا يمكننا اعتبار الاجسام الفيزيائية اجهزة الا من خلال تلك الفكرة وهذا الدور في عملية المعرفة • وهذا أيضاً هو شأن التفاعل الفيزيائي بين الاجسام ، الذي لا يمكن اعتباره قياساً ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، من دون ارتباطه بعملية المعرفة •

ويحاول بعض « الفيزيائيين » المثاليين المعاصرين (أمثال جنس وغيره) بهدف دحض فكرة أولوية المادة كواقع موضوعي ، يحاولون استغلال وجود خصائص تموجية لدى الاليكترون وغيره من جزئيات المادة • انهم يذهبون الى أن الخصائص التموجية ليست مادية بل روحية ، ليست مادية بل مجرد تركيبات فكرية ، «انها تموجات معرفتنا» • وبما أن توزع الجسيمات المكاني، بعد أمرارها عبر شاشة ذات شقوق قريبة من بعضها ، يتحدد بالخصائص التموجية ، فان المثاليين يستنتجون من هذا أن الروحي يتحكم بالمادي •

بيد أن الخصائص التموجية للأجسام المتناهية في الصغر لا تحمل اطلاقاً صفة الروحية • وهي ، شأنها شأن الخصائص الأخرى للمادة ، ولا سيما

الخصائص الجسيمية توجد خارج الوعي ومستقلة عنه • والصلة بين خصائص الجسم المختلفة هي مادية • ولا عجب ان أثر بعض هذه الخصائص على بعضها الآخر ، وكان ذا أهمية أعظم من أجل تتابع العملية في ظروف حسية معينة •

كل شيء في تبدل وتغير وذو نهاية • ولكن اذا ما اختفى شيء برز مكانه شيء آخر ، بحيث أن أية صغيرة مادية لا تختفي من غير أثر ، ولا تتحول الى لا شيء ، وبالمقابل فليس هناك من صغيرة مهما كان شأنها ، تخلق من لا شيء • وحيث تنتهي حدود أحد الاشياء المادية تبدأ حدود أشياء مادية أخرى • ولا نهاية لهذا التعاقب الذي لا حد له ، ولا للتأثير المتبادل بين الاجسام المادية • فالمادة ، فالطبيعة خالدة ، لا نهاية لها ولا حدود •

ليست المادة شيئاً وحيد الصورة ومن نوعية واحدة • انها تبرز في أجسام متباينة لا حصر لتباينها ، متميزة نوعاً وكماً ، وهي تشكل جماعات من الاشياء الاقارب ، من حيث خصائصها ، وهي ما نسميها بالانواع المتباينة للمادة •

وهذه الانواع المتباينة للمادة تتميز بالتعقيد الى هذا الحد أو ذاك ، وهي مواضع بحث مختلف العلوم من الفيزياء إلى الكيمياء ، والبيولوجيا ••• الخ • أما الانواع البسيطة نسبياً منها فهي الصغيريات الأولية كالفتوتون ، والالكترون ، والبوزيترون ، والبروتون ، والميزون ، والأنتي بروتون والنترون والانتسي ترون ••• الخ •

أما التعقيد الواسع فهو من نصيب الذرات والجزئيات ثم تليها في التعقيد الغازات والسوائل والاجسام الصلبة التي نحتك بها في حياتنا اليومية • وكذلك الأجرام السماوية المختلفة كالكواكب والنجوم والمجموعات النجمية • وتتميز أجسام الطبيعة العضوية ، وخاصة الانسان ، ثمرتها العليا ، بدرجة عالية من التعقيد • ويعتبر المجتمع الانساني موضوعاً مادياً خاصاً تدرس علوم كثيرة جوانبه ومظاهره المختلفة : من هذه العلوم المادية التاريخية ، والتاريخ والاقتصاد السياسي ، والاحصاء الاقتصادي ••• الخ •

٢ - حركة المادة

كل شيء يتحرك ويتبدل في هذا العالم (من أصغر الصغريات الاولية الى الكواكب والمجموعات النجمية الهائلة) • وفي الكائنات الحية يحدث تبادل مستمر للمواد • انها تتفاعل مع الوسط المحيط بها • والارض التي نعيش عليها تدور حول محورها وتتم دورانها حول الشمس • والشمس ذاتها ليست ثابتة • انها تسبح مع مجموعتها الكوكبية الدائرة حولها ، في الفضاء الكوني • والكيان الذي يتألف منه الشمس يشبه الاعصار الناري الهائج الجامح باستمرار • كل جسم يتكون من ذرات تتحرك باستمرار ، وكل ذرة تعج بالحركة الداخلية • ففي الغشاء الخارجي للذرات تتحرك الايونات ، أما في النواة فتتحرك البروتونات والنيوترونات بسرعة كبيرة • وحركتها لا تقتصر على مجرد الانتقال من نقطة الى أخرى في النواة ، بل تشمل كذلك تحول بعضها الى بعضها الآخر بذبذبات مذهلة • ان الحركة ليست حالة عرضية للمادة ، وليست شيئاً ما منفصلاً عن الخصائص الاساسية للأجسام المادية ، وليست شيئاً ما خارجياً بالنسبة اليها • والاشياء لا تكون في الحال التي هي عليه الا بفضل الحركة الملازمة لها • فالمجموعة الشمسية لا تبدو جسماً مادياً نوعياً الا لأن جميع الكواكب التي تشكلها تتسم بحركة معينة ، ملازمة لكل كوكب منها • فاذا توقف تبادل المواد داخل الكائنات الحية ، وبينها وبين الوسط ، انعدمت هذه الكائنات ، وأصبحت مجرد أجسام ميتة بالرغم من استمرار العمليات الكيماوية والفيزيائية فيها • واذا توقفت الايونات الموجودة في غشاء الذرة عن الحركة الملازمة لها كفت الذرة عن الوجود كجسم محدد نوعياً • وتظهر لنا الفيزياء أن نواة الذرة لم يكن ليكتب لها وجود فيما لو توقفت النيوترونات والبروتونات عن الحركة الدائمة في هذه النواة الذرية ، وهي الحركة التي تجد تعبيراً لها في تبادل التحول من احداها الى الاخرى • ان الطاقة النووية التي تجمع هذه الجزيئات في نواة ذرية معينة تدين بوجودها لهذه الحركة بالذات •

لا توجد مادة ولا يمكن أن توجد من دون حركة • والمادة لا تنفصل عن الحركة • وبتعبير آخر إن الحركة هي وسيلة وجود المادة •

ان المادية الديالكتيكية لا تفهم الحركة على أنها انتقال ميكانيكي للأجسام في المكان فحسب ، بل وتفهمها على أنها شاملة كل تبدل بصورة عامة • وقد أبان انجلز : « أن الحركة المفهومة بالمعنى العام للكلمة ، أي المفهومة كوسيلة لوجود المادة ، وكخاصة ملازمة للمادة داخلياً ، تتضمن جميع التبدلات والعمليات التي تجري في الكون بدءاً من التقل البسيط وانتهاء بالتفكير • وتبعاً لتنوع ظواهر الطبيعة توجد أشكال مختلفة لحركة المادة يمكننا أن نبرز من بينها بعض الأشكال الأساسية لهذه الحركة • وكل شكل منها يشتمل على حلقة ، واسعة الى هذا الحد أو ذاك ، من الظواهر الأقارب بمعنى معين •

ان شكل الحركة هو نموذج معين من تبدل الأوضاع ، يخضع لمجموعة معينة من القوانين المترابطة فيما بينها ، ويلتزم فئة واسعة الى هذا الحد أو ذاك ، من الاجسام المادية ، أو فئات مختلفة منها اذا كانت هذه الفئات تتمتع بسمات جوهرية عامة بالرغم من الفوارق القائمة فيما بينها •

وقد عرفت حتى الآن الأشكال الأساسية التالية للحركة :

١ : - الشكل الميكانيكي وهو تنقل الاجسام مكانياً بالنسبة الى بعضها •
٢ : - مجموعة أشكال الحركة التي تدرسها الفيزياء كالعمليات الحرارية والكهرطيسية بما فيها الظواهر الضوئية والتجاذب المتبادل ، والعمليات التي تجري داخل الذرة وداخل النواة ، وحركة الصغريات الأولية والتحول المتبادل فيما بينها •

٣ : - الشكل الكيميائي (العمليات الكيميائية) •

٤ : - الشكل البيولوجي للحركة (الحياة العضوية) •

٥ : - الشكل الاجتماعي (العمليات الاجتماعية وتاريخ المجتمع الانساني) •

هذا التقسيم لا يعني أن كل شكل من هذه الأشكال بسيط في ذاته •

ورغم أننا نتحدث ، مثلاً ، عن الشكل الميكانيكي للحركة ، حديثنا عن شكل وحيد ، إلا أنه تقوم خلف هذا الشكل الوحيد أنواع فرعية متباينة من الحركة الميكانيكية ، كالحركة المستقيمة ، مثلاً ، والمنحنية ، والمستوية ، والمتناوبة ، والدورانية ، والتصاعدية ... الخ . بيد أن هذه الأشكال كلها تنتظم تحت قنونة أساسية واحدة يعبر عنها بقوانين ميكانيك نيوتن . وكذلك فإن الشكل الكيماوي يشتمل على عدد كبير من التفاعلات الكيماوية وعمليات تعقيد تركيب الاجسام المادية بما فيها تلك العمليات المؤدية الى نشوء المركبات الزلالية . وهنا أيضاً تنظم سير العمليات المتباينة مجموعة موحدة مترابطة من القوانين الكيماوية .

ان عدم انفصال المادة عن الحركة لا يعبر عنه فقط بأنه لا مادة بلا حركة، بل ويعبر عنه أيضاً بأن بين الأشياء المادية وبين كل شكل من أشكال الحركة، التي هي شكل وجود الأولى ، يقوم توافق محدد تماماً، تقوم علاقة داخلية معينة . فالحياة ، كما تبدو في ظروف الارض ، هي شكل الحركة الملازم للاجسام الزلالية . أما في الاجسام اللا عضوية فلا توجد حياة ولا يمكن أن تكون . ثم ان الشكل الكيماوي للحركة يخص العناصر الكيماوية ومركباتها . وهو لا يمكن أن يتوفر في أجسام أخرى كالفوتونات والالكترونات والبوزترونات والميزونات ، وغيرها من الصغريات المماثلة التي تدرسها الفيزياء . والصلة بين أنواع الحركة وبين نماذج الاجسام المادية يمكن أن نراقبها لدى الاجسام البسيطة نسبياً ، والتي نسميها بالجزئيات « الاولية » . فالفوتونات ، مثلاً ، لها شكل حركة خاص يعبر عن خصائصه الاساسية بمعادلات « ماكسويل » الكهربائية الديناميكية ؛ أما حركة الاليكترونات والبوزترونات فتخضع لقوانين يعبر عنها بمعادلة « ديراك » التي تتميز جوهرياً عن معادلات « مكسويل » . أما حركة الصغريات الاكثر ثقلاً ، أي حركة الميزونات ، فتخضع لقوانين أخرى . وبقدر ما تتوفر هذه الصلة الداخلية بين أشكال الحركة ونماذج الاجسام المادية ، تكون دراسة الحركة ، في الوقت ذاته، طريقاً لمعرفة الاجسام المادية ذاتها .

وكما أن المادة لا يحاط بها كلياً كذلك فإن الوجود المتعددة لحركتها ،
وخصائص هذه الوجود ، لا يحاط بها . وكما أنه لا توجد مادة بسيطة كل
البساطة ، أي ينتهي عندها جوهر الشيء ، كذلك لا يوجد شكل بسيط كل
البساطة للحركة . وبساطة الاشكال الحركية المعروفة ببساطتها هي أمر
نسبي . وكلما تعمقنا في المادة اكتشفنا أشكالاً جديدة للحركة ، وخصائص
جديدة لهذه الأخيرة .

لا يمكن للمادة أن توجد إلا في الحركة ، ولكن هذا لا ينفي إمكان
حدوث فترات من السكون والتوازن أثناء السير العام المتواصل باستمرار
للتبدلات المادية . إلا أن هذا السكون والتوازن هما نسبيان ، يحصلان بالنسبة
إلى هذا الشيء المادي أو ذاك فقط لا بالنسبة إلى المادة ككل ؛ يحصلان بالنسبة
إلى هذا الشكل أو ذاك من أشكال الحركة ، لا بالنسبة إلى جميع أشكال
الحركة التي تخص أشياء معينة . إن الأمثلة التي تدل على نسبية السكون
والتوازن تبدى لنا في خطوة نخطوها في العالم المحيط بنا . فعندما يجلس
المسافر ، مثلاً ، في أريكة القطار المنطلق سريعاً ، يكون هو والقطار السريع
في حركة بالنسبة إلى الأرض ، ولكنه ، في الوقت ذاته ، ساكن بالنسبة إلى
العربة والأشياء الموجودة فيها . فالسكون هنا ليس بالنسبة فقط ، إلى مجموع
معين من الأجسام ، ولكنه بالنسبة أيضاً إلى شكل معين من الحركة فقط . فجسم
المسافر لا يتحرك بالنسبة إلى العربة ، أي أنه لا يوجد في حركة ميكانيكية
بالنسبة إليها . ولكن جسم المسافر ذاته هو محل لعمليات حركية متنوعة ،
وبفضلها يوجد المسافر ككائن حي .

إن واقع تمكن الأجسام المادية من الوجود في سكون نسبي وتوازن
نسبي يلعب دوراً عظيماً في تطور الطبيعة . فكما يقول انجلز : « إن إمكانية
السكون النسبي للأجسام ، إن قيام توازن مؤقت ، هو الشرط الأساسي لتمايز
المادة ، وبالتالي ، فهو أهم شرط من شروط الحياة » . وبفضل ذلك تنشأ
أشياء معينة نوعياً ، تطول مدة وجودها أو تقصر ، ويتميز بعضها عن بعض .

وهكذا فالاجسام لا تأخذ شكلاً معيناً إلا لأن أجزائها المكونة لها موجودة في سكون بالنسبة الى بعضها بعضاً .

ولا يتبدى السكون النسبي بمجرد احتفاظ الجسم بوضعه بالنسبة الى جسم آخر ، ولا بمجرد انعدام الحركة ، تحت هذا الشكل الحسي أو ذاك ، عند أي جسم مادي كان . ان أحد أهم أشكال السكون النسبي هو استقرار العمليات ، وحفظ الاجسام للحركة الخاصة بها ، والثبات النسبي لاشكال الحركة القائمة في ظروف معينة . وهكذا فالعضويات الحية المتميزة نوعياً توجد فقط لانه يحدث فيها ، باستمرار ، نموذج واحد من تبادل المواد، وطابع واحد للتأثير المتبادل مع الوسط الخارجي . ففي الاستقرار النسبي ، وفي نبات نموذج النشاط الحيوي ، يجد عامل السكون النسبي والتوازن النسبي تعبيره . ولكن خلف هذا السكون والتوازن ، تقوم حركة متواصلة ، وتبدل مستمر ، وتجديد ذاتي متواصل للجهاز العضوي ، وهذا ما يقول عنه انجلز « الوحدة الحية للحركة والتوازن » . ان هذا السكون والتوازن ليسا نسيبين فقط ، بل ومؤقتين أيضاً ، فلا بد عاجلاً أم آجلاً ، من اختلالها في كل جسم، ونبذهما، وازالتهما عن طريق الحركة الشاملة . كما لا بد للحركة ، عاجلاً أم آجلاً ، من أن تولد السكون والتوازن تحت هذا الشكل أو ذاك ، في ظروف أخرى ، مما يفتح مجالاً أمام ظهور أشياء جديدة نوعياً ، أمام ظهور ، تمايز في المادة .

لننظر ، بتفصيل أوفى ، الى العلاقة القائمة بين الاشكال البسيطة نسبياً والاشكال الاكثر تعقيداً . ان قولنا بأن شكلاً معيناً للحركة ملازم لشيء رفيع التطور لا ينفي وجود أشكال حركية أبسط في هذا الشيء . وتأكدنا بأن الحياة عبارة عن شكل حركة يخص الاجسام الزلائية لا ينفي أن الاجسام الزلائية تتوفر فيها عمليات كيميائية أو فيزيائية أو تنقلات ميكانيكية للمواد . ان ما نقوله يعني فكرة واحدة فقط هي أن الشكل العضوي للحركة انما هو أعلى شكل من أشكال الحركة الموجودة في هذا الجسم . في حين أن الحياة العضوية ، كشكل خاص من أشكال الحركة ، لا بد لها وأن تشتمل على أشكال حركية أكثر بساطة ، تحت شكل خاضع وتابع للأشكال الاصلية . ورغم

أن الحياة العضوية تنشأ عن أشكال حركية أكثر بساطة ، فهي لا تعني انها محصورة في نطاق أشكال هذه الحركة فقط . ان هذه الحياة تتميز، نوعياً ، عن كل من أشكال هذه الحركة ، ولكنها لا توجد بدون هذه الاشكال ، ولا تنفصل عنها . اذن تقوم هنا وحدة من نوع خاص ، ترتبط فيها أشكال متباينة للحركة ، في كل لا يتجزأ . ان العضوية ، كما يقول انجلز ، « هي ، بدون شك ، وحدة رفيعة ، تربط في ذاتها ، في كل كامل ، الميكانيك والفيزياء والكيمياء ، ربطاً ليس الى تجزئته من سبيل . ومادامت هذه الوحدة قائمة ، فهي تضع قيوداً معينة لحدوث العمليات الكيميائية والفيزيائية في العضوية ، وتخضعها الى نظام معين ، ووتيرة معينة . وهكذا ففي كثير من أشكال العضويات تتوضع حرارة معينة للجسم ، وتنشأ ظروف تعاكس أثر العمليات المضرة بالعضوية . ان وحدة العمليات البيولوجية ، والفيزيائية ، والكيميائية ، المكونة لجوهر الحياة ، تخلق الشروط اللازمة للبقاء على العضوية ، وخاصة الشروط الضرورية لتشكيل المركبات الزلزالية المعقدة اللازمة للعضوية الحية . فاذا فصمنا وحدة أكثر أشكال الحركة بساطة ، وعزلنا بعضها عن بعض ، فاننا نجعل من هذه الحياة وتلك الاشكال أمراً واحداً ، ولكننا لا نصيح ، آنذاك ، أمام عضوية حية ، بل أمام جسم ميت محلٍ لظواهر فيزيائية وكيميائية . وكل شكل أعلى للحركة لا بد وأن يتضمن باستمرار ، أشكالاً أبسط منها ، وخاصة التقل الميكانيكي وكل أشكال الحركة الفيزيائية . وفي هذا تنحصر أهميتها ودورها الفريد ، بين جميع الاشكال الاخرى للحركة على العموم . الا أن أي شكل كان أعلى للحركة لا يصبح ، ولا يمكن أن يصبح أشكالاً أبسط .

ونتيجة لانتفاء انتهاء أرفع أشكال الحركة الى أبسطها ، تقوم الكيمياء ، مثلاً ، كعلم مستقل خاص ، رغم أن الشكل الكيميائي للحركة غير ممكن من دون العمليات الفيزيائية . ولما كانت الحياة لا يمكن جعلها والاشكال الاخرى للحركة أمراً واحداً ، لهذا ، بالذات ، لا بد من علم مستقل خاص يبحث الحياة ، هو البيولوجيا ، رغم أن الحياة لا يمكن وجودها من دون عمليات

فيزيائية وكيميائية • كذلك لا بد من العلوم الاجتماعية التي تدرس حياة المجتمع
الانساني ، رغم أن الحياة الاجتماعية غير ممكنة من دون الشكل الميكانيكي
والفيزيائي والكيميائي والبيولوجي للحركة •

ان الاعتراف بالاصالة النوعية لكل شكل من أشكال الحركة ، وعدم
الوحدة الذاتية بين هذه الاشكال وبين الاشكال التي هي أكثر بساطة منها ،
عبارة عن احدى السمات الاساسية للنظرية المادية الديالكتيكية عن حركة المادة ،
تميزاً لها عن المادية الميكانيكية •

لا يمكن للمادة أن تكون من دون حركة ، كما أنه لا يمكن للحركة أن
تكون من غير مادة • كان بطل احدى الحكايات الانكليزية قَطُّ يستطيع
الاختفاء مبقياً على اِتسامته رغم اختفائه • ولاشك أن هذا الامر غير ممكن
الحدوث الا في الحكايات • بيد أنه اذا كان من المضحك تصور وجود بسمة
لقط مختلف ، فان ما تذهب اليه الفلسفة المثالية ، عندما تؤكد وجود حركة
بلا مادة ، لا يعدو الصورة المضحكة المذكورة •

اذا لم يكن للمادة وجود ، فلن يحدث آنذاك ، شيء ما ، بشكل عام ،
لن يوجد ، آنذاك ، شيء ما بشكل عام • ان الفكرة الذاهبة الى امكان وجود
الحركة من غير مادة ، هي فكرة خيالية ، هي فزلكة ، هي انتقال الى مواقع
المثالية ، ونكران للعلم • لنفرض المستحيل ، ولنقل ان المادة اختفت وبقيت
الحركة ، هذا الافتراض يدفعنا الى القول ١ : - بأن الحركة غير مادية ،
و٢ : - بأن الفكرة ممكنة الحدوث من دون مادة • غير أن تصور وجود
الفكر ، وجود الوعي ، من دون مادة ، هو نكران للعلم الطبيعي ، للعلم الذي
أثبت ، بصورة لا تقبل الجدل ، أن الفكر ، أن الوعي ، غير ممكن من دون
مادة • وليس من المهم ، في هذا المجال الشكل الذي ينظر فيه الى الفكر المنفصل
عن المادة : كفكر ذات ما مستقل (المثالية الذاتية) ، أو كـ « فكر » مجرد ما
(المثالية الموضوعية) • وقد أظهر لينين « أن الرئيسي هو أن محاولة

تصور الحركة بلا مادة تؤدي ، بشكل ملتوي ، الى فصل الفكرة عن المادة ، وهو أمر لا يعدو المثالية الفلسفية ، (١) .

ان احدى محاولات تصور الحركة من دون مادة كانت ما يدعى بنظرية طاقة « ف • اوستفالد » ، الكيمياءى الكبير ، والفيلسوف الصغير ، كما أسماه لينين • فحوالى نهاية القرن التاسع عشر أحرز الترموديناميك (٢) نجاحات هامة ، فى الفيزياء ، وهو الذى أتاح ، على أساس التحليل النظرى لشروط تحول الطاقة الى عمليات حرارية ، أتاح اكتشاف قانونية كثير من الظواهر الكيمياءية والفيزياءية • وقد أصبح بإمكان العلماء ، بفضل استنتاج هذه القنونات عدم أخذ البنية الذرية للمادة بعين الاعتبار • ولما كان العلماء الطبيعىون ذوو التفكير الميتافيزيكي قد جعلوا من الذرة والمادة ، على العموم ، شيئاً واحداً ، لهذا انتهوا الى نتيجة متسرفة تقول بأن « المادة لا وجود لها » ، وليس هنالك غير الطاقة المتحولة • وهذه الطاقة هى الأساس ، هى « جوهر العالم » • ان أنصار هذه النظرية فصلوا ب « قضائهم » على المادة ، الحركة ، عن الاخيرة • وفى هذا يستقر عيها الرئيسى •

صحيح أننا فى كثير من قضايا العلم ، التى يُعتبر فيها تحليل الناحية الطاقةية للمعاملات ، أمراً أساسياً ، نستطيع ، (وهو أمر ضرورى أحياناً) ، التجرد من البنية الذرية للمادة • ولكن هذا لا يبرر اطلاقاً أن نهمل على العموم ، الحامل المادى للطاقة ، أن نهمل المادة كحقيقة موضوعية • ان الطاقة ليست أكثر من تعبير عن الحركة التى يحوزها الشيء المادى ، والتى لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، منغزلة عن المادة • وتنظر العلوم الطبيعية الى التحولات الطاقةية كعملية موضوعية تحدث خارج الوعى ، وبشكل مستقل عنه • وهو أمر يعنى أن الطاقة هى خاصة من خصائص المادة • لهذا فلا معنى للتأكيد ، حسبما يفعل فلاسفة الطاقة ، كما لو أن الطاقة « تنفى » المادة • ان خطأ أنصار النظرية الطاقةية ينحصر فى نفهم الواقع الموضوعى القائم

(١) لينين : المؤلفات • الجزء ١٤ ، ص ٢٥٥ •

(٢) قسم من الفيزياء يدرس قوانين التوازن الحرارى وتحول الحرارة الى أشكال أخرى من الطاقة •

خارج وعينا ، في حين يعتبرون الطاقة ك « رمز محض » ، كشيء يتحدد بالوعي ، بالروح ، بالارادة ••• الخ • وهذا بالذات ما ذهب اليه « اوستفالد » عندما طور « نظريته الطاقية » • ولقد أكد هذا ، كما لو أن الظواهر الفيزيائية يمكن أن تتصور كعمليات بين الطاقات ، وأن هذا أمر مشروط بخاصة الوعي • « الا أن هذا ، كما يقول لينين ، هو المثالية المحضة ؛ فليس فكرنا هو الذي يعكس تحول الطاقة في العالم الخارجي ، بل ان العالم الخارجي هو الذي يعكس خاصة « وعينا »^(١) • ومع هذا ، فغالباً ما كان « استفالد » ، عند حله بعض قضايا الفيزياء والكيمياء ، العلمية ، بجانب وجهة النظر تلك ، وينظر ، مع علماء طبيعيين آخرين ، الى العمليات الطاقية ، كحقائق موضوعية ، مستقلة عن وعينا •

وفي هذه المجانبات برهان ساطع على عقم المثالية • وعندما تجابه العالم مسألة من مسائل العلوم الطبيعية التي تتطلب حلاً دقيقاً وواضحاً ، آنذاك نراه ، بحكم مسيرة البحث ذاتها ، مرغماً على مجانبة مواقع المثالية ، وعلى الانتقال عملياً ، عن وعي أو عن غير وعي ، إلى المادية •

وقد حاول بعض الفيزيائيين المعاصرين بعث نظرية «استفالد» عن الطاقة • فحاولوا ، في هذا المجال ، استغلال الوقائع الجديدة ، التي اكتشفها العلم الفيزيائي المعاصر ، أمثال تحول الاليكترونات والبوزيترونات الى فوتونات ، وكالقانون الذي يربط كتلة الاشياء المادية بطاقتها • وهو قانون ينص على أن طاقة الجسم المادي « و » تساوي كتلته « ك » مضروبة بمربع سرعة الضوء « ض » • وهم يجعلون ، في الحالة الاولى ، من الفوتونات و « الطاقة المحضة » المجردة عن أية مادة ، شيئاً واحداً ؛ وعلى هذا الاساس يعلنون أن المادة (الاليكترون ، والبوزيترون) تنعدم وتتحول الى طاقة (فوتونات) • أما في الحالة الثانية ، فهم يجعلون من المادة والكتلة شيئاً واحداً ، وبالاستناد الى المعادلة

$$و = ك \times ض^2$$

يؤكدون أن المادة « تتحول » الى طاقة ، انها تكثيف للطاقة •

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٢٥٨ •

بيد أن الفوتونات ، كما رأينا من قبل ، ليست طاقة محضة ، بل هي أجسام مادية حائزة للطاقة ، شأنها شأن الاليكترونات والبوزيترونات • هنا يحدث تحول متبادل بين جزئيات مادية مختلفة • ولا صحة إطلاقاً للقول بأن المادة « تتحول » الى طاقة ، أو أنها « مطابقة » أو « معادلة » للأخيرة • فليس بالامكان ، أولاً ، جعل المادة واحدى خصائصها ، الكتلة ، شيئاً واحداً • لهذا فقانون :

$$E = mc^2$$

يربط لا المادة بالطاقة ، بل الكتلة بالطاقة •

كما لا ينبغي ، ثانياً ، أن نستخلص من واقع أن أي قانون فيزيائي يربط بين مقدارين فيزيائيين ، لا ينبغي مطلقاً أن نستخلص أن هذين المقدارين شيء واحد ، أو أن مقدار أحدهما يطابق الآخر • ليس هناك أي واقع يشهد على « تحول » المادة الى طاقة • لا يمكن للمادة أن تتحول الى أية خاصة من خصائصها ، بحيث تبقى هذه الخاصة بدون حامل مادي • ان جوهر قانون العلاقة المتبادلة بين الكتلة والطاقة ينحصر في ان الشيء المادي الذي يتمتع في ظروف معينة ، بكتلة معينة ، يحوز طاقة معينة تلائم تلك الكتلة •

وليس هنالك أي مبرر للقول بتحول الكتلة الى طاقة أو الطاقة الى كتلة • وهذا واضح من صيغة القانون ذاته • انها تشير الى ازدياد الطاقة عند تزايد الكتلة ، والى تساؤل الاولى عند تساؤل الثانية • فلو أن أحد هذين المقدارين تحول الى الآخر لا نتفت تلك العلاقة بينهما : لان زيادة أحدهما لا بد لها وأن تؤدي الى تساؤل الآخر • وهكذا فلا يمكن أن تكون حركة بلا مادة ، والحركة لا تنفصل عن المادة • وبما أن المادة خالدة ، لا تفنى ولا تخلق ، فحركتها أيضاً خالدة لا تفنى ولا تخلق • ان نظرية عدم فناء الحركة المادية وعدم خلقها هي احدى النظريات الاساسية للمادية الديالكتيكية والعلوم الطبيعية الحديثة •

ان قانون حفظ الطاقة وتحولها هو أحد تعابير العلوم الطبيعية عن عدم

فناء حركة المادة ، وقد سماه انجلز ب « القانون الاساسي العظيم للحركة »^(١) .
الطاقة هي مقياس الحركة • فمهما حدثت من عمليات في العالم الخارجي ،
ومهما تمت من تحولات في أشكال الحركة ، فان كمية الطاقة العامة ، تبقى ،
دائماً ، كما هي ، تبقى دون تبدل • ان الطاقة لا تخلق ولا تنعدم بل يتبدل
شكلها فقط ، متحولة من شكل الى اخر ، ومنتقلة من شيء مادي الى شيء
آخر • لقد لاحظ كل منا ، أكثر من مرة ، كيف ينتقل الجسم من حالة
السكون الى حالة الحركة ، مكتسباً مقداراً ما من الطاقة • فاذا درسنا بامعان
جميع الظروف المحيطة بنشوء هذه الحركة ، تبدي لنا أن هناك دائماً جسماً ما
آخر مادياً أو مجموعة من الاجسام المادية التي كانت حركتها أو حركته
سبباً لنشوء حركة جسم معين • فمقدار الطاقة الذي حازه هذا الجسم
يساوي مقدار الطاقة الذي فقدتها تلك الاجسام التي أدى تأثير الجسم
المذكور المتبادل معها الى نشوء حركة هذا الجسم • فبسبب التأثير المادي المتبادل ،
وحده ، بين الاجسام ، تتم تبدلات حركاتها ، بحيث أن الكمية العامة لطاقة
الاجسام المشتركة في هذه العمليات تبقى ثابتة •

ويمكن التعبير كميّاً عن عدم خلق الحركة وفنائها بوجود نسب تعادلية
ثابتة ، بين أشكال مختلفة للطاقة • فمهما كانت عليه الظروف المحيطة بتحول
الحركة الميكانيكية ، مثلاً ، الى حرارة ، فان ٤٢٦٨٩ كيلو غرام متر^(٢) من
الطاقة الحركية الميكانيكية تولد ، دائماً ، وفي كل مكان ، حريرة كبيرة واحدة^(٣) •
مثل هذه النسب التعادلية الثابتة قائمة أيضاً في تحولات الطاقة الكهربائية
والحرارية ••• الخ • وليس بمقدور أية أعجوبة كانت أن تنشئ لقاء ٤٢٦٨٩
كيلو غرام متر من العمل ، كمية حرارة أكثر أو أقل من حريرة كبيرة واحدة ،
أكثر أو أقل من الكمية التي تتحدد بفعل قانون حفظ الطاقة وتحولها •
صحيح أن المقدار العددي لمعادل الحرارة الميكانيكي يمكن أن يصبح ،

(١) انجلز : « انتي دوهرنغ » ص ١٣ •

(٢) الكيلو غرام متر هي القدرة اللازمة لتحريك كغ الى مسافة متر واحد •

(٣) الحريرة الكبيرة الواحدة تساوي الف حريرة عادية •

مع تطور العلم ، أكبر دقة ، الا أن واقع وجود حد صارم له يبقى واقعاً لا يتطرق اليه أدنى شك .

ولكن عدم فناء حركة المادة لا ينبغي فهمه كميّاً فقط ، أي بمعنى ثبات كمية الطاقة . فبعد أن تعمق انجلز في تحليل جوهر قانون حفظ الطاقة وتحولها ، أشار الى الوجه الهام الآخر لهذا القانون ، الذي يعكس عدم فناء الحركة كميّاً . ان عدم فناء الحركة كميّاً ، كما يفهمه انجلز ، يستقر في قدرة الحركة المادية ، قدرة لا نهاية لها ، على التحول المتجدد ، باستمرار من شكل الى آخر . ان قانون حفظ الطاقة وتحولها يعبر عن هاتين الناحيتين لعدم فناء الحركة ، في علاقتهما التي لا انفصام لها . ولا بد لتجاهل الناحية الكيفية في عدم فناء الحركة من أن يؤدي الى التناقض مع قانون حفظ الطاقة وتحولها . والشاهد البين على ذلك هو نشوء ما يدعي بـ « نظرية الموت الحراري للكون » ، التي أوجدها ، في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعض العلماء الطبيعيين . هذه النظرية تذهب الى انه لا بد لجميع أشكال الحركة من أن تتحول الى حرارة . وهذه الحرارة تبدد بانتظام في أنحاء الكون حتى تصل الى حالة التوازن ، وتفقد ، الى الابد ، قدرتها على احداث تحولات لاحقة ، عندها تتوقف جميع عمليات الطبيعة . وحدث هذا التوقف يعني ضياع الحركة التي كانت موجودة منذ البداية . لان « الحركة » ، كما يقول انجلز ، التي أضاعت القدرة على التحول الى مختلف الاشكال الخاصة بها تكون قد فقدت فعاليتها رغم احتفاظها بـ « الامكانية » وهذا يعني أنها فويت جزئياً . ولكن هذا وذاك ليسا من الامور المعقولة ،^(١) .

وقد انتقد انجلز انتقاداً عميقاً ، هذه النظرية ، وأبان أنها على طرفي نقيض مع قانون حفظ الطاقة وتحولها . كما أبان أن أنصارها سيضطرون ، باصرارهم على وجهة نظرهم ، في النهاية ، الى رفض حتى عدم فناء الحركة الكمي المحض ، وهكذا يقطعون آخر خيط يصلهم بالعلم . ترى اذا كانت الحركة تضعف في العالم ، في نهاية الحساب ، فما هو مصدرها الأول ؟

(١) انجلز : « دياكتيك الطبيعة » ص ١٧ .

ان انجلز ، اذ يشبه العالم « بساعة كونية » يكشف عن سلسلة المحاكمات التي لا بد وأن تصدر عن أنصار هذه النظرية : « لا بد للساعة الكونية ، في البدء ، من أن تُربط ، ثم تسير حتى تبلغ حالة التوازن • والاعجوبة وحدها هي التي يمكنها أن تنتزع الساعة من حالة توازنها هذه وتسيرها مرة ثانية • ان الطاقة التي انفقت على ربط الساعة قد انتهت ، على الاقل ، من الوجهة الكيفية ، ولا يمكن ايجادها من جديد الا عن طريق قوة خارجية • وهذا يعني أن القوة الخارجية كانت ضرورية في البداية أيضاً ، وبالتالي ، فان كمية الحركة أو الطاقة الموجودة في الكون ليست واحدة ، دائماً • وهذا يعني أن الطاقة كان لا بد لها وأن تكون قد خلقت • مما يعني ، بدوره ، أنها مخلوقة ، أي أنها قابلة للفناء • فيا لها من سخافة » (١) •

وهكذا فقد دحض انجلز ، بنقده ، نظرية « الموت الحراري للكون » • ان المحاولات الحديثة لبعث هذه النظرية من جديد ، لا تستند الى أية براهين جديدة في صالح النظرية المذكورة • أما علم الفيزياء فقد أمد نظرية عدم فناء الحركة كفيلاً ببراهين جديدة ، وأعطى الدلائل على عمومية وشمول قانون حفظ الطاقة وتحولها • ان علم الفلك الحديث يرينا بصورة لا شك فيها استحالة الكلام عن أي نوع من أنواع « شيخوخة » الكون و « انحلاله » • وليست هناك أية معطيات حقيقية تشهد على أن العالم يقترب من حالة الموت الحراري أو على وجود هذه الحالة بشكل عام • الآن ، وكما كان يحدث منذ مليارات السنين تتم عمليات نشوء جديدة ، وعمليات ولادة نجوم ومنظومات نجمية جبارة جديدة وجديدة • وتحت تأثير القوانين الطبيعية تنشأ عن المادة غير المتميزة ، عن المادة الغبارية الشكل ، عن المادة المبعثرة في الفضاء الكوني منشأ منظومات معقدة من الاجسام السماوية التي تتصف ببنية داخلية أعلى من بنية الاجسام الكونية الغبارية الشكل • وبكلمة واحدة ان المادة لا تفقد أبداً ، ولا في أي مكان ، قدرتها على التحول باستمرار •

ان النظرة المادية عن العالم التي تتصف بالعلمية الحقيقية، هي وثيقة الارتباط

(١) انجلز : « دياكتيك الطبيعة » ص ٢٢٩ •

بالاعتراف بعدم فناء الحركة • وحيث يؤخذ بفناء الحركة كلياً أو نوعياً تظهر أقوال مناهضة للمعلم عن « الدفعة الأولى » التي ليست الا كلمة مرادفة لـ « صانع الكون » • ولهذا بالذات ، يعتبر قانون حفظ الطاقة وتحولها كما ، قال لينين ، أساساً للأفكار الرئيسية في النظرية المادية (١) •

ونجد التعبير عن مطلقية الحركة في أن الحركة خالدة ، أي غير فانية وغير مخلوقة ، وفي أن المادة لا يمكن أن توجد أبداً ، ولا في أي مكان ، من دون حركة ، وهي لا تفقد قدرتها على التبدل باستمرار مهما تغيرت الظروف • بيد أن الحركة توجد تحت شكل عمليات مجددة ، ملموسة ، عرضية ، غير خالدة ، يحل بعضها مكان الآخر • ان كون الحركة نسبية يجد تعبيرة في حتمية حلول عمليات وأشكال الحركة محل بعضها الآخر ، وفي تحول بعضها الى بعض • وبكلمة أخرى : ان الحركة مطلقة ، من حيث الجوهر ، ولكنها نسبية ، من حيث شكل ظهورها الحسي •

ان القول بأن الحركة مطلقة ونسبية يعكس واقعاً هاماً ، يعكس واقع تناقضها الداخلي • وعندما نحاول وصف الطبيعة التناقضية للحركة ، لا بد من ملاحظة أن الحركة ، من حيث جوهرها ، عبارة عن تبدل ، ولكنه تبدل يحتوي في ذاته على لحظات عدم تبدل ، واستقرار وثبات • فبين الاشكال الفيزيائية المختلفة للحركة ، مثلاً ، تقوم علاقات تعادل ثابتة لا تنتهك في أي زمان ومكان ، ويلازم كلا من هذه الاشكال نموذج معين من تبدل حالة الاشياء المادية ، أي قانون معين • لهذا فكل شكل معين للحركة يحوز خصائص نوعية تميزه عن غيره من الاشكال • والحركة تناقضية كذلك بمعنى أنها تحتوي في ذاتها على حالات الاستمرار والانقطاع • أما انقطاع الحركة فيعبر عنه بأن الحركة توجد لا كشيء ذي صورة وحيدة بل كمجموع أشكال متباينة نوعياً ، لا يؤول أحدها الى الآخر • بيد أنه رغم كل تباين في هذه الاشكال ، فهي أشكال يتحول أحدها الى الآخر ، وبعضها يولد الآخر •

(١) انظر لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٣١٨ •

وفي هذه العلاقة العضوية الداخلية لجميع الأشكال الاصلية المختلفة نوعياً ،
للحركة تنعكس استمرارية الحركة •

ان العلاقة بين استمرارية الحركة وانقطاعها تشاهد ، مثلاً ، في الحركة
الداخلية للذرة • فقد أظهرت الفيزياء الحديثة ان الطاقة الداخلية للذرات
لا تشتمل على عدد من المقادير المستمرة الحركة بل على عدد من المقادير
المتقطعة • من هنا ينتج أن حركة العمليات التي تحدث داخل الذرة تحتوي على
درجات متقطعة من الاثارة • ولكن هذه الحركة نفسها التي تنقلها الذرة الى
الوسط الخارجي عن طريق الاشعاع الكهرطيسي ، مثلاً ، يمكن أن تتوزع
بين الاجسام المادية الاخرى بصورة لا توقف فيها اطلاقاً •

٣ : - المكان والزمان

مهما كان الشيء المادي الذي نتناوله فهو دائماً ذو امتداد ما : انه طويل
أو قصير ، عريض أو ضيق ، عال أو منخفض • ولا وجود لشيء خال من
امتداد على شكل طول أو عرض أو ارتفاع ، خال من أي حجم كان • ان كل
شيء في هذا العالم المحيط بنا قائم في مكان ما بين أشياء أخرى • فهو قريب
بالنسبة الى بعض الاشياء وبعيد بالنسبة الى غيرها ؛ هو عن يمين بعض الاشياء ،
وهو عن يسار أخرى ؛ هو يعلو بعضها وينخفض عن بعضها الآخر • ان
الاجسام تتمتع بامتداد ، بحجم ، وتوجد في مكان ما ، ان بعضها منشور بالنسبة
الى بعضها الآخر على هذا الشكل أو ذاك ، وهي لها هذا الشكل الخارجي أو
ذاك ، وفي هذا كله يجد الواقع التالي تعبيره ، واقع أن الاجسام موجودة
في المكان •

ان جسماً واحداً معيناً يمكن أن يتبدى لنا أكبر أو أصغر جسماً وفقاً
لبعدنا • ولكن هذا لا يعني اطلاقاً أن امتداد الاشياء المكاني هو أمر ذاتي • ان
هذا الامتداد هو خاصة موضوعية للأشياء ، مستقلة عن احساساتنا وادراكنا
ووعينا • إن ادراكنا لابعاد أشياء مادية واحدة يمكن أن يختلف من مرة لآخرى ،
لأننا قد ابتعدنا عنها وأصبحت بالنسبة لنا في مكان موضوعي آخر • الا أن
امتداد الاجسام وحجمها ، وشكلها مستقلة عن احساساتنا • والمسافات التي

تفصل بين الاجسام ، وأوضاع بعضها بالنسبة الى بعضها الآخر هي أيضاً صفات موضوعية للعلاقات الحقيقية القائمة بين الاجسام . وتتبدى لنا المسافات بين الاجسام ، عن بعد ، أقصر مما هي في الواقع . ولكنه اذا ما قام بين هذه الاجسام جسم ثالث ما (أو جملة من الاجسام) ، فإن الجسم الثالث يقوم بينها بشكل مستقل عن الكيفية التي ندرك بها الفواصل بينها سواء كنا قريبين منها أو بعيدين عنها .

ان كل شيء من أشكال حركة المادة مرتبط ، بالضرورة ، بالتنقل المكاني الذي تقوم به الاجسام الصغيرة أو الكبيرة . أي أن المكان هو الشرط الاساسي لحركة المادة .

وعلى هذا فالمكان هو الشكل الحقيقي موضوعياً لوجود المادة المتحركة . ان مفهوم المكان يعبر عن تعايش الاشياء وعن استقلال بعضها بالنسبة الى الآخر ؛ يعبر عن امتدادها وعن كيفية وجودها بالنسبة الى بعضها .

ثم ان العمليات المادية لا تتم فقط في أماكن مختلفة وفي أزمان متباينة . ان معنى التعبير التالي : معنى « كل الاجسام موجودة في الزمان » يستقر في حدوث هذه العمليات بتوال ما ، (احداها قبل الاخرى أو بعدها) وفي تمايزها بامتداد زمانها ، وفي أنها ذات مراحل تتميز احداها عن الاخرى .

ان فترة زمنية واحدة بين حادثين اثنين قد تبدو لافراد مختلفين ، قصيرة أم طويلة حسبما يكونون عليه من مزاج ووضع نفسي واهتمام بالحوادث الملاحظة ، وما شابه ذلك . بيد أن هذا لا يعني أن الفترة الزمنية ، أن الامتداد الزمني ، شيء ما ذاتي . فهي موضوعية ، أي مستقلة عن احساساتنا وعن وعينا . تدل على هذا الحقيقة التالية ، حقيقة أنه مهما كان الشكل الذي تتبدى فيه لنا الفترة الزمنية الفاصلة بين حادثين ، وسواء أكانت قصيرة أو طويلة ، بالنسبة لنا ، فان هذه الفترة تستوعب دائماً ، في ظروف معينة ، امتداداً زمنياً تحدث خلاله عملية موضوعية واحدة ، مستقلة عن ارادتنا ووعينا .

ان كون المراحل المتباينة للعمليات ذات أزمان متباينة ، أي أنها مفصولة

عن بعضها بفترات زمنية ما ، يعتبر الشرط الاساسي لوجود هذه العمليات •
فلولا هذا الامتداد الزمني ، لولا هذا التباين الزمني بين المراحل المختلفة لعملية
واحدة ، لما وجدت هذه المراحل ذاتها ، وبالتالي ، لما حدثت أية تبدلات مقنونة (١)
تنقل الظواهر من مرحلة الى أخرى ، ولما أمكن تطور الظواهر والعمليات ،
وانتقالها من الاشكال الدنيا الى الاشكال العليا • وهذا يعني أن حركة المادة غير
ممكنة خارج الزمن وبشكل مستقل عنه •

وعلى هذا فالزمن هو الشكل الحقيقي موضوعياً لوجود المادة المتحركة •
ويعبر في هذا الشكل لوجود المادة عن تنالي تطور العمليات المادية وترتيب
استبدال بعضها ببعض ، وابتعاد مختلف مراحل العمليات بعضها عن بعض ،
وامتدادها الزمني وتطورها •

يقول لينين : « ليس في الكون شيء غير المادة المتحركة ، ولا تستطيع هذه
المادة المتحركة أن تتحرك من غير اطار من الزمان والمكان » (٢) •

ان أي شيء مادي لا يمكن أن يوجد في المكان فقط دون أن يكون في
الزمان ، أو أن يوجد في الزمان دون أن يوجد في المكان • وأي جسم كان هو ،
دائماً ، وفي كل مكان ، موجود في المكان كما في الزمان • وهذا يعني أن المكان
والزمان مرتبطان ببعضهما ارتباطاً عضويًا • وينبغي أن نستنتج من واقع أن
المكان هو انتظام تعايش الاشياء المادية ، وأن الزمان هو انتظام توالي تبدل
مراحل العمليات المادية ، ينبغي أن نستنتج من هذا أن كلا من الزمان والمكان
غير منفصل عن المادة •

ان الفلاسفة المثاليين ينكرون الواقع الموضوعي لكل من الزمان والمكان •
وهم يعتقدون أنهما شيء ما ، شيء موجود في الوعي أو بفضل الوعي ،
يعتقدون أنهما نتاج الروح ، نتاج التفكير • هكذا يؤكد بيركلي أن الزمان
والمكان عبارة عن شكلين للانفعالات الذاتية • في حين يعتبرهما « كانت »

(١) أي تخضع حركتها لقانونية معينة •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء الرابع عشر ، ص ١٦٢ •

شكلين سابقين (خارج نطاق التجربة) لتأملنا ، مشروطين بطبيعة وعينا • أما بالنسبة الى « ماخ » فليس الزمان والمكان غير جملة من الاحساسات التي نظمناها ، نحن البشر • وهما ، في فلسفة هيغل ، عبارة عن تنجّاج « الفكرة المطلقة » عبارة عن مخلوقين لم تخلقهما « الفكرة » إلا في مرحلة معينة من مراحل تطورها ، بحيث كان المكان في البداية ، ثم تلاه الزمان فيما بعد • وعلى هذا فهما منفصلان عن بعضهما •

بيد أن هذه التصورات المثالية عن الزمان والمكان مدحوضة بتجارب الناس العملية اليومية كلها ، ومن قبل علم الطبيعة بأكمله • فكيف نستطيع قبول التأكيد القائل بأن الزمان والمكان وليدا الوعي ، الروح ، الفكرة ، أو أنهما موجودان في الوعي ؟ كيف نستطيع قبول هذا ، اذا كان علم الطبيعة يقرر أن الارض موجودة في الزمان والمكان حتى قبل ملايين السنين من نشوء الانسان ، ووعيه ، وروحه ، وأفكاره ؟ هذا الواقع يتمتع بأهمية جذرية في تعرية خطل النظرات المثالية عن الزمان والمكان • وقد أشار لينين الى أن « وجود الطبيعة في الزمان الذي يعد ملايين السنين قبل ظهور الانسان والتجربة الانسانية ، يظهر لنا سخافة هذه النظرية المثالية » (١) •

ورغم أن الزمان والمكان هما شكلان لوجود المادة على حد سواء إلا أنهما شكلان لوجود المادة متباينان • ومع أنهما يتمتعان بخصائص مشتركة متعددة ، فهما يتباينان عن بعضهما كثيراً • ان ما يجمع بينهما هو أنهما :

أ : - موضوعيان ، موجودان بشكل مستقل عن وعينا •

ب : - خالدان بسبب خلود المادة • لقد كانا موجودين ، وهما موجودان ، وسيظلان موجودين ، لأن المادة لا يمكن أن توجد من دونهما •

ج : - غير محدودين وغير نهائيين •

ان اللا محدودية واللا نهائية هما ميزتان متباينتان للمكان والزمان •

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١٦٥ •

وتطبيق اللا محدودية على المكان انما يعني أنه مهما كانت النقطة التي ننطلق في حركتنا منها في المكان ، ومهما ابتعدنا في انطلاقنا عن نقطة البداية ، فلن نعثر ، في أي زمان أو مكان ، على حدود لانستطيع المثابرة على التحرك فيما بعدها . الا أن اللا محدودية لاتعني ، بالضرورة ، اللا نهائية • والمثل الواضح على ذلك نراه في سطح الكرة الارضية ، الذي يمكن اعتباره « مكاناً ذا بعدين » • هذا المكان غير محدود لاتنا ، مهما تمادينا في حركتنا عليه ، فلن نجد ، أبداً ، حدوداً تضطرنا للوقوف عندها • ومع هذا فالمكان المذكور له نهاية ، ويعبر عن هذه النهاية ببعض الاعداد النهائية من وحدات المساحة • وهو أمر يمكن التحقق منه بتحركنا من نقطة انطلاق ما في أية جهة معينة : إننا ، عاجلاً أم آجلاً ، ستم الدورة حول الارض ، وسنعود الى نقطة انطلاقنا • وهكذا نجد أن « مكان » الكرة النهائي ، ذا البعدين ، هو مكان مغلق •

ان مكان الكون ليس غير محدود فحسب ، بل وهو غير متناه أيضاً • وليست هناك أية معطيات تثبت ، بشكل لا يقبل الجدل ، أنه « مكان » مغلق • ويظهر لنا تحليل نماذج « الكون المغلق » مكانياً ، الرياضية المجردة المختلفة التي يحتويها علم الفضاء ، يظهر أن هذا « الانغلاق » لم يتحقق ، عملياً ، في أي نموذج من هذه النماذج • ولتقل على سبيل المجاز انه لو قدر لنا السير في الكون في اتجاه واحد لما رجعنا أبداً الى نقطة انطلاقنا ، وسنمر ، في سيرنا ، دائماً على أماكن كونية جديدة • ان العلم ينفذ أكثر فأكثر الى الكون اللامتناهي • وقد أتاح لنا التكنيك الفلكي ، منذ أمد غير بعيد ، أن نخترق بنظرنا مسافات يقطعها الضوء خلال مليار من السنين ، رغم أن سرعته تبلغ في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كم • كما سمح لنا الراديو تيليسكوب الحديث الآن برؤية مجموعات نجمية أكثر ابتعاداً ، بحيث لا يصلنا نورها الا بعد عشرة مليارات من السنين أو أكثر • هذه المسافات الشاسعة لا يمكن للمرء أن يتصورها بوضوح • ولا شك أنها لاتشكل حداً نهائياً أيضاً • ومهما تطاولت هذه المجموعات بعدها عنا ، فان هنالك أجراماً سماوية جبارة أخرى ، وامتدادات هائلة لأجسام مادية •

وما قلناه عن المكان يقال عن الزمان من حيث اللامحدودية واللانهاية .
فمهما مضى من الزمن على حادث ما ، فالزمن سيتوالى دون أن يعرف حداً
ينتهي عنده الامتداد الزمني ، ينتهي عنده العدد الذي لا حصر له من العمليات
التي تعقب احداها الاخرى ، وتشكل بمجموعها امتداداً لا حد له . وعلى
غرار هذا ، فمهما امتد زمن حادث ما سحيقاً ، فقد سبقته أحداث لا حصر
لها ، يلف مجموعتها امتداد زمني لا يعرف حداً . كما أن الزمان اذا ما تكلمنا
على سبيل المجاز ، يجري بشكل لا يكرر فيه ذاته ، بل يجري من خلال
لحظات وامتدادات زمنية جديدة وجديدة .

وتعتبر نظرية « الكون المتوسع » المثالية احدى محاولات دحض فكرة
لانهاية العالم . فقد أظهرت الارصاد الفلكية أن الطيوف السدم الموجودة خارج
مجموعتنا النجمية قد انزاحت بعض الشيء الى ناحية الموجات الاكثر طولاً
(وهو ما يسمى الانزياح الاحمر) . ان مثل هذا الانزياح يمكن أن يحدث
بشكل خاص نتيجة أن مصدر الضوء والجهاز الذي يستقبل هذا الضوء يتعد
أحدهما عن الآخر بسرعة ما . ويجري هذا بحيث أنه كلما ازدادت سرعة
ابتعاد مصدر الضوء عن الجهاز المستقبل ازداد انزياح الطيف . ويمكننا
الحكم على سرعة حركة مصدر الضوء بالنسبة للجهاز على أساس مقدار الانزياح .
وبما أنه لم يتوفر أي تفسير آخر لحدوث الانزياح الاحمر للطيوف السديمية
فقد مال العلماء عموماً الى تفسير هذا الانزياح بابتعاد السدم عن مركز مجموعتنا
النجمية ، وذلك بحيث أن سرعة ابتعاد كل سديم متناسبة تقريباً مع بعده عن
الارض ، وعلى هذا فكلما ازداد بعد السديم ازدادت سرعة ابتعاده .

انطلاقاً من هذا استخلص الفلكيون والفلاسفة المثاليون أن الكون كله
كان في وقت ما متمركزاً في حجم صغير جداً ذي نهايات محددة ، أي في « ذرة
أولى » من نوع خاص . ولكن هذا الكون أخذ في لحظة ما يتوسع فجأة وبدأ
بهذا « توسع المكان » ، الذي كان في البداية صغيراً ، الى ما لانهاية . وقد أضيف
الى هذه الاقوال التصريح بأن هذه « الذرة الاولى » هي من صنع الاله وقد
بدأت توسعها بارادته .

ان هذه النظرية الرجعية التي ترفض العلم صراحة ، نظرية « الكون المتوسع » لا تصمد أمام النقد • فأولا ليس هناك أي أساس لمطابقة مجموعة السدم التي نلاحظها خارج مجموعتنا النجمية مع الكون بأجمعه على العموم • فهذه السدم ليست الا جزءاً صغيراً جداً منه • وثانياً ليس هناك أي أساس للقول بأن حركة جميع السدم الموجودة خارج مجموعتنا النجمية عموماً تجري في كل مكان بشكل مشابه لهذا ، أي فقط في الجهة التي تبعدنا عن المركز ، وأنه ليس هناك أية حركات أخرى مخالفة ، أو أكثر تعقيداً ، من هذه لدى سدم أخرى خارج مجموعتنا النجمية • ثالثاً : ليس هناك أساس لنفترض أن حركة السدم ، حتى في الجزء الذي يخضع لمراقبتنا من الكون ، قد بقيت على حالها في كل الازمان • وهكذا فان الظاهرة المحلية المحصورة التي لا تحدث الا في جزء محدود جداً من الكون والتي لا تلاحظ الا خلال فترة زمنية محدودة نسبياً لا يمكن اعتبارها قانوناً عاماً لحركة الكون اللانهائي بأجمعه • وبالإضافة الى هذا فان تفسير الانزياح الاحمر للسدم التي هي خارج مجموعتنا النجمية بتطايرها وتباعدها ، ليس هو التفسير الممكن والنهائي الوحيد ، اذا كنا نتوخى الدقة • اذ يمكن أن تكتشف في المستقبل عوامل اخرى باستطاعتها أن تحدث الاثر ذاته •

وعلى هذا فان نظرية « الكون المتوسع » لا يمكن اعتبارها نظرية علمية بأي حال من الاحوال • ولا يمكنها أن تشكل في فكرة لا نهائية الكون مكانياً وزمانياً •

لنعالج الآن الفوارق القائمة بين الزمان والمكان • ان الوجود في المكان ، كما أشار انجلز ، انما يعني الوجود تحت « شكل قيام شيء الى جانب آخر » • في حين أن الوجود في الزمان انما يعني الوجود تحت « شكل قتالي واحد اثر الآخر »^(١) • والميزة الاساسية للمكان بالنسبة الى الزمان هي أن الاول يتمتع بثلاثة أبعاد ، في حين أن الثاني يتمتع بعد واحد • وأبعاد المكان الثلاثة انما

(١) انجلز : « دياكتيك الطبيعة » ص ٨ •

تعني أننا لو أمررنا من نقطة مكانية ما مستقيمين في اتجاه ما ، فبالامكان ، دائماً ، انزال خط ثالث عمودي عليهما • علماً بأن هذا الخط المستقيم الثالث هو ، كما تثبت التجربة ، الخط الوحيد • وليس بالامكان انزال خطوط عمودية أخرى عليهما معاً • ويعبر أيضاً عن الابعاد الثلاثة للمكان ، بأن وضع أية نقطة في المكان انما يتحدد كلياً ، بقياس الابعاد الثلاثة التي تفصل هذه النقطة عن أية ثلاثة سطوح متقاطعة ومأخوذة كمحاور احداثيات •

ان هذه الخاصة ملازمة للمكان الموضوعي •

ان أي جسم مادي لابد وأن يحوز ثلاثة أبعاد • انه ذو حجم يقل أو يكثر • بيد أن مفهوم السطح ، والخط ، والنقطة ، انما هو تجريد علمي مبرر تماماً • فالسطح يتصف بأنه ذو بعدين فقط • والخط لا يتمتع الا بعد واحد ، أما النقطة الهندسية فلا أبعاد لها • ان مفاهيم السطح والخط والنقطة المجردة هي انعكاس الوجود المكاني لا للجسم المادي بأجمعه ، بل لجوانب معينة منه فقط • انها تعبر عن العلاقة بين عناصر البنية الحجمية المتصلة ببعضها ، للأجسام المادية الحقيقية •

أما الزمان فهو ، خلافاً للمكان ، ذو بعد واحد • وفي مفهوم البعد الواحد للزمان ينعكس واقع أن أية لحظة زمنية مطابقة لبدء عملية ما أو نهايتها أو لمرحلة متوسطة فيها ، انما تتحدد بعدد واحد يعبر عن مقدار الفترة الزمنية التي تفصل هذه اللحظة عن لحظة ما أخرى معتبرة من قبلنا كبداء للحساب • ان الاحداث كلها تجري في اتجاه واحد وحيد ، من الماضي الى الحاضر ، ومنه الى المستقبل • واتجاه العمليات هذا هو السمة الموضوعية لها ولا يتعلق باحساسات ووعي الناس الذين يدركون هذه العمليات • في المكان يمكن نقل الاجسام من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، من الاعلى الى الاسفل ، ومن الاسفل الى الاعلى ••• الخ • أما العمليات المرتبطة فيما بينها ارتباطاً سببياً فلا يمكن ارجاعها الى الوراثة زمنية ، واجبارها على السير من المستقبل الى الماضي • ان الزمن لا يعود القهقري • وبهذا فهو أيضاً يتميز ، جوهرياً ، عن المكان •

كثيراً ما نفترض في الفيزياء النظرية والرياضيات وجود ما يسمى بالامكنة الكثيرة الابعاد التي تتمتع بأربعة ، بخمسة ، بستة ... أبعاد ، وحتى بعدد لا نهائي منها • اننا نفعل هذا لحل الكثير من القضايا العلمية • أفلا يناقض هذا قولنا بأن المكان ذو أبعاد ثلاثة ؟ كلا لا يناقض ، فالمكان الواقعي الحقيقي الذي توجد فيه الاجسام جميعاً ، ونحن أنفسنا ، هو المكان العادي ذو الابعاد الثلاثة • أما « المكان » الكثير الابعاد فلا يعدو أن يكون تجريداً يحتوي ، ذهنياً ، على عدد من المقادير ، يقل أو يكثر ، وهو لا يعبر ، بالضرورة عن الامتداد فقط ، بل وعن أية صفات أخرى في الاشياء المبحوثة ، كاللون ، مثلاً •

لقد استغل المثاليون هذه الفرضيات التي تبناها العلم ، والمتعلقة بالامكنة المتعددة الابعاد ، للنضال ضد المادية التي تنفي أية امكانية لوجود أي جسم خارج المكان • فذهبوا الى القول كما لو أن العلم أثبت وجود بعد رابع أو أكثر للمكان ، والى أنه ، في الوقت الذي يوجد فيه الناس والاجسام العادية في مكان ثلاثي الابعاد ، في هذا الوقت ، توجد « الكائنات الروحية » و « الارواح » ، التي لا أجساد لها ، في البعد الرابع أو الابعاد الأخرى للمكان ، وهي أبعاد لا تتوفر للكائنات العادية • ومن تلك الابعاد اللاموضوعية تستطيع « الارواح » ، في زعمهم ، أن تؤثر على العمليات المادية ، وأن تسيروها ، وهي بعيدة عن ادراكنا • الا أنه في الواقع لا يوجد أي « بعد رابع » للمكان • ان مناورات المثاليين الهادفة الى استغلال فكرة « الامكنة الكثيرة الابعاد » من أجل دحض مذهب المادية ، لا تقوم على أي أساس • والتصورات العلمية المتعلقة بـ « الامكنة الكثيرة الابعاد » تنطلق دائماً من الحقيقة التي أثبتتها النشاط الانساني ، هذه الحقيقة التي تقول بانعدام أي مكان آخر ، في الواقع ، غير المكان الموضوعي الواقعي المتمتع بالابعاد الثلاثة •

غالباً ما تتحدث المنشورات العلمية ، والمنشورات الشعبية العلمية ، الحديثة ، عن « عالم ذي أربعة أبعاد » • وهذه الفكرة أيضاً لا تمد النظريات المثالية بأية دعائم كانت • وتفهم الفيزياء بـ « البعد الرابع » للعالم ذلك الواقع البديهي

البسيط الذاهب الى أن العالم موجود لا في المكان (ذي الابعاد الثلاثة) فحسب، بل وفي الزمان أيضاً (ذي البعد الواحد) ، والى أن العمليات الواقعية جميعاً ينبغي النظر إليها بحيث تؤخذ بعين الاعتبار الصلة القائمة بين شكلي وجود المادة ، هذين الشكلين اللذين يساوي مجموع ابعادهما أربعة • وليس هنالك أي شيء سري ، غيبي ، في الفكرة التي تأخذ بها الفيزياء العصرية عن العالم « ذي الابعاد الاربعة » •

ان تصوراتنا عن الزمان والمكان الحقيقيين ، موضوعياً ، تتبدل وتتطور ، وتعمق باستمرار • وهو أمر يجد تعبيره ، بوجه خاص ، في تبني فكرة العالم « ذي الابعاد الاربعة » ، التي تعكس الصلة الداخلية القائمة بين المكان والزمان ، وفي اكتشاف قوانين هندسية جديدة ••• الخ • ولا ينبغي الخلط بين تبدل أفكارنا عن الزمان والمكان وبين « هذا الواقع اللامتبدل ، واقع أن الانسان والطبيعة لا يوجدان الا في الزمان والمكان ، أما الكائنات التي يزعم وجودها خارج المكان والزمان ، والتي هي من صنع اللاهوتيين ، وتدعمها مخيلات جماهير الانسانية الجاهلة المسحوقة ، فهي مجرد فذلقة سقيمة ، وتخرصات فلسفية مثالية ، وثمره حنظل لنظام اجتماعي فاسد » (١) ، كما يقول لينين •

ويؤكد الميكانيك الكوانتي أن الاجسام المتناهية في الصغر لا يمكن أن توجد في حالات يكون لها فيها ، في وقت واحد ، احداثيات معينة بدقة ، كما للنقطة ، وكمية حركة محددة بدقة (أو سرعة) • ان هذه الاجسام اما أن تتمتع بحالة ذات احداثيات معينة ، أو بحالة ذات كمية معينة من الحركة ، (وهناك امكانية أخرى : هي حالة عدم تحديد كمية الحركة ، وعدم تحديد الاحداثيات ، ولكننا لن نبحث هنا هذه الحالة تجنباً للتعقيد) • ان الشروط المادية هي التي تحدد وجود الاجسام المتناهية في الصغر في إحدى هاتين الحالتين •

ان المثاليين العصريين يحاولون الاستفادة من معطيات الميكانيك الكوانتي ليشبوا أفكارهم عن الكائنات التي هي خارج المكان والزمان • انهم يحاكمون

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ١٧٣ •

الامر على الشكل التالي : اذا وجد الجسم المتناهي في الصغر في حالة ذات احداثيات معينة ، فهو موجود اذن في الزمان والمكان ، أما اذا انتقل الى الحالة التي لا يتمتع فيها باحداثيات معينة ، آنذاك يكون خارج الزمان والمكان . ولما كانت حالة الجسم متعلقة بنموذج الشروط التجريبية التي يتبعها الباحث ، وكان انتقاء هذه الشروط متعلقاً بارادة الباحث ، لذا يتبدى كما لو أن الباحث يستطيع ، حسب رغبته ، الغاء الزمان والمكان ، أو أن يجعلهما أمراً واقعياً . بيد أن هذه المحاكمات لا أساس لها من الصحة اطلاقاً وذلك للأسباب التالية :

١ : - ان عدم توفر احداثيات معينة عند الجسم المتناهي في الصغر ، كما هو متوفر في نقطة الميكانيك الكلاسيكي المادية ، لا يعني اطلاقاً أن هذا الجسم المتناهي في الصغر لا يوجد في الزمان والمكان . والحقيقة القائلة بأن الأجسام المتناهية في الصغر يمكن أن توجد في حالة لا تتمتع فيها باحداثيات معينة ، شبيهة باحداثيات النقطة المادية ، هذه الحقيقة لا تعني سوى أن تلك الاجسام معقدة ، خلافاً لنقطة الميكانيك الكلاسيكي . ثم انه لا ينبغي الخلط بين سؤال : هل يمكن أن تتميز حالة جسم ما باحداثيات كاحداثيات النقطة ؟ وبين سؤال : هل يوجد هذا الجسم في الزمان والمكان أم لا يوجد ؟

٢ : - ان تبدل حالة الجسم المتناهي في الصغر يتحدد بتأثير الاسباب المادية الموضوعية، يتحدد بالحالة الفيزيائية الواقعية لا بارادة الباحث وتعسفه . فالانسان مثلاً ، يستطيع الارتفاع الى الاعلى على متن طائرة ، والطيران بها ، كما انه يستطيع القفز بمظله الى الارض . ان هذا الانسان ، الذي يعمل وفق هواء ، لا يعطل الجاذبية الارضية عندما يرتفع بطائرته الى الاعلى ، ولا يعيد اليها الحياة ، كما يحلوه له ، عندما يقفز الى الاسفل . وكذلك الامر فيما يتعلق بالاجسام المتناهية الصغر . ان أي استخدام لاي جهاز فيزيائي لا يستطيع أن يعطل وجود الاجسام الزمني والمكاني ، وأن يخرج هذه الاجسام عن حدود الزمان والمكان . فالاجهزة ذاتها ، شأنها شأن الاجسام المتناهية في الصغر المدروسة بمساعدتها ، موجودة في الزمان والمكان . وليس

بمقدور أحد ، ولا في أي زمان كان ، ولا بأية وسيلة كانت ، تغيير هذا الواقع
الاساسي •

لقد قلنا آنفاً : ان الزمان والمكان هما شكلا وجود المادة • وهذا لا يعني
أن الزمان والمكان هما واقعان موضوعيان ، فحسب ، بل ويعني أيضاً أنهما
موجودان في صلة لا تنفصم مع المادة المتحركة • وكما أنه لا وجود للمادة
خارج الزمان والمكان ، كذلك لا يوجد زمان ومكان ، بدون مادة • ومن هذه
الصلة التي لا انفصام لها بين الزمان والمكان والمادة المتحركة يستتج أنه مهما
تبدلت الظواهر ، والاجسام المادية ، فان وجود الزمان والمكان غير مرتبط بهذه
التبدلات ، لان المادة تبقى خالدة مهما طرأ عليها من تبدلات •

ان واقع استقلال الوجود الموضوعي للمكان والزمان عن حلول الظواهر
بعضها محل بعض ، وعن أي تبدل في الاشياء المادية ، هو التعبير عن مطلقة
الزمان والمكان • بيد أن خواص المكان والزمان تتغير باعتبارها مشروطة بخواص
المادة التغيرة •

وتبعاً لتبدل الشروط المادية تتبدل الاشكال المكانية ، وامتداد الاشياء ،
كما يتبدل طابع القوانين الهندسية ويتغير الامتداد الزمني للظواهر ، ويجري
الزمن بشكل آخر • وبهذا يعبر عن نسبية الزمان والمكان •

ان اعتراف المادية الديالكتكية بالصلة الوثقى بين الزمان والمكان والمادة
يميزها كلياً عن المادية الميتافيزيكية • وهذه ، اذ تعترف بالحقيقة الموضوعية
للزمان والمكان ، تعتبر انهما جوهران قائمان بذاتهما ، ووعاءان فارغان مستقلان
عن المادة تستقر فيهما الاجسام والعمليات المادية • وحسب التعبير المجازي للرياضي
الالمانى « بول » ، كان الرأي السابق عبارة عن نظرة عن المكان أشبه بنظرة
عن « مهجع مأجور » يمكن استجاره من أي ساكن كان ، أو يبقى فارغاً تماماً
اذا لم يتوفر المستأجر • وقد أخذ « نيوتن » ، العلامة الانكليزي الشهير
ومؤسس الميكانيك الكلاسيكي ، مذهباً مماثلاً ، معتبراً أن المكان والزمان
موضوعيان ، ولكنهما موجودان بشكل مستقل عن المادة المتحركة ، وهما

لا يتبدلان إطلاقاً ، ولا يرتبط أحدهما بالآخر • ويسمى الزمان والمكان المفهومين على هذا النحو « مطلقين » • وقد بقيت المفاهيم النيوتونية عن « الزمان المطلق » و « المكان المطلق » متصفة بالعلمية حتى مطلع القرن العشرين ، عندما تبين أخيراً لعلماء الطبيعة ، اثر ظهور نظرية النسبية ، عدم صحة فصل الزمان والمكان عن المادة المتحركة ، وعن بعضهما بعضاً • ومن المؤسف أن أفكار المادية الديالكتيكية التي أبانت ، قبل ذلك التاريخ بمراحل ، الصلة القائمة بين الزمان والمكان وبينهما وبين المادة ، لم تكن معروفة منهم بعد •

ومن الممكن ، عند دراسة القضايا المتعلقة بالحركة البطيئة نسبياً للأجسام الارضية والسماوية العادية ، أن تتجاهل ، ضمن حدود معينة ، الصلة بين الزمان والمكان ، وبينهما وبين المادة • وشييه بذلك ، أننا نهمل ، أحياناً الامتداد المكاني للأجسام المادية معتبرين هذه الأجسام نقاطاً مادية لا امتداد لها • وكما أن هذا لا يسمح لنا أن نستنتج أن الاجسام ، بشكل مطلق ، لا امتداد لها ، كذلك لا ينبغي أن نستنتج أيضاً مبدئية استقلال الزمان والمكان عن المادة المتحركة ، ولا انعدام الروابط بينهما ذاتياً ، ولا عدم تبدلتهما • ولما كانت علاقة الزمان والمكان بالمادة ، رغم أنها قائمة دائماً في الواقع ، لا تؤثر ، في كثير من الظروف ، تأثيراً أساسياً على مجرى العمليات ، فإن الافكار النيوتونية عن الزمان والمكان « المطلقين » تحتوي شيئاً من المعقولية ، وقد أمكن استخدامها عند صياغة قوانين الميكانيك الكلاسيكي • ولما كان الميكانيك الكلاسيكي مرتبطاً بالمحدودية التي ذكرت أعلاه ، لذلك كان غير قابل للتطبيق في الحركات الجارية بسرعة عظيمة تمكن مقارنتها بسرعة الضوء •

ففي هذه الظروف عندما لا تؤثر العلاقة الحقيقية القائمة بين المكان والزمان وبين المادة ، وعلاقة أحدهما بالآخر ، تأثيراً جوهرياً على الظواهر المدروسة ، آنذاك يمكن عدم أخذ هذه العلاقة بعين الاعتبار • وهو أمر لا يمت الى الميتافيزيكية بأية أسباب ، بل هو تجريد علمي مشروع • ان التأكيد ، بأن الزمان والمكان ، غير مرتبطين ، مبدئياً ، وجوهرياً ، ببعضهما وبالمادة ، وبالتالي ، غير متبدلين أبداً ، وفي أي مكان ••• هو الميتافيزيكية بعينها • وتتج عن الفصل

المبدئي بين الزمان والمكان وبينهما وبين المادة ، نتائج خطيرة ، فهو يؤدي بنا الى الابتعاد عن المادية بهذا الشكل أو ذاك •

ان الزمان والمكان لا يوجدان الا في الاشياء المادية ، الا عبر هذه الاشياء ، وبفضلها • يقول انجلز : « من الطبيعي أن يصبح هذان الشكلان لوجود المادة ، عند فصلهما عن الاخيرة ، تصورات فارغة ، وتجريدات لا وجود لها الا في رؤوسنا »^(١) • ان من يفصل الزمان والمكان عن المادة ، ويصر على وجودهما المستقل عنهما ، انما يلبس الصورة القائمة في ذهنه فقط ، كياناً مستقلاً قائماً بذاته • وهو أمر لا يعدو الانتقال الى مواقع المثالية القائلة بأن نتاج نشاطنا الفكري هو كائنات قائمة بذاتها • ولهذا فقد أشار لينين الى أن : « الزمان خارج الاشياء الزمانية لا يعني شيئاً »^(٢) •

وقد أسهم العالم الروسي الرياضي العظيم « لوباتشيفسكي » مؤسس الهندسة اللا اقليدية ، مساهمة كبرى في دراسة الافكار العلمية عن الصلة بين الزمان والمكان وبين المادة المتحركة • وفكرة « لوباتشيفسكي » الرئيسية المتعلقة ببحث قضايا الهندسة ، تذهب الى أن خصائص المكان ليست ثابتة وواحدة في الاماكن والازمنة • انها تتغير تبعاً لخصائص المادة والعمليات الفيزيائية الجارية في الاجسام المادية • يقول في كتابه « الاسس الجديدة للهندسة مع نظرية كاملة للمتوازيات » : « لا وجود لاي تناقض في عقلنا عندما نفترض أن بعض القوى في الطبيعة تخضع للهندسة خاصة بها ، في حين تخضع قوى ثانية للهندسة أخرى خاصة بها »^(٣) • ومهما بدا هذا غريباً بالنسبة الى معاصريه ، فقد أوجد « لوباتشيفسكي » هندسة جديدة تتميز عن هندسة اقليدس • ان احدى خصائص هندسة « لوباتشيفسكي » اللا اقليدية ، تقوم على أن مجموع زوايا المثلث لا يبقى دائماً ، ثابتاً ، ومساوياً ١٨٠° ، بل يتبدل تبعاً لتبدل أطوال

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٧ •

(٢) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٤٨ •

(٣) « لوباتشيفسكي » : « المؤلفات الكاملة » الجزء الثاني - موسكو لينينغراد عام ١٩٤٩ ص ١٥٩ •

أضلاعه ، وهو دائما أقل من 180° . ثم أتى « ريمان » وأوجد هندسة جديدة أخرى تعتبر أن مجموع زوايا المثلث أعظم من 180° .

هذه الهندسة الجديدة كشفت عن الصلة الوثيقة بين المكان والمادة ، واشترطت خواص المكان بخواص المادة . وبهذا وجهت ضربة للأفكار المثالية عن المكان . وانطلاقاً من أن هندسة اقليدس الناشئة في اليونان القديمة ، وظلت خلال قرون طويلة دون تبدل ، ذهب « كانت » الى أن المكان هو الشكل التأملي ، السابق للتجربة ، والمستقل عنها ، والملازم لوعينا . وفي هذا الشكل تنظم الذات المتعرفة توزع أوضاع الظواهر في المكان . وقد ذهب « كانت » الى أن الهندسة غير متبدلة لان المكان يخص وعي الذات لا الظواهر المتغيرة خارج هذا الوعي . وعندما أثبت « لوباتشيفسكي » أن هندسة اقليدس ليست الهندسة الوحيدة ، وأن قوانين هندسات متباينة تماماً تطبق في المكان تبعاً للشروط المادية ، دحضت تصورات « كانت » عن المكان كشكل سابق للتجربة ، بمعطيات علمية محسوسة .

وقد زادت الفيزياء الحديثة في عمق أفكار « لوباتشيفسكي » المادية ووطدتها . فكشفت نظرية « اينشتين » النسبية عن الاشكال الملموسة للصلة بين الزمان والمكان من جهة وبينهما وبين المادة المتحركة من جهة أخرى ، معبرة عن هذه الصلات بقوانين رياضية محددة . والواقع التالي الذي لاحظته النظرية النسبية قبل غيرها ، هو أحد التعابير عن هذه الصلات . هذا الواقع ينطلق من أن وقوع الاحداث في زمن واحد ليس مطلقاً بل هو نسبي . فالاحداث التي تجري في وقت واحد بالنسبة الى منظومة من المنظومات المادية أي في بعض شروط الحركة ، ليست مترافقة ، زمانياً ، بالنسبة الى منظومة مادية أخرى ، أي في شروط أخرى للحركة . وقد قامت على أساس هذا الواقع الرئيسي نظريات هامة أخرى . فالمسافة بين أي جسمين موجودين في المكان ، على بعد محدد لاحدهما عن الآخر ، ليست واحدة في المنظومات المادية المتحركة المتباينة . ان المسافة (الطول) تنقلص مع نمو السرعة . وشييه بذلك الفاصل الزمني بين أي حادثتين ، فهو مختلف باختلاف المنظومات المادية

المتحركة • وكلما زادت السرعة تقلص هذا الفاصل • هذه التبدلات في الأبعاد المكانية (الأطوال) ، والفواصل الزمنية ، التي حدثت تبعاً لسرعة الحركة ، هي في توافق دقيق فيما بينها • وفي هذا تتبدى الصلة الداخلية بين الزمان والمكان • ثم ان الصلة العضوية التي اكتشفتها النظرية النسبية ، بين المكان والزمان وبين المادة ، بينهما وبين حركة المادة ، تقدم لنا برهاناً علمياً فيزيائياً جديداً على الوجود الموضوعي للزمان والمكان ، وعلى استقلالهما عن الوعي ، وعن الذات المتعرفة •

وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار الصلات بين المكان والزمان من جهة ، وبينهما وبين المادة المتحركة من جهة أخرى ، لا يمكننا أن نفهم جوهر الظواهر الفيزيائية المتعددة المرتبطة بحركات يمكن مقارنة سرعتها بسرعة الضوء ، كما لا يمكننا فهم جوهر العمليات المرتبطة بمقادير كبيرة من الطاقة ؛ كذلك لا يمكننا فهم حركة الاجسام عند وجودها في حقول من الجاذبية القوية • ان نظرية صلة الزمان والمكان بالمادة ، وفيما بينهما ، أصبحت احدى الافكار الرئيسية في العلم الحديث • وبما أن المادة تخلق ، أثناء تطورها ، أشكالاً جديدة وجديدة ، لها قوانينها الخاصة المختلفة ، فانه تنشأ في الطبيعة أيضاً علاقات زمنية ومكانية جديدة مطابقة لتلك الاشكال • فمع نشوء العضويات ، مثلاً ، ظهرت علاقات مكانية تتميز بنماذج خاصة من التناظر لم تكن موجودة في الطبيعة غير العضوية • وهكذا فان الزمان والمكان ، شأنهما شأن المادة ذاتها ، يخضعان للقانون العظيم الشامل الخاص بالوجود ، قانون التطور •

ان الزمان والمكان يتصفان بتناقض داخلي • ويوجد هذا التناقض تعبيره أولاً ، في أن الزمان والمكان ، كما أشرنا آنفاً ، مطلقان ونسيان من حيث طبيعتهما • ثانياً ، في أن التناقض يكمن في كون لا نهائية المكان تتألف من أبعاد نهائية لاشياء مادية مختلفة ، أما لا نهائية الزمان فتألف من امتدادات زمنية نهائية لعمليات مادية مختلفة • وثالثاً في أن المكان والزمان مستمران ومتقطعان في الوقت نفسه • ان المكان مستمر بمعنى أننا اذا أخذنا عنصرين ، لا على التعيين لامتداد مكاني (عنصرين كبيرين أو صغيرين قريبين من بعضهما

أو بعيدين) فسيوجد دوماً عنصر امتداد يربط هذين العنصرين المذكورين . في امتداد مكاني موحد ؛ فبين عناصر الامتداد المكاني لا يوجد أي فاصل مطلق ، وهي تتداخل بعضها في بعض . وكذلك فان الزمن مستمر بمعنى انه بين فترتين زمنيتين لا على التبعين ، يوجد دائما امتداد زمني يربطهاتين الفترتين في تيار موحد من التالي الزمني ، وفي الوقت نفسه ، فان الزمان والمكان متقطعان غير متواصلين ، وهذا يعني أنهما يتشكلان من عناصر تمتاز بخواصها الداخلية ، وبنيتها وفقاً للتباين النوعي للعمليات والاشياء المادية .

٤ : - وحدة العالم

هنالك كثير من الناس الذين لا ينكرون واقع أن الطبيعة المحيطة بنا موجودة حقيقياً ، وخارج وعينا ، ومستقلة عنا . ولكنهم ، مع هذا ، يؤكدون ، أنه بالإضافة الى هذا العالم المادي المعروف من قبل الجميع ، يوجد عالم ما آخر غير مادي ، هو عالم « الارواح » ، عالم « العقل الاسمي » ، و « الارادة العليا » . . . الخ . هذه النظرة عن العالمين ، « عالم الارض » و « عالم السماء » ، وجدت منذ الماضي السحيق ، وسادت قرونا طويلة بفضل تأثير اللاهوت .

وقد توصل العلم ، خطوة خطوة ، الى اثبات خطئ هذه الفكرة عن وجود عالين متباينين . العالم واحد . ان العالم المادي الحقيقي ، الذي هو عالمنا ، وعالم وعينا ، وحواسنا ، واحساساتنا هو العالم الوحيد الموجود واقياً . ان بعض فلاسفة الماضي الذين رغبوا أن يكونوا فلاسفة ماديين ، ودحضوا فكرة وجود عالم آخر ، حاولوا اثبات وحدة العالم منطلقين اما من التأكيد بأن العالم وحيد لاننا نتصوره وحيداً ، واما من التأكيد بأن العالم وحيد لانه موجود . وهذا ما ذهب اليه « دوهرينغ » الذي وجه انجلز الى آرائه المناقضة للمادية نقداً عميقاً في كتابه « انتي دوهرينغ » . وقد أبان انجلز أن كلا الانطلاقين السابقين خاطيء . الواقع أن العالم اذا كان وحيداً . لمجرد أن فكرتنا عنه واحدة ، فهذا يعني أن الفكرة هي العامل المحدد بالنسبة الى العالم . بيد أن العالم لا يعكس خواص الافكار ، بل ان الافكار هي التي تعكس خواص العالم . ان بمقدور

فكرنا أن يجمع بين فرشاة الاحذية والحيوانات الثديية في « وحدة » ، ولكن هذا لا يمكن أن يخلق غدد الحليب عند فرشاة الاسنان ، كما يقول انجلز . كذلك فإن تأكيدنا بوجود العالم لا يتيح لنا استنتاج أنه عالم وحيد ، لان مفهوم الوجود (الكينونة) يمكن أن يشتمل على تفسيرات جد متباينة ، تفسيرات مادية وأخرى مثالية . وبإمكاننا أن نطلق صفة الوجود على شيء لا يقوم الا في وعينا (كتصورنا عن وجود العالم الآخر) ، دون أن نقصر بهذا الاطلاق على ما هو ، فقط ، قائم خارج وعينا ، وبشكل مستقل عنا . وعلى هذا فإن مجرد الاعتراف بوجود العالم لا يضمن لنا انتهاج خط فلسفي متماسك ، وفهم المحتوى الحقيقي لنظرية وحدة العالم ، فهما صحيحا . يقول انجلز : ان وحدة العالم لا تنحصر في كينونته ، رغم أن هذه الكينونة لا بد منها لوحده ، لان وجود العالم ينبغي أن يتوفر ، أولاً ، حتى تتوفر وحدته ، ثانياً . ان وحدة العالم الحقيقية تستقر في ماديته ، وهذه لا تثبت بالألعاب المفظية ، بل بتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية تطوراً طويلاً وشاقاً^(١) .

كان اكتشاف « كوبرنيك » للنظام الشمسي احدى أهم الخطوات في طريق معرفة وحدة العالم المادية . كانت الفكرة السائدة قبل « كوبرنيك » هي الفكرة الذاهبة الى أن الارض هي مركز العالم ، وأن « الاجواء السماوية » مع ما تحتويه - من أجرام سماوية « كاملة » كالشمس ، والكواكب ، والقمر ، والنجوم ، هذه الاجرام التي تعتبر استدارتها الدقيقة ونقاوة وسطها ، دليلاً على خلقها في أحسن تقويم . كل من على الارض عابر ، فان . أما في السماء فكل شيء خالد لا يتبدل . وقد دحض كوبرنيك باكتشافه النظام الشمسي هذه الافكار ، وأثبت أن الارض ليست اطلاقاً مركز العالم ، وانما هي احد الكواكب التي كانت تعتبر فيما سلف جزء من الكيان السماوي الكامل . وهكذا فإن مجابهة « عالم الارض » بـ « عالم السماء » تبدو مجانبية للمصواب كل المجانبية . وقد واصل « غاليليه » القضية التي بدأها « كوبرنيك » . فعندما صنع « غاليليه » أول منظار فلكي ووجهه نحو السماء ، اكتشف أشياء أذهلت جميع

(١) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ٤٢ .

معاصريه • ذلك أن القمر الذي ظن من قبل أحد « الاجرام السماوية الكاملة » لم يكن يتمتع مطلقاً بسطح كامل الكروية • فقد كان مغطى بالمنخفضات والوديان والجبال ، الشبيهة بتلك التي تغطي سطح الارض • كما اكتشف « غاليليه » أيضاً بقعا مظلمة على سطح الشمس لا يعرف شكلها أي انتظام • وقد انتصب رجال اللاهوت ضد فكرة عدم نقاوة وكمال الاجرام السماوية ، التي سفهت ما كانوا به يعتقدون • فانتقموا انتقاماً وحشياً من كبار العلماء الذين كانوا يعلمون الناس أن يروا العالم كما هو ، على حقيقته • فمات « د. برونو » محترقاً بنيران محاكم التفتيش في سبيل أفكاره الجريئة • لقد أثبت هذا العالم أن الفضاء الكوني اللانهائي ، حيث لا يشتمل ، في رأي رجال اللاهوت ، الا على « عالم سماوي كامل » ، انما يحتوي ، في الواقع ، على عدد لا حصر له من العوالم المادية الشبيهة بعالمنا الارضي • كما أن « غاليليه » وقع في غياهب سجون محاكم التفتيش لسبب اكتشافاته العظيمة • لقد بذل اللاهوت وكنائسه ما استطاعوا ، في سبيل الوقوف أمام تطور العلم ، ولكنهم كانوا عاجزين عن خنق الحقيقة ، حقيقة أنه لا وجود لاي عالم آخر غير العالم المادي •

ثم ان اكتشاف قوانين الميكانيك ، وقانون الجاذبية الشاملة ، دعم تلك الحقيقة ببراهين جديدة • كان أنصار فكرة وجود عالمين متباينين يؤكدون كما لو أن حركة الاجرام السماوية والارضية تخضع لقوانين متباينة مبدئياً • وكانوا يعتبرون الفكرة القائلة بوحدة طبيعة هذه القوانين أو حتى بتشابهها ، الحاداً وكفراً •

كانت ماثرة « نيوتن » العظمي هي اثبات أن قوانين ميكانيك الاجرام الارضية والسماوية واحدة ، وأن القوة التي تدفع جميع الاجسام المتحررة الى السقوط على الارض ، هي ، من حيث طبيعتها ، ذات القوة التي تسير القمر حول الأرض ، والكواكب الاخرى ، بما فيها الارض ، حول الشمس • ان أجسام الكون اللانهائي ، جميعها بلا استثناء ، مرتبطة فيما بينها بتأثير متبادل مادي ، جوهرياً ، وهو لا يعرف أي تمييز بين عالم الارض وعالم السماء •

وتساقط من أعماق الفضاء الكوني ، على الارض ، شظايا كبيرة أو صغيرة ، مصدرها الاجسام السماوية ، تدعى بالشهب • ان الكثير من هذه الشهب يحترق قبل وصوله الارض نتيجة احتكاكه بالهواء ، في حين أن عدداً آخر منها يصل الارض دون أن يحترق • مما يتيح امكانية دراسة تركيبها وخواصها • وقد دلت الدراسات على أن العنصر الرئيسي في تركيبها هو الحديد ، وأنها لا تحتوي على أية عناصر غير متوفرة في الارض • .

هذه المعطيات عن التركيب الكيميائي للاجسام في الارض وفي الفضاء الكوني المحيط بنا ، والتي لم يحصل عليها الا نتيجة عمل العلماء الدائب الطويل ، دعمت كل الدعم الفكرة العظيمة القائلة بوحدة العالم المادية •

ان ذرات جميع العناصر الكيميائية عبارة عن مركبات مادية تتألف من صغيريات « أولية » ذات نموذج واحد (البروتونات ، النيوترونات ، الاليكترونات) ، وذات بنية واحدة من حيث نموذجها ، ويعبر عن سماتها الاساسية باحتوائها على (أ) نواة مركزية ، تتألف من صغيريات « أولية » أثقل ، ولهذا فهي تحمل قسماً أعظم من كتلة الذرة • (ب) وعلى غشاء منضد يحيط بالنواة ويتألف من صغيريات « أولية » أخف من الاولى • (ح) وعلى شحنات كهربائية متناقضة في النواة والغشاء • وعلى هذا فذرات العناصر الكيميائية هي ذات تركيب وبنية واحدة • ومن هنا ينتج أن تعدد وجود الاجسام ليس تجمعاً عرضياً لاجسام موجودة ، بل هو عبارة عن مجموعة واحدة لاجسام مادية ذات صلات داخلية متبادلة يربطها نظام دوري واحد ، يربطها قانون مندلييف الدوري وبهذا



وظلت هذه الفرضية قائمة حتى عام ١٩٢٧ ، عندما تقرر بدقة أن هذه الخطوط لا تخص عنصراً سماوياً معيّنًا ما بل تخص عدداً من العناصر الموجودة على الارض التي لا تشع هذه الخطوط الا في ظروف تكون فيها المادة في حالة تخلخل قوية ونسعى بالخطوط المستبعدة • وقد أثبت وجود هذه الخطوط الطيفية في العناصر الارضية لا نظرياً فقط ، بل وعملياً أيضاً • وعلى هذا انهارت الفرضية القائلة بأن « النيبولي » عنصر سماوي خاص •

المعنى يقول الاكاديمي « أ • فيرسمان » بأن العالم المحيط بنا هو عالم « منديليف »^(١) •

ولكن لتصور أننا في وقت ما وجدنا في جرم سماوي ما عنصراً لا وجود له في الظروف الارضية • فهل يعني هذا اخلافاً بوحدة العالم المادية ؟ كلا • وهو أمر لا يناقض هذه الوحدة ، شأنه في ذلك شأن عدم مناقضة انتفاء وجود « النبات الالبي » انتفاء كلياً (أي النبات الموجود في أعالي الجبال) في مناطق عديدة من الكرة الارضية ، لتصورنا عن الوحدة المادية النازمة لعالم النبات على الارض • القضية ليست في وجود ذات العناصر الكيميائية أو ذات الصغريات « الاولى » في جميع أجرام المجموعة الشمسية ، في جميع النجوم والمجرات • ان الامر الفاصل هو أنه مهما كانت الاشياء التي نجدها في أية بقعة من الكون ، مغرقة في « الغرابة » ، فانها لا تتعدى كونها لوناً من ألوان المادة • انها لا بد أن تتمتع بتلك الخاصة الاساسية التي يتمتع بها جميع أشكال المادة الاخرى ، أي خاصة الوجود خارج أي وعي وفكرة وروح ••• الخ ، وبشكل مستقل • كما لا بد لها وان تخضع لقوانين الطبيعة الموضوعية • والبرهان على هذا كله انما هو أحد أعظم منجزات علم الطبيعة •

ان رجال اللاهوت ، اذ يجعلون من « عالم السماوات » عالماً مناقضاً لـ « عالم الارض » ، يؤكدون أن كل ما عليها متبدل عارض ، ولا بد له ، عاجلاً أم آجلاً ، من أن يلقي مصيره النهائي ، في حين أن كل شيء في السماء « غير متبدل ، وغير عرضي ، وخالد » • ولكن أين هو الخلود وعدم تبدل أجرام العالم السماوي ؟ لقد أثبت علم الطبيعة أن منظومة الاجرام السماوية التي تسمى بالمجموعة الشمسية ، لم تكن دائماً كما هي عليه الآن • هذه

(١) يمكن أن توجد في الكون اللانهائي اجسام لا تتألف من ذرات عادية للعناصر الكيميائية • ان الفيزياء الحديثة ، باكتشافها وجود ما يدعى بأضداد الصغريات ، تنبأ عن امكانية تشكل تركيبات منها معقدة الى هذا الحد أو ذاك ، تشبه الذرات ، ومع هذا فهي تختلف جوهرياً عن الذرات العادية ، ويطلق عليها اسم أضداد الذرات • ثم ان وجود هذه الاخيرة لا ينسجم مع وحدة العالم المادية فحسب ، بل ويعطى براهين جديدة أيضاً على هذه الوحدة : ان الذرات وأضداد الذرات ترتبط فيما بينها بعمليات تحول متبادل •

المجموعة لها تاريخها • ان أجرام المجموعة الشمسية لم تحرز ، دفعة واحدة ، شكلها الحالي وخصائصها الراهنة • والعلم لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يرسم صورة مفرقة في التفصيل لهذه العنلية بمجملها • ولكن الامر الذي لا جدال فيه هو أن تاريخ المنظومة الشمسية كله ، عبارة عن عملية مادية ، طبيعية ، لا وجو فيها لاية معجزات ولا لاي تدخل من قبل « قوى سماوية » • اننا نستطيع مشاهدة كثير من التبدلات التي تطرأ على الشمس ، حتى بالاعتماد على منظار فلكي بسيط • ومن زمن لآخر تحدثت على سطح الشمس اندفاعات نارية تبلغ ارتفاعا مقداره مئات آلاف الكيلو مترات ، وهي تدل على تبدلات مكانية هائلة لمادة مشتعلة ، كما تبرز وتختفي بقع شمسية معتمة ، هي عبارة عن الاقسام الباردة نسبيا في المادة الشمسية • وفي أعماق الشمس التي لا تراها أعيننا تحدث باستمرار عمليات معقدة يتحول بموجبها الهيدروجين الى هليوم مما يغير تركيب الشمس الكيميائي تدريجياً • وهناك قسم من المادة تتذفنه الشمس في الفضاء الكوني • والنجوم أيضا لا تبقى شيئا ثابتا • فيتوهج الكثير منها رافعا قوة لمعانه الى درجات عديدة ، ويبدل من أحجامه ، ويتفتت ••• الخ • ان منظومات نجمية كاملة تتلاشى ، لتنشأ منظومات نجمية أخرى •

هكذا نرى أن الحركة الخالدة ، والتغير الدائم ، هما أمران ملازمان لكل ما هو موجود • وليس هنالك أي عالم خاص لا يخضع لقانون الكينونة هذا • بيد انه حيث تنعدم بعض أشكال المادة ، لا بد وأن تنشأ أشكال جديدة تبدأ تاريخها الخاص •

ان أية صغيرة مادية متناهية في الصغر لا تتلاشى من دون أثر ، ولا تنشأ من لا شيء • والمادة تتحول فقط من شكل الى آخر دون أن تفقد ، أبداً ، خصائصها الاساسية • فاذا تلاشى شيء مادي ، مثلا ، ذو كتلة معينة ، فلا بد من ظهور جسم مادي آخر ، أو عدد من الاجسام ، تساوي كتلته ، أو كتلتها ، كتلة الجسم المتلاشي ، دون زيادة أو نقصان • وفي جميع عمليات التحول يبقى مجموع الشحنة الكهربائية ثابتا • وفي هذا ، كما في قوانين الطبيعة الماثلة ، يتبدى خلود المادة •

ان قانون حفظ الطاقة وتحولها الذي ينص على عدم تلاشي وعدم خلق حركة المادة ، يلعب دوراً عظيماً في دعم فكرة وحدة العالم المادية • يقول انجلز : « مع اكتشاف هذا القانون ، تلاشى آخر ذكرى عن القوى الخارقة المبدعة للمكون »^(١) ولا يستطيع شيء نقل أية حركة لجسم مادي ، مهما تناهى في الصغر ، الا بفعل تأثير حقيقي لجسم مادي آخر ، ينقل حركته الخاصة اليه كلياً أو جزئياً • ان ما يفقده جسم من الحركة يناله جسم آخر • وليست هنالك أية حالة تخل بقانون الطبيعة العظيم هذا • ولا شيء يمكنه أن يخل به • وكل ما في الطبيعة خاضع له •

وبفضل هذا القانون تشكل جميع العمليات سلسلة وحيدة مترابطة لا يوجد فيها شيء ولا يمكن أن يوجد شيء غير مادي • والنشاط الانساني كله ، ومعطيات العلم جميعاً ، يشهدان على صحة قانون حفظ الطاقة وتحولها في جميع العمليات دون استثناء •

ولا يوجد في أي شيء ، ولا في أي مكان ، ولا في أية من ظواهر الطبيعة والمجتمع ، ولا يمكن أن توجد أفعال ناشئة عن « عالم غير مادي » ، خفي ، تدل على وجود هذا العالم • فلكل شيء أسبابه الطبيعية الكامنة في هذه الاجسام المادية أو تلك ، في خواصها وفي تأثيراتها • واذا كان العلم عاجزاً الآن عن اعطاء جواب مستفيض على هذا السؤال أو ذاك ، فانه سيعطيه عاجلاً أم آجلاً ، دون أن يلجأ الى أية كائنات خفية خارقة ، قائمة في عالم غير عالمنا المادي • والعلم يفسر العالم المادي منطلقاً من هذا العالم ذاته •

لقد أتى حين من الدهر كان الناس فيه لا يعلمون سر الحياة • ان السمات الخاصة بالعضويات الحية التي تميز بعمق الحي عن غير الحي أتاحت لبعض المفكرين ذريعة للتأكيد كما لو أن أساس الحياة هو قوة ما « حية » غير مادية ، توجه جميع العمليات في العضويات الحية • ان المثاليين يرون بشكل خاص ، تحول المادة اللاعضوية الى مادة عضوية في النباتات والحيوانات من فعل

(١) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ١٣ •

هذه « القوة الحية » • الا أن علم الطبيعة أثبت أن عملية تبادل المواد ، وهي العملية المادية الحادثة بصورة خاصة ، والخاضعة لقوانين حفظ الطاقة والكتلة ، النازمة لما تبقى من ظواهر الطبيعة ، أثبت أن هذه العملية هي التي تشكل جوهر الحياة • وقد كان لبحاث « ك • تيميريازيف » الكلاسيكية المتعلقة بالتمثيل الكلوروفيلي في أوراق النبات الخضراء ، أهمية عظمى في اثبات ذلك • ففضل التمثيل الكلوروفيلي تتحول المواد غير العضوية التي يمتصها النبات من الوسط الخارجي ، الى مواد عضوية • وأثبت « تيميريازيف » أن عملية التمثيل الكلوروفيلي تحدث تحت تأثير سبب مادي « ، هو تأثير نور الشمس ، علما بأن نشاط التمثيل الكلوروفيلي يتحدد ، تماما ، بكمية الطاقة الشمسية التي تمتصها أوراق النبات •

يقول « تيميريازيف » : ان الورقة الخضراء ، أو على الاصح ، خلية الكلوروفيل الخضراء المجهرية ، عبارة عن بؤرة ، عن نقطة ، في القضاء الكوني ، التي تنتصب ، في احدى نهايتها الطاقة الشمسية ، في حين تتناول جميع ظواهر الحياة في العالم أسبابها من الناحية الثانية » •

ان النبات وسيط بين السماء والأرض • انه بروميشوس حقيقي ، اختطف النار من السماء • هذه النار ، هذه الأشعة الشمسية المختطفة ، تشتعل في ضوء القليل الخافت وفي نور الكهرباء الباهر • وشعاع الشمس يدفع الى الحركة عجلة الآلة البخارية الضخمة ، وفرشاة الفنان ، وريشة الشاعر^(١) •

لقد أتى حين من الدهر لم تكن كيفية نشوء الانسان فيه بعد معروفه • وفي هذه المرة أيضا أعطت الصعوبة المؤقتة في حل هذه القضية العلمية ، حجة لبعضهم للقول بوجود قوى روحية عزيزت اليها معجزة خلق الانسان • ولكن هذه القضية وجدت ، بعد فترة من الزمن ، حلا علميا حقيقيا ينفي التصورات اللاهوتية المذكورة ، نفيًا قاطعاً • ان نظرية العمل التي أتى بها انجلز في تفسير تطور الانسان ، والتي اعتمدت على نظرية داروين في التطور ، هي التي حلت

(١) تيميريازيف : « المؤلفات المختارة » الجزء الثاني • موسكو ١٩٤٠ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ •

مسألة نشوء الانسان • وهكذا أمكن ابعاد فكرة القوى اللا مادية وعالم ما وراء الطبيعة الخفي من هذا الميدان أيضا •

ان ظواهر الوعي تتميز أساسيا ، من حيث طابعها ، عن جميع الظواهر المادية • هذا التمايز استغله المثاليون للجهر بخلل فكرة وحدة العالم المادية •

ان الوعي ، باعتباره غير مادي ، كما سيبدو مفصلا في الفصل التالي ، ليس هو غير خاصة للمادة المنظمة بشكل خاص ، غير ثمرة لها ، ولا وجود له من دون المادة • وظواهر الوعي لا تشكل أي عالم خاص خارج العالم المادي وفوقه ، وعلى هذا فان ظواهر الوعي لا تخل بوحدة العالم المادية بأي شكل كان • وهي تظهر فقط كيف أن هذه الوحدة مفرقة في التعقيد ، ومتعددة الوجوه ، وهي تشتمل في ذاتها ، على أشكال متنوعة للمادة المتحركة التي تتمتع بخصائص وصفات متنوعة لا حد لها •

غالبا ما ينظر الى حياة المجتمع الانساني وتاريخه ، والى نشاط الناس والتقدم الاجتماعي على أنها ، جميعا ، نتيجة لما أراده « ما وراء الطبيعة » منذ الازل ، أو نتيجة لتأثير الفكرة ، الوعي ، الموجودين فوق الواقع المادي والمسيطرين عليه • لقد أظهرت المادية التاريخية ، باكتشافها الاسباب الحقيقية لتطور المجتمع ، خطأ هذه الآراء • ان الحياة الاجتماعية لا تعدو كونها شكلا خاصا من أشكال حركة المادة • وقد نشأ تاريخيا عن أشكال أكثر بساطة للحركة المادية وعلى أساسها ، رغم أنه يخضع لقانونياته الخاصة •

ان اثبات الطابع الشامل لصلة المنشأ التي تربط بين جميع الاشكال المتباينة نوعيا للمادة ، والتي تربط أيضا بين ما يوافقها من أشكال الحركة ، هو البرهان القاطع الذي يدعم فكرة وحدة العالم • هذه الصلة بين الاشكال المتباينة للمادة ، وكذلك بين الاشكال المتباينة للحركة ، وجدت ، وهي موجودة وستوجد دائما وفي كل مكان ، في الماضي ، والحاضر ، والمستقبل وفي جميع

أنحاء المكان اللانهائي ، دون استثناء • وعلى هذا فلم يوجد ، لا في الزمان ولا في المكان ، ولا يوجد ، ولا يمكن أن يوجد أي شيء غير المادة المتحركة أو ما ينشأ عنها • وفي هذا تستقر وحدة العالم •

ان العالم مادي • وهو وجد وخالد ولا نهائي • والانسان ذاته ، الذي هو النتاج الأعلى للعالم المادي ونوره ، عبارة عن جزء من كل « هائل » يقال له الطبيعة •

الفصل الرابع

المادة والوعي

سبق أن عرفنا أن المادة هي الاول وان الوعي هو التالي • وهذه النظرة هي نقطة انطلاق الفلسفة المادية • وبعد أن عالجتنا قضية المادة وأشكال وجودها ننتقل الى بحث أكثر تفصيلاً يتناول الوعي وخصائصه •

١ : - الوعي هو خاصة المادة الرفيعة التنظيم

تعتبر قضية نشوء الوعي وجوهره احدى أصعب قضايا العلم • فكيف وفي أية درجة من درجات تطور المادة نشأ الوعي ؟ وكيف تنشأ الاحساسات والادراك والتصور والتفكير عند الانسان ؟ وكيف يتم الانتقال من الاحساسات والادراكات الى التفكير ؟ هذه الاسئلة ظلت مدة طويلة مجهولة من العلم ، مما أفسح المجال أمام تسرب نظريات خاطئة من حيث الاساس تعتبر الوعي خاصة أو نتيجة لنشاط شيء غير مادي (الروح) • وهذه الروح ، في زعمها ، غير مرتبطة بالمادة وبجسم الانسان ، ويمكنها أن تعيش حياتها المستقلة ، من دونه • وفي الوقت الذي يتعرض فيه الجسم المادي ، عاجلاً أم آجلاً ، للموت ، فإن « الروح » اللامادية تبقى هي ووعيها ، في زعمهم ، حية خالدة • وقد وجدت هذه النظرات حتى عند أناس المجتمع البدائي الذين كانوا يفسرون الاحلام أو يعللون موت الانسان بأن « الروح » تهجر الجسم مؤقتاً أو الى الابد • والفلسفة المثالية لم تبق على هذه التصورات المتفزلكة فحسب ، بل وأمدتها ، على العكس ، بالمبررات النظرية • كما توطدت تلك النظرات بمختلف ألوان هذه الفلسفة • كان كل لون من ألوان الفلسفة المثالية يذهب ، الى هذا الحد

او ذاك ، الى اعتبار الوعي (أو الروح) كائنا خاصاً من كائنات ما وراء الطبيعة ،
ليس مستقلا عن المادة فحسب ، بل وهو خالق للمادة أيضاً •

هذه القضية لم يكن حلها سهلا حتى بالنسبة الى الفلسفة المادية • فالى
جانب التفسير الصحيح لجوهر الوعي ، باعتباره خاصة معينة من خواص المادة ،
كانت هنالك أخطاء هامة • هكذا ذهب بعض الفلاسفة الماديين السابقين لما ركس
وانجلز ، والذين ظلوا في حيرة من أمر حل قضية نشوء الوعي ، ذهبوا الى
أن الوعي هو خاصة للمادة ، هو خاصتها الخالدة الملازمة لجميع أشكالها •
كما أن بعض الفلاسفة الماديين الذين عجزوا عن فهم مبدأ وحدة العالم المادية ،
فهماً صحيحاً ، توصلوا ، عمليا ، الى نكران الوعي • انهم ذهبوا الى أن الوعي
عبارة عن نوع خاص من المادة ، وأن الدماغ يفرزه كما تفرز ، مثلاً ، الكبد
الصفراء • كان هؤلاء هم الماديون العاميون • وفي أعقاب تطور المعارف العلمية
أمكن تصحيح تلك الاخطاء • وقد توصلت المادية تدريجيا ، وخطوة إثر
أخرى ، معتمدة على معطيات علم الطبيعة ، توصلت الى فهم جوهر الوعي فهما
متزايد العمق ، على أنه بمثابة خاصة من خواص المادة الرفيعة التطور ، بمثابة
نتاج لفعالية الدماغ • وتستقر صعوبة تفصي العمليات النفسية ، وظواهر الوعي ،
في أنها لا تدرك مباشرة بأي عضو من أعضاء حواسنا • ان الاحساس ، والادراك ،
والتصور ، والفكر أمور لا يمكننا رؤيتها أو سماعها ، أو شمها ، أو لمسها • ان
بالامكان رؤية عضو التفكير ، الدماغ ؛ بالامكان النظر مجهريا الى خلايا
الدماغ ، كما تمكن ، باستخدام الاجهزة المناسبة ، دراسة التيارات الكهربائية
التي تتشكل في النسيج العصبي وفي مادة المخ ••• الخ • الا أنه لا تمكن ،
لا في الزمان ولا في المكان ، وحتى من خلال أحدث المجاهر ، رؤية الفكرة
ولا يمكن قياسها طوليا ولا وزنها • ان الوعي ، ان الفكرة ، لا تتمتع بخصائص
فيزيائية كذلك الخصائص التي تتمتع بها الاجسام المادية • بيد أنه لا ينبغي
أن نستنتج من هذا أن الوعي يعود لعالم ما من عوالم ما وراء الطبيعة ، المتميزة
أساسيا ، عن العالم المادي ، وهي مستقلة عن المادة • كما لا ينبغي أيضا أن

نستتج من ذلك أن الوعي لا تمكن دراسته اطلاقاً بطرق موضوعية علمية ،
دراسة دقيقة •

ورغم أننا لا ندرك بحواسنا المباشرة وعي الناس الآخرين ذاته ، إلا أننا
ندرك أفعال الناس الواقعية، وتصرفاتهم ، وكلامهم الذي يعكس أفكارهم • ويظهر
الوعي الملازم للانسان وخصائصه في نشاطه الهادف ، وفي طبيعة علاقاته وصلاته
المتبادلة مع الوسط المحيط به • ولم يكن عبثاً أن يقال : « اذا أردت معرفة
الانسان فانظر الى أعماله » ان التقصي الدقيق لنشاط الانسان العملي ، ولعلاقاته
وصلاته المتبادلة مع وسطه الطبيعي والاجتماعي (وهو أمر تستطيع الدراسة
الموضوعية تحقيقه) يمكن من دراسة وعي الانسان أكثر جداً مما تمكن
دراسة الانسان بذاته ، وعيه الخاص • ان دراسة الانسان ، بذاته ، للظواهر
الجارية في وعيه الخاص ، دراسة صحيحة تعطينا مادة ثمينة وفيرة من أجل
دراسة النفس ، ولا ينبغي النيل من قيمة هذه الطريقة • إلا أن العلم قد حقق
نجاحات هامة بشكل خاص ، في دراسته الوعي والنشاط النفسي ، لا سيما
منذ أن اتخذ طرقاً موضوعية في بحث الوعي • والعلم مدين بمنجزات هامة في
هذا المجال ، للعالمين الروسيين الشهيرين « اي • م سوتشينوفا » و « اي ب •
بافلوف » اللذين صاغاً ، على أساس استخدام الطريقة العلمية في العلوم الطبيعية ،
نظرية منسجمة عن النشاط العصبي الرفيع عند الحيوانات والانسان •

ان النفس هي نتيجة لنشاط المخ المادي • يؤكد ذلك قبل كل شيء واقع
أن الحوادث النفسية لا تحدث الا في الاجسام الحية التي تقوم بوظائفها بصورة
طبيعية ، وتحوز جهازاً عصيباً • ان أكثر أشكال العمليات النفسية تعقيداً ،
(بما فيها التفكير التجريدي المنطقي) التي تشكل ، في وحدتها الداخلية الوطيدة
الترابط ، وفي اشتراط أحدها الآخر ، ذلك الشيء الذي نسميه بالوعي • ان
أكثر هذه الاشكال تعقيداً مرتبط بوجود الجهاز العصبي الرفيع التطور ،
وبجزئه الاعلى ، أي المخ •

وكلما كانت الحيوانات أقل تطوراً ، وكانت ذات جهاز عصبي أبسط
من حيث التطور ، كانت الحوادث النفسية الخاصة بها أكثر بدائية • وهذه

الظواهر النفسية تنعدم عند تلك الكائنات المتناهية في البساطة والتي لا تتمتع بجهاز عصبي مركزي • ان ارتباط الوعي بالمادة المتطورة تطوراً خاصاً يتبدى بسهولة عندما يصاب نشاط المخ بخلل ما نتيجة مرض أو إصابة خارجية • فإذا أصيب نصف الكرة المخية بإصابة ، اختل نشاط نفس الإنسان ، نشاط وعيه ، كلياً أو جزئياً • فإذا ما شفي من الإصابة أو المرض عاد الوعي الى نشاطه السابق • ان علاقة الوعي بحالة المخ تتبدى عند النظر الى تلك الحوادث المعروفة كتخدير الناس واثارة التخيلات لديهم عن طريق مختلف أنواع المخدرات •

وتتمتع قشرة المخ بأهمية حاسمة بالنسبة الى وعي الانسان • انها كيان مادي مفرط في التعقيد يتمتع كل جزء منه بصفات خاصة ، وبيئة خاصة • انها تقسم الى مراكز مختلفة كمركز الرؤيا ، والسمع ، والحركة ، ... الخ • وكل مركز من هذه المراكز يتصف ببنية مجهرية خاصة من حيث شكل الخلايا وتوزع الطبقات الخلوية ، ويلعب دوراً وظيفياً معيناً في نشاط قشرة المخ بمجملها • بيد أن بنية هذه المراكز تتمتع بسمات عامة بينها • فالخ يبرز ككل موحد •

ان مراكز قشرة المخ عبارة عن النهايات القشرية للمحلات^(١) البصرية والسمعية والحركية وغيرها • ان الاجزاء القشرية للمحلات (نوى « جمع نواة » المحلات) ليست مفصولة عن بعضها بحدود واضحة ما • فبعضها يمتد من وراء بعضها الآخر وبعضها يشترك ببعض بواسطة تشكيلات عصبية خاصة • ان الاجزاء القشرية من المحلات تحقق أعلى الوظائف - أي تحليل وتركيب التهيجات الواردة الى المخ • ان أجزاء القشرة المبعثرة بين المحلات بالسذات تعتبر مستقبلات ويمكنها أن تقوم ببعض الوظائف من نموذج تلك التي تقوم بها المحلات القشرية ولكنها أبسط منها •

وتنتيجة لهذا فان أي خلل في نشاط أي جزء قشري من المحلات (في

(١) المحلات أجهزة عصبية معقدة تضم ، الى جانب أجزاء القشرة المشار اليها ، أجهزة الاستقبال أو المستقبلات (التشكيلات الطرفية للألياف العصبية الحسية التي تستقبل التهيج وتحوله الى اشارة عصبية) وتضم النواقل التي تنقل الاشارة من المستقبلات الى قشر المخ •

أعقاب عملية أو ارتجاج المخ (•••) يجعل من غير الممكن القيام بأعلى الوظائف الخاصة بالمركز المصاب من المخ • بيد أن أجزاء المحللات المبشرة تظل قادرة على القيام بالوظائف الأولية المرتبطة بالمستقبلات نفسها • وقد وضح بافلوف هذا الأمر بالتجربتين التاليتين : ان الكلب الذي أزيلت منه الاجزاء الصدغية (أي منطقة الادراكات السمعية وتحليلها وتركيبها المعقدين) لم يمكنه أن يميز الأصوات المعقدة كاسمه مثلا ولكنه كان يميز الأصوات المنفردة وألحانها • أما الكلب الفاقد لاجزاء كرتي المخ الخلفية (أي منطقة الادراكات البصرية وتحليلها وتركيبها المعقدين) فلم يمكنه أن يميز بين الاشياء ولكنه كان يميز درجة الانارة والاشكال البسيطة • وقد وجد بافلوف في هذا برهانا قاطعا على الاهمية الراجحة لبنية قشرة المخ في عمليات النشاط العصبي العلوي • وبالاعتماد على بحوث تجريبية دقيقة أشار بافلوف الى أن مرض هذا الجزء أو ذاك من القشرة ، في حال بقاء الاجزاء الأخرى سليمة ، يمكن أن يؤدي الى نوع معين من التشويش في النشاط العصبي العلوي لدى الحيوان المصاب •

لقد أكد بافلوف على أهمية واقع التناسب بين أجزاء بنية المخ وبين ديناميكية العمليات العصبية • واعتبر أن « توافق الديناميكية مع البنية » أحد المبادئ الأساسية في نظرية النشاط العصبي العلوي • وبهذا طور بافلوف نظرية المادية الديالتيكية الى النفس بصفاتها خاصة من خواص المادة المنظمة بشكل معين ، بصفاتها وظيفية من وظائف المخ •

ان قشرة المخ ليست عبارة عن مجرد مجموعة من التشكيلات البنيوية المنفردة والمرتبطة خارجياً فقط والمتعايشة واحدة الى جانب الأخرى • فقد أكد بافلوف العلاقة المتبادلة العضوية بينها ، وأكد وحدتها • وقد كتب يقول : « اذا كان بالإمكان ، من وجهة نظر معينة ، النظر الى قشرة كرتي المخ الكبيرتين على أنها مصنوعة من الموازيك ومؤلفة من عدد لا نهاية له من القطع المنفردة ذات الدور الفيزيولوجي الخاص في لحظة معينة ، فاننا من وجهة نظر أخرى نعتبرها منظومة ديناميكية معقدة تطمح دائما للاتحاد (للتكامل) وتكرار نفس

نموذج النشاط الموحد^(١) . ان هذا الفهم الديالكتيكي للعلاقة العضوية بين الكل والاجزاء في عمل قشرة المخ هو احدى أهم الصفات التي تميز تعاليم بافلوف . فبفضل هذا الفهم استطاع بافلوف التغلب على التطرف الخاطيء من الجانبين في تفسير عمل المخ : التطرف الاول هو الاتجاه الذي يسمى بالاتجاه الموضوعي «اللوكالي»، والذي يعمد أنصاره الى جعل خاصية نشاط الاجزاء المنفردة من المخ شيئاً مطلقاً ، متجاهلين وحدة المخ . والتطرف الثاني هو الاتجاه الذي يتجاهل كلية أهمية التشكيلات البنيوية المنفردة للمخ ولا يرى سوى وحدته . وهكذا فالوعي عبارة عن نتاج المخ ، نتاج المادة الرفيعة التطور ، وهو وظيفة المخ ، وبالتالي فان المخ هو عضو الوعي ، عضو التفكير .

وعندما نقول بأن الوعي هو نتاج المادة لا نقصد بذلك أن الوعي الناشئ عن المادة ، والمرتبط بها ، يوجد كشيء خارجي عنها ، قائم الى جانبها ، كما توجد ، مثلاً ، التفاحات النابتة على غصن شجرة التفاح وبشكل مرتبط به . ان العمليات الفيزيولوجية الجارية في المخ المفكر ، وان التفكير الواعي ، ليسا عمليتين متوازيتين ، بل هما عملية واحدة وحيدة ، والوعي هو حالتها الداخلية . يقول لينين « ان الوعي هو حالة داخلية للمادة »^(٢) . وعلى هذا لا يمكن اطلاقاً الفصل بين الوعي والمادة المفكرة . وفي الوقت نفسه لا ينبغي النظر الى الفكرة ، الى الوعي ، على أنه مادة ، أو شيء ما مادي (وهذا خطأ الماديين العاميين) . واذا اعتبرنا أن الوعي مادة « لا يبقى أي معنى لمعارضة المادة بالروح ، والمادية بالمثالية ، من وجهة نظرية المعرفة الفلسفية »^(٣) (لينين) . وفي حدود الابحاث التي تتعلق بنظرية المعرفة لا بد من اقرار معارضة المادة بالروح . ولكن اقرار معارضة المادة بالروح ، والشيء الفيزيائي بالنفسي ، معارضة مطلقة ، خارج نطاق تلك الحدود ، انما هو خطأ فادح ،^(٤) .

(١) بافلوف . المؤلفات الكاملة الجزء الرابع موسكو - لينينغراد ١٩٤٧ ، ص ١٩٥ .

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٧٤ .

(٣) نظرية المعرفة هي قسم من الفلسفة الذي يدرس مصادر المعرفة العلمية ووسائلها ، وشروط صحتها .

(٤) لينين : المصدر ذاته . ص ٢٣٣ .

ان معارضة المادة بالوعي في نطاق نظرية المعرفة هي معارضة مطلقة بمعنى أنها معارضة حقيقية بين ما هو أول وما هو تال ، بين ما هو موجود منذ الازل وبين ما لا ينشأ الا في مرحلة معينة من مراحل تطور الطبيعة . بيد أن معارضة المادة بالوعي هذه هي نسبية بمعنى أن الوعي لا يمكن ، بأي شكل كان ، أن يفصل عن المادة المفكرة ، وأن يعارض بها كشيء منغل عنها وقائم بذاته . ليس الوعي شيئاً غريباً عن الطبيعة ، انه نتاج طبيعي لها ، شأنه شأن الأشياء المادية ذاتها ، الحائزة على هذا الوعي .

ان العلم العصري الذي توصل الى نجاحات هامة في معرفة نشاط الدماغ ودراسة الظواهر النفسية ، وعمليات الوعي ، يضع أمامه لا مهمة توضيح هذه الظواهر فقط ، بل والسيطرة عليها ، وتوجيهها . يقول بافلوف : « اننا على ثقة من أن الوجهة التي اتبعها العلم في دراساته الدقيقة عن فيزيولوجيا دماغ الحيوانات ، ستوصله الى سيطرة عظيمة على الجهاز العصبي الرفيع التطور ، والى اكتشافات مذهلة لا تقل أهمية عن المنجزات التي حققها علم الطبيعة»^(٤) .

ورغم وضوح معطيات علم الطبيعة فان الفلاسفة المثاليين ما يزالون ينازعون في أن الوعي هو نتاج ، هو وظيفة ، هو خاصة المادة المتطورة الى حد معين ، ينازعون في أن الانسان انما يفكر بالاعتماد على المخ . هكذا يذهب « ف . بولسن » الى أن قولنا : « التفكير يتم في الدماغ » ، قول لا معنى له . وهو يعتقد أن هذا القول شبيه بتأكيدنا أن الافكار توجد في المعدة أو في القمر . هذا « الاعتراض » ضد المادية سخيف الى حد دفع أحد اطباء النفسين الى القول بـ « أنني لم أسمع الا من المجانين والمعتوهين أن أنفسهم موجودة في المعدة أو في القمر » .

أما « أفيناريوس » ، المثالي الذاتي ، فينكر فكرة أن الفكر ، أن الاحساسات عبارة عن وظيفة الدماغ ، عن خاصته . وقد وجه لينين ، في كتابه « المادية والمذهب التجريبي » ، نقداً لاذعاً لنظرات هذا الرجل الفلسفية . لقد

(١) بافلوف : « المؤلفات الكاملة » الجزء الثالث الكتاب الاول نشر اكااديمية العلوم السوفيتية .

موسكو - لينينغراد ١٩٥١ ، ص ٢٨٩ .

حاول « أفيناريوس » أن يدعم وجهة نظره استناداً الى أن أحداً لم يشاهد كيف تتولد الاحساسات في المخ • وهو يرى أن الاحساسات موجودة دائماً ، ولكنها ليست دائماً موعيتة من قبلنا • فعندما يحدث انتقال الحركة المادية (الاثارة) الى الكائن الذي نعتبره منتجاً للاحساس ، يحدث ، في الوقت ذاته ، « تحرز » الاحساسات الموجودة في الكائن قبل الاثارة ، وبذلك تصبح موعيتة ، كما لو أنها ليست نتيجة للاثارة • ان الاحساسات والتفكير ، في زعمه ، ليسا وظيفة الدماغ ولا تتاجا له • ولنفرض جدلاً أن « أفيناريوس » على حق عندما يقول بأن عمليات المخ لا تولد الاحساسات بل « تحرزها » فقط على صورة ما ، آنذاك نضطر الى استنتاج أن احساسي بالالم من جرح أصيب به إصبعي اليوم ، كان موجوداً من قبل ، وأن احساسي برائحة الورد التي سأشمها غداً قائم ولكنه لم يصبح بعد موعياً • • • الخ • فهل يمكن أن نوافق « أفيناريوس » على ماذهب اليه دون أن نتنكر لابطس قواعد التفكير المنطقي العلمي ؟ بالطبع لا • ان كل انسان يلاحظ ، في كل برهة واقع أن احساساته تتولد نتيجة لتأثير العالم المادي الخارجي على أعضاء حواسه • وبفضل هذا بالذات يستطيع الانسان أن يحس توجيه نفسه وفقاً لظواهر العالم الخارجي ، وأن يتغلب على العوائق المنتصبة أمامه ، وأن يتجنب ما هو غير ملائم ، وأن يجد ما يلائم وجوده ويسهل عليه فعالتيه • ان « أفيناريوس » وأنصاره يعودون بنا القهقري نحو نظرية أفلاطون عن تذكر الروح للأفكار التي كانت عايشتها في العالم الروحي المثالي •

ويتهم « أفيناريوس » علماء الطبيعة الذين يعتبرون الاحساس والتفكير وظيفة الدماغ ، بأنهم يحشرون في الدماغ الافكار والاحساسات حشراً لا يطاق ، مع أنه منها براء • وعملهم هذا يؤدي ، في زعمه ، الى التنكر للمفاهيم الطبيعية عن العالم ، والى الوقوع في أحضان المثالية • • • ان « أفيناريوس » يعتبر نفسه عدواً للمثالية ، لمجرد انه يعترف بحقيقة « الانا » و « الوسط » على حد سواء • ولكنه ، عملياً ، يدافع عن المثالية ، ويحارب المفهوم الطبيعي الحقيقي عن العالم ، أي المادية • ذلك لان « الانا » و « الوسط » عبارة ، في زعمه ، عن مجموعة

من الاحساسات • ان « أفيناريوس » لم يحاول البرهنة على ما رغب بالبرهان عليه ، بل اعتبره أمراً بديهيًا : لم يحاول اثبات الزعم القائل بأن الاحساسات موجودة من غير المادة المفكرة ، من غير الدماغ ، بل اعتبره بديهية • يقول لينين : « لما كنا لا نعرف بعد جميع ظروف الصلة التي تخضع لرقابتنا في كل دقيقة ، الصلة بين الاحساسات والمادة المنظمة على صورة معينة ، لهذا فنحن لا نعترف الا بوجود الاحساس وحده • هذا ما تؤدي اليه سفسطائية « أفيناريوس » ^(١) .

وهناك مثاليون معاصرون « لا ينفون » ارتباط الوعي بالدماغ • ولكنهم لا يفهمون هذا الارتباط الا من حيث أن الدماغ هو ، فقط ، « أداة » ظهور الوعي • أما الوعي نفسه فهو غير مرتبط ، في زعمهم ، بالدماغ (وهذا ليس أكثر من تكرار لنظرية « أفيناريوس » الخاطئة) • وقد سلك المثالي الذاتي « ماخ » طريقة أخرى تختلف عن طريقة « أفيناريوس » في معالجة ، قضية ارتباط الوعي بالدماغ • فلكي لا يقع « ماخ » في تناقض مباشر مع معطيات العلوم الطبيعية ، الشاهدة على الصلة الوثيقة بين الوعي والاحساس وبين العمليات المادية للدماغ والجملة العصبية ، عمد الى ملاءمة هذه المعطيات مع فلسفته الذاهبة الى أن الاجسام عبارة عن مركبات من الاحساسات • وهو أمر يؤدي الى نتائج ممجوجة ، كما أبان لينين • ولما كان الدماغ جسماً فهو ، بالتالي ، حسبما ذهب اليه « ماخ » مجموعة من الاحساسات • ثم ان الدماغ جزء من الانسان ، فالانسان اذن مجموعة من الاحساسات كذلك • وعلى هذا فعندما تتحسس شيئاً ما ، ينبغي علينا أن نقول : « ان مجموعة من الاحساسات هي « أنا » تتحسس ، بمساعدة مجموعة أخرى منها ، هي الدماغ ، مجموعة ثالثة من الاحساسات » • ومهما كانت عليه « مجموعات الاحساسات » هذه من قوضى وتعقيد ، فاننا نستطيع تنسيقها بادئين بنقطة انطلاقها • ان من السهل الكشف عن خطأ نظرية « ماخ » الفاحش ، وعن التناقض فيها • « فماخ » يعلن أولاً أن كل شيء عبارة عن احساسات ، ثم يأخذ ، عملياً ، بنظرات معاكسة تعتبر

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ، ص ٤٠ .

الاحساسات مرتبطة بعمليات هي عبارة عن تبادل حركات مادية بين الجسم العضوي والعالم الخارجي •

ان ما يسمى بالنظريات النسبية المورفولوجية تذهب مذهبا آخر في التنكر لنظرية الوعي كوظيفة للدماغ • ان محاكمات أنصار هذه النظريات تبدو ، للوهلة الاولى ، وكأنها قديمة ، عندما يحاولون ايجاد تلك الاماكن الدماغية التي تنشأ فيها العمليات النفسية • الا أن نظراتهم ، تناقض ، في الواقع ، معطيات علم الطبيعة الحديث ، وهي خاطئة من الوجهة الفلسفية • وأنصار هذا الاتجاه المدعوم من قبل فيزيولوجيين ومختصين في الاعصاب ، معاصرين ، يتوصلون الى حد التأكيد ، كما لو أن كل نقطة من نقاط الدماغ تختص بوظيفة نفسية مستقلة عن غيرها كل الاستقلال : ففي نقطة من هذه النقط يقوم ، في زعمهم ، مركز « معرفة الارقام » ، وفي نقطة أخرى مركز « لفهم الجمل » ، وفي نقطة ثالثة يقوم مركز « معرفة الحروف » ، وفي الرابعة مركز « تشكل صور الاشياء الحية » ، وفي الخامسة مركز « التعرف الى الاشياء اللاحية » ، وفي السادسة مركز « الأنا » الشخصية ، وفي السابعة مركز « الأنا » الدينية ، ••• الخ • ورغم أن هذه الوظائف النفسية تتلاءم والاجزاء المختصة من الدماغ ، فان أنصار هذه النظريات ينكرون ، من حيث الاساس ، الصلة الداخلية بين النفس والدماغ ، ويفصلون بينهما • وهم ، اذ يجزئون الدماغ الى أجزاء مبعثرة ، منعزلة عن بعضها ، وعن التأثيرات الخارجية ، يفقدون كل امكانية لفهم كيفية قيام الدماغ بنشاط شامل موحد • وهم يتوصلون الى تصور الوظائف النفسية كأشياء مستقلة عن بعضها كل الاستقلال ، ولكنها مترافقة ، في الزمان والمكان ، مع النشاط الفيزيولوجي لقشرة الدماغ ، وتحدث وفق قوانينها الخاصة التي لا يجمعها أي جامع مع قوانين فعالية الدماغ • هذه النظرات ليست ، في الواقع ، أكثر من ترداد للنظرية الثنائية القديمة التي نبذها العلم منذ أزمان بعيدة ، لنظرية التوازن النفسي الفيزيائي القائلة بأن العالم عبارة عن صفيين من العمليات المستقلة تماما ، عن

(١) المورفولوجيا : مجموعة العلوم التي تدرس شكل وبنية أجهزة الحيوانات أو النباتات •

صفتين من العمليات الفيزيائية والنفسية الحادثة في جوهرين مختلفين (مادي وروحي) يوازي بعضها الآخر •

ويذهب المذهب ذاته أيضا أنصار النظرية القائلة بأن الدماغ عبارة عن كتلة لا تتصف ببنية وتمايز واضحين • وهم ، اذ عجزوا عن رؤية مصدر نشاط المحللات في تأثير الوسط الخارجي ، اذ عجزوا عن رؤية الصفة النوعية لعمل هذه المحللات ، المشروط بتباين التأثيرات المادية الخارجية ، اذ عجزوا عن ذلك ، حاولوا تفسير النفس كتاج « لفعالية دماغ » وحيدة ، شاملة له كله ، وك « طاقة عفوية ذاتية للدماغ » تجابه كتلته المادية • وهكذا يذهبون مذهب التوازن النفسي •

ان مؤلفات « بافلوف » وكثير من العلماء الآخرين ، المتعلقة ببحث الفعالية العصبية المتطورة دحضت هذه النظريات التناثية دحضاً تاماً • ان جميع الاعتراضات المناوئة لأهم أفكار المذهب المادي التي أثبتتها علم الطبيعة ، والقائلة بأن الوعي عبارة عن خاصية المادة الرفيعة التطور ، ان جميع هذه الاعتراضات تبقى ، ولا يمكن الا أن تبقى ، عقيمة غير مجدية ، لأنها تناقض ، في جوهرها ، المعطيات العلمية الدقيقة •

هكذا نرى أهمية الطريقة المادية التي تعالج الظواهر من جميع النواحي للوصول الى نتائج صحيحة ، كما نرى الاخطار الجدية التي تدفع اليها الطريقة الميتافيزيكية التي تعالج الظواهر معالجة وحيدة الجانب •

٢ : - الوعي هو انعكاس العالم المادي

وهكذا فالوعي هو نتاج فعالية الدماغ • الا أنه لا ينشأ ولا يتشكل في الدماغ الا بفضل الصلة المادية بين الدماغ والعالم الخارجي • ان الدماغ متصل بالعالم الخارجي عن طريق نهايات أعضاء الحواس : من عين وأذن وأغشية الانف المخاطية ، وحليمات اللسان ، ونهايات الجلد العصبية ••• الخ •

لا تنشأ الاحساسات في الدماغ الا عندما تصل اليه الاثارة العصبية الناجمة عن اهاجة هذه الاشياء المادية أو تلك لأعضاء الحس • هكذا تنشأ الاحساسات

السمعية عن تأثير الموجات الصوتية على عضو السمع : كما تنشأ الاحساسات الشمية عن تأثير الصغريات المادية على خلايا الشم الموجودة في المجاري الانفية . وهكذا فمصدر الاحساسات هو العالم الخارجي ، هو المادة ، هو الوسط المادي ، الظواهر والاشياء ، المكونة له .

ان الاحساسات هي الاساس الذي تقوم عليه جميع ظواهر الوعي . ولا وجود لهذا الوعي من دون تلك الاحساسات . ومن خلال الاحساسات فقط يكتسب الوعي محتواه وغناه . فكلما كانت صلة الوعي بالعالم المادي المحيط به أوسع وأكثر تنوعاً ، كان أكثر غنى .

فمن المعلوم أن هنالك حالات يكون فيها الانسان منذ الولادة أعمى وأطرش وأخرس في وقت واحد . فاذا لم تتخذ تدابير معينة لمساعدة مثل هذا الانسان ، فان وجوده يقتصر على القيام بالوظائف الفيزيولوجية البحتة ، ويكون وعيه في غاية الفقر . وعندما ينجح الاطباء في رد ولو بعض أعضاء الحواس المفقودة اليه يتسع وعيه ويفتني ، ويصبح هذا الانسان عضواً كاملاً في المجتمع ، قادراً على أن يعيش حياة ابداعية فعالة . واذا لم يقدر للدماغ أن تقوم بينه وبين العالم الخارجي صلات عن طريق أعضاء الحس ، فلا تنشأ في هذا الدماغ الاحساسات ، أي يصبح الانسان من غير وعي . يقول « سانشينوف » عندما يكون الانسان مجهداً جسدياً من التعب ، ويفرق في نبات عميق ، فان نشاطه النفسي يتضاءل ، من جهة ، حتى العدم (وهو في هذه الحال لا يحلم) ، وهو ، من جهة ثانية ، يتميز بفقدان تحسس المؤثرات الخارجية ، فلا يوقفه الضوء ، ولا الصوت القوي ولا حتى الالم . وهناك حالات أخرى يقترن فيها انعدام تحسس المؤثرات الخارجية بانعدام النشاط النفسي كحالة السكر والتخدر والاعماء . ان الناس يعرفون هذا . وليس هناك من يشك في أن الظاهرتين المذكورتين مرتبطتان سببياً . وتباين الناس في نظرتهم الى هذا الموضوع منحصر في أن بعضهم يعتبرون انعدام الوعي سبباً لانعدام التحسس في حين يعتبر بعضهم الآخر العكس . ولا يمكن وجود وسط بين الحالين . فاذا أطلقنا النار قرب أذن انسان يغط في نوم عميق ، من

مدفع أو اثنين أو عدد منها ، استيقظ واستعاد نشاطه النفسي في الحال • أما إذا كان هذا الانسان فاقداً لسمعه فلا يوقظه اطلاق ولو مليون مدفع ، لسبب واحد هو عدم استعادته لوعيه عن طريق هذا الاطلاق • كذلك الاعمي لا توقظه أشد الانوار بهراً • وعندما ينعدم الحس في الجلد لا يستطيع أكثر الآلام شدة أن يحدث أي تألم • وبكلمة واحدة إن الانسان الغارق في النوم ، والفاقد أعصاب حسه ، سيظل نائماً حتى الموت • فهل بعد هذا يستطيع بعضهم القول بأن انفعالية النفسية ، والحركة العضلية المعبرة عنها ، ممكنة ، ولو للحظة خاطفة ، من غير اثاره حسية خارجية (١) •

ان خاصة واحدة لشيء معين تثير في دماغنا احساساً واحداً ، اذا تساوت الشروط • فكرة البليار لا يمكن أن تثير فينا ، في لحظة معينة ، وفي ذات الشروط ، الاحساس باللون الابيض ، وفي لحظة أخرى ، الاحساس باللون الاسود ، ثم بالاخضر أو الازرق ، ثم من جديد بالابيض ••• الخ ؛ أو أن تثير فينا ، الآن احساساً بشيء أملس ثم بشيء غير أملس أو غير ذلك ؛ أو ان خواص الاشياء المادية لا تثير فينا احساسات ما عضوية تتعاقب تعاقباً فوضوياً ، بل تثير احساسات معينة تماماً تتلاءم وطبيعة الاشياء الموضوعية • فاذا شممتنا رائحة شيء ما ، كان هذا دليلاً على أن الشيء المذكور يتمتع بقدرة على افراز صغيريات منه حواه ، تتميز ببعض الخصائص الفيزيائية الكيميائية التي لا تتوفر لدى صغيريات أجسام أخرى لا تنفث رائحة • فنفت الرائحة عبارة عن خاصة موضوعية • ان وجود صغيريات في الهواء من جسم ينفث الرائحة ، يمكن أن يتبدى اعتماداً على وسائل فيزيائية وكيميائية بالاضافة الى عضو الشم • ولما كانت الخصائص المعينة للأجسام المادية تثير فينا احساسات معينة ، لذا فنحن نتمكن من تمييز هذه الخواص بعضها عن بعض • ان الخصائص الواحدة للأجسام ، هذه الخصائص المتميزة عن بعضها بدرجتها أو بشدتها (من حيث الحرارة أو

(١) سينشينوفا : مؤلفات مختارة في الفلسفة وعلم النفس طبعة ١٩٤٧ ص ١٧٨ • كان في غيابة « بوتكين » ، العالم الشهير ، مريضة عمياء طرشاء • كانت هذه المريضة فاقدة حس جلدها في مختلف نواحي جسمها باستثناء يد لها • وكانت هذا في حالة ثبات بصورة عامة • ولم تكن لتستيقظ الا يلمس يدها التي احتفظت بحساسيتها •

الوزن ... الخ) ، تثير فينا ، بصورة عامة احساسات من نوع واحد ، ولكنها متميزة فيما بينها تمايزاً يتناسب وشدة تلك الخصائص . وفي تشابه وتباين الاحساسات الناجمة عن تأثير الاشياء المادية ، ينعكس تشابه وتباين الخصائص العائدة لهذه الاشياء .

ان الاشياء المادية تتمتع لا بخاصة واحدة بل بخصائص متعددة (من شكل ، ووزن ، ولون ، ورائحة ، وقساوة ، أو طراوة ، ونعومة أو خشونة ... الخ) . وتنقل أعضاء حواسنا الى الدماغ تأثيرات متنوعة في وقت واحد ، صادرة عن تلك الخصائص . وعلى هذا الاساس يتشكل في الدماغ ادراك واحد ، كامل للأشياء . ان الادراك هو مجموعة الاحساسات المرتبطة فيما بينها ترابطاً متلائماً مع ترابط خصائص الشيء ، المثير فينا الادراك المذكور . وكل ادراك معين يتلاءم مع الشيء المادي المثير لهذا الادراك . ان خاصة الاشياء المادية ، وتشابه هذه الاشياء وتباينها ، تنعكس في خصائص الادراك .

بيد ان الاحساسات والادراكات تتلاءم والاشياء الخارجية لا كاشارات اتفافية أو علامات تناسب الاشياء الدالة عليها ولكن كنسخ عنها متلائمة مع هذه الاشياء ذاتها . ان الاحساسات والادراكات عبارة عن انعكاسات للاشياء المادية وصور ونسخ عنها . هذا هو أحد أحجار الزاوية في نظرية المعرفة المادية الديالكتيكية . وقد قدم علم الطبيعة براهين لا تدحض على صحة هذه النظرية . لقد ساعد « سوتشينوفا » كثيراً في اثبات أن الاحساسات عبارة عن انعكاسات وصور ونسخ صحيحة لاشياء العالم الخارجي . ان تطبيق الطريقة التي انتهجها « سوتشينوفا » في البرهنة ، كفيل باقناعنا بأن الاحساسات البصرية تعطي ، عملياً ، انعكاسات صحيحة للاشياء التي ننظر إليها .

اذا اتجهت العين نحو شيء خارجي ما ارتسم انعكاس هذا الشيء على قرعها في الشبكية . ويحدث الانعكاس حسب قوانين العدسات عبر عدسة العين التي تشبه عدسة محدبة الوجهين . ولكن هذا الانعكاس الفيزيائي ليس ، بعد ، الصورة البصرية الموجودة في الوعي ، بل هو مجرد حلقة وسطى بين الشيء الخارجي والصورة في الوعي . ونحن لا نعرف بعد فيما اذا كان الوعي

ينقل الانعكاس الى الشبكة حين تتكون الصورة فيه ، أو يأخذ الصورة من الشبكة بعد انعكاسها عليها. وعلى كل فلدينا مجموعة مؤلفة من ثلاثة أمور مرتبطة فيما بينها ، وهي : ١ : - الشيء الخارجي ، ٢ : - الانعكاس على الشبكية ، ٣ : - الصورة في الوعي . المهم الآن هو السؤال التالي : هل تشابه الصورة في الوعي مع الشيء الخارجي أم لا ؟ وتتأتى صعوبة الجواب من أننا لا نعرف الشيء بذاته بشكل مستقل عن صورته في الوعي التي تكونت فيه بشكل مباشر ، ولا بد للإجابة على السؤال المذكور من اللجوء الى وسائل وسيطة .

لنأخذ عدسة عادية محدبة الجانبين ، ولنحدث بواسطتها انعكاساً على شاشة الجسم الذي نجري عليه تجربتنا . ان الانعكاس على الشاشة ، والجسم الخارجي ، متشابهان طبقاً لقوانين العدسات . وبالإضافة الى هذا ، فاننا نتأكد من تشابههما عن طريق مقارنة أحدهما بالآخر مباشرة : فالانعكاس على الشاشة ، والجسم المنعكس ، هما ، بالنسبة للعين ، شيئان خارجيان على حد سواء . ومن تشابه الاحساسات التي يولدها كلاهما في الجهاز البصري نستطيع القول بأنهما متشابهان . وبما أن عدسة العين تعمل كالعدسة العادية (ويمكن إقامة البرهان على هذا بالتجارب) فان الانعكاس الذي تنقله عدسة العين الى الشبكية مشابه للشيء الخارجي . وعندما ننظر الى الشاشة ، فاننا نرى عملياً ذات الجسم المنعكس على الشبكية ، وذلك لان كلا الانعكاسين حادثان بموجب عمليات فيزيائية واحدة . أما عندما نوجه بصرنا الى الجسم الخارجي ، فان دماغنا آنذاك ، يتفاعل مع الصورة الحادثة في الوعي ، وبالتالي ، فاننا عندما ننظر الى الشاشة ، والى الجسم الخارجي ، نقوم ، في الحقيقة ، بمقارنة بين الانعكاس على الشبكية وبين الصورة الحادثة في الوعي . فماذا تعطينا هذه المقارنة ؟ ان سيثسينوف يلخص نتائج هذه المقارنة بما يلي : « ان المثلث والدائرة واطار النافذة والهلال الخ... المعكوسة في الشبكية يتحسسها الوعي كما هي عليه : أي كمثلث ودائرة واطار وهلال الخ... والصورة الغبشاء في الشبكية تظهر في الوعي غبشاء كذلك . والنقطة الثابتة ترسم في الوعي ثابتة أيضاً ، والطيور الطائر يرسم في الوعي متحركاً . وأماكن الانعكاس الضعيفة الانارة توعي

بشكل غير واضح ؛ أما النقاط المتألفة فتبرز في الوعي ناصعة • وبكلمة واحدة ان الوعي بالنسبة الى الصور على الشبكية مرآة لا تقل صدقاً عن الشبكية والجهزة العاكسة في العين ، بالنسبة الى الشيء الخارجي • فاذا كان الامر الاول في المجموعة السابقة مشابهاً للثاني ، والثاني مشابهاً للثالث ، كان الاول مشابهاً للثالث كذلك • وهذا يعني أن الشيء الخارجي غير المعروف ، أو الشيء بخد ذاته ، مشابه لصورته المنعكسة في الوعي^(١) • والاحساسات البصرية تعطي صوراً صحيحة لا لشيء واحد فقط ، بل لمجموعة من الاشياء المدركة • ولكي تتحقق من هذا يمكن استعمال المحاكمة المذكورة من قبل باعتبار أن المجموعة هي شيء واحد مركب ، مؤلف من أجزاء مختلفة • ولكن هل تعكس العين بأمانة أوضاع الاشياء المكانية ؟ ان العلم يجيب بالايجاب في هذا المجال أيضا • فلكي نقدر وضع الاشياء المكاني وبعدها عنا ، نقل البصر ، بالتوالي ، من شيء الى آخر ، محولين محور العين نحو الأنف الى هذا الحد أو ذاك • فاذا كان الشيء قريبا حولنا المحور تحويلا شديدا ، أما اذا كان أبعد حولنا المحور تحويلا أقل • ان الاحساس المرتبط بتقليص العضلات التي تحرك العين يسمح لنا بتقدير زوايا الدوران ، وبهذا الامر يرتبط ارتباطا مباشراً احساس بعد الشيء عنا • الواقع أن الانسان عندما يشمل ببصره المنظر المحيط به ، تقوم عيناه بعمليات هندسية كالتي يقوم بها الطبوغرافيون عندما يمسحون الارض طبوغرافيا • وكما أن المخططات الهندسية الطبوغرافية تعطينا صورة صادقة عن أوضاع الاشياء المكانية ، كذلك فان الاحساسات البصرية تعطينا صورة حقيقية ، بوجه عام ، عن تلك الاوضاع • الواقع أن تقدير الادوات الهندسية للزوايا يحدث بصورة أدق من تقدير العضلات المحركة للعين • ولهذا فصورة المنظر الحادثة بواسطة العين تكون أقل دقة، وهو أمر يتبدى خاصة عندما تكون الاشياء مفرقة في بعدها • ولكن العين ، على العموم ، تعكس الواقع بشكل حقيقي في هذا المجال أيضا • وبالامكان أيضا تبيان أن العين تعكس المقادير النسبية للاجسام عكسا صحيحا تقريبا •

(١) ششبنوف : « المنتخبات الفلسفية والنفسية » ص ٣٣٣ •

ان الواقع التالي يثبت ، بصورة عامة، صحة انعكاس العالم الخارجي في الاحساسات البصرية • فالانسان المندفع بسرعة كبيرة بين أجسام محيطة به ومبعثرة كثيراً في طزيقه ، وغالبا ما تكون ذات أشكال كثيرة التعقيد ، يستطيع تجنب العوائق بنجاح بفضل ارشاد عينيه له • هذا النجاح لا نحوزه الا اذا قامت العينان بعكس أشياء العالم الخارجي عكسا صحيحا وبسرعة كبيرة • وهناك احساسات أخرى هي انعكاسات العالم الخارجي وصوره • ولهذا يمكن الحديث عن « صور » صوتية ووضوئية لعمليات العالم الخارجي • ان احساساتنا الصوتية تعكس بأمانة حركات الاجسام الصوتية • ويمكن الحكم على صحة هذا الواقع بالاعتماد على ما تبينه الاجهزة الفيزيائية التي تسجل حركات الاجسام الصوتية تسيجلا دقيقا • فما يكاد ينبعث صوت الجسم حتى ينشأ الاحساس بالصوت • ومع انقطاع الحركات الصوتية يتوقف الاحساس الصوتي • وفي الوقت الذي تتغير فيه الحركات الصوتية شدة وذبذبة وتواصل، تتغير الاحساسات الصوتية ارتفاعا ونغمة وطولا • والفرق في جرس الصوت المدرك يتجاوب والفرق الموضوعي في طابع الحركة الصوتية ••• الخ •

ويتمتع الاحساس (والادراك) ، باعتباره شكل انعكاس العالم ، بصفتين هامتين : أولاهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس مباشر للعالم المادي (فين الاحساس ، باعتباره عنصر الوعي ، وبين الواقع الموضوعي الذي يعكسه لا توجد أية حلقات وسيطة) • وثانيتهما أن الاحساس عبارة عن انعكاس الخواص المعينة لأجسام مادية حسية : عبارة عن انعكاس لا اللون بشكل عام ، بل انعكاس لون جسم معين ، في وقت معين ، وفي ظروف معينة ، عبارة عن انعكاس لا الوزن بشكل عام ، بل انعكاس وزن جسم معين ، في وقت معين ، وفي ظروف معينة ••• الخ •

ليس الانسان كائنا بيولوجيا فحسب ، بل وكائنا اجتماعيا • وأعضاء حواس هذا الانسان ليست نتاج التطور البيولوجي فحسب ، بل ونتاج التطور الاجتماعي أيضا • ان الانسان اذ يعمل ، ويؤثر على الطبيعة ، يتغير هو نفسه ، في الوقت ذاته ، وتتغير أعضاء حواسه • فعين النسر تبصر الى أبعد مما تبصر

عين الانسان المجردة ، ولكن عين النسر لا تميز واحداً بالمائة مما تستطيع رؤيته .
عين الانسان • ان البصر والسمع ، والشم ، واللمس ، هي نتاج تطور الانسان .
التاريخي ، نتاج تلاؤمه مع شروط وجوده ، مع خصائص نشاطه العسلي •
والقدرة على التحسس والادراك عطاء في حوزة الناس جميعا • الا أن الفنان
قادر ، بفضل خبرته العملية ، على تمييز فروق دقيقة في الالوان أعظم مما هو في
استطاعة الناس الآخرين • ثم ان سمع العديد من الحيوانات قادر على استرقاق
ما لا يكاد يسمع من الاصوات ، الا أن الانسان المتطور في مجال الموسيقى ،
قادر على سماع عدد من الاصوات أكبر بما لا يقاس مما تسمعه أغني آذان
الحيوان حساً كأذان الكلب مثلاً •

ان ادراك الانسان للعالم ليس هو ادراكا تأملياً سليماً ، ليس هو ادراكاً
انعكاسياً جامداً • انه ادراك فعال • فالانسان يتحسس ويدرك أشياء العالم
المحيط به وظواهره ، في سياق العمل ، وفي سياق النشاط الاجتماعي المحوّل
للعالم ، مما يتيح له التعرف على العالم بشكل أعمق • وتلعب دوراً في سياق
ادراك الانسان للعالم المحيط به لا أعضاء حواسه والأشياء المدركة من قبله
فحسب ، بل وجميع ما كدسه الانسان والانسانية من تجربة تاريخية أيضاً •

ونحن غالباً ما نكون على صلة بالكثير من أشياء الوسط المحيط بنا • وقد
أصبح دماغنا ، بفضل الادراك المتكرر المتعدد لأشياء بعينها ، قادراً على استحضار
صورة كاملة للأشياء لا ، فقط ، عندما تبعث فينا مباشرة مجموع تلك الاحساسات
التي هي قادرة بشكل عام ، على بعثها فينا ، بل وعندما تبعث فينا ، عملياً ، بعض
فئات هذه الاحساسات فقط • فعندما أنظر ، مثلاً ، الى شمعدان معدني أعرفه ،
فانني أدركه لا كشيء يتمتع فقط بشكل خارجي معين ، بل وكشيء صلب ،
بارد ، ثقيل • ان الشمعدان في اللحظة الراهنة ، لا يبعث في ، مباشرة ،
لا احساسات لمسية ولا حرارية ولا وزنية ، ما دمت لا أمسه • الا أن هذه
الاحساسات قد سبق أن نشأت في الماضي ، لا نتيجة النظر اليه ، بل نتيجة أخذه
بيدي ، وتحسس ، وتقدير وزنه • وبفضل ذلك تكونت في وعيي مجموعة
ثابتة من الاحساسات التي تشكل صورة للشيء ككل ، تشكل فكرة عنه • فما

أن أرى الشمعدان الآن ، وتنشأ لدي احساسات بصرية فقط ، حتى تنشأ أيضا عندي ، بالتداعي ، صورة عن الخصائص الأخرى لهذا الجسم •

وهكذا فالدماع قادر على اعطائنا فكراً ، صوراً عن تلك الأشياء في الوقت الذي لا تثير فينا احساسات عنها • وهذه الصور ، تبدو ، وكأنها نتاج النشاط الاعتباطي للوعي • الا أن الامر على خلاف ذلك • فلا يمكن أن تتكون الا صور تلك الأشياء التي أثارنا فيها ، عملياً ، في وقت ما ، احساسات طبعت آثارها في دماغنا • ان الصور التي تقوم على الاحساسات والادراكات هي انعكاسات - وصور للعالم المادي ؛ شأنها شأن هذه الاحساسات والادراكات •

ولكن كيف نفسر ما ينشأ عن النشاط النفسي للدماع من صور تمثل مخلوقاً نصفه انسان ونصفه الآخر حصان ، أو تمثل عروس البحر التي نصفها امرأة ونصفها الآخر سمكة ؟ ان أمثال هذه المخلوقات لم يرها ولم يلمسها انسان على وجه البسيطة ، وهي لم تثر فينا أية احساسات لسبب بسيط هو أنها غير موجودة • ومع هذا فان صورها الذهنية موجودة • أولاً يدحض هذا الفكرة المادية القائلة بأن الاحساسات ، بأن الادراكات ، والصور عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي ، عن انعكاس العالم المادي ؟ كلا وألف كلا • تشهد على ذلك بوضوح تلك الاجزاء التي يتألف منها جسم عروس البحر والحصان - الانسان • ان الناس الذين لم يقدر لهم أن رأوا الحصان والسمك ، لا يمكنهم أن يكونوا صورة عروس البحر والحصان الانسان •

لما كانت الصور غير مرتبطة بتوفر الاحساسات في وقت معين ، فهي تتمتع باستقلال نسبي ، ويمكن أن يمتزج بعضها ببعض كيفياً في الدماغ • ويستطيع خيال الانسان أن يجمع بين عناصر أكثر الصور تبايناً ، هذه الصور التي تكونت على أساس ما كان من احساسات وادراكات في وقت ما • الا أن هذه العناصر كلها ، ليست في نهاية المطاف ، غير انعكاس للواقع الموضوعي •

وحتى التصورات الخيالية التي لاتعرف حداً لاتفصل عما تتحسسها الاحساسات عند عكس هذه للعالم الخارجي • وما نتاج التصورات الخيالية الانسانية ، مهما كانت

عليه من بعد عن الحقيقة الا انعكاسا صحيحا أو مشوها عن الواقع • بين التصورات المشوهة للواقع نجد الشيطان والجن ومختلف كائنات ما وراء الطبيعة • ونحن واجدون ، حتى في هذه الصور التخيلية ، سمات انسان الارض • فالجن والشياطين وكائنات ما وراء الطبيعة الاخرى تعزى اليهم هذه الخصائص الانسانية أو تلك ، ولكن في حدها الاعظمي من الافراط •

ان أشياء العالم الخارجي وظواهره تنعكس في التصورات ، خلافا للاحاساسات والادراكات ، لا بجميع الخصائص الفردية العديدة، بل تنعكس فيها من دول تفاصيل كثيرة • ففي التصور تحتل المكان الاول من الوضوح بعض السمات النموذجية العامة للأشياء والظواهر المشابهة • ثم ان التفكير الذي يستخدم المفاهيم أداة له ، هو ، أيضا ، انعكاس للعالم الخارجي • وهذا الشكل من انعكاس العالم غير ممكن من غير احساسات أيضا • الا أن التفكير ، خلافا للاحاساسات والادراكات والتصورات ، لا يتمتع بطابع حسي مجسد ، وهو لا يعكس الأشياء والظواهر المنفردة فحسب ، بل ويعكس ، بصورة رئيسية ، ما هو عام في الأشياء والظواهر ، يعكس جوهرها الداخلي ، والصلات والقانونيات الخاصة بها • ويحدث هذا الانعكاس المعمم للمواقع عن طريق التفكير المجرد بمساعدة المفاهيم •

لنأخذ ، على سبيل المثال ، مفهوم « الكتلة » • هذا المفهوم ، هو ، من حيث المحتوى ، انعكاس للخاصة الموضوعية العامة التي تتمتع بها جميع الاجسام المادية بدون استثناء (الكبيرة منها والصغيرة الملساء والخشنة ، والسوداء والبيضاء ، والباردة والحارة ، وذات الرائحة والخالية من الرائحة) ، وهي خاصة تنحصر في أننا ، اذا أردنا أحداث تغيير معين في سرعة هذه الأشياء ، في فترة زمنية معينة ، لا بد لنا من أن ندفعها بقوة معينة • ان خصائص الاجسام لا أهمية لها في هذا المجال ، كما لا أهمية لاختلاف نوعية القوى التي تدفع هذه الاجسام • بيد أنه كي نتوصل الى استيعاب وجود خاصة عامة في الاجسام تنعكس في مفهوم الكتلة ، لا بد للاحاساسات أن تعكس في دماغ الانسان ملايين الحوادث الحسية لتبدل سرعة الاجسام تحت تأثير القوى المختلفة •

ان جميع النظريات العلمية بحق هي انعكاس صحيح للعالم المادي ، مهما كانت عليه هذه النظريات من التجريد من حيث الصيغة • لنأخذ نظرية القيمة القائمة على أساس العمل • فمقولة القيمة عبارة عن تجريد ، ولكنها تعكس ، بعمق ودقة ، جوهر ظواهر المجتمع الرأسمالي السلعي ، تعكس العلاقات بين منتجي السلع • انها ، وحدها ، القادرة على تمكيننا من فهم مصدر فضل القيمة ، في الرأسمالية ، والعلاقات المتبادلة بين البروليتاريين والرأسماليين • أو لنأخذ نظرية حركة « السائل المثالي » في علم السوائل • ان السائل المثالي هو السائل الذي لا يحوز احتكاكاً داخلياً (لزوجة) ، ولا ينقل الحرارة • هذا السائل بالذات لا وجود له في الطبيعة • فهل يعني ذلك أن نظرية حركة هذا السائل لا تعكس أي شيء واقعي ؟ كلا لا يعني ذلك • ففي شروط معينة تكون اللزوجة ، في بعض السوائل ، ضئيلة الى درجة لا تؤثر معها ، تأثيراً أساسياً ، على طابع حركتها • كذلك القول بالنسبة الى نقل الحرارة • فمفهوم السائل المثالي يبدو ، اذن ، انعكاساً لسائل حقيقي في مثل تلك الظروف بالذات ، وتبدو النظرية انعكاساً لجريان سائل حقيقي •

يقول لينين : « ان نظرية الفيزيائيين عبارة عن انعكاس للأجسام والسوائل والغازات الموجودة خارج وعينا ، وبشكل مستقل عنه • بيد أن هذا الانعكاس تقريبي ، طبعا ، ومن الخطأ تسمية هذا « التقريبي » أو المبسط « تصفاً^(١) » وهذا ينطبق أيضاً على جميع النظريات العلمية في الفروع الأخرى من المعرفة •

ان انعكاس العالم في التفكير المجرد ليس انعكاساً مباشراً ؛ وذلك لقيام الاحساسات والادراكات والتصورات بين التفكير والواقع الموضوعي •

وتحصل المعرفة الصحيحة المتكاملة الاطراف نتيجة عمل فكري طويل شاق • وربما عبر بعض الأخطاء ، مثل مفهوم « المادة الحرارية العديمة الوزن » ومفهوم المادة النارية التي هي أساس الاحتراق في كل جسم قابل للاشتعال ، وهما المفهومان اللذان وجدا في زمن ما • ولكن حتى في مثل هذه المفاهيم

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٥٣ •

الخاطئة انعكست بعض خصائص الظواهر الواقعية • هكذا انعكست في مفاهيم « المادة الحرارية العديمة الوزن » بعض خصائص التيارات الحرارية مما أتاح وضع نظرية نقل الحرارة التي احتفظت أفكارها الأساسية بأهميتها حتى الآن •

كيف تتمكن من تمييز المعرفة الصحيحة ، والانعكاس الصحيح ، للعالم المادي ، عن الأخطاء والتخبط ؟ ترى هل في حوزة الانسانية وسيلة دقيقة للتأكد من صحة عكس الوعي للواقع ؟ نعم • ان هذه الوسيلة هي نشاط الناس العملي • وسنعالج في الفصل التاسع مقياس الحقيقة ، ونوضح ديكالكتيك المعرفة ، وقوانين تطورها •

يقول لينين : - ان أهم ميزة يتميز بها المادي عن المثالي ، هي أن الاحساس ، ان الإدراك ، ان التصور ، وبصورة عامة ، ووعي الانسان ، ينظر اليه على انه صورة للواقع الموضوعي • ان العالم هو حركة هذا الواقع الموضوعي الذي يعكسه وعينا • وحركة التصورات ، والإدراكات ••• الخ تتلاءم وحركة المادة خارج ذاتي ،^(١) •

لا شك أن مقدرة الدماغ على عكس العالم الخارجي في الاحساسات والتصورات والمفاهيم مدهشة الى حد أن المثاليين جعلوا الوعي في وضع فريد بالنسبة الى ظواهر العالم كلها ، فمنحوه قوة خارجة عن الطبيعة الى حد التاليه • ولكن الوعي لا يتضمن أي شيء خارج عن الطبيعة • انه خاصة من خواص المادة • صحيح أنه خاص بالأجسام المادية الرفيعة التطور ولكن هذا لا يعني أنه ينشأ في المادة المتطورة نشوءً مفاجئاً دون أن تكون له أسس في خصائص أخرى للمادة أكثر بساطة •

وينشأ الاحساس ، قانونياً ، عن تطور وتكامل امكانية الانعكاس الخاصة بالمادة كلها • وقد أشار لينين الى أنه لا صحة للظن بأن كل مادة هي «واعية» • غير أن « من المنطقي الافتراض بأن المادة بمجملها تحوز خاصة قريبة من الاجساس ، من حيث الجوهر ، هي خاصة الانعكاس »^(٢) •

(١) المصدر السابق ص ٢٥٤ •

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ٨١ وكذلك ص ٣٤ •

فما هي هذه الخاصة ؟ ان جميع الاجسام المادية بلا استثناء ، يؤثر بعضها في الآخر ، الى هذا الحد أو ذاك • وأبسط شكل لهذا الانعكاس الملازم للمادة كلها ، هو تبدل يطرأ على بعض الاجسام المادية تحت تأثير بعضها الآخر ، تنطبع بواسطته (التبدل) خواص التأثيرات الخارجية في الاجسام المادية • مثل هذا الشكل من الانعكاس معروف بوضوح في الطبيعة اللاعضوية كانعكاس الاشياء في المرآة • ان جوهر هذا الانعكاس قائم في اعادة توزيع أشعة الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة • فاعادة توزيع الأشعة المكاني عبارة عن رد فعل الحزمة الضوئية تحت تأثير الاجسام والمرآة • وفي خصائص اعادة توزيع الحزمة الضوئية تنطبع خصائص الاجسام المعكوسة • ان تبدل خواص الحديد تحت تأثير الحقل المغناطيسي هو أيضا شكل خاص من الانعكاس • وتبدل خواص الحديد هو رد فعله على التأثير الخارجي ، وفي مغلطته تنطبع خصائص هذا المؤثر الخارجي •

ان طابع الانعكاس الناجم عن التأثيرات الخارجية يتحدد بطبيعة التأثيرات كما يتحدد بخصائص الجسم المعاكس ، بخصائص نوعيته • ويؤدي نشوء الاجسام المادية المتزايدة باستمرار في تعقيدها ، والقادرة على الدخول في صلوات وتأثيرات متبادلة متزايدة التعقيد مع الاجسام الاخرى ، يؤدي الى ظهور أشكال انعكاس جديدة أكثر تعقيداً • ان شكل الانعكاس الذي يلائم أبسط الاجسام المادية المعروفة ، هو الشكل الفيزيائي المعبّر عنه بتغير وضع هذه الاجسام الفيزيائي ، وبظهور ردود فعل فيزيائية ذات علاقة قانونية بالتأثيرات الخارجية المذكورة أعلاه • هكذا يجيب الاليكترون على تأثير الساحة الكهربائية الخارجية عليه ، بتغير السرعة (بالتسارع) ، بتغير بنية ساحته الخاصة ، بقذف أشعة كهروطيسية • في هذه التبدلات تنطبع خصائص الساحة المؤثرة ، انطبعا محدداء ويمكن الحديث ، في مجال العمليات الكيميائية ، عن شكل كيميائي خاص للانعكاس • ومع نشوء الاجسام الزلزالية ظهر شكل جديد للانعكاس خاص بها ، هو الحساسية • ان الزلايلات تتمتع بلدانة عظيمة وتتأثر كل التأثر بالوسط الخارجي • فبعض التأثيرات تحدث تبداً شديداً الى هذا الحد أو ذاك ، في

الخصائص الفيزيائية والكيميائية للزلايات (تحدث « تغيراً في طبيعة الزلايات » دائماً أو مؤقتاً) • وتحدث تأثيرات أخرى جيداً دقيقة في بنية الزلايات وفقاً لظروف الوسط الجديدة ، كما تظهر خصائص وسائطية جديدة (أي خصائص التسريع أو الإبطاء الشديد لجريان التفاعلات الكيميائية) ، وهي خصائص تتصف بطابع التكيف مع الظروف الخارجية المتغيرة • ان أحد مظاهر حساسية الاجسام الزلاية هو قدرتها على تغير أحجامها وشكلها تحت تأثير العوامل الخارجية ، وهذه القدرة مرتبطة بوجود أجزاء خاصة في بنية الجسم الزلاي ، وهي مجموعات متفاعلة أو وظيفية •

ان ظهور المادة الحية قد صوب بظهور شكل بيولوجي من أشكال الانعكاس أكثر تعقيداً هو قابلية التأثير أو (الانفعال) • وليست حساسية الجسم الزلاي بالنسبة لشكل الانعكاس هذا إلاّ عبارة عن « سلفه الكيميائي » • ان قابلية التأثير هي قدرة كل ما هو حي على الاستجابة للمؤثرات الخارجية بنشاط أو تثبيط تبادل المواد وبتغير سرعة النمو وبتغير المكان وما شابه ذلك • مما يؤدي الى تكيف العضوية مع ظروف الوسط المتغيرة • ان تطور الحياة قد أدى خطوة فخطوة الى تعقيد هذا الشكل من الانعكاس •

وعلى أساس التخصص المتزايد في وظائف مختلف أنسجة وأجزاء الجسم أخذت العضويات خلال ارتقائها تتوصل الى درجات أعلى فأعلى من الكمال في عكس ظروف الوسط الخارجي • وقد رافق هذا تغير بنية العضويات نفسها ، هذا التغير الذي جرى طبقاً لظروف الوسط المحيط •

ان العضوية والوسط - يشكلان وحدة • ويعتبر هذا القول الموضوع العظيم الأهمية في تعاليم ميتشورين حول تطور الطبيعة الحية • وهي تسمح بدراسة الانعكاس البيولوجي من وجهة نظر جد عريضة • اذ لا ينبغي اعتبار أن الانعكاس البيولوجي هو فقط هذه الاستجابات الحسية أو تلك التي تقوم بها العضويات متأثرة بمؤثرات معينة من الوسط الخارجي في لحظة معينة ، بل انه العملية الارتقائية اللامتناهية بمجملها لتطور العضويات والتي تتكيف خلالها هذه العضويات طبقاً لظروف الوسط الخارجي المتغيرة •

ومع ظهور جهاز عصبي متطور لدى العضويات، ناشئ عن تلك الانسجة التي تخصصت في نقل التأثيرات ، اتخذ العكس البيولوجي صفات جديدة ذات أهمية مبدئية • وبالطبع فإن جوهر العكس البيولوجي لم يتغير ، فهو لا يزال كالسابق يقوم في ايجاد الصلة بين العضوية والوسط ، تلك الصلة التي يعتبر وجودها سبباً في توافق خواص العضوية وسلوكها مع الوسط • ولكن عند توفر جهاز عصبي مركزي فإن صلات العضوية مع الوسط لا تقوم فقط من خلال عوامل الوسط التي تتصف بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان • إذ أنها الى جانب ذلك تقوم أيضاً من خلال العديد من العوامل التي لا تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة • وهذه الأخيرة هي بمثابة الانذارات والاشارات الدالة على ظهور العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بالنسبة للحيوان • ان مثل هذه الصلات تقوم خلال التطور الفردي للحيوانات في حالات يكون فيها تأثير عامل ما من العوامل التي ليس لها أهمية بيولوجية مباشرة سابقاً ، لسبب من الاسباب ، موافقاً لتأثير عامل ما من العوامل التي لها أهمية بيولوجية جوهرية ويكون سابقاً بشكل مباشر • واذا تكرر هذا التوافق عدداً كافياً من المرات فإنه يصبح من الكافي وجود العامل الثاني وحده دون وجود العامل الأول لكي يظهر لدى الحيوان رد الفعل الذي يثيره لديه العامل الأول المتمتع بأهمية حيوية مباشرة بالنسبة اليه • فاذا نحن مثلاً أشعلنا مصباحاً أمام كلب قبل أن نقدم له الطعام مباشرة فإنه بعد عدد من المرات يتكرر فيها هذا التوافق بين تقديم الطعام واشعال المصباح سيصبح لعب الكلب يسيل حتى عند اشعال المصباح وحده بدون ظهور الطعام • ان اشعال المصباح ، وهو أمر لا يتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة ويعتبر بالنسبة للكلب شيئاً لا معنى له البتة ، قد أصبح في مثل هذه الظروف بمثابة شارة لظهور الطعام - وهو عامل له أهمية بيولوجية مباشرة • ان هذه الشارة تستدعي رد الفعل نفسه الذي يستدعيه العامل المشار اليه بالمصباح • ان ردود الفعل الجوابية لدى الحيوانات لا على العوامل التي تتمتع بأهمية بيولوجية مباشرة بل على شاراتها التي نشأت لدى كل حيوان خلال حياته المنفردة على أساس تجربة وجوده في ظروف معينة قد اكتشفت من قبل

العالم إ. ب. بافلوف ، الذي سمى هذه الردود بالافعال المنعكسة الشرطية . ولم يكن العلم يعرف قبل بافلوف الاّ الافعال المنعكسة الفطرية التي سماها بافلوف : الافعال المنعكسة اللا شرطية . وهي عبارة عن ردود الفعل الجوابية التي تقوم بها الحيوانات تحت تأثير العوامل البيولوجية المباشرة ، وهي الردود التي نشأت خلال التطور الارتقائي للحيوانات من نوع معين ، والتي تثبتت بقوة وأصبحت تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل . ومن جملة الافعال المنعكسة اللاشرطية مثلا افراز اللعاب لدى الحيوانات عند تناول الغذاء ، ورف الجفون عند ظهور شيء ما بشكل مفاجيء أمام العين، وهلمجرا . ان الافعال العكسية اللا شرطية الاكثر تعقيداً تدعى بالغرائز . وكلمة « شرطية » تشير الى أن رد الفعل المعين لدى الحيوان يمكن أن يظهر في ظروف موافقة بواسطة أي عامل آخر لا أهمية بيولوجية له لو أن تأثيره اتفق زمنيا مع تأثير عامل بيولوجي . ان الافعال المنعكسة الشرطية غير ثابتة ومتغيرة . فبعضها يمكن أن يختفي اذا كفت الشروط التي خلقتة عن التكرار ، وبعضها يمكن أن يظهر وفقا للظروف المتغيرة في حياة الحيوان . وبمساعدة هذه الافعال بالذات يحدث التكيف على الوجه الأكمل مع الوسط المحيط لدى الحيوانات العالية التطور . أما الافعال المنعكسة اللا شرطية فانها ثابتة وسائدة بالنسبة لكل النوع المعين من الحيوانات بأكمله ، وهي بمثابة الاساس الذي تتشكل عليه الافعال المنعكسة الشرطية . ولا يوجد بين الافعال المنعكسة الاولى والثانية حد مطلق لا يمكن تجاوزه . فقد أشار بافلوف الى أن هناك امكانية تحول الافعال المنعكسة الشرطية الى لا شرطية .

ان مجموعة الافعال المنعكسة الشرطية واللا شرطية لدى الحيوانات ليست الا أعلى شكل لعكس هذه الحيوانات لظروف وجودها . ففي الافعال المنعكسة اللا شرطية ينعكس ما هو دائم أبدا تقريبا خلال حياة النوع . أما في الشرطية فينعكس تنوع العوامل المتغيرة التي تؤثر على الحيوان وتنوع علاقاته مع الوسط . ان انعكاس العالم في الافعال المنعكسة يخضع لقنونات خاصة يتحدث عنها بافلوف في تعاليمه المتعلقة بالافعال المنعكسة الشرطية والنشاط العصبي ، وهي تعتبر انجازاً عظيماً في العلم الطبيعي المعاصر .

ان الفعل المنعكس الشرطي يتميز عن غيره من أشكال الانعكاس الملازمة لانواع المادة المختلفة من حيث تعقيدها ، يتميز بأهمية خاصة تقوم في :
١ - ان الفعل المنعكس الشرطي هو شكل من نشاط القسم الاعلى من الجهاز العصبي المركزي للحيوانات - أي نشاط دماغها • و ٢ - أن الفعل المنعكس الشرطي ليس عملية فيزيولوجية محضة بل هو الى جانب ذلك ظاهرة نفسية كذلك • انه أبسط الظواهر النفسية • ومع سير تطور العالم الحيواني ، ارتقى النشاط الانعكاسي الشرطي رلدماغ وتعد تدريجياً • ولكن هذا النشاط لم يكن مجرد نتيجة منفصلة لهذه العملية البيولوجية الارتقائية • فما ان نشأ هذا النشاط حتى أصبح قوة فاعلة في تلك العملية • وبفضل توفر انعكاس الواقع في ردود الفعل الشرطي تكونت ظروف جد ملائمة لتسير مع تطور العالم الحيواني • وبذلك تأمنت اعادة تكون البنية العضوية ووظائفها ، تكونا سريعاً متلائماً مع شروط الوسط المحيط • وبهذا اقترب الزمن الذي ظهر فيه الانسان ، لأول مرة ، على الارض مع الوعي الذي يلازمه باعتباره شكلاً انسانياً خاصاً لانعكاس الواقع •

لنر الآن الصفات المميزة لهذا الشكل الجديد من الانعكاس • ان الحيوانات تعكس الوسط الخارجي حسب متطلباتها البيولوجية المحضة فقط ، أي ما يرتبط بالدرجة الاولى ، بالشروط البيولوجية الأساسية لوجودها • وهي لا تعكس من الظواهر العديدة الاخرى ، ظواهر العالم المحيط بها ، الا ما أصبح شارة لتلك الشروط البيولوجية • هذا الانعكاس ليس نتاجاً للوعي • ويلعب الانعكاس بواسطة الشارات أهم دور فيه •

ان الظواهر ذات الطابع غير البيولوجي عندما ترتبط في علاقة زمنية مع الظواهر البيولوجية تصبح بمثابة شارات للواقع • وقد سمي « بافلوف » مجموع هذف الشارات التي تعبر عن غنى العلاقات بين الحيوان وبين الظروف الخارجية باسم نظام الشارات الاول • وهو النظام الوحيد الذي يتوفر لدى الحيوانات • وبما أن الاجسام والظواهر الملموسة هي ، وحدها ، التي

تشكل أساس شارات هذا النظام ، لذا فإن عالم الحيوانات النفسي القائم على أساس النظام المذكور ، يعتبر انعكاساً حسياً ملموساً حتى في أكثر أشكاله تطوراً . هذا النظام الأول لا تستقل به الحيوانات فقط بل ويشاركها فيه الإنسان أيضاً . وهو يلعب الدور الأساسي في سني الطفل الأولى ، كما يتمتع بأهمية بالغة عند اليافعين . غير أن هذا النظام ليس بالنظام الوحيد عند الإنسان . انه أعجز من أن يشمل كل غنى شكل انعكاس الواقع لدى الإنسان . ان الدور الحاسم هنا يقع على عاتق نظام الشارات الثاني ، الذي يميز ، جذرياً ، أسلوب الانعكاس الخاص بالإنسان ، عن أسلوب الانعكاس الخاص حتى لدى أكثر الحيوانات تطوراً . ويتكون النظام الثاني من الكلمات المسموعة والمرئية ، أي من الكلام البشري . ان الكلام عبارة عن وسائل إثارة حقيقية ، شأنها شأن وسائل الاثارة الخارجية الأخرى ، ولكنها تتميز عن غيرها باستخدامها كتفسير ، وكشارات لتلك الاجسام أو الظواهر التي تؤلف نظام الشارات الأول ، أي انها تصبح شارة الشارات .

يقول « بافلوف » : « ان الإنسان يتمتع ، بنظام شارات آخر هو شارة نظام الشارات الأول ، أي يتمتع بالكلام وبهذا يضاف عامل جديد لمنشاط العصبي ، عامل تجريد وتعميم شارات النظام السابق التي لاحصر بها ، ومن يحدد شروط قدرتنا الا محدوددة على توجيه أنفسنا في العالم المحيط بنا ، ويشكل ، العلم المعتبر درجة رفيعة من تلاؤم الإنسان مع الوسط المحيط به ، (١) .

ريتين من الدور الذي تلعبه الكلمة ، يلعبه الكلام ، بالنسبة لنظام شارات الأول (شارة الشارات) ، أن كلا من هذين النظامين يعمل ، لا بشكر مستقل عن الآخر ، بل في صلة وثيقة معه ، وبصورة متفاعلة . ولا ينمو نظام الشارات الثاني الا على أساس الأول ، ويتأثر بخصائصه ، كما أن الأول يتكون ، نتيجة لوجود الثاني ، كانعكاس حسي موعياً .

ان كل ما يعكسه نظام الشارات الأول ، وما يدل عليه الكلام فيما بعد ، يصبح موعياً . والطابع الموعى الذي يتسم به الانعكاس الانساني يعتبر

(١) « بافلوف » : « المجموعة الكاملة » الجزء الثالث ، الكتاب الثاني ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

الخاصة الأساسية في هذا الانعكاس، التي تميزه عن الانعكاس الخاص بالحيوان •
ومن أجل إبراز هذه الخاصة يسمون الانعكاس الانساني بالوعي •

ثم ان شكل الانعكاس الانساني (الوعي) يتمتع بسمة هامة أخرى ،
تقوم على أن الوعي عامل فعال جداً في تأثير الانسان على الطبيعة في مجال العمل •
فبفضل العمل يتلاءم الانسان مع الشروط الخارجية لا بتغيير نفسه وأعماله
فحسب ، بل وعن طريق تغيير الشروط الطبيعية الخارجية • ان الحيوانات
لا يعدو نشاطها حد التلاؤم مع العالم الخارجي • أما وعي الانسان الذي هو
نتاج ظروف وجوده الاجتماعية والتاريخية ، ونتاج نشاطه الاجتماعي العملي ،
فيصبح ذاته عاملاً فعالاً في النشاط العملي • ان الوعي مشروط بالواقع
الموضوعي من حيث مصدره ومحتواه العام • وبهذا المعنى لا يمكن اعتباره
شيئاً ما مستقلاً تمام الاستقلال عن الواقع الموضوعي • وهو ، بالإضافة الى
ذلك ، ليس مجرد انعكاس لما هو قائم في العالم ، في اللحظة الراهنة ، وفي
الظروف الحالية فقط • فالنشاط الابداعي الذي يقوم به الدماغ يحوّل ،
بالاعتماد على قوانين التفكير ، شكل الحاضر الى شكل جديد يتناسب مع ظروف
أخرى تحل في المستقبل البعيد أو القريب • وفي هذا ينحصر استقلال الوعي
النسبي • فبإمكان الوعي استباق سير الاحداث الفعلية ، والتنبؤ بالنتائج التي
ستتجلى عن الاحداث • وهو بهذا يحفز الانسان الى نشاط هادف اما الى بلوغ
هذه النتيجة ، أو الى تجنبها • ان النتائج المتوقعة لتطور الاحداث ، وهي النتائج
التي يهدف اليها الانسان ، ويلعب نشاطه دوراً جوهرياً في بلوغها ، يسميها
الهدف • ان تحديد الاهداف ، والبحث الفعال عن الوسائل والطرق المؤدية
الى بلوغ حتى أبعدها مثلاً ، يشكلان السمة المميزة للوعي • وعلى هذا
الاساس يقوم نشاط الناس العملي • وقد أصاب هيجل اذ قال : « ان العقل داه
بقدر ما هو جبار » • ان دهاء هو ، على العموم ، في نشاطه المتخذ الوسائل
أداة له ، جاعلاً الأشياء تتبادل التأثير وفقاً لطبيعتها ، محققاً الهدف الذي سعى
اليه ، دون أن يتدخل مباشرة في هذه العملية » (١) •

(١) هيجل : « موسوعة العلوم الفلسفية » موسكو عام ١٩٢٦ ص ٣١٨ - ٣١٩ •

وفي واقع الاستقلال النسبي للوعي يتجلى التناقض الديالكتيكي الخاص به . فكلما اقترب الوعي من الواقع ، وعكسه بدقة وكمال أوفى ، تمتع بدرجة أعظم من الاستقلال ، لأنه بهذا ، يستطيع الابتعاد بقوة أعظم عن الحاضر ، والتطلع تطلعا أبعد الى المستقبل البعيد دون أن يفقد محتواه القيم ، دون أن يتحول الى أوهام وتخيلات فارغة .

ان استيعاب الناس لانعكاس العالم الخارجي يخضع سلوكهم لرقابة عقلهم الخاص . فالانسان ليس شيئاً آلياً يخضع لتأثير القوى اللاشعورية، «اللاعقلانية» ولتأثير « الغرائز العمياء » كما يذهب اليه مثلاً مذهب فرويد . إن العقل والارادة يلعبان دوراً عظيماً في مجمل سلوك الانسان . وهذا ما يميزه عن الحيوانات ، ويسمو به عما تبقى من الطبيعة ، التي هو جزء منها . الا أن الانسان ليس مجرد كائن طبيعي ، بل هو كائن اجتماعي ، قبل كل شيء . لهذا ، فهو في سلوكه ، كما سنرى ، يتأثر تأثيراً حاسماً بشروط كيانه الاجتماعي بصورة خاصة . هذه الشروط هي التي تحدد عقله ووعيه وارادته .

ان بحث الطريق التاريخي لتطور خاصة المادة التي سماها لينين خاصة الانعكاس ، يدفعنا لاستخلاص النتائج التالية :

- ١ : - لم يظهر الوعي الا في مرحلة معينة من مراحل تطور المادة .
- ٢ : - ان الوعي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأكثر أشكال المادة تطوراً ، أي بدماع الانسان ، هو وظيفة الدماغ المذكور .
- ٣ : - ان الوعي ، من حيث النشوء والمحتوى والدور ، هو أكمل انعكاس للعالم الخارجي .
- ٤ : - الوعي والانسان هما نتاج العمل ، على حد سواء .

هذه النتائج هي تأكيد لعمق صحة حل القضية الاساسية في الفلسفة الذي قدمته الفلسفة الماركسية . وهي نتائج تثبت أسبقية المادة على الوعي . وهو أمر

لا ينبغي فهمه فقط بمعنى أن الوعي ينشأ عن المادة ، بل وبمعنى أن محتوى الوعي يتحدد بالواقع المادي الذي يعكسه الوعي .

ان تاريخ تطور خاصة الانعكاس تعطينا أيضا جوابا على قضية امكانية معرفتنا للعالم . فاذا كان الوعي قد نشأ وتطور ، منذ البدء ، كخاصة لانعكاس العالم ، وكوسيلة نهتدي بواسطتها ، ونحدد ، على أساسها ، سلوكنا في الواقع المادي المحيط بنا ، فان واقع سلوكنا السليم انما يتحدث عن أن الوعي المختبر بالتجارب العملية هو انعكاس صحيح للواقع .

٣ : - نقد « نظرية الرموز »

تطابق انعكاس العالم في الوعي مع الواقع

ان القول بأن الوعي هو انعكاس للعالم المادي يعتبر أساس النظرية المادية الخاصة بالمعرفة . فاذا كان الوعي انعكاسا للعالم الخارجي ، فهو ، بالتالي ، ثانوي بالنسبة الى أولوية هذا العالم الموجود بصورة موضوعية ، مستقلا عن الوعي . ذلك أن الانعكاس لا يمكن أن يوجد من غير وجود الشيء المنعكس ، في حين أن الشيء المنعكس يوجد مستقلا عن فعل انعكاسه . والاعتراف بهذا انما يعني نكران وجهة النظر المثالية والاختذ بوجهة النظر المادية .

ان أحد البراهين التي يلجأ اليها المثاليون في محاولتهم دحض نظرية الانعكاس ، يتمثل في هذا الواقع ، مثلا ، واقع أن الاحساسات الضوئية لا تنشأ عن تأثير الضوء على العين فحسب ، بل وتنشأ أيضا عن تأثيرات أخرى ، وخاصة عن ضربة على العين ، أو عن تيار كهربائي . وعلى هذا الأساس ، صاغ الفيزيولوجي الالماني « مولر » نظرية تذهب الى أن الاحساسات لا تتعلق بتأثير أشياء العالم الخارجي بل بأعضاء الحواس ذاتها ، بـ « الطاقة النوعية » الملازمة لها . فمهما كان مصدر التأثير على العين ، فان العين ترد ، دائما ، ردأ واحداً ، ترد باحساس ضوئي . وهو أمر تتميز به أيضا أعضاء الحواس الأخرى . وهذا يعني ، في زعم « مولر » ، أن احساساتنا ليست انعكاسات للعالم

المادي المحيط بنا. وقد سمي « فورباخ » هذه النظرات بـ « المثالية الفيزيولوجية » .
ان النظرات التي يعرضها « المثاليون الفيزيولوجيون » لا يمكن اعتبارها مقنعة .

لقد كان « مولير » على صواب عندما لاحظ الخاصة التي يتميز بها رد الفعل لدى أعضاء الحواس . ولكنه أخطأ عندما فسر هذه الخاصة على أنها خاصة موجودة منذ البداية . الواقع أن هذه الخاصة ليست مستقلة عن المؤثرات الخارجية ، بل انها مشروطة بطبيعة هذه المؤثرات . وقد نشأت هذه الخاصة نتيجة تطور طويل على أساس تلاؤم وظائف أعضاء الحس مع تأثير مثيرات خارجية معينة . وبالتالي ، فإن تكون هذه الخاصة ، ذاته ، لدى أعضاء الحواس هو انعكاس لوجود الكائنات الحية . فالعين ، مثلا ، تتلاءم وادراك تأثير الأشعة الضوئية : انها تصور على الشبكية جملة الحزمة الضوئية ، وعلى أساس الاثارة الحادثة في الدماغ يتولد الاحساس البصري ، تتولد صورة مشابهة للشيء المنظور . صحيح أن المؤثرات المختلفة الواقعة على العضو الواحد من أعضاء الحواس ، وخاصة على العين ، يمكن أن تحدث احساسات من نوع واحد . الا أنه لا ينبغي تجاهل الفارق الشاسع بين الاحساس الضوئي الناشيء ، مثلا ، عن منظر طبيعي منبسط أمامنا ، وبين الاحساس الناشيء عن ضربة تصيب العين . الاول عبارة عن احساس لوحة معينة ، مفهومة ، مشبعة بانسجام الالوان والاشكال ، ولها بنية تعبيرية واضحة ، وتناسق مقنون بين جميع أجزائها . أما الاحساس الثاني فهو احساس بشيء غير محدد ، ولا شكل له ، ولا يتمتع بصورة واضحة ، ولا ببنية ولا بشخصية متميزة . قد يتراءى لنا أن الاحساسات الضوئية الناجمة عن النظر الى الاشياء ، وعن ضربة العين ، متشابهة ، في كلا الحالين ، من حيث الاساس . فالجملة العصبية ، والدماغ ، في كلا الامرين ، يتفاعلان مع شيء مادي واحد من حيث النموذج والطبيعة ، شأن الالوان في علبة تلوين الرسام والالوان على اللوحة . الا أن هذا الشيء المادي يختلف كل الاختلاف من حيث الشكل . فهو في علبة التلوين مجرد خربشة ، بينما هو في اللوحة أثر فني . وهذا الفارق بالذات هو الذي يتمتع بأهمية حاسمة . ان الاحساسات الضوئية تنشء صور أشياء العالم الخارجي بفضل الصيغة الملائمة .

يذهب « غيل مغولتز » العالم الطبيعي البارز في القرن التاسع عشر ،
والأخذ بأفكار « موللر » ، الى انه لا تشابه بين الأشياء الخارجية وبين الاحساسات
الناشئة عنها ، رغم هذا النشوء . وليست هذه الاحساسات سوى رموز وشارات
للأولى . وقد كتب « غيل مغولتز » في مؤلفه « فيزيولوجية البصريات » يقول :
« لقد اعتبرت الاحساسات رموزاً للظواهر الخارجية ، ونفي عنها كل تشابه
مع الأشياء التي تمثلها » (١) .

كان ما ذهب اليه « غي مغولتز » عبارة عن خطيئة كبرى ، تنسخ نقطة
انطلاقه المادية القائلة بوجود الأشياء خارج احساساتنا .

أما بليخانوف الذي عرض في أحد مؤلفاته نظرات مادية ، صحيحة ، على
العموم ، فلم يسم الاحساسات انعكاسات أو صوراً ، أو نسخاً للأشياء المادية ،
بل اعتبرها رموزاً هيروغلوفية لها . ونظراً للأهمية الفائقة التي تتمتع بها هذه
القضية عالج لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي » نظرية الرموز أو
الهيروغلوفية ، معالجة خاصة .

ان نظرية الرموز ، أو الهيروغلوفية ، تحمل الى نظرية المعرفة ، عدم
الثقة بدلائل أعضاء الحس . انها تحمل على الشك بوجود الأشياء خارجاً عنها ، لان
الرموز ، لان الشارات أو الهيروغلوغوف ممكنة حتى بالنسبة الى مالا وجود
له في الواقع . وليست صور قوى ما وراء الطبيعة الا برهاناً على هذه الرموز
التي تمثل أشياء مزعومة .

تكشف أعضاء الحس لنا الحقيقة الموضوعية ، وبمساعدة هذه الاعضاء
تعرف عليها . هذا ما يعترف به أي انسان لم تضلله الفلسفة المثالية . يقول
لينين : ان نظرية الرموز لا تنسجم مع مثل هذه النظرية (المادية) ١٠٠٪ ، كما
رأينا) ، وذلك لأنها تشكك بالحس ، تشكك بما تدلنا عليه أعضاءنا الحسية .
ولا شك أن الصورة لا يمكن أبداً أن تتماثل كلياً مع الاصل ، الا أن الصورة شيء ،
والرمز ، والشارة الاتفاقية ، شيء آخر . ان الصورة تفترض بالضرورة وبصورة

(١) عبارة من كتاب لينين : « المادية ومذهب النقد التجريبي » المؤلفات . الجزء ١٤ ص ٢٢٠ .

حتمية أن الشيء المعكوس ذو وجود موضوعي • أما الشارات الاتفاقية ، أما الرمز ، أما الهيروغليف ، فهي مفاهيم تحمل عنصر نظرية عدم امكانية المعرفة ، وهو لا داعي له هنا •

وعلى هذا ، فلا يمكننا أن نكون منطقيين حتى النهاية في نظرية المعرفة المادية ، اذا لم نندفع عن النظرية القائلة بأن الاحساسات هي صور ونسخ وانعكاسات الاشياء والظواهر القائمة في العالم المادي ، لاشاراتها الاصطلاحية ، لاهيروغليفيتها • ان الذهاب الى أن الاحساسات هي نسخ، هي صور لاشياء العالم الخارجي ، أو الذهاب الى أنها رموز لهذه الاشياء ، ليس هو مجرد جدل حول الكلمات والاصطلاحات ، بل هو جدل حول جوهر نظرية المعرفة ذاته •

ان أعداء المادية ، اذ يحاولون التشكيك بما تدل عليه الحواس ، هذا التشكيك الذي يؤدي ، كما رأينا ، الى الريبة في وجود الواقع الموضوعي ، وحتى الى انكاره كلياً ، ان هؤلاء الاعداء ، غالباً ما يعتمدون على ما يسمي بـ « خداع الحواس » •

يقول هؤلاء الاعداء : لنأخذ شيئين ، موجودين في غرفة واحدة ، وفي شروط واحدة، أحدهما معدني، والآخر خشبي • فإذا لمسنا بيدنا الشيء المعدني ثم الخشبي وجدنا ، بشكل واضح ، أن المعدن أبرد من الخشب ، في حين لو قسنا حرارتهما بمقياس الحرارة لوجدناهما واحدة • وهذا يعني أن احساساتنا قد خدعتنا • زد على ذلك أن الحواس يمكن أن تعطينا في وقت واحد ، شارات متناقضة لشيء واحد • فإذا وضعنا يدينا اليمنى في ماء ساخن ، واليسرى في ماء بارد ، ثم نقلناهما الى ماء عادي ، تبين لنا أن اليد اليمنى تشعر بالبرودة ، في حين أن اليسرى تشعر بالحرارة ، فأيهما هو الصحيح ؟ وهل يمكننا هنا أن نعتمد على دلائل أعضاء الحواس ؟

ولكن هل صحيح أن أعضاء الحواس التي تعمل بصورة طبيعية تخدعنا فيما نشير اليه ، ولا تعكس الواقع الموضوعي بصورة صحيحة ؟ فلتتحص المثل المضروب • ان درجة حرارة اليد هي قرابة ٣٦° ، وحرارة الشئئين اللذين

تلمسهما تعادل حرارة الغرفة ، أي تتراوح بين ١٨ - ٢٠ ° . فإذا ما لمسنا
اشيئين بيدنا انتقلت حرارة اليد اليهما وفق قانون الفيزياء القائل بأن الحرارة
تنتقل من الاجسام التي تتمتع بحرارة أعظم الى الاجسام التي تتمتع بحرارة
أدنى . غير أننا عندما نلمس الخشب تتدفق حرارة اليد اليه ببطء لسوء نقله
اياها ، أي لا ترتفع حرارة غير الجزء الملموس منه تقريبا . أما في المعدن
فحرارة اليد تسري بسرعة أعظم بسبب حسن نقله للحرارة وبسبب انتشاره
في شتى أنحاء المعدن . وما تنقله الينا احساسات جلدنا الملامس للشيئين ليس هو
غير انعكاس للفارق بين سرعتي انتقال الحرارة . وهكذا نرى أن هذه الاحساسات
ليست بعيدة عن خداعنا فحسب ، بل وتعكس لنا ناحية اخرى من الواقع ،
هي ناحية الفارق في نقل الحرارة عند الشيئين المذكورين . مما يدفعنا الى ضرورة
دراسة الواقع بشكل أدق .

وعلى هذا الاساس أيضا يفسر التناقض في مدلولات أعضاء الحواس .
ان أعضاء الحواس لا تخدعنا ولكنها تبين أن العمليات تسير في الاجسام بشكل
متباين تبعاً لتباين أحوال الاشياء ، وما كانت عليه قبل بدء العملية المذكورة .
لقد كانت يدنا اليمنى ، في المثل الذي ضربناه ، ساخنة في حين كانت اليسرى
باردة . فلما وضعناهما في ماء واحد بدأت اليمنى تفقد بعض حرارتها ، في حين
بدأت اليسرى تكتسب من حرارة الماء . وهذا بالذات ما تشير اليه احساساتنا .
نستنتج من هذا أن مدلولات أعضاء حواسنا التي هي مصدر جميع ما نعلم عن
العالم ، ينبغي استقراؤها وتحليلها بشكل صحيح . آنذاك تبين أنها ذهبت
في صحة عكسها للواقع أكثر مما كنا نتوقع في البداية . وليس هذا بالامر
الغريب . الواقع أننا في حياتنا نتعلم ، تدريجياً ، تفسير ما تدلنا عليه
أعضاء الحواس ، فالطفل لا يدرك ، في فجر طفولته ، الفوارق بين أبعاد
الاشياء : انه لا يرى القمر أبعد من الكرة ، ويبذل جهداً واحداً لنوال ذاك وتلك .
أما الانسان الراشد الذي ولد فاقد البصر ، ثم أعيد اليه بصره اثر عملية
جراحية ، فهو لا يدرك في الفترة الاولى لاستعادة بصره ، تباعد الاجسام .
فيبدو له كما لو أن الاشياء جميعاً قائمة بالقرب منه ، ويخاف أن يتعثر بها في

حين أنها بعيدة عنه • وهو لا يكتسب القدرة على حسن استخدام عضو النظر لديه الا تدريجيا ، وبمساعدة بصره . يكتشف دائما جوانب جديدة وجديدة من الواقع • ولكن « حسن استخدام » أعضاء الحواس ، انما يعني ربط نشاطها بنشاط التفكير • ولا يمكن الوصول الى عكس الواقع عكسا صحيحا الا عند توفر الوحدة التي لا انفصام لها ، بين الاحساسات والتفكير •

وهكذا فليس هناك مجال للشك المبدئي بما تدلنا عليه أعضاء حواسنا • ولكن هذا لا يعني أن الاحساسات تعطي صورة دقيقة كل الدقة عن الواقع الموضوعي ، في ذات اللحظة التي يصبح فيها هذا الواقع موضع ادراك أعضاء حواسنا • ان الصورة الاولى للاشياء المادية تتوضح وتعتني وتكامل تدريجيا ، على أساس الادراكات المتكررة كثيراً ، وعلى أساس عمل الفكر المتحقق منه بمختلف أعضاء الحواس ، وعلى أساس نشاط الانسان العلمي المتعدد الجوانب •

ان انعكاس الاشياء في وعينا لا يحدث مرة واحدة ودفعة واحدة ، وهو ليس صورة جامدة لا حياة فيها ، بل هو عملية تمر في مراحل متعددة ، هو عملية فاعلة من البحث والتجريب تقود أحيانا الى تجرد الفكر عن السواقع • وكما ان الفنان المزود بقماش اللوحة والالوان لا يستطيع رسم لوحته اذا ما جلس الى جانب أشياء دون أن يحرك ساكنا ، ودون أن يرسم بفرشاته ، كذلك الناس الآخرون لا يستطيعون عكس العالم الخارجي في وعيهم بعمق اذا لم يكونوا ايجابيين وفعالين ، ولم يقيموا بين الاشياء علاقات مختلفة •

يقول لينين : « ان الاحساس عبارة عن صورة ذاتية للعالم الموضوعي » (١) وهذا يعني أن الصورة (الانعكاس) موجودة في وعي الذات ، وأنها ليست مادية بل ذاتية • وكون الصورة على هذه الحال انما هو مشروط ببنية الجملة العصبية ، بنية الدماغ ، بطبيعة نشاطها • بيد أن هذه الصورة الذاتية هي انعكاس للعالم الموضوعي • وانعكاس العالم الخارجي في الوعي هو شيء موضوعي من حيث

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٤ ص ١٠٦ •

نشوئه ومصدره ومحتواه • وبفضل هذا ، يتوفر في احساساتنا ، في وعينا ، ذاك الشيء الذي لا يتعلق بالذات • لا يتعلق بوعي الانسان • هذه التصورات والافكار التي يتناسب ويتطابق محتواها مع الاشياء التي يعكسها الوعي ، وبالتالي لا يتعلق لا بالانسان ، ولا بالانسانية ، هذه الافكار والتصورات تسمى بالحقيقة الموضوعية •

ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية هو أحد الاركان الاساسية في المادية :
« فلكي يكون الانسان ماديا لا بد من اعترافه بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها لنا أعضاء الحواس » (١) •

ويعني وجود الحقيقة الموضوعية أن العالم ليس ماديا فحسب ، بل ومن الممكن معرفته أيضا ، لان التعرف على العالم يعني امكانية التوصل الى الحقيقة الموضوعية • والمادية ، اذ تعترف بهذه الحقيقة ، تعطي حلا صحيحا للناحية الثانية من قضية الفلسفة ، الاساسية ، وتدحض مذهب استحالة المعرفة •

ولما كان الوعي يعطي الصورة الحقيقية عن العالم شيئا فشيئا ، لا دفعة واحدة ، لذا فإن الانسان الذي لا يؤمن بامكانية المعرفة يتيه في بحر من الشكوك • فهو لا يعرف فيما اذا كنا نستطيع ، في مثل هذه الحال ، التعرف على الواقع الموضوعي أم لا ؟ واذا كنا نشك ، في صحة معرفتنا له فكيف نستطيع التعرف على وجود هذا الواقع أو عدم وجوده ؟

بيد أن هذه الشكوك كلها ليست غير ثمرة للطريقة الميتافيزيكية المعادية للمداليكتيكية في معالجة عملية المعرفة • وذهابنا الى أن الواقع لا يمكن التعرف عليه دفعة واحدة ، لا يعني أن ما نعرفه عنه الآن غير صحيح • ان أنصار نظرية عدم امكانية المعرفة ، والمثاليين الذاتيين ينكرون الحقيقة الموضوعية • غير انه يمكن التعبير عن وجودها ، بحصولنا ، عمليا على النتائج التي كنا نتظرها ، على وجه العموم ، وذلك انطلاقا من معارفنا عن الاشياء والعالم الخارجي • أما عدم نجاحنا في ذلك ، فهو يعني اننا سنكشف ، عاجلا أم آجلا

(١) لينين « المؤلفات » ١٤ ص ١٢٠ •

أخطاء في معارفنا ومحاكماتنا، لا بد من اصلاحها • وقد سخر « تشيرنيشفسكي » في مقاله « طابع المعرفة الانسانية » سخرية لاذعة من المذهب المدرسي الربي العقيم الذي يأخذ به أنصار استحالة المعرفة • وقد اتخذ « تشيرنيشفسكي » من محاكمة القائل باستحالة المعرفة الدائرة حول تمتع الانسان بيدين أم لا ، مصدرآ لسخريته هذه • يقول « تشيرنيشفسكي » ان الانسان الذي يبدو له أن يديه سلیمان، يبدو له كذلك، أن له يدين اثنتين • ولو أنه قدر لهذا الانسان أن يعرف أن له يدين ، اذن لكان له يدان اثنتان • ولكن هل هو ذو يدين اثنتين أم لا ؟ هذا أمر لا يعرفه ولا يستطيع أن يعرفه ، لا هو ولا أحد غيره من الناس • نحن لانعرف غير تصوراتنا عن الاشياء • أما الاشياء ذاتها فلا نعرفها ولا نستطيع معرفتها • وبما أننا لا نعرف الاشياء لذا لا نستطيع مقارنتها بتصوراتنا عنها • ولهذا لا نستطيع معرفة ما اذا كانت تصوراتنا عن الاشياء شبيهة بالاشياء • ربما كانت شبيهة بها ، ولكن قد تكون غير شبيهة بها • ان لدينا تصوراً عن اليد ، وبالتالي ، فهناك شيء ما يثير فينا التصور عن اليد • ولكننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف فيما اذا كان تصورنا عن اليد يشبه هذا ان « شيء ما » الذي يبعث فينا التصور • ربما كان التصور شبيهاً به ، وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً ، يداً ، في الواقع • ويكون لدينا يدان واقعيتان • بيدانه ربما كان تصورنا عن اليد غير مشابه لـ « شيء ما » الموجود فعلياً ، الذي تنسب هذا التصور له • وفي هذه الحال يكون الشيء الذي نتصوره يداً غير موجود ، وبالتالي لا وجود للأيدي لدينا • ونحن نملك ، عوضاً عن اليدين ، مجموعات ما لشيء ما ، مجموعات ما لا تشبه اليدين ، لشيء ما نجهله ولكننا لانسلك يدين ••• » (١)

تتصف الحقيقة الموضوعية بأنها : (١) غير متوقفة على عدد المعترفين بها سواء قلوا أم كثروا • وغالباً ما تحظى الحقيقة ، وخصوصاً في مجال المسائل العلمية المعقدة باعتراف قلة من الناس ، في بادئ الامر • (٢) تنتزع الاعتراف بها ، عاجلاً أم آجلاً ، متغلبة على الاوهام والترهات ، حتى ولو دعمت هذه

(١) تشيرنيشفسكي : « المؤلفات الفلسفية المختارة » الجزء الثالث ١٩٥١ ص ٥٣٦ - ٥٣٧ •

بالقوة • ولتذكر في هذا المجال تعاليم « كوبرنيك » • ان ملاحقة الكنيسة لانصار هذه التعاليم لم تستطع الوقوف في وجه انتشارها • كما أن الماركسية التي لم يكن ليعترف بها منذ قرن سوى حفنة من الناس ، أصبحت الآن نظرية تعتقها ملايين غفيرة من الجماهير غازية القلوب والعقول • (٣) تؤدي الى نتائج ناجحة في النشاط العملي فيما اذا أحسن استخدامها •

ربما لا يوجد في العالم فلاسفة ينفون وجود الحقيقة على العموم • ان أمثال هؤلاء الفلاسفة سيفشلون سريعا وهم يفتشون في تناقضات لا مخرج لهم منها • وهم لا يستطيعون حتى القول بأن انكارهم للحقيقة أمر حقيقي • والا فهم سيعترفون بوجود حقيقة واحدة على الأقل ، وبالتالي ، فستتأخر مواضعهم • ان كثيراً من أعداء المادية لا ينكرون الحقيقة على العموم ، بل الحقيقة الموضوعية « فقط » • وهم يفسرون الحقيقة حسبما يحلو لهم • فيذهب الماخيون منهم الى أن الحقيقي هو « الأمر ذو الأهمية العامة » ، في حين يذهب البراغماتيون الى أن الحقيقي هو الذي يؤمن النجاح • ان جوهر الحقيقة قائم في الموضوعية ، وبانعدام الموضوعية تنعدم الحقيقة • لهذا كانت محاولة الماخين والبراغماتيين خلق « الحقيقة » من دون الاعتراف بموضوعيتها ، لا صلة لها بالمعرفة الحقيقية القادرة الجبارة • والحقيقة الموضوعية ستصبح عاجلاً أم آجلاً ، أمراً ذا أهمية عامة ، أي معترفاً به من العموم • بيد أن هذا ليس هو الشيء الرئيسي فيها • المهم لا عدد الناس المعترفين بها ، (اذ أنها لا تتوقف على الانسان أو الانسانية) بل المهم هو كونها صحيحة أم لا ، وهل تتناسب مع الواقع الموضوعي أم لا ؟ فمن المعروف أن تعاليم خاطئة ، كالأوهام اللاهوتية ، غالباً ما تغزو عقول عدد كبير جداً من الناس ، ومع هذا فهي لا تصبح صحيحة لهذا السبب وحده • ان هذه النظرية أو تلك لا تعتبر حقيقة لمجرد انها ذات أهمية عامة ، بل لانها تعكس الواقع عكسا صحيحا ، وتؤكد صحتها بالممارسة العملية • صحيح ان الحقيقة التي تطبق في الواقع تطبيقا صحيحا تؤدي الى النجاح ، ولكن ليس كل ما يؤدي الى النجاح هو الحقيقة بصورة عامة • يدل على ذلك أن بعض الناس اللأخلاقين ينجحون عن طريق الغش والخداع • ان الحقيقة

الموضوعية هي الكنز الثمين الذي من أجله تعمل حواسنا وتفكيرنا بلا انقطاع ،
مكملا بعضها بعضا ، وبفضله ترتقي المعرفة الانسانية من درجة الى أخرى •

٤ : - الكلام والتفكير

ان التفكير المجرد والمعمم والحادث بواسطة المفاهيم المعبر عنها بالكلام أمر
خاص بالانسان وحده • لقد أدى الارتقاء البيولوجي الى تطور العالم
الحيواني حتى الدرجة التي نجدها عند أسلاف الانسان - الانسان القرد -
ذوي المجموعة العصبية الرفيعة التطور ، والقادرة على السير قدما نحو الكمال •
بيد أن تحول سلفنا - الانسان القرد - الى انسان ، لم يكن نتيجة عوامل
بيولوجية ، بل نتيجة عوامل جديدة ، أي نتيجة العمل الاجتماعي الذي أصبح
نقطة انطلاق تطور لا شبيه له فيما تبقى من ظواهر الطبيعة • يقول انجلز :
« ان العمل ، بمعنى معين ، هو الذي خلق الانسان • وقد ظهر الكلام والتفكير
بفضل نشاط الانسان العملي ، بالذات • ان الاستعمالات الاولى لاشياء الطبيعة ،
بصفتها أدوات للعمل ، واعداد هذه الادوات الواعي ، بشكل خاص ، عملا على
توسيع أفق الانسان البدائي توسيعا كبيرا ، بأن كشفنا له عن خواص جديدة
للأشياء المحيطة به • وقد حقق الناس ، فيما بعد ، في سياق العمل الاجتماعي ،
اكتشافات جديدة وجديدة وسعت أفق تصوراتهم وادراكهم الحسية ، وعملت
على تطوير تفكيره تدريجيا • وقد أتاح التفكير ، بدوره ، امكانيات جديدة
أمام تطور النشاط العملي الذي أدرك الناس في سياقه فوائد العمل الجماعي •
يقول انجلز : « وبكلمة موجزة ، لقد توصل الانسان الذي هو في سبيل
التكون كإنسان ، الى مرحلة ظهرت فيها الحاجة الى أن يقول شيئا ما للانسان
الآخر • فخلقت الحاجة عضوها الخاص • كانت حنجرة القرد
اللامتطورة تتحول ، عن طريق التنغيم ببطء ، ولكن بصورة
متواصلة ، الى حنجرة قابلة للتنغيم أكثر فأكثر ، في حين كانت أعضاء
الفم تتعود تدريجيا على لفظ أصوات متتالية مؤلفة من مقاطع »^(١) • هكذا نشأ

(١) انجلز : « دياليكتيك الطبيعة » ص ١٣٤ •

الكلام المؤلف من مقاطع ، اللغة ، كما نشأ معه التفكير • ولم يكن بمقدور الكلام والتفكير أن ينشأ كخاصة شخصية لهذا الفرد أو ذاك • انهما ، من حيث المصدر والمحتوى ، يتصفان بطابع اجتماعي واضح • يقول ماركس وانجلز « ان الوعي كان منذ البداية ، نتاجا اجتماعيا ، وسيظل كذلك ما دام هناك بشر على العموم » (١) •

ما ان يظهر الكلام حتى يؤثر تأثيرا عظيما على النشاط العملي • فبدون الكلام الذي يربط بين الناس يتعذر الانتاج الاجتماعي العقلاني ، في حدود واسعة الى حد ما • كما يؤثر الكلام ايضا على الناس الناطقين به ، ذاتهم • ان العمل والكلام المؤلف من مقاطع يصحان العاملين الرئيسيين في تطور الدماغ • وهو أمر يرافقه تحسن في تطور أعضاء الحواس • وفيما يلي برهان على مدى أثر النشاط العملي في تطوير هذه الاعضاء • ان الخبراء من عمال النسيج المتخصصين في نسيج الاقمشة السوداء ، يميزون حتى • ٤ فارقا في اللون الاسود ، في حين لا يميز الآخرون أكثر من فارقين أو ثلاثة • كما أن الطحانين ذوي الخبرة الواسعة يستطيعون بالاعتماد على حاسة اللمس لديهم ، تحديد نوع الطحين تحديداً دقيقا ، ومعرفة المكان الذي أنبت قمحه • وتبلغ احساسات الشم عند الانسان درجة من الدقة والتحسس غير عادية فيما اذا دعت الحاجة العملية لذلك • وهكذا نجد مقتفي الآثار الافريقيين يتبعون عن طريق الشم ، الاسود والزرافات وحمير الوحش ، تبعا أفضل من كلاب الصيد •

ان فكرة الانسان يعبر عنها بالكلام • هذه الفكرة ذات غلاف لغوي عادة • فعندما ينقل أحد الناس فكرته الى الآخر ، يعبر عنها بالكلمات الملفوظة بشكل مسموع من الآخرين • هناك من يبدو لهم أن الكلام لا لزوم له الا من أجل إيصال الفكرة الى الآخرين • لذا فالكلام لا يلزم الانسان نفسه من أجل التعبير عن أفكاره • وهذا خطأ • فكما أن اللوحة التي يرسمها الفنان لا تتكون الا نتيجة وجود الالوان ، فنيا ، على القماش ، كذلك الفكرة لا توجد عند

(١) ماركس وانجلز : « المؤلفات » الجزء الثالث ١٩٥٥ ص ٢٩ •

الناس الطبيعيين الا بسبب وجود الكلمات وانكلام . ولا يمكن لاحدهما أن يوجد من غير الآخر . يقول ماركس : اللغة هي الواقع المباشر للوعي ، هي المادة الطبيعية للفكرة . ان مرد الرأي الخاطيء الذاهب الى أن الافكار يمكن أن توجد بدون الكلمات ، هو أن الانسان عندما يفكر في ذاته ، لا يلفظ عملياً ، لا بصوت مسموع ، ولا بينه وبين نفسه ، جميع الكلمات التي كان ينبغي أن يلفظها لو أنه أراد ايصال فكرته ذاتها الى شخص آخر . كما أن الانسان يشعر ، أحيانا ، بصعوبة كبيرة في اختيار الكلمات اللازمة ، أو كما يقال ، « لا يجد الكلمات » لكي يعبر للآخرين عن فكرته ، ويوضحها لهم ، مع أن هذه الفكرة تبدو واضحة تماما بالنسبة اليه . هنا تبدو الكلمات لا قاصرة عن التعبير عن الفكرة فحسب ، بل انها تجعل من الصعب فهمها . بيد أن هذا لا يعني اطلاقاً أن الفكرة المعنية توجد من غير غلاف كلامي . فنحن عندما نفكر في ذاتنا لا نعطي ، في الغالب ، الاعظم ، تعبيراً كلامياً مفصلاً لافكارنا . ولكن اذا لم نجد ، هنا ، جميع الكلمات اللازمة لصياغة الفكرة بشكل مفصل واضح ، فلا بد من وجود هذه الكلمات أو تلك ، دائماً . ونحن عندما نحاول التغلب على الصعوبات في انتقاء الكلمات اللازمة نصنع الفكرة ذاتها . وعندما نعطي الفكرة تعبيرها الكلامي الكامل ، تصبح هذه الفكرة واضحة ودقيقة ومنسجمة . فالغلاف الكلامي المفصل يسبق على الفكرة أعظم قدر من الكمال لا من حيث الصيغة فقط ، بل ومن حيث المضمون أيضاً . ولا ينبغي أن نستتج من قولنا بأن الفكرة واللغة غير منفصلتين ، انهما شيء واحد . ويتجلى الفرق بينهما في أن الفكرة عبارة عن انعكاس الواقع الموضوعي ، في حين أن الكلمة هي وسيلة التعبير ، وسيلة تثبيت الفكرة ، بالإضافة الى أنها وسيلة نقل الفكرة للآخرين . وبفضل الكلمة بالذات ، يمكن أن ندرك أفكار الآخرين . واذا كانت الفكرة لا توجد من غير كلمات ، كذلك الكلمات تصبح مجرد أحرف فارغة من دون الفكرة ، من دون ما تعكسه الفكرة . ان التفكير واللغة مترابطان ترابطاً وثيقاً فيما بينهما ، ويشترط أحدهما الآخر .

ان أشياء العالم المحيط بنا ، وظواهره ، تنعكس مباشرة في الاحساسات

التي تثيرها تلك الأشياء والظواهر • وهذا ما ندعوه بالانعكاس الحسي للأشياء والظواهر الحسية مع جميع فوارق خصائصها الفردية • إلا أنه ينشأ ، على أساس الاحساسات ، كما رأينا ، شكل انعكاس ينعكس فيه ، في اللحظة الراهنة ، ما لا يؤثر مباشرة على أعضاء الحواس ، ولكنه ممثّل بشيء آخر أو ظاهرة أخرى ، تشير إلى الشيء الأول • وهو أيضا انعكاس للواقع ، مجسّد ، حسي ، مع فارق توفر خطوة إلى الأمام في طريق التجريد والتعميم • إن إمكانية التجريد مشروطة بأن الإشارة المدركة من قبل أعضاء حسنا هي شيء متميز تماما عما ترمز إليه هذه الإشارة بظهورها ، كما أنها مشروطة أيضا بأن ظاهرة واحدة يمكن أن يشار إليها ، في ظروف مختلفة ، بإشارات متباينة • وبالإضافة إلى ذلك فإن كل إشارة من هذا النوع ، باعتبارها شيئا أو ظاهرة معينة بدقة ، تخدم كممثل لظاهرة معينة بدقة • إنها إشارات للأشياء والظواهر الحسية •

أما نشوء نظام الإشارات الثاني للواقع ، عند الإنسان ، فقد أفسح إمكانات لا حد لها ، فعلا ، أمام تطور الانعكاس المعمم والمجرد المتزايد ، أمام تطور الانعكاس في المفاهيم • فالكلمة التي هي إشارة الإشارات تستخدم كممثل لا لإشارة ما واحدة ، بل لمجموعة كبيرة من الإشارات المتماثلة في نموذجها ، وهي متشابهة في الأمر الرئيسي والجوهري رغم تباينها في تفاصيلها • لهذا لا يعكس فيها شيء ما واحد ملموس ، بل عدد من الأشياء والظواهر الموحدة إلا نموذج ، وعدد من الروابط التي تربط هذه الأشياء والظواهر بعضها ببعض • فكلية الفرجار لا تعني فرجارا بعينه ، مع ما يلازمه من خصائص فردية ، بل الفرجار على العموم ، أي نموذجا أو جنسا معيننا من الأشياء ، سواء أكان طوله ١٥ ، أو ١٦ أو ١٤ سم ؛ وسواء أكان مصنوعا كله من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك • • • الخ • والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى • نستنتج من ذلك نتيجة هامة جدا : هي أن الكلام عبارة عن تجريد للواقع ، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد • يقول لينين : « كل كلمة عبارة عن تعميم »^(١) •

(١) لينين : « الدفتر الفلسفية » ص ٢٥٦ •

مع هذه الخاصة للكلام يرتبط شكل النشاط النفسي الخاص بالإنسان ، وهو تكوين المفاهيم واستعمالها ، أي التفكير النظري • بفضل الكلام بالذات ، أصبح بإمكان الوعي استعمال لا ما تقدمه الاحساسات في وقت معين فحسب ، بل وما قدمته في السابق ، وما يمكن أن تقدمه في المستقبل • وبفضل ذلك نشأت امكانية فصل خاصية الشيء ، ذهنيا ، عن الشيء ذاته ، امكانية تجريد بعض خواص الاجسام عن بعضها الآخر ، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة •

ليس الكلام شارة الشارات الا عندما ينشأ على أساس الاحساسات التي تعكس الاشياء المادية الموافقة • فاذا انعدمت الاشياء أصبحت الكلمة فارغة ، محرومة من الفكرة ، ولا معنى لها •

لنفترض أن الرسام أرسل شخصا ما لاحضار فرجار قائلا : أرجوك احضار فرجاري • ان كلمة فرجار ، بذاتها ، لا تثير لدى هذا الانسان تلك الاحساسات التي يثيرها الفرجار عندما ننظر اليه أو نلمسه بأيدينا • وهذه الكلمة ليست الا اشارة الى الاحساسات التي يعانها الانسان عندما يجد الفرجار • بيد أنه ، اذا كان الانسان الذي توجه اليه الرسام برجائه لم يسبق له أن شاهد الفرجار أبدا ، ولا تثير فيه هذه الكلمة تداعيا لمجموعة احساسات معينة ناشئة على أساس تجربته الحسية الشخصية ، فان كلمة فرجار لا تستطيع القيام بدور شارة الشارات •

وما تقدم لا يعني أن الاحساسات لاتعكس الامر العام الموجود في الاشياء والظواهر الحسية ، والا لما انعكس هذا الامر العام بواسطة الفكرة والكلمة • فعندما نتحسس رائحة أزهار مختلفة نستطيع أن ندرك ، حسيا ، الشيء العام الملازم لرائحة الازهار كجنس معين من النبات • الا أن هذا الشيء العام في الاحساس ، متصل اتصالا وثيقا بالخاص (١) • وهو في الكلمة يفصل عن الخاص ويتجرد عنه • الا أن حدوث هذا التجريد بمساعدة الكلمة كان

(١) الخاص هنا احدى متولات الخاص والعام والوحيد الفلسفية •

مسبوفا بتحسّن تدريجي في المقدرة على تمييز الشيء العام الذي يحتويه الخاص،
بواسطة الاحساس .

ان اكتساب القدرة على ذلك التوسع في التعميم القائم في كلام الانسان
المثقف المعاصر ، المعتاد على التفكير المجرد ، لم ينشأ دفعة واحدة مع ظهور
الكلمة مباشرة . كانت مقدرة الانسان البدائي على التفكير المعمم ما تزال هزيلة
رغم بدئه بالكلام . كانت لغته لا تحتوي الا على القليل من المفاهيم العامة ،
كما أن عمومية هذه الأخيرة كانت محدودة . ويمكن التثبت من ذلك عند
دراسة لغة بعض القبائل المتأخرة المعاصرة ، علما بأن هذه القبائل قد قطعت
أشواطاً بعيدة الى الامام اذا ما قورنت بقبائل الزمن البدائي . هكذا نرى أن
لغة إحدى القبائل تحتوي على ٧٥ كلمة للتعبير عن عمليات السير التي تتباين
فيما بينها بفوارق بسيطة ، وعلى أكثر من ١٠ كلمات للتعبير عن الطبخ ، ولكنها
لا تحتوي على أية مفاهيم عامة لعمليتي السير والطبخ . وهناك بعض القبائل
الشمالية التي تعبر بكلمات منفردة عن الثلج مقرونا بحالات معينة ك : « الثلج
على الارض » ، « الثلج المتساقط » ، « الزوبعة الثلجية » ، « الثلج المتراكم » ،
ويزيد عدد مثل هذه التعبيرات لديها عن أربعين ، في حين أنها لا يوجد لديها
كلمة عامة تعني الثلج بالذات . وهناك قبائل لا تحتوي لغتها على كلمة عامة
تعني « عجل البحر » ، بل تحتوي على تعابير كالتالية : « عجل البحر على قطعة
من الجليد » ، « عجل البحر في الماء » ، « عجل البحر المتسلق على قطعة
الجليد » . . . الخ . بيد انه مهما بدا تقصير هذه اللغة في التعميم ، فهي ، في
الواقع ، ذهبت بعيدا بالنسبة الى نظام الشارات الاول، وحتى بالنسبة الى رشيمات
الكلام الاولى . انها تحتوي على تعاميم كبيرة يعبر بفضلها عن الثلج ، بمختلف
أشكال تراكمه ، بكلمة معينة ، كما يعبر عن « عجل البحر » المستلقي على
الجليد بكلمة معينة أيضا على الرغم من الفوارق الملازمة لوضع عجل بالنسبة
الى آخر . وفي هذا تتضح المسافة الشاسعة التي تفصل مستوى تطور الوعي
الانساني عن المستوى الذي كان عليه وعي الانسان البدائي .

يتألف الكلام ، قبل كل شيء ، من كلمات ، وهذه من مقاطع صوتية .

فما هي العلاقة القائمة بين هذه الاصوات وبين الظواهر والاشياء التي تعنيها ؟
ان الأصوات عبارة عن اشارات اصطلاحية وضعتها الشعوب خلال تعاشيها عبر
القرون الطويلة • ولا توجد ولا يمكن أن توجد أية علاقة سرية بين هذه
الأصوات والاشياء التي تدل عليها • ان تصور قيام علاقة خفية بين أصوات
الكلمات وبين الاشياء هو تصور مختلق ومن صنع المشعوذين الذين يدعون
بوجود أسماء « حقيقية » ما للأشياء والناس ، اذا ما نطقنا بها استطعنا التأثير على
الاشياء وعلى الناس ، وتقرير مصيرهم • ان ما يدحض ، عمليا ، وجود أية
علاقة سحرية ، سرية ، بين الاشياء والكلمات المعبرة عنها هو أن الشيء
الواحد يعبر عنه ، عند مختلف الامم ، بالاعتماد على أصوات مختلفة • ان الشيء
الذي يسميه الروس « ستول » (أي طاولة) ، يسميه الالمان « ديرتيخ » ،
والافرنسيون « تابل » ••• الخ • بيد أنه اذا كان تركيب الكلمات من الاحرف
يمكن أن يحدث اتفاقا أو عرضا ، فان ما تعنيه هذه التراكيب الكلامية والكلمات
ليس عرضا، ولا اتفاقيا • فالناس في نشاطهم العملي يحتكون بالاشياء والظواهر •
لهذا لا بد للغة من أن تحتوي على تلك الكلمات التي تعني الظواهر والاشياء
الضرورية لمعيشة الناس • وبما أن الناس يستخدمون الخواص المتنوعة لهذه الاشياء
والظواهر ، لذا ، لا بد وأن تشتمل اللغة على كلمات تعبر عن هذه الخواص • كما
ينبغي أن تنشأ تلك الكلمات التي تعبر عن حركة الاشياء ، وعن تأثير بعضها
على بعض ، وعن الروابط فيما بينها ، ما دام هذا ضروريا للناس • وقد أدى
نشاط الناس العملي الى نشوء الكلمات التي تعني علاقات الاشياء المكانية والزمانية •
كما كان لا بد من نشوء الكلمات التي تعني العلاقة بين الناس ، بعضهم ببعض ،
وبينهم وبين الظواهر المحيطة بهم • ان حاجات العلم وتطوره أدت الى نشوء
كلمات جديدة تعبر لا عن الاشياء وخواصها المدركة حسيًا ، فحسب ، بل
وعن العلاقات الخفية الدفينة في أعماقها ، وعن قانونياتها وجوهرها • كما كان
لا بد أيضا من ظهور كلمات تعني خواص العلاقات والصلات بين الاشياء ،
وكلمات تعني كلمات أخرى وتعبر عن العلاقات بين الكلمات •

وعلى هذا ، فكل ما يتمتع بمعنى كلامي ، ويدخل متن اللغة تحت شكل
كلمات ، لا يمكن أن يكون عرضيا ولا اتفاقيا ، وهو يتحدد ، بالضرورة ،
بأجبات الشعب العملية الهامة معاشيا ، وبأجبات التفكير المتطور لكي يعكس
الواقع الموضوعي بشكل أدق . ان اللغة والتفكير يعكسان ما يعرفه الناس عن
العالم الخارجي وعن أنفسهم ، كما يعكسان ما يعرفه الانسان من وسائل المعرفة
التي هي في حوزته ، في الفترة الراهنة .



الفصل الخامس

العلاقة القانونية لظواهر الواقع

١ : - نظرية التطور الديالكتيكية

نستتج مما سبق قوله أن أهم سمة تسم الفلسفة الماركسية تكمن لا في الاعتراف بمادية العالم فحسب ، بل وفي الاعتراف بأن المادة ، أن الطبيعة ، توجد ، دائماً ، في حركة أبدية ، مقنونة ، وفي تبدل وتطور مستمرين . وسنعالج الآن أعم قوانين التطور .

ان قوانين العالم الموضوعي هي قوانين الحركة والتطور . ولا يمكن فهم الأشياء و لظواهر فهما صحيحا ، ولا تفسيرها تفسيراً صائباً الا اذا درست في سير عملية نشوئها وتطورها . وقد أبان العلم ، شيئاً فشيئاً ، وفي ميدان بعد آخر من ميادين الواقع ، تطور العالم المحيط بنا . وفي نهاية القرن التاسع عشر أخذت فكرة التطور تنتشر انتشاراً واسعاً ، وتنال اعترافاً شاملاً .

الا أن الاعتراف وحده بمبدأ التطور غير كاف . اذ لا بد من فهم طابع هذا التطور ومصدره ، كما لا بد من فهم القوانين العامة المسيرة لاي تطور . من الممكن الاعتراف بالحركة ، ومع هذا فقد لا يخرج المعترف عن نطاق الميتافيزيكية . فتحت تأثير نجاحات العلم ، ولا سيما اعتباراً من المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر ، أخذت تنشأ نظريات ارتقائية عامة تعترف بالتطور قولاً ، ولكنها ، عملياً ، تدافع عن النظرات الميتافيزيكية القديمة للطبيعة ، بعد أن تكيفت قليلاً مع روح الزمن . يقول لينين بأن مثل هذا الاعتراف بفكرة التطور يجعل من الحقيقة شيئاً مبتذلاً^(١) .

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٢٣٩ .

الواقع أن فهم التطور على انه مجرد عملية اضافة تغييرات بسيطة جزئية، اضافة تغييرات كمية محضة ، الى ما هو موجود ، يختلف كل الاختلاف عن فهم التطور على انه عملية معقدة يتعرض الشيء خلالها لا لتبدلات كمية فحسب، بل ولتبدلات وتحولات كيفية عميقة أيضا ، مما يؤدي ، مع الزمن ، الى شيخوخة الاشكال التي فات أوانها ، والى اختفائها عن المسرح لتخلي مكانها لاشكال جديدة أعلى وأكمل . ومن الواضح أن هذين المفهومين يشكلان نظريتين للتطور على طرفي نقيض .

النظرية الاولى ميتافيزيكية لان الحركة والتطور ، في نظرها ، لا يؤديان الى القضاء على القديم وابداده والى ولادة الجديد . انها تنفي التناقضات الداخلية في الظواهر والاشياء ، وصراع التناقضات كمصدر للتطور . وهي تفهم التطور على أنه مجرد كمية تدريجية تنساب بيسر ، نافية القفزات النوعية التي تحدث في درجة معينة من التطور .

أما الثانية فهي النظرية الديالكتيكية ، العلمية الوحيدة . لانها تفهم التطور فهما متلائما مع الواقع القائم موضوعيا ، تفهمه على أنه حلول الجديد محل القديم ، على أنه موت القديم ونشوء الجديد . وهي تكشف التناقضات الداخلية التي تحدث في الاشياء المتبدلة ، وترى في حل هذه التناقضات وتطورها القوة الرئيسية المحركة للتطور .

ان لينين فيما كتبه « حول قضية الديالكتيك » يقارن بوضوح وعمق ما بين هاتين النظريتين ، ما بين هذين المفهومين عن التطور . يقول لينين : « هناك مفهومان أساسيان للتطور (للارتقاء) التطور كتقليل واكثر وتكرار والتطور كوحدة التناقضات » (ازدواجية الشيء الواحد لوجود التناقضات التي ينفي أحدها الآخر ، والعلاقة المتبادلة بينها) . في المفهوم الاول للحركة تبقى الحركة ذاتها ، والقوة الدافعة لها ، ومصدرها ، وسببها ، تبقى أشياء غامضة (أو أن هذا المصدر الباعث لها ينقل الى الخارج ليرتبط بما وراء الطبيعة أو الذات أو غير ذلك) . أما في المفهوم الثاني فيوجه الانتباه الاول الى معرفة مصدر الحركة « ذاتها » . المفهوم

الإول ميت ، فقير ، جاف • أما الثاني فحيوي • وهذا المفهوم وحده هو الذي يعطي مفتاح سر « القفزات » و « توقف التدرج » و « التحول الى الشيء المضاد » و « القضاء على القديم ونشوء الجديد »^(١) • في هذه الافكار التي عرضها لينين تبين الفارق المبدئي الجذري بين التصورات الميتافيزيكية الارتقائية العامة وبين النظرية الديالكتيكية الماركسية ، عن التطور • وعندما يذهب الديالكتيك الى اظهار التطور كاستبدال مقنون للجديد بالقديم ، انما يكتسب بهذا ، أهمية ثورية عظيمة • وليس من قبيل العبث أن سمى « غيرتسن » الديالكتيك يجبر الثورة •

إن التعرف الى هذا الفارق المبدئي بين هاتين النظريتين للتطور أمر هام بالنسبة الى فهم العالم علمياً ، وإلى النشاط العملي • فالمفهوم الميتافيزيكي للتطور عاجز عن توجيه العلم والمعرفة العلمية توجيهها صحيحاً • فلو أن التطور لم يكن غير حركة من غير استبدال الجديد بالقديم ، من غير تناقضات داخلية ، وانتقال من حال الى حال ، لما أمكن فهم التنوع العظيم الغنى للعالم المتطور ، هذا التنوع المدهش من حيث تعقيده وتفرعه • ولتعذر أيضاً ايجاد الحل الصحيح لمسألة كيفية نشوء صغيريات مادية معينة من صغيريات أخرى ، وكيفية حدوث تحول العناصر الكيميائية ، وكيف نشأت المادة العضوية ، الحياة ، من المادة اللاعضوية ، خلال ملايين السنين على الارض ، وكيف تحولت أنواع من النبات والحيوان الى أنواع أخرى ، وكيف نشأت ، فيما بعد ، المادة الحساسة القادرة على التفكير عن المادة اللا حساسة •

تدل نظرية التطور الديالكتيكية على الطريق الصحيح للمعرفة ، وبالتالي ، على الطريق الموثوق للسيطرة على قوانين الطبيعة وقواها • فاذا كان التطور عبارة عن عملية انعدام القديم ونشوء الجديد ، فان مهمة العلم تكمن في دراسة كيف ان الطبيعة ذاتها ، كيف ان المادة في حركتها الخاصة تتحول

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٣٢٧ - ٣٢٨ •

من أشكال الى أخرى ، من الأشكال البسيطة الى المعقدة ، من الدنيا الى العليا ، مشكلة هذا العالم الموضوعي المحيط بنا والغني بتنوعه • وفي طريق الفهم هذا ، خاصة ، حقق العلم نجاحات مذهلة في دراسته للطبيعة • والعلم الحديث يقدم البراهين الجديدة المتواصلة ، اثناء حله لا عقد قضايا الفيزياء الذرية ، وغزو الفضاء ، والبيولوجيا ، وعلم الاجتماع ••• الخ ، على صحة النظرية الديالكتيكية عن التطور •

ان الديالكتيك الماركسي يقدم مفتاح سر تعقيد تطور العالم الموضوعي وتنوع هذا التطور الفائق ، كما يدل على غنى محتواه وأشكاله • وهو يدرس أعم قوانين التطور ، وعملية موت القديم وولادة الجديد ، وعملية التجدد الخالد للعالم •

وقوانين الديالكتيك الأساسية هي : (١) قانون تحول التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • (٢) قانون وحدة المتناقضات وصراعها • (٣) قانون نفي النفي • وكل قانون من هذه القوانين يعكس ناحية جوهرية ما من نواحي التطور الموضوعي ، وحدّه ، وشكله ، وعامله •

القانون الأول بين كيف تتعرض الاشياء للتبدلات والتحويلات الكمية ، وبفضل أية عمليات يتم ذلك • كما يبين كيف يتضمن التطور ، الى جانب شكل النمو التدريجي المنسجم في التبدلات الكمية الاملحوظة ، شكل توقف التدرج ، شكل القفزة من الحالة النوعية القديمة الى حالة نوعية جديدة •

أما قانون وحدة المتناقضات وصراعها فيكشف عن مصادر كل تطور وعن دافعه الداخلي ، وقوته المحركة التي يحتويها صراع النواحي المتناقضة والقوى والاتجاهات الخاصة بالاشياء •

وأما القانون الثالث فيعكس ويسم الصلة المتتالية بين مختلف مراحل التطور ، ووجهة التطور الرئيسية ، واتجاهه الأساسي الكامن في حركته التصاعدية من الشكل البسيط الى المعقد ، ومن الأدنى الى الأعلى ، يعكس ويسم الشكل « الحلزوني » المعقد لهذه الحركة •

ليست القوانين المذكورة غير قوانين الديالكتيك الاساسية ، غير أهمها .
انها بعض قوانينه . ويوجد الى جانبها عدد وافر من المقولات أمثال العلاقة
العامة للظواهر ، والسبب والنتيجة ، والمحتوى والشكل ، والعرضية والضرورة ،
والجوهر والظاهر ... الخ .

ان قوانين الديالكتيك ومقولاته هذه لم تبتكر اختراعاً ، بل استخلصت
من الطبيعة والحياة الاجتماعية . انها تعكس القوانين الموضوعية القائمة بشكل
مستقل عن وعي الانسان . ولهذا السبب بالذات يقدم لنا الديالكتيك ادركسي
امكانية التغلغل في كشف عمليات تطور الكائنات والمعرفة ، وفهم هذه العمليات
المعقدة العديدة الوجود .

إن الطبقات المستمرة المدافعة عن القديم لا تقبل روح الديالكتيك
الماركسي الثورية . ويعتبر نفي الطابع الموضوعي للديالكتيك إحدى وسائل
نضال خصوم الماركسية . ويحاول الاصلاحيون ، والاشتراكيون البرجوازيون
الصغار ، وكثير من ممثلي مختلف تيارات الفلسفة البرجوازية وجوداً ثابتاً
أن الديالكتيك بعيد عن الواقع الموضوعي ، وأن مفعول بعض مبادئه لا يتبع ، في
أحسن الحالات ، الا في مجال التفكير . فالفيلسوف البرجوازي برسي
« ميرلا بوتتي » ، مثلاً ، يهاجم ، في كتابه « مغامرات الديالكتيك » ، مبادئ
الديالكتيك باعتبار أنها تبرز في « الشيء » ، في الكائن ، أفد ذنب مفردة
على الوجود ، تبرز الديالكتيك » . ان المثاليين يعارضون قوانين وجودهم
التفكير . ولكن بما أن قوانين الديالكتيك هي ، في الواقع ، قوانين وجود
الموضوعي ، فهي لهذا ، بالذات ، تعتبر قوانين « للديالكتيك » ، أي
للمعرفة ، للتفكير .

لقد سبق أن قلنا بأن الطريقة العلمية الحقيقية لمعرفة ، يست عبارة
عن مجموعة من القواعد الكيفية التي يوجدها العقل الانساني . هذا المفهوم
لا يأخذ به غير المثاليين . ان الطريقة العلمية هي ممثلة الواقع ذاته ، لذلك
فهي الطريقة الصحيحة للبحث في ظواهر العالم الموضوعي ؛ فلنعالج الواقع

معالجة صحيحة ، علمية ، لكي ندرسه ونبدله عملياً ، لا بد من الاعتماد على قوانينه الخاصة به . والديالكتيك الماركسي يعرفنا على أعم قوانين تطور الواقع كله ، من طبيعة وحياة اجتماعية ، وتفكير أيضاً .

ومن الخطأ ، في هذا المجال ، أن نرى جوهر الطريقة الديالكتيكية في حشر هذه الوقائع أم تلك ضمن أطر القوانين والمفاهيم الديالكتيكية . ليس هذا الأمر أكثر من فهم عامي للديالكتيك . وقد حذر كلاسيكو الماركسية مراراً بقولهم ، إن الديالكتيك ليس مجرد أداة لاثبات الحقائق الجاهزة ، بل هو مرشد للبحث في الظواهر والعمليات الحقيقية ، هو طريقة معرفة الحقيقة الموضوعية .

إن أي قانون ، كما سنرى بعد ، إنما يشمل ويعبر عن جوهر كمية عظمى من الظواهر المتماثلة ، وعن علاقتها الداخلية ، أي عن الأمر العام الأساسي الذي يسم هذه الكتلة من الظواهر . إلا أن كلاً من هذه الظواهر تتمتع بخصائص خاصة بها ، ومفعول ينعكس من خلال هذه الخصائص الخاصة بكل ظاهرة على حدة . لذلك يجد القانون في كل عملية ، وكل ظاهرة فردية ، تعبيراً خاصاً .

وإذا كان هذا الأمر يخص جميع قوانين العلوم ، فلا بد ، من باب أولى ، اخذه بعين الاعتبار عند معالجة أعم قوانين التطور . ان قوانين الديالكتيك تعمل في جميع الميادين : في الطبيعة العضوية وغير العضوية . ففي الطبيعة العضوية تعمل في عالمي النبات والحيوان ، كما تعمل في المجتمع في مختلف المراحل التاريخية ؛ وهي عبارة عن قوانين التفكير في جميع مجالات المعرفة : كالرياضيات ، والفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجيا والاقتصاد السياسي ، وعلم الجمال . . . الخ . ومن الواضح أن قوانين الديالكتيك ، باعتبارها قوانين عامة تتطور حسبها هذه الظواهر والعمليات المتباينة ، تتبدى فيها بشكل يختلف باختلاف طبيعة كل ظاهرة وعملية .

هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية حتى لا نذهب الى الاستنتاج

الخاطئ القائم على أن معرفة قوانين التطور الديالكتيكي العامة كافية ، وحدها للنجاح ، آلياً ، في المعرفة والنشاط العملي . إن التطبيق الحسي للديالكتيك ، كطريقة ، على الظواهر الحسية ، بعد أخذ خواصها بعين الاعتبار ، ان الدرس الدقيق لوقائق التطور الحسية وشروطه ، هو ، وحده ، الذي يؤمن النجاح في المعرفة والنشاط العملي . لهذا كان مطلب التحليل الحسي للواقع إحدى أهم خصائص الديالكتيك الماركسي وأكثرها تأثيراً . ولهذا بالذات نجد أن أهم مبدأ للديالكتيك يقول : لا وجود للحقيقة المجردة ، والحقيقة هي ، دائماً ، حسية .

والديالكتيك بعيد عن المذهب التخطيطي^(١) الذي يحشر مختلف التطورات الحسية الحية في شكل واحد أو أكثر . وهذا الديالكتيك الماركسي ، عندما يشير الى أعم قوانين التطور ، انما يطالب بكشف غنى الاشكال الحسية الذي لا حد له ، أشكال التعبير عن هذه القوانين في الواقع ؛ واخذها بعين الاعتبار .

وهذا يعني أن لابد من النظر الى قوانين ومبادئ التطور الديالكتيكي العامة في وحدتها الوثيقة مع الخاص والوحيد العائدين لكل ظاهرة وعملية . كما لابد من الأخذ بعين الاعتبار ، غنى الأشكال الحسية الذي لا حد له ، أشكال ظهور قوانين الديالكتيك في الواقع .

لهذا عرف لينين الديالكتيك الذي يعكس هذا الفن اللامتناهي من أشكال التطور بأنه « المعرفة الحية المتعددة الجوانب (والتي تتكاثر جوانبها باستمرار أبدي) والفروق التي لا حصر لها بين مختلف طرق معالجة الواقع وتناوله »^(٢) . و « هذا العدد المتكاثر باستمرار لجوانب » الديالكتيك ، و « الفروق التي لا حصر لها بين مختلف طرق معالجة الواقع » ، انما هو انعكاس لتعدد المادة المتطورة ، ولتعدد اشكالها الذي لانهاية له .

(١) المذهب التخطيطي (شيما تيزم) يعني وضع مخططات مسبقة لتفسير الظواهر المختلفة حسب

هذه المخططات تفهيرا تمسغيا .

(٢) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ٣٣٠ .

ومع الأسف لم تؤخذ افكار لينين هذه عن غنى محتوى واشكال الديالكتيك بعين الاعتبار ، كما ينبغي ، في فترة عبادة شخصية ستالين • فاعتبر ما كتبه ستالين عن الديالكتيك في كراسه « المادية الديالكتيكية والتاريخية » ك « منجز رفيع من منجزات الفكر الفلسفي ، وتحول الى عقيدة جامدة • بالاضافة إلى أن ستالين أسقط من هذا الكراس مثل هذا القانون الهام ، العام ، للتطور ، قانون نفي النفي ، ولم يظهر فيه الديالكتيك كمنظريّة للمعرفة ، كما لم يُظهر قانون وحدة وصراع المتناقضات ك « نواة » للديالكتيك ، ولم تذكر ، اطلاقاً ، أهمية المقولات الديالكتيكية كدعائم للمعرفة ؛ وقد طور لينين افكار ماركس وانجلز في هذا المجال تطويراً خلاقاً حقيقياً •

ولنتقل الآن الى تفصيل اعمق لجوهر الديالكتيك وقوانينه ومقولاته • ولنبدأ بمقولات الديالكتيك أمثال العلاقة العامة للظواهر ، واشتراط احداها الأخرى • ان الحديث عن هذه المقولات امر لا بد منه لتعميق بحث قوانين الديالكتيك الأساسية •

٢ : - العلاقة المتبادلة بين الظواهر

السبب والنتيجة

أول ما يلفت انتباهنا عند النظر الى المادة المتحركة هو العلاقة المتبادلة الشاملة بين الظواهر ، واشتراط بعضها بعضاً ، وتداخلها اللانهائي •

إن سير تطور المعرفة العلمية يبرهن على التبعية المتبادلة والعلاقة القائمة بين مختلف الظواهر ، القائمة بين جميع نواحي كل ظاهرة على حدة ، هذه العلاقة التي تنشأ عنها عملية الحركة الموحدة للجوانب في العالم كله • وقد أثبت العلم أن العالم عبارة عن كل واحد ، ترتبط أجزاؤه المختلفة ، وظواهره ، وعملياته ارتباطاً وثيقاً فيما بينها • كما أن مختلف أشكال حركة المادة يتحول بعضها إلى بعض • فالطبيعة العضوية مرتبطة بالطبيعة اللاعضوية المنشئة الأولى • وحياة الناس غير ممكنة من غير التفاعل المتبادل مع الطبيعة • والمجتمع الانساني

لا وجود له خارج الطبيعة • انه جزء خاص منها ، انه شكل خاص لحركة المادة خاضع لا للقوانين العامة فقط ، بل وللقوانين الخاصة به أيضاً • إن نواحي الحياة الاجتماعية المختلفة مترابطة فيما بينها •

وتحمل العلاقة بين الأشياء طابعاً متبايناً : فبعض الظواهر مرتبطة فيما بينها ارتباطاً مباشراً ، في حين يرتبط بعضها الآخر ببعض عن طريق الكثير من الحلقات الوسيطة • الا أن هذه العلاقة تبرز دوماً كعلاقة متبدلة ، وارتباط وتأثير متبادلين • إن العلاقة المتبادلة بين الأشياء هي علاقة شاملة ، فكل ظاهرة مرتبطة بالأخرى • يقول انجلز : « إن الطبيعة التي تضمنا تؤلف بمجملها منظومة ما ، تؤلف مجموعة ما في العلاقات بين الأجسام • ونقصد هنا بكلمة « جسم » كل واقع مادي ، بدءاً من النجوم ، وانتهاءً بالذرات ، (١) •

إن المادية الديالكتيكية لاتعمل على اختراع العلاقات اصطناعياً ، بل تضع أمام العلم مهمة الكشف عنها في الواقع الموضوعي ذاته • واستيعاب الشيء يعني دراسته مع جميع علاقاته والأشياء الوسيطة التي تربطه بغيره •

السيبية هي أحد أشكال القانونية العامة للعلاقات القائمة بين الظواهر • والعلوم جميعها ، عندما تدرس الظواهر ، تحاول كشف أسباب نشوئها وتطورها والتغيرات التي تطرأ عليها ثم موتها • فمعرفة الظواهر والعمليات هي ، قبل كل شيء ، معرفة أسباب نشوئها وتطورها • والانسان عندما أوجد مفهوم « السبب » و « النتيجة » ، إنما عزل هذه أو تلك من نواحي العملية الموضوعية الموحدة • « ولا بد لنا ، من أجل فهم الظواهر كلاً على حده ، من اقتلاعها من العلاقة العامة ، ثم درسها بشكل منعزل • وفي هذه الحال تبرز أمامنا الحركتان المتعاقبتان ، الأولى باعتبارها السبب ، والثانية باعتبارها النتيجة » (٢) •

السبب والنتيجة عبارة عن مفهومين متناسبين • فالظاهرة التي تستدعي

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٤٥ •

(٢) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٤ •

نشوء ظاهرة أخرى ، تبرز ، بالنسبة اليها ، كسبب • وحصيلة أثر السبب هي النتيجة • والسببية هي هذه العلاقة الضرورية بين الظواهر ، التي لا بد ، في وجودها ، من أن تنشأ واحدة عن الأخرى • فتسخين الماء ، مثلاً ، سبب تحوله إلى بخار ، لاننا في كل مرة نسخن الماء تحدث عملية تشكل البخار •

لقد تكوّن مفهوم السبب والنتيجة أثناء سير عملية النشاط الاجتماعي ومعرفة العالم • فعرف الانسان ، مثلاً ، بواسطة العمل ، أن الاحتكاك يولد الحرارة •

وتتمتع مقولتا السبب والنتيجة بأهمية كبرى • فيهما يعكس التفكير أهم قانونية للعالم الموضوعي • ومعرفة هذه القانونية ضرورية لنشاط الناس العلمي • فاذا عرف الانسان ، المجتمع ، أسباب نشوء الظواهر أمكنه التأثير عليها ، وتجديدها افتعالياً ، واستدعاءها إلى الحياة ، أو اتقاء نشوئها •

ولكي نقضي على شر ما أو نتقي حدوث كارثة ما (من مرض وقحط وحرب عدوانية الخ •••) لا بد ، أولاً ، من معرفة سبب ظهوره • ان جهل السبب الذي ينتج الظاهرة يجعل الانسان عاجزاً ، ضعيفاً ، أمام الظواهر ، أما معرفته به فتتيح للانسان والمجتمع إمكانية العمل عن علم ومعرفة •

إن السبب يسبق النتيجة زمنياً ويستدعيها • ولكن هذا لا يعني أن كل ظاهرة سابقة تكون في صلة سببية مع الظاهرة اللاحقة • فالليل سابق للنهار ، ومع هذا فليس هو سبباً للنهار • لا ينبغي الخلط بين العلاقة السببية وبين التوالي الزمني للظواهر • فالانسان المؤمن بالخزعات يميل الى الاعتقاد بأن الحرب إنما مبعثها ظهور مذنب أو كسوف شمسي سابق لها ••• الخ •

كما لا بد من التفريق بين السبب والذريعة • فالذريعة هي الحادث ، الذي يستبق استباقاً مباشراً ، حادثاً آخر ، ويطلق عنان ظهوره ، ولكنه لا يولده • والعلاقة بين النتيجة والذريعة موجودة ولكنها ظاهرية وغير جوهرية • كان تقديم لحم متفسخ في الحساء لبحارة المدمرة « باتومكين » ذريعة لانتفاضتهم في حزيران عام ١٩٠٥ • وكان سبب الانتفاضة تفاقم التناقضات بين الشعب وبين

النظام القيصري المتفسخ ، وتعاضم الروح الثورية في الجيش والأسطول • أما تقديم اللحم المتفسخ للبحارة فقد كان ذريعة ، كان دافعاً للانتفاضة ، الا أنه لم يرتبط بالانتفاضة الأخرجياً ، الا بشكل عضوي • فلو لم يكن هذا الحادث لكان غيره باعثاً على الانتفاضة •

إن العلاقة السببية للظواهر تتسم بطابع الشمول والعموم • فكل ظواهر العالم وكل التبدلات تنشأ في أعقاب تأثير السبب • ولا وجود لظواهر من دون أسباب • ان الانسان ليتعرف الى الصلة السببية للظواهر تعرفاً متبايناً بدرجة دقة • وقد لانعلم حتى الآن أسباب بعض الظواهر إلا أن هذه الاسباب موجودة موضوعياً • فالطب مثلاً لم يتمكن بعد من معرفة سبب الأمراض السرطانية ، إلا أن هذا السبب قائم ولا بد ان يكتشف في نهاية المطاف • بالامكان إعطاء تعاريف مختلفة للسببية ، وأن تكون لدينا افكار متعددة عن قبول هذه الصيغة الرياضية لقانون السببية أو تلك • الا أن هذا ليس هو الأمر الذي يفرق بين المادية والمثالية في فهم السببية •

إن السببية هي محل صراع بين المادية والمثالية ، لأن كلاً منهما ترجع مصدر معلوماتنا عن السببية الى شيء يختلف عن الشيء الذي ترجعه إليه الثانية • الماذية تعترف بالعلاقة السببية للظواهر ، وتعتبر هذه العلاقة موضوعية مستقلة عن إرادتنا ووعينا ، كما تعترف بانعكاس هذه العلاقة في دماغ الانسان انعكاساً صحيحاً إلى هذا الحد أو ذاك • أما المثالية فهي اما أن تنكر العلاقة الشرطية السببية لجميع ظواهر الواقع ، أو تستتج السببية لامن العالم الموضوعي ، بل من الوعي ، من العقل •

ان الفكرة القائلة بأن جميع ظواهر العالم مشروطة ببعضها ، سببياً ، تعبر عن قانون السببية • والفلاسفة الذين يعترفون بموضوعية هذا القانون ، وشمول أثره جميع الظواهر يدعون بالديتيرمينيين^(١) • اما الفلاسفة الذين

(١) نسبة الى ديتيرمينيزم (من الكلمة اللاتينية Determinare يحدد) وهو المذهب الذي

يقول بوجود شرطية سببية شاملة بالنسبة لجميع الظواهر •

ينكرون هذا القانون فيدعون باللاديتيرمينيين • ويتطلب هذا القانون تفسيراً علمياً طبيعياً لجميع الظواهر ، دون اللجوء الى تفسير ظواهر الطبيعة والمجتمع بقوى خارقة تكمن في ما وراء الطبيعة • وعلى هذا فالسببية المادية لاترك مكاناً لهذه القوى والمعجزات ••• الخ •

يذكر تاريخ الفلسفة بعض الفلاسفة الذين نفوا وجود العلاقة السببية الموضوعية وعلى رأسهم « هيوم » الذي يصيب ، عندما يقول بأن معرفتنا بالعلاقة السببية بين الظواهر تتأتى عن طريق التجربة • ولكنه يخطئ عندما يكمل تسلسل أفكاره ، كما يخطئ في فهم التجربة بالذات • إنه يفهم التجربة على انها نتاج الاحساسات الذاتية ولا تحتوي على أي مضمون موضوعي • اننا نلاحظ في التجربة أن الظواهر تسير واحدة إثر أخرى • ولكن « هيوم » يقول : ١ - ليست لدينا أية أسس للقول بأن الظاهرة اللاحقة هي نتيجة للسابقة • ٢ - وليست لدينا أية أسس لاستنتاج شيء ما للمستقبل بناء على تجربتنا السابقة والحاضرة • وهذا يعني أن العلاقة السببية (في رأي هيوم) هي العلاقة المعتادة بين الاحساسات فقط ، والتنبؤات التي تبنى على أسسها ليست إلا توقعاً لهذه العلاقة • إن تجربتنا الماضية تعطينا الحق في أن نتوقع تولد الحرارة نتيجة الاحتكاك ، ولكن ليست لدينا ، ولا يمكن أن تكون لدينا أية ثقة في موضوعية هذه العملية (اي تولد الحرارة) وضرورتها • وهكذا نرى أن العلاقة السببية ، في رأي « هيوم » ، ليست الا علاقة متوالية ، محددة ، بين الاحساسات والأفكار •

بيد أن المادية الديالكتيكية تؤكد ، باعتمادها على معطيات العلم ، أن البرهان على موضوعية السببية إنما هو الممارسة العملية • يقول انجلز : « يمكن لتعاقب ظواهر معلومة من ظواهر الطبيعة تعاقباً منتظماً ، ان يولد فكرة عن السببية ، كالحرارة والنور الناشئين مع ظهور الشمس • الا أنه لا وجود هنا ، بعد ، للبرهان • ولو اعتبرنا هذا برهاناً لكامت ريبية « هيوم » محقة في تأكيدها بأن « الشيء الذي يتكرر بانتظام بعد شيء ما لايمكن أبداً أن نعتبر

أن سبب ظهوره هو هذا الـ « شيء ما » ؛ إلا أن نشاط الانسان هو الذي يتحقق من وجود السببية .

فإذا مركزنا ، بمساعدة مرآة مقعرة ، حزمة من الأشعة الشمسية ، وحصلنا منها على النتائج التي نحصل عليها من مركزة إشعاع نار عادية (أي على الحرارة) نكون قد أثبتنا بأن الحرارة منبعثة عن الشمس .

ان الواقع القائم على ان وجود الأسباب لا ينتج ، دائماً ، النتائج المتوقعة ، لا يدحض السببية الموضوعية ، بل ، على العكس ، يؤكدها . فالضغط على زناد البندقية لا يؤدي ، دائماً ، الى اطلاق النار . ولكن هذا الحادث لا يطعن في موضوعية السببية ، بل ينهنا الى وجود سبب آخر (كرتوبة البارود أو عطل الكبسولة ... الخ) .

ولم يكن « كانت » على وفاق مع « هيوم » في أن السببية ليست غير العلاقة الاعتيادية للاحاساسات . فهو قد اعترف بوجود السببية ، ولكن لا في العالم الموضوعي ، بل في عقلنا المدرك . ان التجربة ، في رأيه ، لاتعطينا علاقة سببية ، لأن السببية موجودة بشكل سابق للمحاكمة ، ومخلوقة مع العقل المدرك ، وعلى أساسها ترتبط الادراكات المختلفة في المحاكمة العقلية .

وقد كرر الماخيون والوضعيون والكاتبون الجدد نظريات « كانت » و « هيوم » عن السببية في ألوان مختلفة ^(١) . يقول ماخ : « لا وجود ، في الطبيعة ، للسبب ولا للنتيجة » و « جميع اشكال قانون السببية ، تنشأ عن توقعات ذاتية » (أي من صنع البشر انفسهم) .

(١) لقد تبني « راسل » فكرة هيوم عن السببية معتقداً أن مفهوم السبب تعميم سابق للعلم لا يخلم الا كدليل بسيط على الفعل . وينحصر الفارق بين « هيوم » و « راسل » فيما يتعلق بفهم السببية في أن « راسل » لا يعتبر أن قانون السببية يعتمد على العادة ، كما يعتبر « هيوم » ، بل انه يعتمد على الثقة الحيوانية (البدائية) التي توطدت توطداً عميقاً في اللغة . يقول « راسل » : « ان الثقة في السببية الخارجية لنوع معين من التجربة انما هي بدائية ، وملازمة ، بمعنى معين ، لسلك الحيوان (راسل : « المعرفة الانسانية ، ١٩٥٧ ص ٤٨٩) . ان قانون السببية لا يعكس ، من وجهة نظر المثاليين ، أية علاقات موضوعية ، بل يعبر فقط عن التعاقب الزمني في تبدل الاحساسات .

وحاول « ايدينغتون » ، الفلكي الفيزيائي ، البرهان على صحة اللاديتيرمينية في خطاب له عن « افلاس الديتيرمينية » • فكان يعمل على اقناع مستمعيه بأن القضاء على الديتيرمينية ليس ابتعاداً عن الطريقة العلمية ، بل يزيد في عمق ودقة تحليل الظواهر المبحوثة (١) • ترى هل يأتي « ايدينغتون » ببراهين ما جديدة في صالح اللاديتيرمينية ؟ أبداً • انه لا يفعل اكثر من اجترار ما قاله « هيوم » منذ زمن بعيد • لنستعرض خط سير محاكمته • يقول « ايدينغتون » بأن جميع النتائج التي نحصل عليها على أساس الاحساسات ، إنما تعود الى برهة ما زمنية سابقة • فنحن ، مثلاً ، نتقصى ، بطرق كيميائية ، تركيب ملح ما • ان النتيجة التي تتوصل اليها إنما تعود ، من حيث الأساس ، لا لهذا الشيء المعين (الملح) ، بل للشيء الذي كان موجوداً قبل القيام بعملية التحليل • أي أننا انطلقنا من النتيجة الى السبب ، ونحكم من الحاضر على الماضي ، وهو أمر لا ينبغي ، في زعمه ، فعله • فإذا كان « هيوم » قد دحض وجود القانونية ، وخاصة السببية ، باعتبار أنه ليس بالامكان استنتاج المستقبل من الحاضر والماضي ، فإن نظرات « ايدينغتون » هي نظرات « هيومية » من وجه آخر : انه ينكر القانونية في الطبيعة لأنه ليس بالامكان في رأيه استنتاج الماضي من الحاضر •

صحيح أننا عندما نستنتج الماضي من الحاضر قد نتعرض للوقوع في أخطاء ، شأن كل استنتاج فكري • فعند القيام بتحليل كيميائي لمادة ما يمكن أن تستنتج أن العنصر « أ » ناتج عن المادة « ك » ، في حين انه ناتج عن مادة أخرى لم نأخذ دورها في التفاعل بعين الاعتبار • بيد ان الممارسة العملية كفيلة بتصحيح هذه الأخطاء ، وهي تتيح الكشف المؤكد عن المواد التي يتأتى منها هذا العنصر أو ذاك • فالتجارب العديدة تؤكد لنا ، مثلاً ، أن الصوديوم والكلور ينتجان ، كيميائياً ، عن ملح الطعام • كما أن هذه الممارسة العملية تجعلنا نتحقق أيضاً من صحة نتائج المحاكمات المنطقية ، المتعلقة بتوضيح العلاقات السببية •

(١) ايدينغتون : « انحطاط الديتيرمينية » واشنطن ١٩٣٣ ص ١٤٩ •

يصر الفلاسفة المثاليون العصريون على اسقاط كلمة « السبب » من المفردات الفلسفية ، زاعمين أن السببية ولي زمانها ، شأنها شأن النظام الملكي . وهم يستبدلون قانون العلاقة الوظيفية بقانون السببية . فلا ينبغي ، لهذا ، انقول بأن الظاهرة « أ » تولد الظاهرة « ب » ، بل ان « أ » ، و « ب » مرتبطتان احدهما بالأخرى ، و « أ » ترافق « ب » ، دائماً ، سابقة ايها أو لاحقة لها .

إن مفهوم الوظيفة ، أو العلاقة الوظيفية ، هو أحد المفاهيم الأساسية في العلم . وهو يعكس العلاقة القائمة موضوعياً بين الظواهر . فاذا كان لدينا عددان س و ع ، وكان العدد ع يغير مقداره كلما تغير مقدار العدد س ، وفق قاعدة معينة ، أمكننا أن نقول ان هذين العددين موجودان في تبعية وظيفية . العدد ع هو وظيفة بالنسبة الى العدد س ، حسب المعادلة التالية :

$$ع = و (س)$$

ويكون أحد هذين العددين متغيراً تابعاً ، والآخر مستقلاً (غير تابع) . فالطريق المقطوع ، مثلاً ، هو وظيفة بالنسبة الى الزمن ، ولهذا فعندما نتحرك بسرعة معينة تزداد المسافة المقطوعة مع ازدياد الزمن .

يذهب بعض فلاسفة البرجوازية ، ولا سيما ممثلاً المدرسة الكاتية الماربورغية الجديدة (ناتورب ، وكاسيرير) الى تعميم المفهوم الرياضي عن العلاقة الوظيفية ليشمل جميع العلاقات في الطبيعة والمجتمع ، بعد تأويله تأويلاً مثالياً . انهم يذيون السببية ، كعلاقة موضوعية للظواهر ، في مفهوم من مفاهيم المنطق المحض ، وهو مفهوم العلاقة بين المقادير ، أو مفهوم العلاقة بين المفاهيم والاحساسات ، كما يفعل بعضهم .

صحيح أن العلاقة بين السبب والنتيجة يمكن ان تصورها في شكل تبعية وظيفية : فالنتيجة هي وظيفة بالنسبة الى السبب . ولكن هذا يطمس الأمر الأساسي في السببية ، يطمس أن السبب ، كظاهرة حقيقية ، يولد ويشترط النتيجة ، كظاهرة حقيقية ثانية . ففي شكل العلاقة الوظيفية يمكن أن تصور انواعاً جد مختلفة من التبعية ، بينها التبعية الخارجية ، والقليلة الأهمية ، وحتى

التعسفية • ان المثالي يذيب السببية في التبعية الوظيفية بحجة ان العلم لا يهتم
كيف تنشأ الظواهر ، كما لا يهتم ان كان لها سبب للوجود أم لا ، بل يهتم
فقط وجود علاقة فيما بين الظواهر (أو المقادير) يمكن التعبير عنها بمعادلة
معينة • بيد أن هذه النظرة غير صحيحة •

ان بعض المثاليين يستبدلون العلاقة المنطقية بين الأساس والنتيجة بالعلاقة
السببية • بيد انه لا بد من التمييز بين علاقة الظواهر السببية ، وبين علاقة
الأساس والنتيجة • فالأساس ، في المنطق الصوري ، هو الفكرة التي تنشأ عنها
فكرة أخرى • فقولنا بأن « حرارة الغرفة عادية » ناشئ عن فكرة ثابتة تقول
بأن ميزان الحرارة يشير الى الدرجة ٢٠ • فدلالة الميزان هذه ليست سبباً
للحرارة العادية في الغرفة ، بل هي أساس للوصول الى النتيجة التي اتهمنا
اليها عن حرارة الغرفة • فالسببية اذن ليست هي العلاقة بين الأفكار في المحاكمة
المنطقية ، بل هي تلك العلاقة التي تربط الظواهر الحقيقية بعضها ببعض ،
وتجعل أحداها تستدعي الأخرى • إن العلاقة المنطقية للأفكار في محاكمتنا
(أي علاقة الأساس والنتيجة) هي انعكاس علاقات الأشياء في الواقع ، بما في
ذلك انعكاس العلاقة الشرطية السببية بين هذه الأشياء • لا شك أن الفرق بين
السبب والأساس لا يعني ، اطلاقاً ، انعدام السببية في نطاق التفكير ، وأن ما يعمل
هنا هو من العلاقات المنطقية المحضة فقط ، وأن مبدأ السببية في التفكير يتخلى
عن مكانه لمبدأ الأساس الكافي^(١) • الواقع هو أن كل فكرة مشروطة سببياً •

إن معرفة العلاقة السببية الواقعية تستخدم أساساً لنشاط الناس العملي •
فاذا عرفنا الأسباب ، وأثرنا عليها أمكننا خلق الظواهر التي يريدها المجتمع ،
أو عرقلة نشوء الظواهر الضارة به ، أو اللامرغوب بها ، والنضال ضدها •
لقد تعرض مبدأ السببية لهجوم بعض الفيزيائيين الأجانب الذين
يؤكدون أن الفيزياء العصرية تدحض الفكرة القائلة بأن جميع الظواهر لها

(١) مبدأ الأساس الكافي ، قانون في المنطق يعتبر ان لكل ظاهرة اسبابا وان بعض هذه الاسباب
أساسية وكافية للاعتراف بوجود الظاهرة •

سبب وجودها ، وأن معرفتنا لهذه الأسباب ولشروط عملها تجعلنا نحدد النتائج التي تنشأ عنها . وفي رأيهم ان العمليات التي تحدث في نطاق صغيريات الذرة تخلو من علاقة سببية شرطية ، ذلك أن أي صغيرة ، كالأليكترون مثلاً ، لا تخضع لقانون السببية ، هي تتقي طريق حركتها بحرية وسط امكانيات كثيرة .

بيد أنه لا وجود ، في الواقع ، لأية حادثة تدحض السببية في عالم ظواهر الصغيريات ، ولا يمكن أن توجد . ان الفيزيائيين الذين ينكرون قانون السببية في هذه الظواهر يعتمدون ، عادة ، على التناسب اللامحدّد . ولكن هذا التناسب لا يدعو إلى نفي السببية في ظواهر عالم الصغيريات . إن قانون السببية لا يؤكد سوى ان جميع الظواهر مشروطة سببياً . أما كيف تبرز السببية في بعض الظروف الحسية ، وهل بالامكان أن تحدّد ، في وقت واحد ، وبدقة متناهية ، سرعة الصغيريات واحداثياتها ، فهذا شيء آخر . وحله يتطلب أخذ الخصائص الحسية للأشياء بعين الاعتبار . ففي عمليات الأجسام الكبيرة يمكن تحديد وضع الأجسام وسرعتها في وقت واحد ، أما في عالم الصغيريات فلا يمكن ذلك . إن تحديد وضع الصغيريات وسرعتها ، في وقت واحد ، وبدقة متناهية ، أمر غير ممكن . وهذه القانونية التي اكتشفها الفيزيائيون في مجال حركة الأجسام المتناهية في الصغر لا يمكن أن تدخل في نطاق مفهوم السببية ، الذي كان سائداً في العالم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ودخل التاريخ تحت اسم « الديتيرمينيسم اللابلاسي » (نسبة للعالم الفرنسي لابلاس) .

إن شكل الديتيرمينية اللابلاسي ، أي شكلها الميكانيكي ، الناشئ على أساس دراسة الحركة الميكانيكية للأجسام الكبيرة ، يفترض امكانية معرفة الاحداثيات والسرعة ، معرفة دقيقة ، في وقت واحد . ولكن دراسة العمليات الذرية تصطدم بخصائص الصغيريات الخاصة (فالأليكترون يتمتع ، في وقت واحد ، بخصائص كوربوسكوليارية^(١) وخصائص تموجية) . ولهذا لايمكننا هنا أن

(١) أي جزئيات الصغيريات من جسم ما .

تطبق مفهومي الاحداثيات والسرعة الموضوعين أصلاً للأجسام الكبيرة بنفس المقدار الذي نطبقهما في هذه الأخيرة •

تزودنا الفيزياء الحديثة بمعطيات عملية غنية تؤيد شمول قانون السببية ، والأشكال العديدة لظهوره • فنستطيع ، مثلاً ، اذا عرفنا زاوية اصطدام الاليكترون والبوزيترون (علماً بأنهما يتحولان ، في شروط معينة ، الى فوتونين) ، وسرعة حركتهما ، أن نحدد ، سلفاً ، اتجاه حركة الفوتونين الناشئين عن هذا الصدام • أفليس هذا دليلاً على النسبية في عالم ظواهر الجسيمات ؟ لو لم يعمل قانون السببية في هذا العالم ، لو أن حركة الصغريات جرت كما يحلو لها ، وبشكل تعسفي ، لانتج الاليكترون والبوزيترون ، في ظرف ما ، فوتونين ، وفي ظرف آخر فوتوناً واحداً أو بروتونين • إلا أن العمليات في عالم الجزئيات تخضع لقوانين معينة ، ولها تتابع محدد • فكيف يمكن الحديث عن التعسف في حركة الصغريات « الأولية » عندما يتحرك الفوتونان المتكونان في ظروف معينة ، في اتجاه معين ، يمكن التنبأ به سلفاً بعد معرفة زاوية الصدام وسرعة الحركة ؟

لقد دافع الماديون ، قبل ماركس وانجلز ، عن الطابع الموضوعي للعلاقة السببية بين جميع ظواهر الواقع ، وصاغوا أساسه • الا أنهم اقتضروا في بحثهم على الشكل الميكانيكي للسببية ، الذي يبرز السبب فيه ، دائماً ، كسبب خارجي بالنسبة الى النتيجة •

إن القول بأن سببية الشكل الميكانيكي لحركة المادة هي الشكل الوحيد لقانونية علاقة الظواهر في العالم ، يؤدي الى فهم السببية فهماً ميتافيزيكياً • والواقع أن أشكال العلاقة السببية متعددة الوجوه • فالسببية في البولوجيا ، مثلاً ، ليست هي السببية في الميكانيك والفيزياء والكيمياء • كما أن طابع السببية في ظواهر الحياة الاجتماعية اكثر تعقيداً منه في المجالات الأخرى •

لقد تمكنت المادية الديالكتيكية من التغلب على المفهوم الميتافيزيكي الضيق للسببية • فأظهرت أن الرابطة بين السبب والنتيجة تحمل طابع التأثير المتبادل :

فليس السبب فقط هو الذي يؤثر على النتيجة مولداً اياها ، بل ان النتيجة ايضاً تؤثر على السبب تأثيراً فعالاً ، وتبدله • وفي عملية التأثير المتبادل يتبادل السبب والنتيجة مكانيهما • « فالأمر الذي نعتبره الآن ، أو هنا ، سبباً ، يصبح ، هناك ، أو في وقت آخر ، نتيجة ، والعكس صحيح »^(١) • فتطور الرأسمالية في روسيا ، مثلاً ، كان سبباً في القضاء على حق القناة ، الا أن القضاء على حق القناة هذا ، كان ، بدوره ، سبباً لتطور الرأسمالية التالي •

ان التأثير المتبادل بين السبب والنتيجة يعني تأثير احدهما على الآخر تأثيراً متواصلاً ، مما يؤدي الى حدوث تبدل في السبب والنتيجة • فالعلم والانتاج ، مثلاً يتطوران نتيجة التأثير المتبادل لكل منهما على الآخر ، تأثيراً متواصلاً : فالتبدل الذي يطرأ على الانتاج سبب تبدلات أساسية في العلم • والاكتشافات العلمية تؤدي الى تطوير التكنيك والتكنولوجيا في الانتاج • إن التأثير المتبادل يبرز كسبب داخلي (كسبب ذاتي) لتبدل ظواهر الواقع • والعالم ، باعتباره عبارة عن تأثير متبادل بين مختلف الظواهر ، ليس بحاجة ، من أجل حركته وتطوره ، الى أية دفعة أولى ، الى أية قوة غيبية خالقة • ولهذا اعتبر انجلز « هيغل » مصيباً في ذهابه الى ان التأثير المتبادل هو السبب النهائي الحقيقي لجميع الأشياء ، ومعرفتنا لا يمكن أن تتجاوز حد التبادل المتبادل •

صحيح أن القوى والعوامل المتفاعلة فيما بينها ليست ذات اهمية واحدة • والعلم مجبر على اكتشاف الأسباب المحددة الحاسمة ، في منظومة القوى التي تتبادل التأثير •

إن الظواهر المحيطة بالأسباب والنتائج المتفاعلة فيما بينها تؤثر على هذه الاسباب والنتائج • ومجموع تلك الظواهر يدعى بالشروط • بعض هذه الشروط يساعد على ولادة النتائج ، وبعضها يعطل عمل الأسباب • ان معرفة الاسباب وشروط عملها تمكن الانسان من التنبؤ بالعمليات وتوجيهها • فتحطيم ذرة من الاورانيوم يمكن ان يؤدي ، تبعاً للظروف ، اما الى انفجار قوة جبارة ،

(١) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ٢٢ •

واما الى توليد الطاقة توليداً بطيئاً • وهو أمر يستخدم في نشاط الناس العملي •
فالإشعاعات التي يولدها التفكك اللانفجاري تستخدم في الطب وعلم الاقتصاد
الزراعي وفي غير ذلك من الأبحاث •

ان ظاهرة واحدة يمكن نشوؤها من أسباب مختلفة تبعاً لاختلاف
الظروف • كما أن سبباً واحداً يمكن أن يؤدي الى نتائج متباينة • فالطاقة
الهائلة الحادثة نتيجة التفكك اللانفجاري يسكن أن نحصل عليها اما نتيجة
تحطيم نواة الاورانيوم أو نتيجة تركيب نواة هيدروجين مع نواة هيليوم •

وعلى الرغم من تنوع صلات السببية المتبادلة بين الظواهر، فانها لا تستنفذ
كل غنى الصلات المقنونة في العالم • يقول لينين : « ليست السببية ، كما نفهمها
عادة ، غير جزء يسير من العلاقة التي تربط بين ظواهر العالم • بيد أنها ليست
جزء من علاقة ذاتية بل من علاقة موجودة موضوعياً » (١) • وترتبط الظواهر
فيما بينها بمختلف الصلات من زمانية ، ومكانية ، وتلازمية ••• الخ وهذه
الصلات مرتبطة مع السببية دون أن تكونها •

٣ : - القانون باعتباره صيغة للعلاقة الجوهرية بين الظواهر

الوحيد ، والخاص ، والعام

لقد درسنا من قبل قانون السببية وأهميته • فما هو القانون ، وما هي
العلاقات التي تسم بالقنونة ؟

إن القانون ، بأوسع معناه ، هو علاقة محدّدة ضرورية بين الأشياء
والظواهر والعمليات ، تنتج عن طبيعة هذه الأشياء الداخلية ، عن جوهرها •
ومفهوم القانون هو إحدى درجات معرفة الإنسان لوحدة ظواهر العالم
الموضوعي وعلاقتها ، وتبعيتها المتبادلة • وقد تكون هذا المفهوم في اعقاب تطور
العلم والفلسفة خلال تاريخها الطويل •

(١) لينين : « الدفاتر الفلسفية » ص ١٣٦ •

ليست كل علاقة بين الظواهر قانوناً . القانون هو تلك العلاقة الداخلية التي تحمل طابعاً جوهرياً ، إنه الامر الجوهري في حركة الظاهرة . ومفهوما القانون والجوهر هما من طينة واحدة ، ومرتبة واحدة . فقانون « منديليف » مثلاً ، يكشف عن العلاقة الداخلية الجوهرية القائمة بين وزن العنصر الجوهري ، أو ما يسمى الآن بشحنة النواة الذرية ، وبين خواصه الكيميائية . وعندما نقول الجوهر ، فانما نعني العلاقات الداخلية الثابتة . ان الجوهر ، كأمر داخلي ، ينتصب قبالة ناحية الواقع الخارجية المتغيرة . وعندما نقول بأن الظاهرة عبارة عن الجانب الخارجي ، وان الجوهر هو الجانب الداخلي ، لا نعني تقابل الجانبين مكانياً بل تقابلهما من حيث اهميتهما في تحديد صفات الشيء .

ثم ان القانون عبارة عن علاقة ضرورية بين الظواهر . والعلاقات المقنونة تعمل ، في شروط معينة ، بشكل الزامي ، وبقوة محدّدة بالضرورة . فقانون سقوط الاجسام الذي اكتشفه « غاليليه » يعتبر قانوناً لأنه ينطبق لا على جسم واحد فقط ، بل على الاجسام كلها . وهو لا يعتمد على الصدفة ، أو على زمن معين . فالأجسام كلها ، وفي أي زمن كان ، تسقط بالضرورة على الأرض بتسارع قدره 9.8 م/ث^2 . والقانون لا يمكنه الا أن يعمل فيما اذا توفرت الشروط اللازمة لعمله⁽¹⁾ .

إن العلاقات المقنونة هي نتاج السببية الشرطية للظواهر . فلو لم تكن

(1) ان الاصطلاحين : قانون وقنونة ، يعبران عن علاقات من طينة واحدة ، ولذلك فهما غالبا ما يستخدمان بمعنى واحد . الا أن هناك فارقاً ما في استعمالهما . فالقانون هو الكلمة المعبرة عن العلاقة الضرورية الحسية القائمة بين الظواهر ، مثلاً قانون القيمة القائمة على أساس العمل ، القائل بأن قيمة السلعة تحددها كمية العمل الضروري اجتماعياً لانتاجها ، أما كلمة قنونة فتستخدم ، قبل كل شيء للتعبير عن انتظام الظواهر المتكررة وتواليها . فنجد ، مثلاً ، في تعاقب فصول السنة تكراراً منتظماً : الخريف يتلو الصيف ، والصيف يتلو الربيع . الخ . في هذا التوالي والانتظام تبثدي القنونة ، كما تبثدي في ظاهرتي الخسوف والكسوف الدوريين . ثم ان لفظ القنونة يستعمل ايضاً للدلالة على عدم عفوية الظاهرة المعنية . ان الماركسية تعلم ان تطور المجتمع عبارة عن عملية ضرورية مقنونة بدقة . هنا لا نشير ، بشكل حسي ، الى قانون معين بذاته ، بل نلاحظ وجود علاقة ضرورية ، فالقنونة نراها هنا كعملية ضرورية مشروطة بأسباب معينة ، وفي هذه العملية يمكن أن يعمل لا قانون واحد ، بل مجموعة كاملة من القوانين .

الظواهر مشروطة سببياً لما تمكنا من الحديث عن القنونة • هل كان بالإمكان توفر توال دقيق في فصول السنة لو لم تكن هنالك أسبابه : أي حركة الأرض حول الشمس ، وميل محور الأرض نحو سطح مدارها ؟

بيد أن السببية لا تستنفذ العلاقات المقنونة كلها • انها ، كما رأينا ، ليست غير جزء من العلاقة المتبادلة الموضوعية ، ذات الأشكال المتعددة التي يكشفها العلم لنا •

ان أهمية العلاقة المقنونة وضرورتها يحددان خصائص القانون الأخرى • فالقانون هو الأمر العام في الظواهر • وهذا يعني أن العلاقة الضرورية المحددة ، المعبر عنها بالقانون لاتخص ظواهر منفردة وحيدة ، بل تخص جميع الظواهر أو العمليات التي هي من هذا النوع • فقانون الطبيعة أو قانون المجتمع سمي قانوناً لأنه يعبر عن أمر عام : عن أن توفر شروط وأسباب معينة يؤدي ، بالضرورة الحتمية ، في كل مكان وزمان ، الى نشوء ظواهر ، ونتائج معينة • إن قانون الجاذبية الشامل يعبر عن خاصية ملازمة لجميع أشياء الطبيعة بلا استثناء • كما يعبر قانون (بويل - ماريوت) عن خاصية لاتلازم الغازات كلها ، بل الغازات المتخلخلة الموجودة في ظروف بعيدة عن حالة التحول الى سوائل • بيد أن هذا القانون يعبر عن الخاصة الجوهرية للغازات • إن العلاقة التي ينشئها هذا القانون تحمل ، بالنسبة الى هذه الظروف ، طابع الضرورة ، وهي شاملة للغازات المذكورة لأن الغازات عندما توجد في مثل هذه الظروف تنشأ بين حجمها وضغطها علاقة دقيقة معينة •

ودرجة شمول القوانين تقل او تكثر تبعاً لاتساع حلقة الظواهر التي تشملها هذه القوانين • فهناك قوانين تعمل في جميع الظواهر الطبيعية (كقانون حفظ الطاقة وتحولها) ، كما توجد قوانين تخص بعض اشكال حركة المادة (كالشكل البيولوجي مثلاً) • ثم ان القوانين الاجتماعية متباينة في درجة عموميتها : بعضها يعمل في جميع التشكيلات ، وبعضها لا يعمل الا في تشكيلات معينة • ومهمة الفلسفة دراسة اكثر القوانين عمومية وهي القوانين التي تعمل في الطبيعة والمجتمع والتفكير •

والقانون ، باعتباره أمراً عاماً شاملاً ، لا يوجد خارج الظواهر والعمليات
••• الخ المنفردة ، وبمعزل عنها ، بل انه موجود فقط في صلة معها •

إن صفة الشمول هي الصفة العامة الموجودة موضوعياً ، والمشاركة بين
اشياء واقعية • وتتجلى هذه العمومية المشتركة في وحدة خصائص هذه الأشياء
ووحدة سماتها وشاراتها • ونحن نعني بكلمة وحيد أو منفرد ، تلك الأشياء
والظواهر والعمليات والحوادث الواقعة في الطبيعة والمجتمع ، ولكن بعد أخذ
كل واحدة على حدة • ويمكن أن تبرز مجموعة كاملة من الأشياء والظواهر
كشيء وحيد عندما تنظر إليها بالنسبة الى مجموعة أخرى أكثر منها شمولاً ،
ومرتبطة بصفات مشتركة معينة •

والى جانب مقولتي العام والوحيد يعالج العلم مفهوم الخاص ، الذي
يبدو حلقة الوصل بين العام والوحيد • إن الخاص هو عام بالنسبة الى الوحيد ،
أما بالنسبة الى العام فهو وحيد • القمح ، مثلاً ، وحيد ، والحبوب ، خاص ،
والنبات عام • فالحبوب ، كخاص هي عامة بالنسبة الى القمح ، ووحيدة بالنسبة
الى النبات •

وتباين نظرة الاتجاهات الفلسفية الى العام وعلاقته بالوحيد يتباين هذه
الاتجاهات • فالمثالية الموضوعية تذهب الى جعل العام أمراً مطلقاً : انه سابق
للوحيد وخالق له • الى هذا ذهب « هيفل » عندما قال : « العام هو أساس
الوحيد وجذره ، ومادته »^(١) • وهو يعتبر أن الثمرة على العموم ، والمعدن
على العموم ، يوجدان بشكل مستقل وسابق للثمار والمعادن الوحيدة •

وهناك فلاسفة آخرون يذهبون ، على العكس ، الى نفي موضوعية العام ،
والى الاعتراف بالوجود الواقعي للوحيد فقط • وهم ينظرون إلى العام كنتيجة
لنشاط فكر الانسان • فيقول « لوك » ، مثلاً ، « ان العام والشامل لا يخصان
وجود الاشياء الواقعي » بل هما من وضع العقل واختراعه للاستخدام الخاص ،

(١) هيفل : « المؤلفات » الجزء ، عام ١٩٤٩ ، ص ٢٨٣ •

وهما لا يخصان الا القوانين ، والكلام ، والأفكار «^(١) . أما الوضعيون والفينوميناليون^(٢) فيأخذون بوجهة النظر القائلة بأن العام يعبر عن أمر غير موجود ، ولا يمكن ان يحدث في الواقع .

إن المثالية الموضوعية، شأنها شأن الفينوميولوجيا والوضعية تفصل كلها فصلاً متافيزيكياً بين العام والوحيد ، مما يؤدي إما الى أفكار صوفية عن القوة الخلاقة، والقدرة على فعل كل شيء ، اللتين يتصف بهما العام ، وإما الى النظرة المثالية الذاتية التي تنظر الى العام (بما فيه قنونة الطبيعة والمجتمع) كنتيجة لابتداع الوعي الانساني .

أما الديالكتيك المادي فهو يعترف بموضوعية الوحيد والعام ، وبأنهما يوجدان بشكل لا ينفصل أحدهما فيه عن الآخر . وقد لاحظ لينين « ان المنفرد لا يمكن أن يوجد الا في العلاقة التي تؤدي إلى العام . والعام لا يوجد الا في المنفرد ، ومن خلاله . وكل منفرد هو ، (على هذا الشكل أو ذاك) ، عام . وكل عام هو (جزء أو ناحية أو جوهر) للمنفرد . كل عام يشمل ، تقريباً فقط ، الاشياء المنفردة كلها . وكل منفرد يدخل ، بشكل غير كامل ، في العام الخ . ثم إن كل منفرد مرتبط بآلاف المسالك بنوع آخر من المنفردين»^(٢) .

تظهر صلة الوحيد بالعام في كل مكان . فالكيميائي ، عندما يقوم بدراسة عنصر من العناصر ، كالهيدروجين مثلاً ، انما يحدد علاقة هذا العنصر بالعناصر الأخرى . إنه يجد أن الهيدروجين عبارة عن غاز . فالعام (الشكل الغازي) لا يوجد الا في الوحيد (هيدروجين ، او كسجين ، آزوت . . .) . والعام هو احد خواص الوحيد (الهيدروجين) ولا يستنفذ جميع غنى الشيء . الهيدروجين ، شأن أي وحيد آخر ، يتمتع بعدد لا يحصى من الخواص . إذ أن الظاهرة الوحيدة ذات خواص عامة تشترك بها مع الظواهر الأخرى ، وأخرى خاصة تخصها وحدها ، وتميزها عن غيرها من الظواهر . وهكذا فالعام والخاص

(١) جون لوك : « حول الفكر الانساني » ١٨٩٨ ص ٤٠٨ .

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء العشرون ص ١٨٢ .

موجودان في الظاهرة في ترابط وثيق • ولا تمكن معرفة العام الا عن طريق
دراسة ومقارنة عدد كبير من الأشياء الوحيدة • فالمعرفة هي الارتقاء من
الوحيد الى العام عبر الخاص •

وفي سير التطور الموضوعي يمكن للوحيد أن يتحول الى عام ، يمكن أن
تصبح الظاهرة الوحيدة قنونة عامة للتطور • والانتقال من الوحيد الى العام
عبر الخاص يمكن أن يُرى ، في المجتمع ، في مثل تطور أشكال القيمة •
فشكل القيمة البسيط (فيه تجد قيمة السلعة الوحيدة تعبيرها في قيمة سلعة
وحيدة أخرى) كان الشكل البدائي للتبادل ، عندما كان هذا التبادل يحمل
طابع أفعال وحيدة وعرضية • ومع تطور المجتمع أصبح التبادل أكثر انتظاماً،
وانتقل شكل التبادل البسيط الى شكل أكثر تطوراً ، واصبحت قيمة السلعة
تجد تعبيرها في قيم عدة سلع تقوم بدور المعادل • وفي النهاية انتقل التبادل من
أفعال وحيدة الى عمومية ، وظهر شكل القيمة العام :اي ان السلع كلها اصبحت
تبادل على أساس سلعة واحدة هي المعادل العام (النقد) • إن الشكل البسيط
للقيمة ، وشكلها المتطور ، وشكلها العام ، تلعب ، بالنسبة الى بعضها ، دور
الوحيد ، والخاص ، والعام •

ان فهم العلاقة المتبادلة ، والانتقال المتبادل بين الوحيد والخاص والعام ،
يتمتع بأهمية معرفية وعملية كبيرة • وهو يساعد أيضاً على النضال ضد الجمود
العقائدي ، وضد التحريفية ، في تقدير ظواهر الحياة الاجتماعية •

المحرف يتجاهل العام في الظواهر ، عندما يجعل الوحيد والخاص
مطلقين • ولكن كل وحيد يتضمن ، كعنصر، العام الذي يوجد بشكل حقيقي •
ان الظواهر الوحيدة موحدة بالقنونة العامة التي تتوجب معرفتها من اجل فهم
تطور الظواهر وتوجيهها عملياً • وتعرفنا الماركسية اللينينية على القنونات العامة
لحركة السير نحو الاشتراكية • وتنحصر مهمة الأحزاب الشيوعية، في مختلف
البلدان ، في تطبيق الحقيقة العامة الكامنة في الماركسية اللينينية تطبيقاً خلافاً
على الظروف الموضوعية لكل بلد على حدة • مثل هذا الجمع بين العام والوحيد،

هو الذي يؤدي إلى فهم الواقع ، علمياً ، ويؤمن الادارة الصحيحة في القضية
الجبارة قضية تحويل المجتمع اشتراكياً •

الجامد عقائدياً لا يلتفت إلا الى العام في الظواهر المختلفة ، ويتجاهل
الوحيد أو الخاص ، النوعي • وهو بهذا ، يحاول حشر الظواهر كلها ضمن
إطار واحد ، متجاهلاً الشروط الخاصة لتطور الظواهر في هذا البلد أو ذاك ،
وفي هذا الزمن أو ذاك ، والوضع الحسي لهذا التطور ، وخواصه النوعية •
وبدون معرفة هذه الخواص لا يمكن فهم فعل القنونات العامة • إن الجامد
عقائدياً ، إذ يلم بالصيغ التي يعبر بها عن العام ، لا يلتفت إلى تطبيق هذه الصيغ
على الوضع الحسي المتبدل • وفي مطلب المعالجة الحسية هذا يستقر جوهر
متطلبات الطريقة الديالكتيكية • ويؤدي تجاهل خواص الوحيد والخاص إلى
تشويهات وأخطاء فادحة • فكيف يمكن بناء الاشتراكية في وطن ما دون أخذ
خصائصه النوعية بعين الاعتبار (من تاريخ وتقاليد وخصائص قومية •• الخ)؟

لقد أعطى الحزب الشيوعي السوفيتي ، بنشاطه ، صوراً عن الفهم
الصحيح لقضايا العام والخاص ، وعن حلها الموفق • ويعتبر برنامج الصورة
المشرقة لمثل هذا الفهم الديالكتيكي • فهو ، إذ ينطلق من الأفكار الأساسية
للماركسية اللينينية ، يقوم بتحليل حسي للظروف الراهنة ، ويحدد طرق
حركة مجتمعنا نحو الشيوعية •

وبما أن القانون يعكس العام في الظواهر ، لا جميع خصائصها ، فإن
الظاهرة الوحيدة تظل أغنى من القانون • فقانون الثورة الاجتماعية الذي يبين
حتمية انتقال المجتمع ، في درجة من درجات تطوره ، الى تشكيلة اقتصادية
أخرى ، لا يستنفذ كل غنى محتوى الثورات الاجتماعية ، في الأزمان والأوطان
المختلفة • وكل ثورة اجتماعية منفردة أغنى من هذا القانون ، وأكثر تنوعاً •

ان القانون هو الأمر القوي ، الوطيد ، المتكرر ، المتماثل ، في الظواهر •
والظواهر هي متشابهة ومتباينة في آن واحد • وبالامكان ، دائماً ، وجود ناحية
أو أكثر تتشابه بها أشياء الواقع المغرقة في تباينها • ان الديالكتيك ينكر تماثل

الظواهر المطلق ، ولكنه يعترف بوجود التماثل النسبي (تماثل الظواهر في بعض الخواص والنواحي) •

أما الفلاسفة اللاديتيرمينيون فينكرون موضوعية القنونات • وهم يعتبرون أن الظواهر لا تتحدد بالأسباب والضرورة ، بل ترتبط بالآلهة «بالعقل الأعلى» ، بالارادة أو الأهداف • ورغم تباين اشكال هذه المدرسة ، فهي تؤدي ، في نهاية المطاف ، الى استبدال النظرة الدينية بالنظرة العلمية • يقول لينين : « إن تجريد العلم من القوانين ، ليس هو ، عملياً ، غير الاصاق التسري للقوانين بالديانة » (١) •

يذهب اللاهوت صراحة الى أن جميع ظواهر الطبيعة انما نشأت وتتحرك بارادة خارجة عن الطبيعة ، كما أن النظام في العالم مبعثه هذه الارادة • وهذه النظرة الدينية يدعو اليها الفلاسفة المثاليون ، على اختلاف ألوانها • هكذا نرى « المذهب الشخصي » مثلاً ، وهو أحد ألوان الفلسفة الحديثة ، ينطلق من أن الاساس الأول للكون إنما هو « الفرد الاعلى » ، « خالق العالم » ، الآلهة ؛ وليست قوانين الطبيعة والمجتمع إلا مظاهر لارادة آلهة •

ثم إن الكاتنين أيضا ينكرون الطابع الموضوعي للقنونة • وهم يعتبرون أن قوانين الطبيعة إنما هي من صنع عقلنا المدرك • وفي الطبيعة ذاتها ، في عالم الظواهر ، لا توجد مفاهيم الضرورة ، والجوهري ، والعام ، لأن التجربة لاتدلنا على وجودها • ومحاكماتنا عن العالم الخارجي تكتسب طابع العمومية ، لأن في أساسها ، على حد قولهم ، تكمن مقولات عقلنا المدرك العامة السابقة للوجود •

أما النظرة المثالية القائلة بأن العقل يملئ القوانين على الطبيعة فهي منتشرة انتشاراً واسعاً في الفلسفة الوضعية • هكذا يقول الماخي « بيرسون » : « إن القانون ، بمعنى الكلمة العلمي ، هو ، من حيث الجوهر ، نتاج الروح الانسانية ، وليس له أي معنى خارج الانسان • وهو مدين بوجوده للمقدرة الخلاقة التي

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء العشرون ص ١٨٢ •

يملكها العقل المفكر • ومن الأصوب التأكيد بأن الانسان يعطي الطبيعة القوانين ، لا العكس ،^(١) •

ويؤكد الفيلسوف « فيتغنشتين » ، وهو من أنصار الفلسفة الوضعية الجديدة ، أن قانون السببية ليس له من القانون إلا شكله • إنه اسم مجانس للقانون ، لا تعبيراً عن العلاقة الموضوعية للظواهر • « وحوادث المستقبل لا نستطيع استنتاجها من حوادث الحاضر • والايمان بالصلة السببية ليس إلا من باب الاعتقاد بالخرافات » • إن المحاكمات التي يطلق عليها العلم اسم القوانين ليست ، في زعم هؤلاء ، إلا جملاً لغوية ، وهي لا تعكس سلوك الأجسام المادية ذاتها ،^(٢) •

إن الفلاسفة المثاليين ، إذ ينفون موضوعية القوانين ، يحاكمون أحياناً كما يلي : القانون عبارة عن الأمر الجوهرية في الظواهر • إلا أن الانسان ذاته ، في الواقع ، عندما ينطلق من متطلباته ، يجعل من بعضها أمراً جوهرياً ، ومن الأخرى غير جوهرية • ويتساءل البراغماتي « شيلر » كيف يمكن ان نعرف ، إذن ، ما هو جوهر الانسان ؟ إن اللاهوتيين يذهبون الى أن الأمر الجوهري في الانسان هو في أن له روحاً • أما الطبيب فيذهب إلى أن الأمر الجوهري فيه هو في أن له جسماً ، والطباخ في أن له معدة ، والغسالة في أنه يلبس ثياباً^(٣) • فاذا انطلقنا من وجهات النظر المختلفة هذه ، وجدنا أن جميع الأمور المذكورة جوهرية بالنسبة إلى الانسان ، بنفس القدر الذي هو جوهري فيه كسبه للنقود • إن الجوهري بالنسبة إلى الشيء ذاته لا نستطيع معرفته ، كما أن وضع القضية عن جوهر الشيء يدعى أنه لا معنى له • وما دمنا لانعترف بالجوهر الموضوعي ، فلا يمكن أن نعترف بالقنونة الموضوعية أيضاً •

بيد أن جوهر الشيء ، في الواقع ، لا يتحدد حسب رأي الناس ،

(١) ك • بروسون « قواعد العلم » ١٩١١ ص ١١١ •

Tractatus Logico - Philosophicus

(٢) ل • فيتغنشتين :

لندن ١٩٤٩ ص ١٠٩ •

(٣) شيلر : « المنطق الصوري » لندن ١٩١٢ ص ٥٤ •

ومصالحهم العملية • فالإنسان ، مثلاً ، شأنه شأن أي موضوع آخر للمعرفة يتمتع بالعديد من النواحي والخواص التي تثير اهتمام الباحث • ولكن أي اهتمام كان لا يحدد جوهر الإنسان • وليس بالامكان فهم هذا الجوهر الا اذا أوضحنا خصائصه التي تميزه عن عالم الحيوان • آنذاك يتبدى أن الإنسان يتمتع بنوعية جوهرية تميزه عن غيره من الأحياء ، هي أنه يصنع أدوات الانتاج ، ويعمل • لذا فان جوهر الإنسان يتحدد بمجموعة من العلاقات الاجتماعية المحددة تاريخياً •

صحيح أن الشيء يخضع لتأثير قوانين كثيرة ، لأنه يوجد في إطار علاقات عديدة مع غيره من الأشياء • إن فروع المعرفة العلمية ، المختلفة ، تدرس القوانين المختلفة التي يخضع لها جسم ما بذاته • فالكيميائي يهتم بالماء من حيث تركيبه الكيميائي وتفاعله مع الأجسام الأخرى ، في حين يهتم الفيزيائي به من نواح أخرى : يهتم بتبدل أوضاعه الفيزيائية العامة ، بنقله للحرارة ، والكهرباء • الخ • لهذا فالكيمياء والفيزياء تكشفان عن قوانين مختلفة تعمل في جسم واحد • إلا أنه لا الكيمياء ولا الفيزياء بخالقة للفنونة ، بل هي تدرسها • وتوفر قنونات عديدة لجسم واحد ، لا يمكن استخدامه، حجة للدلالة على ذاتية هذه القنونات وتبعيتها للإنسان ومتطلباته وتفكيره •

ثم إن قوانين الطبيعة والمجتمع لا تتبدى بشكلها البسيط ، بل تتعقد عند ظهورها بسبب ظروف عديدة • فمفعول هذا القانون أو ذاك يصطدم بعدد وافر من القوى والميول المتعاكسة التي عليه أن يشق طريقه من خلالها • فالقانون الاقتصادي الرأسمالي ، مثلاً ، القائل بميل معدل الربح الى الهبوط ينتج عن التضاؤل النسبي لتوظيف الرسمال المتحول بالنسبة الى الرسمال الثابت • وينشأ هذا التضاؤل ، بدوره ، عن التقدم التكنيكي ، وعن تعاضم بنية الرسمال العضوية • ومع هذا ، فان هبوط معدل الربح لا يبرز الا كميل مسيطر ، نظراً لأسباب كثيرة •

والقول ذاته يمكن قوله في قانون افتقار الشغيلة في ظل الرأسمالية

ذلك أن مفعول هذا القانون معارض بمفعول قانون آخر ، هو قانون نضال البروليتاريا الطبقي ، وكذلك تنافس النظامين : الرأسمالي والاشتراكي • ولهذا لا يتبدى قانون افتقار البروليتاريا بشكل واحد في البلدان المختلفة • إن نهب شعوب المستعمرات ، وعلف الارستقراطية العمالية في الوطن الأم على حساب هذه الشعوب ، يؤثران أيضاً على عدم تساوي مفعول قانون افتقار البروليتاريا •

ويعمد بعض المثاليين الى استبدال الغائية بالقنونة الموضوعية في الطبيعة والمجتمع ، معارضين القانون بالهدف معارضة ميتافيزيكية • وقد وجدت ، حتى في الفلسفة اليونانية القديمة ، نظرة تذهب إلى أن الظواهر كلها إنما تنشأ من أجل غاية نهائية ما ، من أجل سبب غائي مستقل ، في رأيها ، عن الأسباب المؤثرة • وهي تزعم أن نشاط الناس ، وحياة المجتمع ، وجميع الحركات في الطبيعة ، إنما تتحدد بهذا الهدف ، بهذه الغاية • كما أن الكون ذاته قد نظم من أجل هدف سام ما (الآلهة) • ان هذا التفسير لظواهر الكون ، المنطلق من الأهداف النهائية التي تنحو إليها خواطر الطبيعة ، حسب زعم أصحابه ، يسمى « تيليولوجيا » •

لقد نشأت « التيليولوجيا » كتبرير اللاهوت • واشترك الفلاسفة المثاليون ورجال اللاهوت في صياغة برهان تيليولوجي – فيزيائي لاثبات وجود الآلهة • ويذهب انصار هذا البرهان إلى إن غائية تنظيم الطبيعة ، وما يتصف به هذا التنظيم من عقلانية ، إنما هما شاهدان على عقلانية السبب الذي أوجدها ، اي شاهدان على وجود كائن مفكر ، عاقل ، هو الاله • ويقول الفيلسوف الألماني « لينيتز » بوجود انسجام وتوافق في العالم أوجدهما الاله مسبقاً ، وعالمنا ذاته هو أحسن العوالم الممكنة •

وقد سخر الشاعر الألماني « هايني » ، في كتابه « رحلة عبر غارتس » من « التيليولوجيا » التي تذهب الى أن كل شيء في الطبيعة مكون بشكل محكم

وغائبي إلى حد أن الأشجار هي خضراء لأن اللون الأخضر مفيد للمعين وأن
الاله أوجد الحيوانات القرنية لأن الحساء باللحم يقوي الانسان ، كما خلق
الحمير ليستخدمها الناس للمقارنة ، وخلق الانسان نفسه ليأكل الحساء باللحم
وحتى لا يكون حماراً » •

لقد انتقد الماديون هذه النظرة التيليوولوجية • فعارضها ديموقريط ،
وأبيقور ، ولوكريطس ، وبيكون ، والماديون الفرنسيون وغيرهم ، بمبدأ
السببية الشرطية في ظواهر الطبيعة • في حين عارضها ماديو القرنين السابع
عشر والثامن عشر بفهم السببية ميكانيكياً مما أدى الى محدودية المادية
المتافيزيكية • هكذا فسروا كناية الجلد الذي يحفظ جسم الانسان ، بتقلص
المسامات تحت تأثير الهواء البارد • وكان عدم تطور علم البيولوجيا لايتيح
تفسير حوادث الغائية النسبية في الطبيعة الحية ، تفسيراً صحيحاً •

أما المادية الديالكتيكية فهي ، بدحضها النظرة التيليوولوجية عن العالم ،
أعطت تفسيراً عقلانياً ، صحيحاً ، للهدف ولعلاقته بالقنونة الموضوعية • إن
الطبيعة لا تضع أهدافاً • صحيح أننا نصطدم ، في العالم العضوي بما يسمى
بالغائية ، وتلاؤم النبات والحيوان مع الوسط المحيط ، والاعضاء مع بعضها ،
بالبنية « الغائية » للأعضاء • هكذا يغير بعض الحيوان لون جلده حسب فصول
السنة • فالأرنب أبيض في الشتاء ، ورمادي في الصيف • إلا أن التلاؤم « الغائي »
ليس هو النشاط الواعي الموجه من أجل هدف معين • فلا الحيوان ولا النبات ،
من باب أولى ، بواضع لذاته أي هدف كان • وليست « الغائية » ، في العالم
العضوي ، أكثر من التلاؤم مع الوسط ، وهذا التلاؤم نتيجة مقنونة لتأثير
العوامل الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية ، العضوي •

لقد أعطى « داروين » تفسيراً صحيحاً « للغائية » في الطبيعة ، وأبان
نسبية ووحداية جانب البنية الغائية في الكائنات الحية • إن التلاؤم الذي اكتسبه
الحيوان والنبات مع الوسط لم ينشأ إلا كنتيجة لمبدأ الاصطفاء الطبيعي الذي
يقول بأن كل ما لا يتلاءم يموت في معركة الصراع من أجل البقاء • فتلاؤم

النبات والحيوان الغائي انما هو نتيجة العلاقة المتبادلة بين الكائن الحي وظروف وجوده . وهو يتصف بالنسبية ، ويفقد معناه اذا ما اقتلع من هذه الظروف الحسية . إن اللون الأبيض ذو غاية ونافع للأرنب في ظروف الشتاء ، ولكنه يصبح مضرّاً إذا لم تغط الأرض بالثلج .

إن المادية الديالكتيكية ، إذ تنتهج الديتيرمينية بدقة ، لا تستبعد الأهداف ولا حرية فعل الانسان . وفضلاً عن ذلك ، فإن النظرية الديتيرمينية هي ، وحدها ، التي يمكنها أن تعطي التقدير الصحيح الدقيق لدور الهدف ، ونشاط الناس المتوجه لئوال هذا الهدف . وفي الطبيعة تتبادل التأثير قوى عمياء غير واعية ، وتتبدى القوانين العامة من خلال التأثير المتبادل لهذه القوى . ليس في الطبيعة أهداف واعية . أما المجتمع فيتطور نتيجة عمل الناس المتمتعين بالوعي ، والذين يرسمون أهدافهم .

إن الانسان لا يحدث التغيرات في الطبيعة بمجرد وجوده ، بل إنه يجبر الطبيعة ، بعمله ، على خدمة أهدافه . وقد جعل المثاليون خاصة نشاط الانسان هذه مطلقة ، وفصلوا الهدف الواعي لنشاط الانسان عن القنولت الموضوعية الناشئة عن النشاط ، وعمموا مفهوم الهدف على الطبيعة .

إن الاهداف التي يضعها الانسان أمامه في نشاطه العملي يمكن أن تتلاءم ، أو أن تتعارض مع قنونات العالم الموضوعي . وكلما تعرف الانسان على قوانين الطبيعة والمجتمع تعرفاً أدق ، استطاع أن يضع أهدافاً أكثر صحة ، وقائمة على أسس علمية .

هكذا نرى أن هدف نضال البروليتاريا الثوري هو إقامة نظام عادل ، إقامة الشيوعية ، على أنقاض الرأسمالية . هذا الهدف لنضال البروليتاريا الطبقي مشروط سببياً . إنه ناتج عن قنونات تطور المجتمع الموضوعية التي عرفها الانسان .

وعندما تُستخلص أهداف الانسان من قوانين تطور العالم المادي التي

اكتشفها ، يصبح نشاطه العملي من أجل تحقيق الأهداف ناجحاً • وعلى هذا ، فإن معرفة القوانين تتيح للانسان إمكانية التنبؤ بالنتائج القريبة والبعيدة لتدخله النشيط في سير العملية الطبيعي • أما اذا قامت أهداف الانسان على معرفة العلاقات السطحية الالاجهرية ، فقط ، فإن نشاطه العملي يمكن أن يتعثر • إن وضع الهدف بشكل علمي صحيح ، والانتقاء الصحيح لوسائل تنفيذها ، يمكنان الناس ، من استخدام القوانين الموضوعية لفرض سيطرتهم على قوى الطبيعة والمجتمع •

وهكذا ، فالاعتراف بطابع القوانين الموضوعي لايعني اطلاقاً عجز الانسان أمام قوى الطبيعة والمجتمع • والجبرية بعيدة عن المادية الديالكتيكية بعد الذاتية عنها • صحيح أنه لايمكن القضاء على قوانين الطبيعة والمجتمع ، ولكن هذا لايعني أن الناس عاجزون عن تغيير الشروط التي تنشأ على أساسها هذه القوانين أو تلك ، وبالتالي ، لايعني انهم عاجزون عن تغيير مفعول القوانين ذاتها • وهكذا ، فمع القضاء على شروط وجود المجتمع الرأسمالي يبطل مفعول قوانين الرأسمالية • وبدلاً من هذه القوانين تنشأ ، على أساس الشروط الجديدة الناشئة ، قوانين جديدة ، هي قوانين الاشتراكية •

ويختلف الشكل الذي يتبدى فيه القانون ، تبعاً لاختلاف الظروف • إن قوانين واحدة يمكن أن تظهر على أشكال مغرقة في التباين • فهناك قوانين طبيعية خالدة ، ولكن شكل ظهورها يتباين بتباين الشروط • يقول إنجلز : « إن القوانين الطبيعية الخالدة تتحول أيضاً ، أكثر فأكثر ، إلى قوانين تاريخية • فكون الماء سائلاً بين درجتي الصفر والمائة سنتغراد ، هو قانون أبدي طبيعي ، ولكن حتى يعمل هذا القانون لابد من توفر ١ : - الماء ، و ٢ : - الحرارة المعينة ، و ٣ : - الضغط العادي • ليس للماء وجود في القمر ، ولا تحتوي الشمس منه غير عناصره المكونة له • لهذا ، فالقانون المذكور لا وجود له في الجرمين السماويين المذكورين » (١) •

(١) إنجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ١٨٩ •

ثم إن كثيراً من القوانين الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية لاتعمل إلا في شروط الأرض فقط • أما في الأجرام السماوية الأخرى ، حيث تتوفر ظروف متباينة ، فتعمل قوانين أخرى • وإذا « رغبتنا بالحديث عن القوانين الطبيعية الشاملة ، المطبقة بشكل واحد على جميع الأجسام ، بدءاً من الضباب وانتهاءً بالإنسان ، فلن نجد لدينا غير قانون « الثقل » ، ولربما أمكن إيراد أعم صيغة لنظرية تحول الطاقة ••• إلا أن هذه النظرية ذاتها تتحول ، إذا ما طبقت بالتوالي ، على جميع ظواهر الطبيعة ، إلى تصوير تاريخي للتغيرات الجارية واحداً بعد آخر في أية منظومة عالمية منذ نشوئها إلى فنائها • أي أنها تتحول إلى تاريخ تسيطر ، في كل مرحلة من مراحلها ، قوانين أخرى ، أي أشكال أخرى لظهور الحركة الشاملة ذاتها • وهكذا ، نجد أنه ما من شيء يحوز معنى شاملاً مطلقاً سوى أمر واحد هو الحركة •

هكذا نجد أن عمل القوانين مرهون بشروطها • كما أن أشكال ظهور هذه القوانين تتبدل حسب الظروف الحسية المتباينة • إن الانسبان الذي يحيط بالقوانين وبأشكال ظهورها العديدة ، يستطيع تبديل الظروف واستخدام القوانين في حاجاته العملية • أنه يستطيع لجم القوى العفوية في الطبيعة والمجتمع ، والسيطرة عليها • كما يستطيع خلق بعض شروط عمل القانون ، والقضاء على الأخرى ، حاصلًا ، بذلك ، على نتائج متباينة • والأهمية العملية لمعرفة قوانين الطبيعة والمجتمع من قبل الإنسان ، تستقر في السيطرة على هذه القوانين ، وفي استخدامها لصالح المجتمع وأهدافه ، وفي السيطرة على قوى الطبيعة والمجتمع ، وتوجيهها توجيهاً نافعاً يتفق وأهداف الإنسان •

بيد أن الاحاطة بقوانين الطبيعة والمجتمع ، واستخدامها استخداماً عملياً ، يصطدمان بصعوبات جمة • إن القانون لاتستطاع رؤيته ، ولا يمكن لمسها ، وهو لا يدرك بالحواس المباشرة • إن قوانين الميكانيك السماوي ليست مكتوبة ، كما يقال ، في السماء • واكتشاف القانون هو نتاج عملية طويلة ، نتاج عملية النشاط التجريدي للتفكير الانساني ، أي نتيجة عملية المعرفة •

يشتمل العلم على مفهوم يدعى بـ « القنونة الاحصائية » التي لا تعمل ، الا ، بالنسبة إلى مجموعة من الظواهر ، ولا تطبق على كل من عناصر هذه المجموعة ، بمفرده ، كالقنونة الديناميكية . في هذه القنونة الاحصائية التي تعمل بالنسبة الى كتلة من الظواهر توجد صفة عامة ما مشتركة بين هذه الظواهر بشكل فوضوي . هذه القنونة تتبدى ، ويمكن أن تظهر ، في عدد كبير من الحوادث ، في جملة كبيرة من الوقائع . إن تجميع عدد كبير من الحوادث ، من الظواهر الوحيدة ، يؤدي الى اختفاء الانحرافات العرضية الى هذه الجهة أو تلك : فالعرضيات تبتلع بعضها وتتوازن فيما بينها . مثال ذلك أن مجموع قيم السلع يتوافق ومجموع أسعارها . لكن هذه القنونة لا يمكن أن تظهر في كل سلعة بمفردها ، إذ أن سعرها يكون ، تارة ، اعلى ، وتارة ، أخفض من قيمتها . يقول لينين : « من الطبيعي تماماً ، ان لا تظهر القنونة في مجتمع منتجي السلع المبشرين ، والمرتبطين ببعضهم عن طريق السوق فقط ، الا بشكل قنونة متوسطة ، اجتماعية ، بشكل قنونة جماعية ، بعد القضاء المتبادل على الانحرافات الفردية في هذه الناحية أو تلك »^(١) . وشييه بذلك أيضاً ضغط الغاز على جدار الوعاء . هذا الضغط يخضع لقنونة معينة ، وله مقدار ثابت . إلا أن حركة كل جزيء على انفراد تحمل طابعاً عرضياً داخل الوعاء . ولا يمكن التنبؤ بدقة عن اتجاه حركة كل جزيء من الغاز في الوعاء ، بمجرد الاعتماد على معرفة القنونة الاحصائية .

إن القانون الاحصائي يتمتع بجميع دلائل القانون : من موضوعية ، وضرورة ، وشمول . وهو يطبق على مجموعة من نوع واحد ، ويعبر عن الارتباط الجوهرى الضرورى بين الظواهر . ولا بد ، لكشف القنونة الاحصائية من دراسة عدد كبير من الصدق . ويوجد « قانون الاعداد الكبرى » المبرر عن ديكالكتيك العلاقة بين الضرورة والصدفة . هذا القانون يذهب إلى أن المفعول الكلي لعدد كبير من العوامل العرضية يؤدي إلى نتيجة لا تتعلق بكل حادثة على انفراد .

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢١ ص ٥٠ .

ويلاحظ بين الفلاسفة وعلماء الطبيعة الاجانب ميل الى فصل القنونة الاحصائية عن الديناميكية . ويتبدى هذا الفصل ، قبل كل شيء ، في التأكيد على أن الظواهر الخاضعة للقنونة الاحصائية ، غير خاضعة لأية قنونة ديناميكية ما . فقوانين الميكانيك الكوانتي لاتحمل أي طابع إحصائي . لهذا فسلوك الإليكترون الفرد لايتحدد بأية قنونة موضوعية ، كما يقول الفيزيائيون اللاديتيرمينيون .

بيد أن القنونة الاحصائية لاتعني اطلاقاً أن الظاهرة الواحدة من المجموعة لاتخضع ، على العموم ، لأية قوانين موضوعية . إن حركة كل وحدة على انفراد من وحدات المجموعة ، في هذا الاتجاه أو ذلك ، وابتعادها الى هذه الناحية او تلك ، انما هو امر مشروط سببياً . فسعر سلعة ما يمكن أن يكون أعلى كثيراً من قيمتها ، وهو ارتفاع مرتبط بأسبابه كالطلب الكبير ، مثلاً ، وانعدام المراحة في ظرف معين .

ليس في العالم من ظواهر تخضع اما لقنونة احصائية فقط أو لقنونة ديناميكية فقط . ففي كل ظاهرة يتشابك مفعول الكثير من القوانين المختلفة . ذلك أن الظواهر توجد في علاقات عديدة مع ظواهر أخرى : فهي ترتبط مع بعض الظواهر بقنونة احصائية ، في حين ترتبط مع بعضها الآخر بقنونة ديناميكية . والقنونة الديناميكية لاتنفي القنونة الاحصائية ، وهذه لاتنفي تلك . فحركة جزيء الغاز ، في الوعاء ، مثلاً ، مرتبطة مع الجزيئات الأخرى بقنونة إحصائية . الا أن هذا الجزيء بالذات ، بالإضافة الى الجزيئات الموجودة في الوعاء تخضع للقنونة الديناميكية التي تحدد وضع الوعاء في المكان . هكذا نرى أن علاقة الظواهر ، المقامة إحصائياً ، مشروطة سببياً .

٤ : - الضرورة والمصادفة

إن التطبيق الصحيح لمبدأ الديتيرمينية مرتبط بالحل الصحيح لقضية العلاقة بين الضرورة والمصادفة . فاذا لم تتوضح هذه العلاقة لا يمكن فهم عمل القوانين الموضوعية .

لقد قيل من قبل إن العلاقات المقنونة مشروطة موضوعياً ، وضرورة

وجوهريّة • الضروري هو ما ينشأ عن الجوهر ، عن العلاقة الداخلية للأشياء ، ولا بد له من أن يحدث • أما المصادفة فهي عكس الضرورة ، وتتصف بأنها غير ثابتة ، وغير مرتبطة ، داخلياً وضرورياً ، بجوهر العملية • فالظاهرة التصادفية يمكن أن تكون وألا تكون ، يمكن أن تحدث هكذا ، أو على شكل آخر • الضرورة لها سبب في ذاتها ، أما المصادفة ففي غيرها • فظفر النظام الاجتماعي الجديد ، الاشتراكية ، مثلاً ، هو ظاهرة ضرورية نشأت عن التطور الاجتماعي السابق كله • إنها لا بد وأن تحدث في العالم كله • وسبب هذه الظاهرة مستقر في القنونة الداخلية لتطور المجتمع • والمصادفة هي أن تنتقل بذرة نبات ما إلى مكان ما لم يكن يبذر فيه هذا النوع • المصادفة هي أن تجد هذه البذرة هناك الشروط الملائمة لنموها • إن سبب هذه الظواهر مستقر خارج البذار : فسير تطور البذار لا يتضمن في ذاته أسباب نقله إلى هذا المكان أو ذاك • ولا تتعلق بالبذار الشروط التي سيقع فيها ، والعوائق التي سيلقاها في مكان نموه • وليس من الضرورة إطلاقاً أن يقع البذار المعني في المكان المعين ، وأن يجد فيه الشروط الملائمة لنموه ••• الخ • وعندما تنضج بذرة نبات ما ، فإن وجوده التالي وقف على كثير من المصادفات •

يذهب الميتافيزيكيون إلى أن الضرورة والمصادفة أمران ينفي أحدهما الآخر : فالضروري لا علاقة له بالمصادفة ، والمصادفة تنفي الضرورة بشكل مطلق • أما المادية الميتافيزيكية فتتسيز بنفي المصادفة ، وبالاعتراف بسيطرة الضرورة المطلقة المحضة في الطبيعة والمجتمع • يقول ديموقريت أن كل شيء لا يتم إلا بالضرورة • « إن الناس هم الذين اخترعوا فكرة المصادفة كي يستخدموها حجة لتغطية عجزهم عن المناقشة »^(١) • أما ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون فقد اعتبروا المصادفة مقولة ذاتية • فيقول « غولباخ » : إن كل ما في الطبيعة والمجتمع والتفكير الإنساني خاضع للضرورة المطلقة • ولا يمكن وجود غير ذلك : « كل ما نراقبه ضروري ، أي أنه لا يستطيع أن يكون غير

(١) « ماديو اليونان القديمة » ص ٦٩ •

« ما هو عليه »^(١) • وأي كائن حي لا يستطيع أن يفعل غير ما هو فاعله • ولا تستطيع أية ذرة أن تتلاقى مع الأخرى مصادفة • وفي رأي « غولباخ » أن الحديث عن المصادفة يعني أننا لا نعرف قوانين الطبيعة • وقد برهن على انتفاء المصادفة بأن السببية موجودة في العالم موضوعياً ، وهي تنفي أية مصادفة • والحدث الذي نسميه مصادفة ، ليس غير ذلك الحادث الذي لم يكتشف ، بعد ، سبب وجوده • فما ان يتبدى السبب حتى تبلغ المصادفة نهايتها • من هنا نستنتج أن المصادفة هي مقولة ذاتية تعبر عن جهلنا بالشيء • وقد افترض ماديو الماضي ، خطأ ، أن الاعتراف بموضوعية المصادفة لا بد وأن يؤدي الى النظرة المثالية عن العالم ، الى اللاديتيرمينية •

إن التطرف يستدعي التطرف ، ونفي المصادفة يؤدي عملياً ، في ظروف معينة ، الى انزال الضرورة منزلة المصادفة • فقولنا بأن كل شيء ضروري بشكل مطلق ، يعادل في قوته التأكيد المعاكس القائل بأن كل الأشياء ، على حد سواء ، مصادفة • ثم إن القول بأن كل شيء ضروري ، يعني اذابة الضرورة ، كشكل خاص لعلاقة الظواهر ، في مجموعة من المصادفات • لو أن كل شيء ضروري لكان عدد أوراق شجرة معينة ظاهرة محتومة كحتمية قانون الجاذبية الشامل •

كان ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون الذين انكروا المصادفة ، يفسرون ، عملياً جميع الحوادث في تاريخ المجتمع بظروف تصادفية • يقول « غولباخ » : « علينا أن نعتقد بأنه ما من سبب ، مهما كان عليه من ضالة أو بعد ، إلا وكان له علينا ، أحياناً ، تأثير عظيم غير متوقع • فقد تتجمع في سهول ليبيا الجرداء أول رشيمات العاصفة التي يحملها الريح ، وتصل إلينا بشكل يكفهر له جونا ، ويؤثر على حالة الانسان النفسية وعواطفه • والانسان يؤثر ، نتيجة هذه الظروف الناشئة ، على كثير من الناس الآخرين ، ويقرر ، بتحكمه ، مصير الكثير من الشعوب »^(٢) • وهكذا فالظرف التصادفي (عاصفة في ليبيا)

(١) ب • غولباخ « منظومة الطبيعة » ١٩٤٠ ص ٣٥ •

(٢) ب • غولباخ : « منظومة الطبيعة » ص ٣٦ •

يمكن أن يحدد سير التطور الاجتماعي ، ويثير الحروب ، والمصائب للشعوب .
لقد رفع الماديون الفرنسيون الاسباب التصادفية إلى درجة الضرورة ، ونتيجة
لذلك ، وقعوا ، أنفسهم ، في المثالية والجبرية .

إن المادية الميتافيزيكية التي تنكر المصادفة ، تقف عاجزة في نضالها ضد
الجبرية التي تربى الناس على الخضوع أمام القوى العفوية للطبيعة والمجتمع ،
وأمام إرادة المصير الصوفي .

أما الوضعيون المعاصرون فينكرون وجود الضرورة في الطبيعة والمجتمع .
فيؤكد « فيتغيشتين » انتفاء وجود مثل هذه الضرورة التي تستدعي حدوث أمر
ما نتيجة حدوث أمر آخر . في رأيه لا توجد الا الضرورة المنطقية ، أي
ضرورة نشوء محاكمة عن أخرى . هذه الضرورة لاتعكس أية قنونة
موضوعية ، بل تنشأ عن طبيعة اللغة .

بيد أن نشاط الناس العملي يثبت وجود الضرورة والمصادفة ، موضوعياً ،
في الطبيعة والمجتمع . الا أن مجرد الاعتراف بالوجود الموضوعي للضرورة
والمصادفة أمر غير كاف . الحق أننا نستطيع التفكير كما يلي : ان الضرورة
توجد بذاتها مستقلة عن المصادفة ، وكذلك المصادفة توجد بذاتها مستقلة عن
الضرورة . بعض العلاقات والحوادث ضرورية فقط . وبعضها الآخر تصادفي
فقط . وليست للمعلم أية علاقة بالمصادفات رغم وجودها . والعلم لا يطلب
إلا بدراسة الجوهرية ، الالزامي ، الثابت . مثل هذه النظرة أخذ بها ، مثلاً ،
الميتافيزيكي « خ . فولف » .

غير أن الضرورة ، ذاتها ، تبدى عبر مصادفات لا حصر لها ، كما يتبدى
العام عبر الظواهر الوحيدة . ومهمة العلم تنحصر في الكشف عن الضرورة
والقنونة في فوضى المصادفات التي تبدى لنا . والمادية الجدلية تكشف ، بكل
عمق ، ومن جميع النواحي ، عن العلاقة المتقابلة بين المصادفة والضرورة ،
وعن انتقال الأولى الى الثانية ، والثانية الى الأولى في عملية تطور المادة . المصادفة
هي شكل ظهور الضرورة ، وهي تكملة لها . يقول انجلز : « الشيء الذي

يتأكد أنه ضرورة يتألف من مصادفات محضة ، وما يدعى مصادفة إنما هو شكل تختفي وراء الضرورة ، (١) .

لنفرض أن تاجراً صغيراً أفلس في بلد رأسمالي وأصبح بروليتارياً . إنه لأمر كثيراً ما يحدث . والتاجر ذاته يعتقد بأن الحادث مجرد مصادفة ، ولا علاقة له إطلاقاً بالضرورة . صحيح أن إفلاس هذا التاجر ، لا غيره ، أمر تصادفي . وصحيح أيضاً أن تاجراً آخر ، في مكان آخر ، وفي ظروف أخرى ، يبقى مدى الحياة محافظاً على ماله . ويمكن العثور على كثير من الظروف التصادفية التي عملت على خراب صاحبنا المذكور بالذات ، كأن يكون فتح إلى جانبه ، مثلاً ، مخزن كبير يبيع سلعه بأسعار أرخص ، مما أدى إلى فقدانه زبائنه . . . الخ . إلا أن خلف هذا الحادث التصادفي ، تختفي الضرورة اختفاءها وراء كل مصادفة . إن افلاس صغار الملاكين (من تجار ، وحرفيين ، وفلاحين) في ظروف المجتمع الرأسمالي ذي الصناعة المتطورة ، هو عملية ضرورية لا بد منها ، هي قانون الرأسمالية . وهذه الضرورة تعبد لنفسها الطريق عبر كتلة من المصادفات (افلاس صغار الملاكين الافراديين هؤلاء أم أولئك) . وبدون هذه الظواهر الوحيدة ، وبالتالي ، التصادفية بالنسبة إلى السير العام لتطور الظواهر الاقتصادية ، لا يمكن أن تظهر الضرورة الاقتصادية .

إن المصادفة ليست انعدام السببية . فكل المصادفات لها أسبابها . لقد أفلس التاجر لأن مخزناً كبيراً مضارباً فتح إلى جانبه . وعندما يوجد السبب وتتوفر شروط فعله ، لا بد من نشوء النتيجة . إن السببية هي الشكل العام لعلاقة الظواهر . إلا أن شروط عمل سبب معين يمكن أن تتوفر ، ويمكن ألا تتوفر . والأسباب ذاتها متباينة . هناك أسباب تنشأ عن المنطق الداخلي لعملية التطور ، وتبدو ، بالتالي ، ضرورية . وهناك أسباب ذات طابع تصادفي يمكن ألا يوجد لها مكان في الواقع .

إن الموت العادي في اعقاب الشيخوخة والعجز ليس أمراً تصادفياً . أما

(١) انجلز : « لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » ص ٢٨ .

موت الانسان الصحيح الجسم في أعقاب صدمة سيارة فيمكن الا يكون له مكان بين العديد من الشروط ، فيما لو أن الانسان المذكور خرج من بيته قبل دقيقة أو بعد أخرى ، أو فيما لو صادف صديقاً له ووقفاً معاً . إن المصادفة تبرز في نقطة تلاقي عدد من الظواهر المشروطة سببياً . ولكن تلاقي هذه الظواهر في هذه النقطة بذاتها ليس امراً إجبارياً ، بل هو نتيجة تجمع كثير من الظروف . وانعدام واحد منها قد يمنع حدوث تلك الامكانية .

إن المصادفة والضرورة تنتقل كل منهما ، في عملية التطور، الى الأخرى . فالحوادث الفردية لتحول الأسير الى عبد ، مثلاً ، لوحظت قبل قيام نظام الرق ذاته . ولكن هذه الحوادث لم تكن ضرورية ، كما لم تكن مميّزة ، ولم تكن ناجمة عن الحاجات الداخلية للنظام القبلي . ولكن عندما تطورت قوى الانتاج الى درجة نشأ معها انتاج المتوج الفائض ، لم يعد الاسترقاق حادثاً فردياً ، بل غدا ظاهرة عامة ، غدا علاقة اقتصادية سائدة في المجتمع القديم .

ثم إن العلم لا ينكر وجود المصادفة . ذلك لأن المصادفة موجودة موضوعياً ، والعلم مطالب بدراستها . ولكن العلم لا ينبغي ان يتوقف عند هذا . عليه أن يكتشف ، خلف المصادفات ، الضرورة والقنونة اللتين تبديان في المصادفات .

إن المصادفة ، إذ تبدو موجودة موضوعياً ، تؤثر على تطور الظواهر تأثيراً يعظم أو يقل . الناس ذوو الميول والكفاءات المتباينة هم الذين يضعون التاريخ . عندما تتضح ضرورة اجتماعية ما ، آنذاك يتوفر ، دائماً ، الناس الذين يطبقونها في الحياة . ولكن كيف ينفذون هذه الضرورة ؟ هذا الأمر يتعلق بكثير من الظروف التصادية : كمقدرة القادة ، وميولهم ، وصفاتهم ، وهم الذين يتزعمون الحركة . ان وجود هذا الشخص بالذات على رأس حركة معينة هو ، بالنسبة الى السير التاريخي العام ، أمر تصادفي . ولكن ما إن اصبح هذا الشخص على رأس الحركة المذكورة حتى يطبعها بطابعه في هذه الأحداث أو تلك ، وينال الحركة بتأثيره .

تؤثر المصادفات على حياتنا تأثيراً متبايناً • بعضها يؤثر تأثيراً سيئاً ،
وبعضها يسرع سير تطور العمليات ، وبعضها الآخر يعقد السير ويجعله يتباطأ
في حركته • وفي مختلف مراحل تطور المجتمع ترتبط حياة الناس ارتباطاً
متباين الدرجة بمصادفات الطبيعة • فحياة الرجل البدائي الاول كانت كلها ،
تقريباً ، متعلقة بمصادفات الطبيعة • وارتبط الحصول على وسائل المعيشة
كثيراً بمصادفات الظروف ، كالصيد الناجح مثلاً ••• الخ • وكانت المصيبة
العفوية الواحدة (من جفاف ، أو أمطار جارفة أو غزو •••) تستطيع ،
أحياناً ، القضاء على القبائل • ومع تطور القوى المنتجة في المجتمع ، وتطور
العلم ، تحرر الناس شيئاً فشيئاً من سلطان المصادفة •

في الاشتراكية يتمتع اناس ، لأول مرة في التاريخ ، بإمكانية توجيه
العمليات الاجتماعية ، أكثر فأكثر ، وباستخدام القوانين ، عن وعي ، في صالح
المجتمع كله • في الاشتراكية تقبض الشعوب بأيديها على وسائل الانتاج
الضخمة ، وتستخدم العلم المتزايد الاهمية ، وهي أمور تمكن من القضاء على
الآثار السيئة لكثير من مصادفات الطبيعة • في الاشتراكية تخدم معرفة قوانين
تطور الطبيعة ، وتكنيك الانتاج الجبار ، سيطرة الانسان على القوى العفوية ،
وتطبق في صالح الشعب •

٥ : - الامكانية والواقع

لكي نفهم عمل قوانين الطبيعة والمجتمع فهما أعمق ، وظهور الضرورة
عبر المصادفة ، وطرق ووسائل استخدام الانسان للقوانين الموضوعية من اجل
تحقيق اهدافه العملية ، لابد لنا من بحث قضية الامكانية والواقع ، وشروط
تحول الاولى الى الثاني ، وانتقالها إليه •

إن مقولة الامكانية تعبر عن قدرة المادة ، في عملية الحركة ، على اخذ
أشكال مختلفة • فأية ظاهرة كانت تستطيع ، في شروط معينة ، استبدال شكل
وجودها ، والانتقال ، والتحول ، الى ظاهرة أخرى (الاشكال الدنيا ، مثلاً ،

تنتقل الى العليا) • وتتحدد هذه الامكانية بأن جميع الاشياء والظواهر والعمليات توجد في حركة دائمة وتبدل متواصل ، يحدث وفق قوانين معينة مستقلة عن ارادة الناس ووعيمهم • يمكن للظاهرة أن تصبح غيرها • انها تحتوي في ذاتها ، على هذه الامكانية الموضوعية • ولكن أي اتجاه يمكن أن يأخذه تبدل شيء معين ، وأي شيء يصبحه ، كل هذا يتعلق بالشروط المعنية ، وبالظروف المعنية •

إن اهم مهمة أمام العلم ونشاط الناس العملي هي اكتشاف واظهار الامكانيات الكامنة في ظواهر الطبيعة والمجتمع ، وشروط تحولها الى واقع جديد • إن الامكانية تتحول الى واقع نتيجة الضرورة والقنونة الكامنتين في الكائن •

الواقع^(١) هو الامكانية المحققة • وهذه الأخيرة تعبر عن اتجاه الحركة المقنونة للوجود (في الطبيعة والحياة الاجتماعية) •

إن امكانية واحدة تستطيع أن تتحقق في اشكال متباينة تبعاً لتباين الظروف • فالرأسمالية تطورت في عدد من البلدان حسب الطريقة الاميركية أو البروسية ••• الخ •

ترتبط اشكال تحقق الامكانيات بعدد من الظروف (فامكانية جني محصول حسن من القمح في اي مكان كان ، في العام الجاري ، مرتبطة بالعديد من العوامل المقنونة : كنوع البذار ، وتحسين حرارة الارض وانتقاء الدورة الزراعية الصالحة) • الا أن هذه الامكانية مرتبطة بظروف تصادفية كثيرة (ككمية الرواسب ، وأيام السنة المشمسة ، والطقس في زمن الحصاد) • لهذا فعند ظهور امكانيات ما تنبغي دراسة العوامل الضرورية والتصادفية التي تحدد هذه الامكانية •

(١) ان تعبير « الواقع » يستخدم بمعنى آخر أكثر شمولا ، ويعني جميع العالم المحيط بنا ، مع جميع امكانياته المتوفرة فيه • أما هنا فاننا نعالج الواقع بعلاقته مع الامكانية •

الامكانية معاكسة للاستحالة •

إن محاولة ابراز الاستحالة ممكنة ، وابرار الممكن استحالة هي طريقة محببة لايدولوجي البرجوازية العصريين ، الذين يعملون على تفسير العالم تفسيراً إرادياً^(١) . فتجاهلهم قانون المنافسة وفوضى الانتاج ، في الرأسمالية ، يدفعهم الى القول بامكانية قيام رأسمالية « ممنهجة » « منظمة » ، لا تعرف الأزمات • إنهم في هذا يعرضون المستحيل وكأنه أمر ممكن الحدوث • ومن جهة أخرى فان أشد اوساط البرجوازية رجعية وعدوانية تنفي امكانية التعايش السلمى بين حكومات ذات أنظمة اجتماعية متباينة ، رغم انه البديل الوحيد لحرب حرارية مييدة •

لابد من معالجة الامكانية والاستحالة معالجة حسية • فالمستحيل الآن قد يصبح ممكناً نتيجة تبدل الظروف ، ونشوء قوانين جديدة • فبناء الاساس التكنيكي المادي للشيوعية في الاتحاد السوفيتي ، كان غير ممكن بعد ثورة اكتوبر مباشرة • ولكن عندما نفذ الحزب برنامجه الثاني ، وانتصرت الاشتراكية كلياً ، نشأت الظروف الضرورية للانتقال التدريجي الى الشيوعية، وخلق اساسها المادي •

إن الامكانية ، والواقع ، متعارضان نسبياً كنتاجيتين للتطور : كنقطة انطلاق ونتيجة للتطور • وبما أن التطور عبارة عن سلسلة من الأحداث ، فان كل حلقة في هذه السلسلة هي نقطة انطلاق بالنسبة الى أحد الحوادث، ونتيجة بالنسبة إلى حادث آخر •

إن النظام الاقطاعي احتوى ، في مرحلة معينة من مراحل تطوره ، على امكانية الرأسمالية ، وهذه على إمكانية الاشتراكية • وعند قيام المنظومة الاشتراكية نشأت امكانية أمام البلدان المتحررة من الاضطهاد الاستعماري ، للسير في

(١) الارادية : هي لون من ألوان المثالية ، وأنصار الارادية يذهبون الى أن الارادة هي اساس كل ما هو موجود •

طريق التطور اللارأسمالي • غير ان اشعوب هذه البلاد مطالبة بالنضال في سبيل تحقيق هذه الامكانية •

ورغم ان الامكانية والواقع يمكن ان يتحول أحدهما الى الآخر ، فلا بد من التمييز بينهما تمييزاً دقيقاً • إن اعتبار الممكن واقعاً إنما يعني الوقوع في خطأ كبير ، وجر النفس والآخرين إلى الضلال • فلو كان كل ممكن واقعاً في الوقت ذاته ، لما وجد أي تطور في الطبيعة والمجتمع • والخلط بين الممكن والواقع في السياسة يؤدي الى خطأ فاحش ، ومخادعة للنفس •

ولو أننا واصلنا محاكماتنا وفق طريقة الذاتين لاضطررنا إلى الاعتراف بأن كل شيء ممكن • ان وجود المصادفات في العالم يدفعهم إلى القول بأن كل شيء ممكن الحدوث ؛ بأن كل شيء ممكن • فاذا كانت الأرض ، اليوم ، تدور حول الشمس فمن الممكن ، غداً ، أن تدور الشمس حول الأرض • ولهذا فكل مرغوب ممكن • هذا المفهوم الذاتي للامكانية غير صحيح ، وهو يعاكس التطور الواقعي لظواهر الطبيعة والمجتمع •

لا بد لنا ، في النشاط العملي ، أن نعتمد لا على أن كل شيء ممكن (كل شيء ممكن الحدوث) ، بل على الامكانية الواقعية الناشئة عن القنونة الفعالة القائمة ، وعن الشروط الموجودة • ان وجود القنونة الموضوعية ضرورة ، ولكنه لا يكفي لنشوء هذه الامكانية الواقعية أو تلك • لا بد من شروط تسهل ظهور هذه القنونة في هذا الشكل المعين بالذات •

هنالك امكانيات مختلفة • ولا ينبغي الخلط بين نوعين من الامكانيات : الامكانية المجردة (الشكلية) ، والامكانية الحقيقية • ووجود قنونة معينة يشترط الامكانية المجردة الشكلية ، فقط ، التي لا يمكن ، في وضع تاريخي ملموس معين ، أن تتحول الى واقع لانعدام المقدمات الضرورية لتحقيقها • فامكانية أندلاع أزمة فيض انتاج اقتصادية ، مثلاً ، مستقرة في تناقضات السلعة على العموم ، في انفصال فعل البيع عن فعل الشراء ، في الزمان والمكان ، في ازدواجية السلعة الى سلعة ونقد ، في تطور وظائف النقد كوسيلة للتداول •

إلا أن امكانية ازمة فيض الانتاج ، في ظروف الاقتصاد السلعي البسيط، تحمل طابعاً شكلياً مجرداً • ورغم أنه ، في ظروف الانتاج السلعي البسيط ، يمكننا ان نبيع دون أن نشترى ، الا أن الخطر الحقيقي للازمة الاقتصادية لم ينشأ بعد • وحتى لو ان تاجراً صغيراً ما ، (او مجموعة من التجار) سبيع دون ان يشترى ، فان تأخراً محسوساً في بيع السلع لا يحدث ، والسوق لن تفيض بالسلع ، ولن يضطر المنتج الى تسريح العمال لسبب بسيط هو انهم غير موجودين لديه • إن امكانية هذه الازمة تصبح واقعاً ، في شروط المجتمع الرأسمالي ، حيث يتحول النقد الى رسمال ، ويصبح العمل مأجوراً • هنا الانتاج يحمل طابعاً اجتماعياً ، في حين تحمل الحيازة طابعاً فردياً ؛ وانفصال فعل البيع عن فعل الشراء ، وما ينشأ ، في أعقاب ذلك من إعاقه في بيع السلع ، يؤدي الى الأزمة وزعزعة المجتمع الرأسمالي : إلى اضطراب التجارة، وتقلص الانتاج ، ونمو البطالة ، وخراب صفار الملاكين ، وافلاس المؤسسات الصناعية والتجارية والمصرفية •

ويتحدث الكثيرون من الايديولوجيين البرجوازيين ، في سعيهم وراء تزيين الامبريالية ، عن غنى الامكانيات الكامنة في الرأسمالية بالنسبة الى الناس البسطاء • فهم يذهبون الى أن أي انسان في المجتمع الرأسمالي بمقدوره ان يصبح من اصحاب الملايين ، وأن ينال كل ما يريد • إلا أن هذه الامكانية شكلية محضة • والعامل ليس بحاجة الى أن يتمتع بامكانية شكلية لأن يصبح رأسمالياً ، بل هو بحاجة الى تلك الامكانية الواقعية التي تعني خلاصه من الاستثمار ، وحصوله على عمل وبيت جيد ، وغذاء وثقافة ، وتجعله سيد وطنه • وفي سبيل نجاح النشاط العملي في الواقع لابد للانسان ، والطبقة الاجتماعية الطبيعية ، من أن يكشفها الامكانية الواقعية اللازمة لهما ، وان يحدد طرق تطبيقها في الحياة ، وأن يعمل حسب هذه الطرق •

إن الامكانية ليست أمراً جامداً لا يتبدل • إن تطورها نتاج فعل القوانين • وهكذا فامكانية انتصار الثورة الاشتراكية في الدول الرأسمالية تتطور مع تطور الرأسمالية وتفاقم تناقضاتها •

إن كل قانون في الطبيعة والمجتمع لا يتجلى ، كما هو معلوم ، بتسكل صاف واضح ، بل يبدو كنزعة وميل • ومفعول هذا القانون أو ذاك بصطدم بالعديد من القوى المعارضة ، ولذلك فظواهر الواقع تخفي ، في طبيعتها ، امكانيات متناقضة ، كل منها يعتمد على نزعات معينة للتطور المقنون • ومن بين الامكانيات المتصارعة تنتصر ، في النهاية ، إمكانية واحدة ، وتتحول الى واقع • فالوضع العالمي المتوتر ، مثلاً ، الذي تخلقه الامبريالية ، يشتمل على امكانية اندلاع حرب عالمية جديدة • بيد أن هنالك ، في الظروف الراهنة ، امكانية أخرى هي اتقاء الحرب • الامكانية الاولى ناشئة عن أن الامبريالية تؤدي الى الحروب • أما الثانية فتستند الى قنونة أخرى ، هي أن الامبريالية لم تعد تشكل النظام العالمي السائد ، بل نشأت وتطورت وتوطدت دول اشتراكية ، وتبدل ميزان القوى الطبقة ، في الميدان العالمي ، في صالح الاشتراكية ، واتسعت منطقة السلام ، ونمت حركة المناضلين في سبيله • من هنا نستنتج عدم حتمية الحرب • لقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ما يلي : « بالامكان اتقاء الحرب العالمية ببذل الجهود المشتركة ، جهود المعسكر الاشتراكي الجبار ، والدول اللا اشتراكية المحبة للسلام ، وجهود الطبقة العاملة العالمية ، وجهود جميع القوى المدافعة عن قضية السلام • ان الامكانيتين المذكورتين (امكانية الحرب وامكانية اتقائها) حقيقتان ، ولكنهما متضادتان • وتحول إحدهما الى واقع يعني نفي الأخرى • ثم ان امكانية اتقاء الحرب تعبر عن الميل الأساسي للتطور التقدمي • وقواها في نمو وتكاثر • أما الامكانية الأخرى فهي تعتمد على الفئات الرجعية العدوانية في المجتمع الرأسمالي ، هذه الفئات التي تلاقى مقاومة متزايدة من جانب المدافعين عن السلام والديموقراطية •

ولكن أية واحدة من الامكانيتين القائمتين والمتصارعتين ستصبح واقعاً ؟ هذا أمر تابع لظروف عديدة • فلكي تتحول امكانية السلم الوطيد الى واقع ، ولكي تبقى الحرب الجديدة ، لابد من اليقظة ، وتنظيم قوى السلام والديموقراطية والاشتراكية ، لابد من أن تشن هذه القوى نضالاً حازماً وفعالاً موحد الجبهة ضد قوى العدوان •

وإذا لم تتوفر جميع الشروط الضرورية ، فإن الامكانية الحقيقية لا تتحول الى واقع • ان البذار يتضمن في ذاته امكانية تحوله الى نبات ، ولكن ذلك يتطلب بذره في وقت معين من السنة ، وفي أرض محروثة ، كما ينبغي توفر الحرارة والرطوبة المناسبين • وهناك كثير من البذار الذي لا ينبت بسبب انعدام الشروط الضرورية •

هناك إمكانيات تحمل طابع الضرورة ، وهي ستتحقق حتماً إن عاجلاً أو آجلاً • فظفر الاشتراكية ، مثلاً ، في جميع انحاء العالم سيتم حتماً • ولكن حتى هذه الامكانيات لا تتحول الى واقع الا عندما تنضج الشروط الضرورية كلها (فلظفر الاشتراكية لا بد من عوامل موضوعية وذاتية معينة) • إن العلم يكشف عما يكمن في الطبيعة والمجتمع من امكانيات ، ويدرس شروط تحقيقها • وبذلك يشير الى طرق القضاء على الامكانيات الضارة بالانسان ، ويساهم في تحويل الامكانيات المرغوب فيها الى واقع •

يمكن للامكانية أن تتحول الى واقع حتى من دون تدخل الانسان • وهو أمر يحدث في الطبيعة عادة ، حيث تتراكم الشروط الضرورية لتحقيق الامكانية تراكمًا مستقلاً عن نشاط الناس • أما في الحياة الاجتماعية ، فتتحول الامكانيات الى واقع ، انما يتم عبر نشاط الناس العملي • وعندما يعي الانسان القنونة الكامنة في أساس الامكانية ، يستطيع ، بنشاطه ، أن يسرع في تحويل هذه الامكانية الى واقع ، وأن يوجه التطور في الوجة المرغوبة • ودراسة الامكانيات الكامنة في الوضع القائم للاشياء ، وايجاد الامكانية التي تتجاوب ومتطلبات قوى المجتمع التقدمية ، لهما تأثير كبير على نجاح النشاط العملي •

إن المعالجة الموضوعية لظواهر العالم المحيط بنا ، وكشف جميع الشروط الضرورية لتحقيق الامكانيات ، هما العنصران الهامان في تحليل الظواهر تحليلاً علمياً دياكتيكياً •

عندما تنضج هذه الامكانية الموضوعية او تلك ، في المجتمع ، فان تحقيقها

يتعلق بنشاط الناس العملي • فعلى الاتحاد السوفييتي ، مثلاً ، أن يجعل ، خلال
عشرين عاماً ، مهمة اقتصادية كبرى ، هي اقامة القاعدة التكنيكية المادية
للسيوعية • وقد أبان المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي الطريق
الحسي لانجاز هذه المهمة ، وحدد دور الطبقة العاملة والفلاحين الكولخوزيين ،
والمثقفين السوفييت في انجازها • وبفضل عمل الشعب السوفييتي البناء تتحول
هذه الامكانية ، وكثير غيرها ، الى واقع •

★ ★ ★

الفصل السادس

قانون الانتقال من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية

١ : - التبدلات الكمية والنوعية وانتقال

بعضها الى بعض

عند دراستنا للطبيعة يتكشف أمام نظرنا التنوع العظيم في ظواهرها
وعملياتها وأشائها •

وقد حاولت الفلسفة وعلم الطبيعة ، منذ القديم ، الكشف عن أسباب
هذا التنوع النوعي للطبيعة ، وعن كيفية ارتباط هذه الظواهر المختلفة نوعياً ،
بعضها ببعض ، كارتباط الطبيعة اللاعضوية ، مثلاً ، بالطبيعة العضوية (الحية) ،
وكارتباط بعض أنواع النباتات والحيوانات مع بعضها الآخر ، وارتباط الانسان
مع الحيوانات ... الخ • ولكن الكشف الصحيح لم يتحقق دفعة واحدة •
وهو أمر غير مستغرب باعتبار أن العلم الذي لم يكن متطوراً بعد ، وكذلك
نشاط الانسان العملي ، ظلا زمنا طويلاً في مستوى لا يتيح حل هذه المسألة
الصعبة المعقدة •

ذهب بعض الفلاسفة والعلماء إلى أن تنوع الطبيعة الكيفي هو أمر بديهي ،
وينبغي تقبله كواقع • وهم إما أنهم لم يحاولوا توضيح هذا الواقع ، أو أنهم
افترضوا أنه من صنع قوى ما وراء الطبيعة • في حين ذهب آخرون منهم إلى
نفي التباين النوعي بين ظواهر الطبيعة ، وأرجعوا التباين كله الى مجرد تباين
كمي • لقد اعترفوا بالتطور ولكنهم فهموه كتبدل كمي ، كتجميع وتركيب

كميتين لأجسام لا تتبدل نوعياً • هذه النظرة عن العالم نشأت منذ القديم ،
وانتشرت اعظم انتشار في القرنين السابع عشر والثامن عشر •

يقول الفيلسوف اليوناني القديم « أناكثاغور » (القرن الخامس قبل
الميلاد) ان الطبيعة تتألف من كميات لا حصر لها من « البذور » « ذات القدرة
على الأخصاب » • وصور التطور على أنه اتحاد هذه « البذور » وانفصالها
بكميات مختلفة • وهو يرى أن الشيء يختلف عن الآخر بكونه مؤلفاً من كمية
من « البذور » ذات النوعية الواحدة ، تقل أو تكثر • ويقوم برهان هذه النظرة
الساذجة على أن الانسان الذي يستخدم الطعام ، مثلاً ، تنمو فيه العظام والشعر
والاظافر ••• الخ ؛ وبالتالي فالطعام يحتوي على العظام والشعر والأظافر في
شكلها الجاهز ولكن بصورة صغيرة •

أما الفيلسوف الافرنسي « رويني » الذي عاش في القرن الثامن عشر
فقد اعتبر أن كل ما هو موجود عبارة عن مظهر للطبيعة العضوية ، أي الحية ،
وذلك لعجزه عن تفسير الانتقال من الطبيعة غير الحية إلى الطبيعة الحية ،
تفسيراً علمياً ، بسبب تأخر علم البيولوجيا آنذاك • وكان هذا الفيلسوف يعتبر
أنه لا فرق هناك بين الحجر ، والشجرة ، والحصان ، والانسان ، من حيث
النوعية • يقول « رويني » : « يمكننا أن نجد في الحجر وفي النبات ، على حد
سواء ، ذات الصفات والخصائص الضرورية للحياة ، والتي نجدها في الجسم
البشري • ولا فرق هناك إلا في تركيبات هذه الصفات ، وفي عدد الاعضاء
ونسبها وترتيبها وشكلها » (١) •

لاشك أن الأشياء التي ذكرها « رويني » تنطوي على شيء عام • الا أن
الخواص العامة لا تنفي الفارق النوعي العميق ، والقوانين الخاصة التي تنشأ
بموجبها تلك الأشياء وتوجد • فنحن لا نستطيع فهم حياة الانسان ونشاطه
بالاعتماد فقط على الشيء العام الذي يجمعه مع الحجارة والشجر (على اعتبار
أن الشيء المشترك بينهم جميعاً هو تألفهم من عناصر كيميائية معينة ، وأنهم

(١) « ج • رويني » - « الطبيعة » ١٩٣٥ ص ٥٠٨ •

موجودون في المكان والزمان ... الخ) • ان توضيح الاختلافات النوعية بين الانسان والحجارة ، بين النباتات والحيوانات هو ، وحده ، الذي يساعدنا على فهم مكان الانسان ودوره في السلسلة العامة لتطور الطبيعة •

لقد كان لنظرية التطور الكمية مبررها التاريخي القائم على ان الميكانيك والرياضيات ، كانا ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أكثر العلوم تطوراً • فكان لابد للنظرية الميكانيكية الكمية إلى الطبيعة ، من أن تدفع بالفلاسفة والباحثين إلى إهمال الاختلافات النوعية للأشياء ، وإلى إرجاع كل تنوع أشكال الحركة إلى الشكل الميكانيكي البسيط ، وإلى فهم التطور باعتباره تكديساً كميّاً محضاً لـ « قراميد » ما ، غير متغيرة نوعياً ، ويتشكل العالم منها • كان للنظرية الكمية ، آنذاك ، معنى تقدمي في النضال ضد الدين ، لأنها حاولت ، عكس الديانة ، إعطاء توضيح علماني طبيعي لتنوع صور العالم • إلا أن إرجاع تنوع الأشياء والتطور إلى اختلافات كمية ، وتبدلات كمية محضة ، خاطيء تماماً •

لقد سار العلم نحو الحقيقية في طريق معقد ، متناقض ، ممهداً التربة لظهور التفسير الصحيح الوحيد لتنوع العالم كميّاً ، ومقيماً العلاقة الواقعية بين النواحي الكمية والنوعية في الظواهر والعمليات • فتطور الكيمياء ، والفيزياء ، والبيولوجيا وغيرها من العلوم ساعد الانسان على النفوذ إلى جوهر الظواهر ، وعلى فهم التطور كتحويل بعض الأشياء ، نوعياً ، إلى أشياء غيرها ، نتيجة التبدلات الكمية • وكان لنجاحات الكيمياء اهمية كبيرة خاصة في هذا المضمار • يقول انجلز : « ان بالامكان تسمية الكيمياء بعلم التبدلات النوعية في الأجسام ، تلك التبدلات الحادثة عن تأثير تبدلات الكيان الكمي » (١) •

إن تطور الفيزياء ، في السنوات العشر الأخيرة ، واكتشاف تحول العناصر والأشعاع الرادوي ، وتحويل بعض الصغريات « الأولية » إلى أخرى ، كل هذا يؤكد ، مرة بعد أخرى ، المفهوم الديالكتيكي للتطور في الطبيعة ، ويعني هذا المفهوم بمعلومات جديدة •

(١) انجلز : « ديالكتيك الطبيعة » ص ٤١ •

إن النظرية الماركسية الديالكتيكية عن انتقال التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية هي تعميم لمعطيات العلوم عن الطبيعة ، تعميم لتجربة التاريخ الانساني العالمي ، وهو يكشف عن أحد أهم قوانين التطور الموضوعية .

ولابد ، لفهم قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية فهماً أفضل ، لابد ، قبل كل شيء ، من معالجة مفهومي الكم والنوعية . فعندما ندرس شيئاً ما يتبدى لنا ، قبل كل شيء ، كيانه المحدد الذي يميزه عن الأشياء الأخرى . وهذا بالذات ما يكون نوعيته . إن الطبيعة عبارة عن وحدة أشياء وظواهر وعمليات متنوعة . هذا التنوع في الطبيعة هو تعبير التباين النوعي بين الأشياء . فهناك ، مثلاً ، اختلاف نوعي بين الطبيعة اللاعضوية والطبيعة العضوية . فلا يستطيع الكائن الحي الوجود إلا في شروط تبادل المواد النوعي مع الوسط المحيط به . أما غير الحي فلا يلزمه مثل هذا التبادل . وكذلك فان بين الأجزاء المختلفة للطبيعة العضوية ، بين النبات والحيوان ، مثلاً ، توجد فوارق نوعية . أما الانسان فانه ، اذا ما قورن بهما ، فهو من نوعية أخرى .

إن التحديد النوعي أمر ملازم لجميع الظواهر الاجتماعية . فالرأسمالية ، مثلاً ، عبارة عن نوعية معينة ، عن مجموع عدد من السمات والصفات والنواحي الجوهرية بالنسبة لهذا النظام : كوجود طبقة ملاكي وسائل الانتاج ، وطبقة العمال المأجورين ، واستثمار العمال من قبل الرأسماليين . . . الخ . أما الاشتراكية ، باعتبارها تشكيلاً اجتماعية جديدة نوعياً ، فتمتع بصفات أخرى : من ملكية جماعية لوسائل الانتاج ، وانعدام العمل المأجور ، والقضاء على استثمار الانسان للانسان .

هذان المثالان المضروبان يتيحان لنا فهم أن النوعية هي ، قبل كل شيء ، ما يحدد الأشياء والظواهر وبيئتها ، هي وحدة سماتها ونواحيها الأساسية التي تجعل منها هذه الأشياء والظواهر بالذات ، لا غيرها . وليست هنالك أية ظواهر أو أشياء مجردة من التحديد النوعي . فالكائن المجرد من كيانه النوعي غير ممكن الوجود : إن المرج والبحيرة والشجرة والنجم والكائن الحي . . . الخ

عبارة عن ظواهر وأشياء متباينة وذلك نتيجة كياناتها المحددة المختلفة •

ثم إن النوعية ليست مجرد تحديد • انه تحديد ملازم للشيء داخلياً ، وعلى هذا فتبدل النوع يعني تبدل الشيء المعني • فاذا توقف الجسم الحي عن تبادل المواد مع الوسط المحيط به فانه يموت ويفقد نوعية الجسم الحي ، ذلك أن تبادل المواد مع الوسط المحيط به هو جوهر حياته ووجوده •

إن النوعية تظهر من خلال الخواص • ورغم ان مفهومي النوعية والخاصة غالباً ما يستعملان بمعنى واحد ، إلا أن بينهما اختلافاً • فالخاصة هي أحد الاشكال التي تعبر فيها كيفية شيء ما عن نفسها خارجياً بالنسبة للأشياء الأخرى •

ولا يمكننا أن نعرف شيئاً عن كيفية موجود ما (أي عن الكيان المحدد الداخلي لهذا الشيء) إلا من الصفات الملازمة لهذا الشيء التي تتجلى فيها كفيته • فنحن لا نستطيع أن نحكم على هذا الانسان أو ذلك على سماته الانسانية إلا بالاعتماد على علاقاته بالناس والمجتمع • ويظهر الشيء المحدد كفيماً في خصائص كثيرة • فالعنصر الكيميائي ، مثلاً ، يعبر عن نفسه في الخصائص الملازمة له كاتمائه إلى مجموعة المعادن ، أو أشباه المعادن ، ووزنه الجوهري المعين و... الخ ، ويتجلى المعدن في الخصائص الملازمة كالكتافة ، والقدرة على التحمل ، ودرجة الانصهار ، وناقليته للحرارة والكهرباء الخ... ثم إن الشيء لا يتميز بخاصة واحدة فقط بل بالعديد من الخصائص • بيد أنه من الخطأ اعتبار النوعية مجموعة من الخصائص فقط • فالنوعية هي ما يربط جميع خصائص الشيء في وحدة واحدة ، وهي ما يعبر عن كلية الشيء وتمامه •

وعندما نميز النوعية عن الخاصة لا ينبغي أن نضع حداً فاصلاً مطلقاً بينهما • إذ أن نوعية الشيء هي عبارة عن خواصه الأكثر جوهرية ، التي تحدد جمع خواصه الأخرى والتي بدونها لا يبقى الشيء ، الشيء ذاته •

وخواص الشيء لا تظهر كلها دفعة واحدة وفي وقت واحد • ويتعلق بروز هذه الخواص أو تلك بالعلاقات الحسية التي يرتبط بواسطتها هذا الشيء مع

الأشياء الأخرى • ففي احدى أشكال العلاقات تتبدى خواص للشيء معينة ، وفي أشكال أخرى للعلاقات تتبدى خواص أخرى لهذا الشيء نفسه • فخواص الشيء يمكن أن تتغير تبعاً لتغير علاقاته مع العالم المحيط • كما يمكن أن تختفي أو تظهر بعض خصائص الشيء بدون أن يتغير هو نفسه أو نوعيته الأساسية • فتغير بعض خصائص الشيء يعني بالطبع أن هذا الشيء يتعرض لتغيرات نوعية ما • ولكن هذه التغيرات لا تمس كيانه النوعي الأساسي الذي يجعل منه هذا الشيء بالذات لا شيئاً آخر غيره • وهو أمر ينبغي أخذه بعين الاعتبار حتى لا ينشأ لدينا ، من ناحية ، تصور خاطيء ، يقوم على أن الشيء يبقى هو ذاته طوال حياته أو وجوده ، دون أن تطرأ عليه ، اطلاقاً ، أية تبدلات نوعية ، وحتى لا نعتبر ، من ناحية أخرى ، أن تبدل بعض نواحي الشيء وخواصه ، إنما هو تبدل جذري لجوهره ونوعيته • مثال ذلك أن بعض خصائص الرأسمالية تتبدل في مرحلة الرأسمالية العليا ، الامبريالية ، : فتتحول المزاخمة الحرة الى نقيضها ، أي الى احتكار • وبدون أخذ هذا التحول الهام بعين الاعتبار لا يمكن فهم الرأسمالية المعاصرة • بيد أن هذا التحول لا يعني انعدام النوعية الجذرية الأساسية للنظام الرأسمالي ، وهي التي تجعل منه رأسمالية •

إلا أن نوعية النظام الرأسمالي الأساسية الجذرية ، التي تجعل منه رأسمالية لا تنعدم ، رغم أن ايدولوجيي الامبريالية ، والمحرفين يحاولون اظهار الرأسمالية المعاصرة كشيء جديد ، كمجتمع غير برجوازي • وتصفية جميع السمات الأساسية التي تحدد الرأسمالية كنوعية اجتماعية اقتصادية معينة (الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ونظام العمل المأجور واستثمار العمال) هي وحدها ، التي تعني تصفيتها ، والانتقال الى النوعية الجديدة •

إن النوعية تعبر عن استقرار الشيء وثباته نسبياً ، مما يميزها عن الخصائص التي تستطيع ، في نطاق شيء معين ، أن تتبدل بصفاتها غير ثابتة • وبفضل النوعية يصبح الشيء ما هو عليه في الواقع • ويتحدد زمن وجود الشيء

بكيانه كنوعية معينة • ان التبدل النوعي يعني انقطاع وجود شيء معين وتحوله الى شيء آخر •

ان النوعية ، حسب تعبير هيجل ، هي الحد الذي تتميز بفضله بعض الأشياء عن الأخرى • وهذا الحد ليس خارجياً ، ليس مكانياً ، بل هو داخلي ويعبر عن نوعية الأشياء ، عن اصالتها • انه حد غير مفروض على الأشياء من قبل الوعي الانساني ، بل ملازم موضوعياً للأشياء ذاتها • ولولاه لاختلط كل شيء في كتلة واحدة لا تباين بين أجزائها •

وعلى هذا فمفهوم النوعية يعكس ناحية هامة جداً بالنسبة الى جميع الأشياء وانظواهر والعمليات في العالم الموضوعي • وينجم عن كل ما قلناه أن النوعية يمكن تعريفها بأنها التحديد المرتبط ارتباطاً لا انفصام له مع الشيء ذاته ، وأنها مجموع الصفات والسمات الجوهرية التي تكسب الشيء استقراراً نسبياً ، وتميزه عن غيره من الأشياء الأخرى •

ونوعية الأشياء لا توجد منفصلة عن ناحيتها الكمية • إن مفهوم الكمية هو أيضاً مقولة عامة تعكس ناحية من النواحي الهامة لأي شيء أو ظاهرة أو عملية • وتبرز الكمية أيضاً كتحديد للأشياء ، الا أنها ، خلافاً للنوعية ، تميز الشيء من ناحية درجة تطور خصائصه : كمقداره ، وحجمه ، وعدده ، وسرعة حركته ، وبهر لونه ••• الخ • فالطاولة ، مثلاً ، يمكن ان تكون كبيرة أو صغيرة ، والصوت يمكن أن يكون طويلاً أو قصيراً ، شديداً أو خافتاً ••• الخ

إن التحديد الكمي للظواهر الاجتماعية لا يعبر عنه ، دائماً ، بمثل المقادير الدقيقة التي يعبر بها عن ظواهر الطبيعة اللاعضوية • ولكن كل ظاهرة ، وكل عملية تتمتع هنا أيضاً لا بناحية نوعية فقط ، بل وبناحية كمية أيضاً • مثل ذلك مستوى تطور إنتاجية العمل ، والقوى المنتجة ، ووتيرات تطور الانتاج ، وغير ذلك من نواحي الحياة الاجتماعية ، وعدد الناس العاملين عملاً منتجاً ، ودرجة استثمار العمال من قبل الرأسمالين ••• الخ •

ثم إن كمية الشيء ، وكيانه الكمي المحدد له ، بالمقارنة مع النوعية ، يتمتعان بعدد من الخصائص التي تهم معرفتها كثيراً حتى نفهم جوهر قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • إن الشيء لا يعود الشيء الذي كانه ، عندما يفقد نوعيته ، وبالتالي ، فإن النوعية مطابقة للشيء ذاته وكأنها تمتزج معه في وحدة لا تنفصم • وهو أمر لا يصح قوله في الناحية الكمية للشيء • فالكمية يمكن أن تنقص أو تزيد ، دون أن يفقد الشيء حالته النوعية • إن النحاس الصلب ، مثلاً ، لا يتحول إلى شيء آخر إذا ما ارتفعت درجة حرارته إلى ٦٠٠° أو ١٠٠٠° • فالكمية هي صفة تحدد الشيء من الخارج أكثر مما تحده من الداخل ، وتبدو ، للوهلة الأولى ، وكأنها منفصلة عن النوعية • وهي لا ترتبط بالشيء ارتباطاً وثيقاً كما ترتبط النوعية • فإذا تبدل الشيء كميّاً فإنه لا يتحول إلى شيء آخر ما دام التبدل لم يتجاوز حداً معيناً •

لنعالج ، بصورة أعمق ، التبدلات الكمية وأهميتها في سير التطور • اننا عندما أكدنا بأن الشيء يمكن تكبيره أو تصغيره دون أن يفقد نوعيته ، لم نأخذ بعين الاعتبار حدود هذا التبدل الكمي • والواقع أن درجة الحرارة اذا ارتفعت في المثل المضروب إلى ١٠٨٣° ، بدأ النحاس بالانصهار • وهذا يعني أن عدم تأثير الشيء بالتبدل الكمي محدود بحد معين ، فإذا تجاوز التبدل في العدد أو المقدار أو الحجم ، أو أية كمية أخرى ، هذا الحد فإن هذا التجاوز سيؤثر على مصير الشيء •

من هذا نستنتج أن الكمية ، ان التبدلات الكمية مرتبطة ، داخلياً ، بالنوعية ، بالشيء • الا أن هذه العلاقة لا تظهر دفعة واحدة • إن التبدلات الكمية لها أيضاً حدود معينة • بيد أنه اذا كان « خرق » الحد النوعي للشيء ، يستجر وراءه بدلاً في الشيء ذاته ، فإن حدود التبدلات الكمية للشيء ، تبقى أكثر مرونة : فيمكن للتبدلات الكمية أن تتأرجح ، أن تكون أكثر أو أقل ، دون أن يستجر هذا وراءه رأساً بدلاً في نوعية الشيء • إلا أن تأثير التبدلات الكمية على الشيء يتبدى ، بوضوح ، عند زيادة هذه التبدلات • فخلال سير

التبدلات الكمية تبرز ، بروزاً مقنوناً ، اللحظة التي يؤدي فيها أصغر تبدل في الكمية الى تبدل نوعي جذري ، يؤدي الى نشوء نوعية جديدة • أي أن التبدلات الكمية ذات حدود معينة • فإذا تجاوزتها ، أثرت على الشيء ذاته ، على كيانه النوعي • وهكذا فالكمية هي هذه الناحية من الأشياء والظواهر والعمليات ، هذه الناحية التي تميز درجة تطور هذه الأشياء ، وحجمه ، وشدته ، والتي تحوز تعبيراً عددياً وتنحصر خاصيتها في أن تبدلها ، عندما يبلغ حداً معيناً ، يؤثر على نوعية الشيء •

ان علم الطبيعة يقدم دلائل كثيرة على هذه الصلة المتبادلة بين التبدلات الكمية والنوعية • فإذا قسمنا جسماً غير حي الى صغريات متناقصة الحجم ، فلا بد من بلوغ حد تستدعي ، بعده ، التبدلات الكمية تبدلات نوعية • إن الجسم يقسم إلى جزيئات ، وهذه الى ذرات • والذرات تتميز عن الجزيئات بنوعيتها وخصائصها • كما أن هذه الأخيرة تتميز عن الاجسام الطبيعية • والذرات ذاتها ليست نهاية التقسيم • إنها تتألف ايضاً من صغريات اكثر صغراً : من بروتونات ، ونيوترونات ، واليكترونات تحوز قوانين حركة خاصة بها • إن التصادم والتفاعل المتبادل بين الذرات المتحركة في طاقة لا تتجاوز بعض الاليكتروفولتات يُبقي هذه الذرات على ما هي عليه دون أن تفقد نوعيتها • وبالإمكان زيادة الطاقة الى ألوف المرات مع بقاء النتيجة واحدة • ولكن ما ان تبلغ الطاقة ملايين الاليكتروفولتات حتى تحدث تبدلات نوعية في نوى الذرات ، وتتحول بعض الذرات الى بعض آخر •

ولكي يصبح بالإمكان القيام بسلسلة من ردود الفعل لتحطيم النواة بهدف ايجاد انفجار ذري لا بد من توفر كمية معينة من الاورانيوم • ان الحد الأدنى الضروري من الأورانيوم لحدوث هذا التفاعل (قرابة كغ) يدعى بـ « الكتلة الحرجة » • فإذا قلت الكمية عن ذلك لاتحدث سلسلة ردود الفعل ولا يحدث الانفجار •

ثم إن الكيمياء ، بين كثير غيرها ، تعطينا أمثلة واضحة على أن التبدلات

العددية تتحول اذا ما بلغت حداً معيناً ، الى تبدلات نوعية • فاذا ما جمعنا عناصر واحدة في نسب كمية متباينة ، نحصل على أشياء متباينة نوعياً • وقانون « مندلييف » الدوري قائم على أساس انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية • يذهب « مندلييف » الى أن خصائص العناصر الكيميائية متعلقة بمقادير وزنها الذري • وقد أتاحت المنجزات العلمية الحديثة جعل هذه النظرية اكثر دقة وبرهنت على أن مكان كل عنصر كيميائي في لوحة « مندلييف » يتحدد بمقدار شحنة نواته • ويؤدي التبدل الكمي في هذا المقدار الى تحولات نوعية للعناصر •

في هذه العلاقة بين التبدلات النوعية والتبدلات الكمية تتفي كل سرية • إن الناحية الكمية للأشياء لا تنفصل عن ناحيتها النوعية • فالكمية هي كمية نوعية معينة : من مقدار الشيء ، وحجمه ، وشدته ودرجة تطوره • والتبدلات الكمية ليست اكثر من عملية مستقلة نسبياً : إن التبدلات الكمية المتواصلة الى ما بعد الضد المعين لكل شيء ، تدخل في تناقض صارخ مع النوعي ، وتصبح عاجزة عن البقاء سوية معها ، آنذاك يتبدل الشيء ، تتبدل نوعيته •

وهكذا فان التحديد الكمي والنوعي للأشياء قائمان في صلة لا انفصام لها • إن تبدل أحدهما يستدعي التبدلات المقنونة للآخر • فعندما تصل التبدلات الكمية حداً معيناً خاصاً بالشيء ، تستدعي تبدلات نوعية • الا أن الصلة بين الكم والكيف ليست وحيدة الجانب • فليست التبدلات الكمية هي ، وحدها ، التي تتحول الى تبدلات كيفية • إن العكس صحيح أيضاً • فكل عملية انتقال للتبدلات الكمية الى تبدلات نوعية ، تعني ، في الوقت ذاته ، انتقال التبدلات النوعية إلى تبدلات كمية جديدة • وهو أمر طبيعي ، لأن النوعية الجديدة تبرز عضوياً بكمية جديدة ، بنسب كمية جديدة •

إن تعاونية العمل ، مثلاً ، أي جمع عدد من المنتجين المبعثرين تحت ادارة وتوجيه واحد ، هي شكل نوعي جديد للإنتاج • هنا انتقلت التبدلات الكمية الى نوعية جديدة • وهذه النوعية الجديدة (اي تعاونية العمل) تخلق ، بدورها ، إنتاجية عمل أرفع من إنتاجية المنتجين المبعثرين • فبفضل تعاونية

العمل ترتفع القوة الانتاجية لكل عامل منفرد يشكل عمله جزء من كل • وهذا يعني أن التبدلات النوعية تستدعي تبدلات كمية جديدة •

ومن المعلوم أن الاقتصاد الاشتراكي يتطور بوتيرات لم تستطعها الرأسمالية حتى في عصرها الذهبي من تاريخها • وهو أمر يفسر بأفضليات الاشتراكية على الرأسمالية • وبكلمة أخرى إن الانتقال الى نظام اقتصادي جديد (الاشتراكية) يولد وتيرات تطور جديدة • أي أن النوعية تتحول الى كمية •

وهذا يعني أن التحديد النوعي للأشياء ليس ، وخذة ، الذي يتعلق بالكمية ، بل ان الكمية ، أن التحديد الكمي للأشياء ، مشروط أيضاً بالخواص النوعية لهذه الأشياء • وفي مفهوم المقياس تعكس وحدة النوعية والكمية ، وعلاقتها المتبادلة ، وارتباط إحداها بالأخرى • إن كل شيء هو مقياس ، بمعنى أن كمية معينة تستقر في أساس خاصته النوعية • وعلى العكس فإن تحديده الكمي مرتبط بالجوهر النوعي للشيء • وقد سمي « هيفل » المقياس بـ « الكمية النوعية » ، وبالتالي ، يمكننا تسمية المقياس بـ « النوعية الكمية » • إن المقياس هو وحدة الكمية والكيفية وتفاعلها المتبادل • والشيء ، باعتباره تحديداً نوعياً ، يمكن ان يوجد في علاقة لا مع أية كمية كانت ، بل مع كمية معينة ، رغم تذبذبها في حدود معينة ، والحدود الكمية لتبدلاته مشروطة بالتحديد النوعي للشيء • المقياس هو إحدى مقولات الديالكتيك المادي الهامة • فبفضله نستطيع حيازة الشيء كوحدة للنوعية مع الكمية ، و تركيب لهما • إن المقياس هو حد وجود الشيء • وخرق المقياس يجعل الكيان المعين ، الشيء المعين ، غير ممكن الوجود • وبمقدار ما يكون الشيء موجوداً لازمه مقياسه •

ثم إن المقياس أمر هام جداً في الفن • فمن دون المقياس لا يمكننا التعبير عن جمال الطبيعة والانسان • والقول صحيح أيضاً في المفاهيم والمبادئ الأخلاقية • فالاثم الذي لا يؤدي ، في البداية ، والمرتكب ضد مبادئ المجتمع الاشتراكي ، يمكن أن يتكون ، عند حد معين ، إلى جريمة • والقصة الوعظية

التي يرويها لنا الكاتب كريلوف بعنوان « حساء ديميان » تبين لنا ضرورة المقياس حتى في قواعد استقبال الضيوف •

بيد أنه لا ينبغي أن نستنتج مما سبق قوله أن الخروج الطبيعي على المقياس هو أمر معاكس لطبيعة الأشياء • فالحديث تناول فقط أن لكل شيء حدوده في العلاقة المشروطة المتبادلة للكيانين الكمي والكيفي • وهي حدود لا يمكن تخطيها دون المس بالشيء ؛ ذلك أن تخطي هذه الحدود ، تخطي حدود المقياس ، يجعل الشيء يتوقف عن كونه الشيء المعني ، ويتحول إلى شيء آخر • ان المقياس يعين ، بدقة ، الحد الذي لا تؤدي معه التبدلات الكمية إلى حدوث تبدلات نوعية • وعندما تتخطى هذه التبدلات الكمية ذلك الحد ، يكف المقياس عن أن يصبح مقياس هذا الشيء ، ويحدث تبدل نوعي في هذا الأخير •

إن خروج التبدلات الكمية عن مقياس الشيء ، هو ظاهرة مقنونة وشرط لتطور العالم الموضوعي • فنتيجة للخروج عن المقياس تؤدي التبدلات الكمية إلى تبدل نوعي جذري • تختفي النوعية القديمة لتنشأ نوعية جديدة ، يلزمها مقياس جديد • وفي نطاق المقياس الجديد تتم التبدلات الكمية التي تؤدي ، في درجة معينة ، إلى تبدل نوعي جديد ، إلى استبدال الأشكال القديمة التي فات زمانها ، بأشكال جديدة • هكذا يتوالى التطور اللانهائي •

من خلال ما سبق قوله نستطيع استخلاص جوهر القانون المبحوث :

إن قانون انتقال التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية ، هو قانون تحرق ، بموجبه ، التبدلات الكمية التي كانت ، في البداية ، غير ملحوظة ، وتكدست تدريجياً حتى بلغت حداً معيناً ، تحرق مقياس الشيء ، وتستدعي حدوث تبدلات نوعية أساسية ، تتبدل بسببها الأشياء ، وتختفي النوعية القديمة لتنشأ نوعية جديدة •

إن هذا القانون الذي هو أحد القوانين الهامة في تطور العالم الموضوعي وتبدله ، يتمتع بأهمية كبرى في مجال المعرفة • فقد سبق أن قلنا ان قوانين

الديالكتيك هي قوانين الوجود وقوانين المعرفة • إن قانون الانتقال من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية ، يتطلب ، قبل كل شيء ، دراسة الخاصة النوعية ، دراسة كيان الأشياء ، وإلا لما أمكن معرفة أمر عن الأشياء • فدراسة التحديد النوعي لهذه الفئة ، أو لتلك المجموعة من الظواهر ، هي الطريق الصحيح الوحيد الذي يتيح صياغة القوانين الخاصة بتطور هذه الظواهر ، وهي قوانين متباينة عن قوانين الظواهر الأخرى • وهكذا لا نستطيع فهم عدم ملائمة قوانين ميكانيك « نيوتن » الكلاسيكي لتفسير حركة الجسيمات الصغيرة (من بروتونات ، واليكترونات ، ونيوترونات ... الخ) إلا عندما نأخذ الخاصة النوعية لهذه الجسيمات بعين الاعتبار • فهنا تعمل قوانين الميكانيك الكوانتي • إن الطبيعة الحية توجد وتتطور وفق قوانينها التي تتميز عن قوانين الطبيعة اللاعضوية • كما أن المجتمع الانساني يخضع لقوانين أخرى غير قوانين الطبيعة • لهذا تناضل الماركسية ضد النظريات التي تقضي على الفارق النوعي بين قوانين المجتمع وقوانين الطبيعة ، وتحاول جعل الأولى من طينة الثانية ، وتفسر حياة المجتمع بالخصائص البيولوجية للعروق الانسانية ، وبالكفاح من أجل البقاء •

ويحاول التحريفيون العصريون ، مثلاً ، محو الفارق النوعي الأساسي بين الاشتراكية والرأسمالية ليزينوا هذه ، وليغرقوا الشغيلة في تصورات كاذبة نقول بأن من الممكن تغيير طبيعة النظام الرأسمالي من غير تحويله ثورياً • الا أن نوعية الشيء ، كما رأينا ، لا توجد منفصلة عن ناحيته الكمية • لهذا يولي الديالكتيك دراسة الكمية ، والعلاقات الكمية بين الاشياء ، أهمية كبرى • فالنوعية ، فالشيء ، لا يمكن فهمه من غير أخذ كيانه الكمي بعين الاعتبار •

إن دراسة الكيان الكمي للأشياء هي عملية معقدة ، تفترض القدرة على التجرد عن التنوع النوعي للأشياء • ودراسة الناحية الكمية للظواهر عبارة عن درجة تعميق المعرفة القادرة على كشف قوانين هذه الظواهر • فعندما حلل الفيزيائيون مثلاً ، اللون الأبيض إلى أجزائه المكونة له ، وذهبوا الى أن موجات كهربية متفاوتة الأطوال تستقر في أساس الفارق النوعي بين

الألوان المختلفة (أحمر ، بنفسجي ، أخضر ... الخ) ، آنذاك أصبح التحليل العلمي للضوء ممكناً . وقد كتب الفيزيائي السوفيتي الشهير « س . فافيلوف » في هذا الخصوص يقول : « ان ميدان الظواهر الضوئية الذاتي الحرون ، الذي استعصى حله على العلماء ، طوال أوف السنين ، كشف ، فجأة ، عن جوهره الكمي ، وأصبح ، منذ الآن ، خاضعاً كلياً للتحليل العلمي الدقيق »^(١) . كما أن من المعلوم أيضاً أن الكيمياء أصبحت تقف بقوة على قدميها بفضل تبني الطريقة الكمية في دراسة الأشياء . مما أتاح وضع مثل هذه القوانين الكيميائية الهامة : كقانون ثبات التركيب ، وقانون النسب المضاعفة ... الخ . وليس من الصدفة في شيء أن تحتل الطريقة الرياضية للمعرفة أهمية متعاظمة في العلوم الحديثة والنشاط الاجتماعي .

ثم إن قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، باعتباره قانوناً للمعرفة ، يحذر من جعل الطريقة الكمية في البحث ، شيئاً مطلقاً ، ويطالب برؤية محدوديتها ، وبدراسة العمليات الكمية في علاقتها الوثيقة بالكيان النوعي للأشياء . صحيح أن القضية تختلف باختلاف مجالات المعرفة . ففي الرياضيات مثلاً ، التي تقوم على العلاقات الكمية المحضة ، يحق لنا التجرد عن نوعية الأشياء . إلا أنه كلما تعقد شكل الحركة المادية المبحوث ، وكلما أصبح هذا الشكل في درجة أعلى من سلم الطبيعة ، أصبح من الأهمية بمكان ، عند دراسة العلاقات الكمية ، عدم إسقاط الخاصة النوعية للأشياء والعمليات من الاعتبار ، وأن نأخذهما في تأثيرهما المتبادل وعلاقتها المشتركة التي لا تنفصم . وهو أمر له أهميته العظمى ، خاصة ، عند دراسة الظواهر الاجتماعية .

لقد أشار لينين أكثر من مرة الى أن علماء الاجتماع والاقتصاديين البورجوازيين يستخدمون الاحصاء مثلاً ، من أجل تشويه الواقع . إن الاحصاء يدرس الناحية الكمية من العمليات الاجتماعية ، التي لا يمكن دراسة الظواهر الاقتصادية مثلاً من دونها ، ولكن لما كان الاحصاء لا يدرس غير الناحية الكمية

(١) « س . فافيلوس » : « العين والشمس » ١٩٥٦ ص ٢٢ .

من الظاهر الاجتماعية المعقدة ، لذا يمكن ، إذا أراد الإنسان ، تحويله من وسيلة للبحث العلمي إلى وسيلة لنشر الأفكار الكاذبة . هكذا نجد أن الاقتصاديين اللبورجوازيين يتعمدون ، في إحصاءاتهم ، تصنيف الاستثمارات الزراعية وفق دليل واحد هو مساحة الأرض ، وذلك لدحض النظرية الماركسية الذاهبة الى أن الرأسمالية تعمل على تحجيه المنتجين الصغار ، حتى في الزراعة ، كما تتعاطم فيها الاستثمارات الرأسمالية الضخمة ؛ وكذلك للدفاع عن الفكرة الكاذبة التي تقول باستقرار الاستثمارات الصغيرة في ظل الرأسمالية . وهكذا يتجاهلون تلك العمليات النوعية كاستخدام العمل المأجور في الزراعة ، وتوظيف الرساميل في الأراضي . . . الخ الأمر الذي يسم تطور الزراعة كتطور ذي نوعية رأسمالية . يقول لينين : « إن أخذ كمية الأراضي فقط بعين الاعتبار لا يتيح أبداً التعبير عن جميع العمليات المعقدة والمتنوعة الأشكال . فمن هذه العمليات ، بالذات ، ينشأ السير العام للتطور الرأسمالي في الزراعة »^(١) . وعند استرشادنا بالقانون الديالكتيكي الخاص بالانتقال من الكم الى الكيف ، ومن الكيف الى الكم ، لا بد لنا من أن نأخذ بين الاعتبار العمليات الكمية ، والعمليات الكيفية ؛ كما لا بد من النظر الى علاقاتها ومشروطيتها المتبادلة . هذه المعالجة وحدها هي التي تشكل أحد الشروط الهامة للمعرفة الحقيقية .

٢ : - وحدة شكلي التطور : الشكل الارتقائي

والشكل الثوري - القفزات

إن تحليل التبدلات الكمية والتبدلات الكيفية للأشياء يدل على أن هذين الشكلين من التبدلات عبارة عن شكلين مختلفين للحركة رغم أنهما مرتبطان ببعضهما ، ولكل منهما خصائصه . فالتبدلات الكمية عبارة عن شكل ارتقائي^(٢)

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢٢ ص ٤٧ .

(٢) غالباً ما تستعمل كلمة ارتقاء في معنيين . يراد بالمعنى الاول مفهوم الارتقاء الذي يرادف مفهوم « التطور » . ان نظرية « داروين » عن نشوء الاجناس تسمى ، مثلاً ، نظرية الارتقاء ، وذلك لأنها تنطلق من أن الاجناس العضوية ليست ثابتة بل هي في تطور . والارتقاء ، بهذا المعنى ، يشمل التبدلات الكمية والتبدلات النوعية معاً . ويراد بالمعنى الثاني الارتقاء الذي هو أحد أشكال التطور ، وهو على وجه التحديد ، التبدلات الكمية التدريجية للأشياء ، تمييزاً لها عن التبدل النوعي الثوري الذي يحدث على شكل قفزة . وكلمة « الارتقاء » هنا تستعمل دائماً بمعناها الثاني .

للتطور • أما التبدلات النوعية فهي ، على العكس ، شكل ثوري له • وبما ان التبدلات الكمية والكيفية مرتبط بعضها ببعض ، لذا نستنتج ، بالضرورة ، أن التطور هو وحدة التبدلات الثورية والارتقائية • وهو أمر له أهميته المبدئية الكبيرة ، ويشكل احدى النواحي الهامة في نظرية التطور الديالكتيكية •

التطور الارتقائي هو التبدل الذي يطرأ ، بسببه ، على الكائن تبدل كمي تدريجي • أما التطور الثوري فهو تبدل الكائن تبديلاً نوعياً جذرياً • التبدل الثوري عبارة عن قفزة ، عن توقف التبدلات الكمية التدريجية ، عن انتقال من نوعية إلى أخرى • وكل تبدل نوعي يتم بشكل قفزة •

وبما أن التطور ، كما رأينا ، عبارة عن انتقال من التبدلات الكمية الى التبدلات الكيفية ، والعكس بالعكس ، فهو لا يمكن أن يتم ارتقائياً فقط ، أو ثورياً فقط • ومع هذا فقد عرف تاريخ الفلسفة والعلوم نظريات تقتصر على جانب واحد ، وتأخذ اما بالشكل الارتقائي للتطور وحده ، أو بشكله الثوري فقط • أمثال هذه النظريات قائم حتى الآن • وتذهب وجهة النظر الارتقائية العامة إلى أن التطور ذو خط متواصل مستمر من التبدلات الكمية دون أية تبدلات كيفية ، دون أية قفزات • وتعبّر عن وجهة النظر هذه ، في ميدان البيولوجيا نظرية انتشاكل المسبق • أما نظرية وايزمن في البيولوجيا الحديثة فهي تعبير أصيل عن التشكل المسبق •

لقد أثبت « بليخانوف » بوضوح خطل وجهة النظر تلك • يقول « بليخانوف » : « عندما يتحدث الميتافيزيكيون عن نشوء ظاهرة ما ، أو عن نشوء مؤسسة اجتماعية ما ، فهم يصورون القضية وكأن هذه الظاهرة أو المؤسسة كانت في يوم ما صغيرة جداً ، وغير مرئية تماماً : ثم كبرت شيئاً فشيئاً • أما اذا جرى الحديث عن تلاشي ظاهرة أو مؤسسة ما فيفترض العكس ، أي تصاغرها التدريجي حتى تصبح غير مرئية مطلقاً • هذا التطور المفهوم على النحو المذكور لا يمكن أن يوضع شيئاً • انه يفترض وجود هذه الظواهر

نفسها التي ينبغي عليه تفسيرها ، كما لا يأخذ بعين الاعتبار سوى التبدلات الكمية التي طرأت عليها (١) .

مثل هذه النظرات الارتقائية العامة انتشرت انتشاراً واسعاً في الحياة الاجتماعية بشكل خاص . كما تعتمد الفلسفة البرجوازية هذه النظرات في دفاعها عن النظام الرأسمالي . وتذهب الفلسفة المذكورة إلى التأكيد بأن المجتمع لا يتطور الا تطوراً ارتقائياً ، من غير حدوث تبدلات جذرية ، ومن غير هزات وانهيارات ثورية . وهي تعتبر القفزات الثورية في التطور ، قفزات لا تأتلف مع الطبيعة ، وتلحق الخلل بـ « السير الاعتيادي المتناسق » .

على أساس هذه النظرية الميتافيزيقية تقوم الاصلاحية في الحركة العمالية ، هذه الاصلاحية المحرفة للاشتراكية العلمية الماركسية . يذهب الاصلاحيون الى أن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ممكن الحدوث من غير ثورة ، نتيجة اجراء بعض الاصلاحات الصغيرة ، ومن دون تخطي اطار المجتمع البرجوازي ، ومن غير استيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية . يقول لينين : « إن التحريفين (ويعني الاصلاحيين) يعتبرون كل حديث عن « القفزات » وعن معارضة المجتمع القديم كله بالحركة العمالية ، معاوضة مبدئية ، مجرد سفسطة ، معتبرين الاصلاحات عبارة عن تنفيذ جزئي للاشتراكية » (٢) . ويؤكد المحرفون المعاصرون ، كما كان تأكيدهم أيام « بيرنيشتاين » ، أن الاشتراكية أو عناصر الاشتراكية ، كما لو أنها تنمو في كل مكان ، بما فيه الدول الرأسمالية . وهم يعتبرون بعث « البرنيشتوينية » هذا إغناءً جديداً للماركسية . إن المحرفين يخلطون بين المقدمات المادية للاشتراكية ، التي أنشأتها وما تزال تنشئها الرأسمالية الحديثة ، وبين الاشتراكية ذاتها . ويخوض الاصلاحيون والمحرفون نضالاً ضارياً ضد الماركسية الثورية ، ويشقون صفوف الحركة العمالية ، ويدفعون هذه الحركة الى التفاهم مع البرجوازية ، والنظام الرأسمالي .

(١) بليخانوف : « منتخبات من المؤلفات الفلسفية » الجزء الاول عام ١٩٥٦ ص ٥٦٩ .

(٢) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ .

هكذا يكمن جوهر وجهة النظر الارتقائية العامية في الإبراز الوحيد الجانب للتدرج في التطور ، وفي سيره سيراً هادئاً ، وفي نفي القفزات الثورية وأهميتها في التطور •

وهناك نظرية تماثل السابقة في خطها ومعالجتها القضايا من جانب واحد ، ولكنها أقل انتشاراً منها • هذه النظرية تذهب إلى أن التطور عبارة عن سلسلة من القفزات والانقلابات دون أي تدرج • وقد انعكست هذه النظرات انعكاساً واسعاً في النظريات العلمية الطبيعية والنظريات الاجتماعية • وكانت هنالك محاولات ، مثلاً ، لتفسير تبدلات العالم العضوي بكوارث مفاجئة تنشأ من حين لآخر ، وتؤدي إلى تبدلات في العالم النباتي والحيواني ، كنظرية العالم الفرنسي الشهير « كيوفي » في القرن التاسع عشر • وأخذ يمثل هذه النظرات بعض علماء الطبيعة أيضاً • لقد ذهب البيولوجي الهولندي « غيفودو فرينز » إلى أن النباتات تعيش مئات السنين وألوفها دون أن تتبدل مطلقاً وفجأة، وتحت تأثير « قوة خلاقة » تحدث القفزة ، تحدث « الدفعة » حسب تعبيره : فتتبدل النباتات نوعياً • وهو يعتقد أن تطور الطبيعة الحية يتسم « بشكل قفز » • ولكن من أين تتأتى هذه القفزات ، وما هي العوامل التي تسببها ؟ يجب « غيفودو فرينز » بأنها مجرد صدفة •

إن الفوضويين ، والفوضويين النقيبين ، يذهبون تلك المذاهب عن تطور الحياة الاجتماعية • إنهم يفترضون أن الانقلابات الاجتماعية تحدث بشكل مفاجيء ، وبدون فترة تحضيرية ، وبدون تجميع القوى المتواصل ، وبدون الارتقاء البطيء الذي يخلق المقدمات الضرورية للثورة •

هاتان النظرتان تعالجان الأمور من جانب واحد ، ولا تتسجمان مع واقع تطور العالم الموضوعي • يقول لينين : « ان الحياة والتطور في الطبيعة يشتملان على الارتقاء البطيء والقفزات السريعة ، أي توقف التدرج^(١) • وكل شكل من شكلي الحركة هذين عبارة عن مرحلة مقنونة وضرورية في تطور الكون كله •

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ •

إن التطور الارتقائي هو المرحلة التي يتعرض فيها الشيء لتبدلات كمية تدرجية • هذه التبدلات غير قادرة ، بذاتها ، على إحداث نوع جديد ، إلا أنها تحضر للتبدل النوعي • ولكي يقع هذا التبدل لأبد من توقف التبدلات الكمية التدرجية ، لابد من القفزة التي يتم الانتقال ، بواسطتها ، من القديم إلى الجديد • وتلعب التبدلات الكمية ، والقفزات ، دوراً كبيراً في عملية التطور • لذلك لابد من دراسة هذه المقولة الفلسفية دراسة أوسع •

إن مفهوم القفزة يعبر عن مرحلة مقنونة في عملية التطور ، عن مرحلة تصدع في التبدلات الكمية التدرجية ، يعبر عن هجوم التبدلات الكيفية • إن القفزة تتم المرحلة الارتقائية •

وإذا ما قورنت القفزة ، إذا ما قورن التبدل الثوري ، بالحركة الارتقائية ، التدرجية ، تبين أنها تتميز بصفات هامة • ففي الوقت الذي يحمل فيه الارتقاء إلى الشيء تبدلات جزئية ، دون أن تنال من نوعيته ، من جوهره ، تبدو القفزة عبارة عن شكل التبدلات الجذرية ، عن انتقال الشيء من نوع إلى آخر • صحيح أن الارتقاء هو أيضاً شكل تبدلات الشيء ، إلا أن هذه التبدلات ليست جذرية ، رغم أنها يمكن أن تكون هامة • مثل ذلك أن تطور الرأسمالية ، ولا سيما في المرحلة الامبريالية ، يعد المقدمات المادية الضرورية للانتقال إلى الاشتراكية • إلا أن التعاطم الكمي الارتقائي لهذه المقدمات لا يعني بعد الانتقال إلى الاشتراكية ، واقضاء على النظم البرجوازي • ولن يحقق هذا غير الثورة الاشتراكية ، غير القفزة الثورية •

يقول لينين : « إن الرأسمالية تحفر قبرها بيديها ، وتخلق بذاتها عناصر النظام الجديد • ولكن هذه العناصر ، في الوقت ذاته لا تغير ، شيئاً من دون انقذرات ، في وضع الأمور العام ، ولا تمس سيطرة الرأسمال » (١) •

وتنحصر الأهمية الاجتماعية العظيمة للنظرية الديالكتيكية عن انتقال

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ١٦ ص ٣١٩ •

التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، في أن هذه النظرية تضع اسس قانونية الثورات الاشتراكية وضرورتها ، عند الانتقال من النظام الاجتماعي الذي فات أوانه الى نظام جديد أكثر تقدمية ، كالانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية •

ثم إن القفزة تعني انقطاع تدرج التبدلات الكمية ، انقطاع مواصلة التطور • وطبيعي انه لا ينبغي فهم انقطاع مواصلة التطور بمعنى توقف التطور • ففي مرحلة معينة لا يتوقف النوع من أنواع تبدلات الشيء ، هو النوع الارتقائي الذي يتسم بالتدرج ، بمواصلة التبدلات الكمية في حدود النوعية القديمة • ان القفزة هي الانتقال من نوعية الى أخرى • وهذا يعني انه حدث « توقف » في التطور : نشأ شيء جديد ، ولف القديم العدم ، ونشأت « عقدة » جديدة في سير الحركة ، نشأت مرحلة جديدة ، نشأ مقياس جديد • لهذا فالقفزة ، عدا عن أنها لا توقف التطور ، فهي ، الى جانب ذلك ، شكل 'أسرع' بدل ، أعلى نقطة في التطور ، وفيها يحدث انهيار الشيء البالي الذي يعرقل الحركة التالية ، كما يتعد الطريق امام اشكال أكثر تقدمية ، وحيوية • إن الثورات الاجتماعية هي برهان ساطع على أهمية القفزات الجسارية في تطور المجتمع •

وتتميز القفزة عن تدرج التبدلات الكمية بأنها شكل تبدل الأشياء بسرعة أعظم نسبياً • فالتبدلات الكمية تجري ، عادة ، ببطء ، في حين أن القفزات تتم في فترات زمنية قصيرة الى حد كبير •

بيد أن هذا لا يعني أن القفزات تحدث ، دائماً ، وفي جميع الاحوال ، خلال لحظة واحدة • فهناك قفزات لا تتم الا خلال وقت طويل • انها يمكن أن تستغرق زمناً طويلاً في تطور المجتمع (كالثورة الاشتراكية العالمية ، مثلاً) •

ثم إن القفزة ، خلافاً للتبدلات الكمية التدرجية التي غالباً ما تكون غير ملحوظة ، وغير ملموسة ، وغير مرئية ، عبارة عن شكل التبدلات المرئية المكشوفة •

ورغم جميع الفوارق القائمة بين الحركة الارتقائية والحركة الثورية ، بين الحركة المتواصلة والحركة القافزة ، فان كليهما تشترط الأخرى ، وتشكل طرفاً في عملية تطور واحدة : فالتبدلات الكمية تحضر القفزات ، تحضر انقطاع تدرج التبدلات الكمية ، والقفزة تخلق شروط التبدلات الكمية التالية .

لهذا كان تطور الطبيعة ، والمجتمع ، والفكر الانساني يحدث لا وفق خط متواصل لا انقطاع فيه ، حيث يتم الانتقال من شيء الى آخر ، بشكل غير مرئي ، وغير ملحوظ ، بل وفق خط تنقطع فيه التبدلات الكمية التدريجية بقفزات ، وبالانتقال من القديم الى الجديد ، وبنشوء تشكيلات جديدة نوعياً . لقد كن نشوء الحياة ، ونشوء الوعي كخاصة المادة الرفيعة التطور ، أعظم قفزتين ، اعظم انقطاعين للتدرج ، في تاريخ تطور الطبيعة . ويعتبر نظام العناصر الدوري خير مثال على وحدة الاستمرار والانقطاع في تطور الطبيعة . إن الفارق النوعي بين ذرات العناصر قائم على الفارق الكمي في شحنات نواها . ويتم الانتقال من عنصر الى آخر على شكل قفزة . فكل عنصر جديد عبارة عن عقدة نوعية في سلسلة التطور ، هو حلقة جديدة نوعياً ، ومقياس جديد . وعلى سبيل المجاز ، سمي « هينغل » التطور الذي يحدث ، خلاله ، الانتقال من مقياس الى آخر ، بـ « الخط العقدي للمقاييس » . ان كل مقياس جديد هو أشبه بـ « العقدة » ، انه تشكل نوعي جديد أوجدته الطبيعة في طريق تطورها اللانهائي .

إن الحياة العضوية هي هذا « الخط العقدي للمقاييس » ، حيث تنقطع التبدلات التدريجية بالقفزات ، بنشوء أشكال جديدة نوعياً . وعندما تمت القفزة الجبارة ، ونشأت الحياة من المادة غير الحية ، فإن التطور التالي للمادة الحية لم يكن عبارة عن نمو كمي متدرج للأشكال التي نشأت في البداية . وقد أحسن البيولوجي الأكاديمي السوفيتي « كوماروف » حين قال في هذا الخصوص : « لو أن الحياة ، بعد نشوئها على الارض ، استمرت بالنمو كميّاً فقط ، لتغطي سطح الأرض بطبقات سميكة من الزلال الذي يشبه ما تصنعه ، الآن ، الجراثيم ، والأميب ، وغيرها من العضويات المماثلة . غير أن الكمية

تتمتع بخاصة الانتقال الى النوعية ، وعلى هذا فكتل الجسم القائمة في علاقات متبادلة متباينة (كيميائية وفيزيائية ... الخ) مع الوسط الخارجي ، تكتسب نوعيات متباينة ، أو كما يقال ، تمايز . إن الكتلة ذات النوع الواحد تصبح ذات انواع متعددة « (١) » .

إن أنواع النباتات والحيوانات عبارة عن « عقد » مختلفة نوعياً ، معبرة عن تمايز المادة العضوية ، عن تحول النوع الواحد الى انواع واشكال متعددة . وليس خط تطور النباتات والحيوانات عبارة عن سلسلة متواصلة ، بل هو استمرار يقطع ، على شكل قفزات ، بنشوء أشكال وأنواع عضوية جديدة . وما قيل عن وحدة التدرج الكمي ، وعن القفزات النوعية ، في الطبيعة ينطبق تماماً على تطور المجتمع . وكل تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة إنما نشأت في أعقاب التطور الكمي التدريجي في التشكيلة القديمة ، وعت قفزة جبارة ، وتغيراً جذرياً في تطور المجتمع .

كما ان تطور المعارف الانسانية يحدث ايضاً عبر انقطاعات التدرج . فتسبق الاكتشافات العلمية العظيمة فترات تراكم بطيء في الوقائع والملاحظات ، وفي نشوء افكار ومبادئ جزئية افرادية . وهو أمر يتبع ، فيما بعد ، « بشكل فجائي » ، « بشكل غير ملحوظ » حدوث قفزة الى الأمام سريعة . وكمثال على هذه القفزات في تطور العلم نذكر : وضع النظام الشمسي من قبل كوبرنيك واكتشاف قوانين الميكانيك من قبل « غاليله » و « نيوتن » ، واكتشاف « لومونوسف » لقانون حفظ المادة والحركة ، ونظرية داروين عن نشوء الأنواع ، ونشوء الماركسية الذي يعتبر تحولاً ثورياً عظيماً في تاريخ الفكر الانساني ، وتطوير لينين للماركسية وصياغته نظرية الامبريالية والنظرية الجديدة للثورة الاشتراكية ، ونظرية بناء المجتمع الشيوعي ؛ وكذلك الاكتشافات العلمية العديدة في القرن العشرين ، كنظرية النسبية ، والميكانيك الكوانتي ، والفيزياء الذرية ، ونظرية ميتشورين في البيولوجيا ، واكتشاف غزو الفضاء .

• • • الخ •

(١) « ف . كامايوف » : « نشوء النبات » عام ١٩٤٣ ص ٤٤ .

ليس تاريخ الفكر هو ، وحده ، عبارة عن وحدة الاستمرار والانقطاع ، وحدة التدرج وانقذرات بل أن أية عملية من عمليات المعرفة هي هذه الوحدة . لا بد من تراكم كمي متواصل من الوقائع والملاحظات على مستوى المعرفة الحسية من اجل الانتقال الى التعميم الذي يعني قفزة من احدى درجات المعرفة إلى درجة أخرى - من التأمل الحي الى التفكير المجرد . وهذه الفقرة تعني تعميق المعرفة ، والانتقال من دراسة الظواهر الخارجية الى جوهرها .

إن منظومة العلوم العديدة تعكس وحدة استمرار الطبيعة وانقطاعها . وكل علم من العلوم ، سواء منها علم الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو البيولوجيا ، أو العلوم الاجتماعية الأخرى ، يدرس الأشكال المختلفة للحركة ، وهي الأشكال التي تميز نوعياً فيما بينها . ومع هذا فالعلوم كلها مرتبطة بعضها في منظومة علمية واحدة ، لان العلوم تعكس النواحي الفردية للمادة المتحركة ، للطبيعة الواحدة التي لا حصر لتوعها . وكما أن الطبيعة مستمرة ومتقطعة ، كذلك العلوم فهي موحدة ، مستمرة (أي مرتبط بعضها ببعض) من جهة ، ومتقطعة (أي منفصلة) ، من جهة أخرى .

٣ : - تنوع اشكال الانتقال من النوعية القديمة

الى النوعية الجديدة

إن الديالكتيك المادي غير محدود بالفكرة القائلة بأن الانتقال من نوعية الى نوعية أخرى يحدث عن طريق القفزة . فمفهوم القفزة لا يشير الى كيفية حدوث التحولات النوعية إلا إشارة عامة . في حين يتطلب الديالكتيك دراسة تعدد أنواع أشكال انتقال شيء إلى آخر ، وتنوع اشكال القفزات . ويتمتع مطلب الديالكتيك هذا بأهمية طرائقية كبيرة . انه يعتمد التحليل الحسي لأشكال الانتقال الحسية التي تتنوع في الظواهر والعمليات المختلفة تبعاً لاختلاف الظروف .

في هذا المجال تبدى أهمية طريقة لينين في معالجة القفزات في المجتمع .

لقد انتقد لينين اولئك الاشتراكيين الذين أعلنوا ، وقد عرفوا ان الانتقال من تشكيلة الى أخرى يتم عبر القفزات ، أعلنوا عن وجود قفزة بين الرأسمالية والاشتراكية • ولكنهم لم يذهبوا الى أبعد من ذلك • ان المهم ، في نظر لينين ، هو ايجاد الشكل الحسي للقفزة ، ايجاد الشكل الحسي للانتقال ، والاحاطة به ، والتعبير عنه ، والعمل من ثم وفقاً لذلك •

إن اشكال القفزات ، إن اشكال الانتقال من القديم الى الجديد ، تتحدد بطبيعة الأشياء والظواهر المتطورة ، وبالشروط الحسية التي تتطور فيها • ليس بالامكان حشر هذه الاشكال المختلفة في مخطط ما مبسط • المهم ، وقد عرفنا قانون الديالكتيك العام الذاهب الى ان كل انتقال من حالة نوعية الى أخرى انما هو قفزة ، أن نوضح الأشكال الحسية لهذا الانتقال في كل حادثة • ولنضرب الامثال الدالة على تعدد أشكال التحولات النوعية •

هنالك أشياء لا تحدث تبدلاتها النوعية الا على شكل قفزة تسبب تغير الشيء تغيراً تاماً ، دفعة واحدة • هكذا تتبدل العناصر الكيميائية نوعياً ، وهو أمر نجد تعبيره العلمي في جدول «مانديليف» • ولنلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن التبدلات الكمية التي تؤدي الى التحولات النوعية للعناصر انما تجري بشكل خاص • فلدى الانتقال من عنصر إلى آخر ، ولنقل مثلاً ، من الأوكسجين الى الفتور ، لا يوجد تعاضم تدريجي للتبدلات الكمية في شحنة النواة : ان الشحنة تزداد ، دفعة واحدة ، بمقدار وحدة ، مما يحدث القفزة ، يحدث الانتقال الى عنصر جديد • ان شحنة نواة الاكسجين تساوي 8 ، في حين تساوي شحنة الفتور 9 • وعلى هذا ، فالتبدلات النوعية ، فالقفزات ، ليست وحدها التي تسير وفق شكل خاص ، بل وكذلك التبدلات الكمية ، وذلك وفقاً لطابع الظواهر والعمليات •

لقد ألمح انجلز الى هذا عندما لاحظ الشكل الخاص لانتقال أحد أشكال الطاقة الى شكل آخر ، كتحويل الحرارة الى حركة ميكانيكية، والعكس بالعكس •

(١) عنصر كيميائي غازي لا لون له وبرائحة ثومية •

في هذا الانتقال لا توجد زيادة أو نقصان في كمية الطاقة • هنا تبقى كمية الطاقة كما كانت ولكن النوعية تتبدل • فهل يعني هذا المثل خرق قانون انتقال التحولات الكمية الى نوعية ، وان الاخيرة تنشأ من غير تبدلات كمية تمهيدية ؟ كلا • فهنا ايضاً تستدعي التبدلات الكمية تبدلات نوعية ، ولكن وفق شكل خاص • ان الانتقال من شكل حركة الى شكل آخر ، هو دائماً ، كما يقول انجلز ، عملية تتم ، على أقل تقدير ، بين جسمين ، يفقد احدهما كمية معينة من حركة ذات نوعية ما (كالحرارة) ، في حين ينال الجسم الآخر كمية مناسبة من الحركة من نوعية ما (كالحركة الميكانيكية ، والكهرباء ، والتحلل الكيميائي)^(١) •

ومهما تمايزت القفزات (اي الانتقال من نوعية إلى أخرى) في شكلها فان جوهرها يبقى واحداً ، إنها ، في أي شكل كانت ، عبارة عن انقطاع في التطور ، عبارة عن تبدل جذري ، عن تحول الشيء ، عن القضاء على القديم ونشوء الجديد • وقد أشار انجلز ، في حديثه عن شكل الانتقال التدريجي من نوعية الى أخرى ، الى أن الانتقال من شكل حركي الى شكل آخر ، يبقى دائماً ، مع اعتبار التدرج كله ، عبارة عن قفزة ، عبارة عن انعطاف حاسم^(٢) •

هناك من يعتقد أن القفزة لا بد لها وان تتم بشكل فعل خاطف • ولا شك أن القفزات ، كما سبق ان قيل من قبل ، هي ، بالنسبة الى مراحل التطور الارتقائي ، عبارة عن شكل للتطور أسرع وأشد • ولكن هذا لا يدعو الى الاستنتاج بأن القفزات مرتبطة بفترات زمنية محددة على وجه الدقة • لقد نبه لينين في مقاله عن « المهمات المرحلية للسلطة السوفيتية » ، مشيراً إلى مهمة بناء الحياة الاشتراكية الجديدة والديموقراطية السوفيتية ، ومهمة اجتذاب الجماهير الواسعة الى الادارة الحكومية ، نبه الى أن هذه المهمة لا يمكن أن تحل في لحظة واحدة • وكتب في معرض انتقاده اولئك الذين يظنون ان القفزات من هذا

(١) انجلز : « دياليكتيك الطبيعة » ص ٣٩ •

(٢) انجلز : « أنتي دوهرينغ » ص ٦٣ •

النوع يمكن أن تتم دفعة واحدة ، كتب يقول : « ان اكثرية اولئك الذين يسمون أنفسهم بالاشتراكيين ، والذين قرأوا عن الاشتراكية في « الكتب » ، ولكنهم لم يتعمقوا في الأمور الجدية ، ان أكثرية هؤلاء لا يستطيعون فهم ان مؤسسي الاشتراكية قد سميا الانقطاع من وجهة نظر انعطافات التاريخ العالمي ب « القفزة » ، وأن القفزات من هذا النوع تستغرق فترات تبلغ عشر سنين وربما اكثر «^(١) . وعندما سمي لينين فترة التحويل الاشتراكي للمجتمع ، بمجملها ، عصر « القفزات الكبرى » أشار إلى أنه يحدث ، في نطاق القفزة الكبيرة ، عدد كبير من القفزات في مختلف نطاق الحياة الاجتماعية . فبعض القفزات يمكن أن تحدث بسرعة ، في حين يتطلب بعضها الآخر عملاً دقيقاً يستدعي الصبر ، ووقتاً طويلاً . وعلى هذا فمدة حدوث هذه القفزة أو تلك تتحدد بخصائص العملية ، تتحدد بجوهر التبدلات الحادثة ، وهنا لا يمكن تطبيق أي نموذج جاهز .

لقد اكتسبت قضية تعدد أشكال الانتقال من القديم الى الجديد ، في الظروف الحديثة ، أهمية كبيرة نظرية ، وعملية . إن كثيراً من البلدان المتباينة في مستواها الاقتصادي والسياسي والثقافي ، وفي تقاليدنا التاريخية ، تسير في طريق الاشتراكية . وستسير على هذا الطريق أيضاً ، دول العالم الاخرى ، عاجلاً أم آجلاً . إن نظرية المادية الديالكتيكية عن القفزات ، باعتبار هذه القفزات مرحلة حتمية ، وعاملاً ضرورياً في كل تطور ، إن هذه هذه النظرية تضع ، بصورة فلسفية ، قانونية الثورات الاجتماعية وضرورتها . لقد سلحت الفلسفة الماركسية البروليتاريا وحزبها بوعي ضرورة التحضير للثورة الاشتراكية وتنفيذها ، وبدون هذه الثورة لا يمكن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية . ولكن ما هي الاشكال الحسية التي تتم بها هذه الفقرة الثورية العظيمة ؟ انه أمر موقوف على جملة من الظروف . لقد أشار المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفيتي ، في عام ١٩٥٦ ، الى قانونية تعدد أشكال الانتقال ،

(١) لينين : « المؤلفات » الجزء ٢٧ ص ٢٤٣ .

ثورياً ، من الرأسمالية الى الاشتراكية • (وهو أمر سنتحدث عنه مفصلاً في الفصل الخامس عشر) •

أما في الاشتراكية ، فان القفزات ، أي انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية ، والعلاقة بين الشكل الارتقائي والشكل الثوري للتطور ، تتمتع بجملته من الخصائص الهامة التي تميزها عن التطور في شروط المجتمع القائم على التناقضات • وأهم خاصة هو انعدام الثورات السياسية ، الى الأبد ، في المجتمع الاشتراكي ، وذلك خلافاً للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المتأخرة التي تأخذ فيها القفزات الثورية ، والانقطاعات الكبرى في تطور المجتمع ، شكل ثورات سياسية ، واصطدامات اجتماعية حادة ، وتصادم بين الطبقات • في الاشتراكية تنعدم الطبقات المعادية للتقدم الاجتماعي ، كما لا يحتاج تعييد الطريق أمام تشكيلات اجتماعية اقتصادية جديدة أكثر تقدماً ، إلى الاطاحة بالسلطة السياسية القائمة • ولما كانت الدولة الاشتراكية ، المثلة الحقيقية للمجتمع ، و « المنظمة الشعبية العامة » ، كما جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ، لذا فهي تهتم أشد الاهتمام بتطوير المجتمع تطويراً شاملاً ، وبناء الشيوعية •

ثم ان مراحل التطور الارتقائي ، في المجتمع القديم ، وهي المراحل التي نضجت فيها شروط القفزة الثورية ، كثيراً ما اشتملت ، بصورة عامة ، على فترات زمنية طويلة جداً • وهو أمر يجد تفسيره في عفوية تطور المجتمع في الماضي ، وفي أن الطبقات السائدة أبدت مقاومة ضارية ضد التبدلات الاجتماعية التي كانت تهتم قوى اجتماعية طليعية جديدة • أما في المجتمع الاشتراكي فيتم التطور ، يتم الانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية ، في أعقاب نشاط الجماهير الواعي ، بقيادة الحزب الشيوعي ، وفق القوانين الموضوعية الموعاة • ونتيجة لذلك فان وتيرات التطور الارتقائي ، ومراحله ، واعداد التبدلات الضخمة ، تصبح أكثر قصراً ، كما يتسارع سير التطور الاجتماعي •

وبما أن الطبقات السائدة في المجتمع القائم على التناقضات تقاوم التحولات

التي نضجت في القضايا الاجتماعية ، فان فترات التطور الارتقائي ، وفترات التطور الثوري منفصل بعضها عن بعض ، بشكل حاد . ان تراكم قوى الجديد ، انقادة على تحطيم مقاومة القوى الرجعية المدافعة عن القديم يتوالى الى زمن ما ، وما ان تتم هذه العملية حتى يحين وقت القضاء على القديم ، حتى تحين القفزة ، الثورة التي تنفذ التبدل النوعي .

أما في المجتمع الاشتراكي ، فعلى العكس ، لا وجود لهذا الفصل الحاد بين مراحل أشكال التطور التدريجية وأشكال التطور القفزية . وهنا أيضاً ، يحضر التبدل الكمي ، كما رأينا من قبل ، قفزة نوعية من شكل خاص . كما لا يمكن ، هنا أيضاً ، حدوث التبدلات النوعية من غير تبدلات كمية اعدادية . بيد أنه لما كانت قد انعدمت هنا العوائق في طريق التبدلات النوعية الناضجة ، التي نصادفها في المجتمعات التناحرية ، فان هذه التبدلات تحدث مع نشوء مقدماتها ، عن طريق تحول الوضع النوعي السابق الى وضع جديد تحولاً تدريجياً . ونتيجة لهذا ، فان اكثر ما يسم المجتمع الاشتراكي (شأنه شأن المجتمع الشيوعي المقبل) هو تدرج التبدلات النوعية ، وهو أمر لا ينفى ، طبعاً ، التبدلات الحادة التي تحدث دفعة واحدة ، مثلاً ، في مجال العلم والتكنيك وغيرها .

لقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي الذي أعطى الأساس العلمي للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، ما يلي : « إن تحول الاشتراكية ، تدريجياً ، الى الشيوعية ، هو قانونية موضوعية . . . »^(١) . ان عمليات هذا التحول الأساسية ستجري ، تدريجياً ، كلما نضجت المقدمات الضرورية من مادية ونفسية . فمع التطور التالي للديموقراطية الاشتراكية مثلاً ، « يحدث تحول السلطة الحكومية التدريجي الى هيئات ادارة اجتماعية ذاتية » . وفي عملية حل قضية إرساء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ، وتعاضم الثروة الاجتماعية ، « يحدث الانتقال التدريجي إلى الملكية الشعبية العامة الوحيدة ، . . . الخ » .

(١) برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي ص ٦٢ .

وفضلاً عن ذلك فلا بد من اعتبار أن نشوء بذور النوعية الجديدة ، وعملية تراكمها التدريجي ، لا يعني ، بعد ، تبدل الظاهرة النوعي ككل ، بل يعني ، فقط ، تحضير هذا التبدل • ولكي يحدث مثل هذا التبدل لا بد من زمن معين •

إن برنامج الحزب يقرر ، مثلاً ، ضرورة انقضاء فترة عشرين عاماً من تطوير الوطن السوفيتي اقتصادياً وثقافياً تطويراً من جميع الوجوه ، حتى يبني المجتمع الشيوعي فيه ، من حيث الأساس • هذا الزمن هو فترة القفزة ، والانتقال من الاشتراكية إلى الشيوعية • إن المجتمع الشيوعي سيولد نتيجة لهذه القفزة الجبارة • ويعني تدرج التبدلات النوعية أنه لا يسمح بالقفز عبر مراحل لم تقطع ، لا يسمح بالقفز عبر درجات التطور ، وإن الأشكال الجديدة للحياة لا تنشأ إلا بعد تحضير مقدماتها ونضجها •

إن تصور التدرج في التبدلات النوعية كعملية جمع حسابية بسيطة للعناصر النوعية الجديدة ، النامية ، عبارة عن تبسيط للقضية يشوهها • الواقع أن هذه العملية هي على جانب أعظم من التعقيد • فيها لا تجمع بذور النوعية الجديدة جمعاً فحسب ، بل وتتكامل ، وترتفع إلى درجة جديدة أعلى ، وتتطور على أساس دائم التبدل • لهذا تحدث ، خلال سير التبدلات النوعية التدريجية ، تبدلات بنوية للظواهر • هكذا يتطلب تحول الدولة الاشتراكية التدريجي إلى إدارة ذاتية شيوعية ، تحسين الأشكال التنظيمية لإدارة التطور الاقتصادي والثقافي ، واستبدال الأشكال البالية بأخرى جديدة ••• الخ • أي أن الميكانيكية الإدارية كلها ستعاني تبدلات بنوية • وهذا التعقيد ، هذا التحسين في الأشكال النوعية تمكن مشاهدته حتى في مثال التطور التدرجي للعلاقات الشيوعية نحو العمل • القضية لا تنحصر فقط في نمو العلاقات الجديدة نحو العمل واتساعها ، بل وفي نشوء أشكال متزايدة التكامل ، تعبر عن درجات ومراحل أعلى في هذه العملية • تكفي لاثبات ذلك مقارنة أشكال الممارسة الاشتراكية التي كانت في المراحل الأولى من بناء الاشتراكية بالحركة الحديثة للملائم الشيوعية •

ولاشك أن مبادرة الجماهير البناء ستوجد ، في المستقبل ، أشكالاً جديدة للعمل الشيوعي ، أكثر تطوراً مما هي عليه الآن •

ان سمة التطور هذه هي احدى أهم خواص التدرج بصفته شكلاً خاصاً للتبدلات النوعية في شروط الاشتراكية وبناء الشيوعية •

وهكذا يتبدى قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، كما رأينا، تدياً خاصاً في العمليات المختلفة وفي الظروف التاريخية المتباينة • كما أن أهمية هذا القانون الطرائقية تكمن في أنه اولاً ، يشير الى طريق التطور العام الشامل لجميع ظواهر العالم الموضوعي • كما تكمن ، ثانياً ، في أن هذا العام يتطلب للقيام بالعمل بنجاح أعظم ، أن نجد ، ونلتقط ، ونفهم ، بشكل محسوس ، أشكال الانتقال النوعية الخاصة التي تعود لكل حادثة على انفراد •

•

الفصل السابع

قانون

وحدة وصراع المتناقضات

لقد رأينا ان قانون انتقال التبدلات الكمية الى كيفية ، يعكس ناحية من نواحي التطور الهامة ، ويكشف عن « ميكانيكية » سير التحولات النوعية للأشياء .
الا أن نظرية انتقال التبدلات الكمية الى كيفية لا تجيب على سؤال ما هو مصدر كل تطور ، بما فيه انتقال التبدلات الكمية الى كيفية . يجيب على هذا السؤال قانون دياكتيكي آخر ، هو قانون وحدة وصراع المتناقضات ، قانون التناقضات كمصدر للتطور .

يقول لينين عن نظرية التناقضات بأنها « نواة » الديالكتيك الماركسي التي هي مفتاح فهم جميع نواحي وعوامل التطور . أهمية هذا القانون تساعد على النفوذ الى أعماق جوهر الأشياء والعمليات ، والتعرف الى الروابط والعلاقات المتناقضة القائمة بين النواحي المختلفة للأشياء المنفردة ، وكذلك بين الأشياء المتباينة . وقانون انتقال التبدلات الكمية الى التبدلات الكيفية ، الذي سبق ان درسناه ، هو أيضاً احد انعكاسات التطور عبر التناقضات . لقد رأينا ان نمو التبدلات الكمية يستدعي تناقضاً بين كيان الشيء الكمي أو النوعي . وحل هذا التناقض يتطلب الخروج الى ما وراء حدود النوعية السابقة ، وتشكيل نوعية جديدة ، والا لما امكن التطور اللاحق . والقفزة هي حل هذا التناقض . وبدون قانون وحدة وصراع المتناقضات ، لا يمكننا ، كما سنرى ، فهم حتى جوهر قانون « نفي النفي » . ان قانون صراع ووحدة المتناقضات مستقر في اساس العلاقات المتبادلة بين محتوى الشيء وشكله ، بين الجوهر والظاهرة ، بين العفوية والضرورة .

لهذا فقانون وحدة وصراع المتناقضات يحتل مثل هذا المكان الرئيسي في الديالكتيك الماركسي • ويتحدد دوره واهميته في انه يكشف عن الدوافع والمصادر الداخلية للتطور • لهذا يعتبر هذا القانون المحك الذي يكشف مدى علمية وحيوية هذه النظرية او تلك من نظريات التطور • وليس من قبيل الصدفة ان نرى اعداء الماركسية القدامى والجدد ، الذين يتوقنون الى دحض الديالكتيك ، قاموا ويقومون باعمال ضد النظرية الديالكتيكية للمتناقضات ، كمصدر ، وقوة محركة للتطور •

ولنر الآن الخطوط الرئيسية للديالكتيك الماركسي عن قانون وحدة وصراع المتناقضات •

١ : الاشياء والظواهر كوحدة المتناقضات

صراع المتناقضات هو مصدر التطور

السمة الاساسية المميزة للنظرة الميافيزيكية عن العالم هي نفي الناقضات الداخلية للظواهر وعمليات العالم الموضوعي • لا شك ان الميافيزيكيين يعترفون بأن بين الاشياء المختلفة يمكن ان توجد وتوجد فوارق وتناقضات • الا انهم ينكرون اطلاقاً امكانية التناقضات الداخلية في الشيء أو الظاهرة ، أو العملية ، الواحدة • ويعتبر الميافيزيكيون أن لا صحة للفكرة القائلة بأن الشيء المعين يتضمن في نفسه شيئاً آخر ، نتيجة ما يحوزه من نواح وميول متناقضة • ففي رأيهم ان الفكرة وحدها ، وهي الفهم الذاتي للأشياء ، يمكن ان تكون تناقضية داخلياً ، الا أنها تصبح آنذاك خاطئة ، غير صائبة •

لقد أسس أرسطو القانون المنطقي الشكلية للمتناقضات • وبموجب هذا القانون لا يمكن ان نقول احكاماً متناقضة عن الشيء المأخوذ في علاقة واحدة ، وفي زمن واحد • هذا القول لاشك في صحته • فالانسان الذي يؤكد بأن هذا النمط موجود وغير موجود، يحق لنا تماماً أن نقول عنه إنه غير صحيح التفكير • الا أن أرسطو ذاته ، الذي عبر بصحة عن هذا المبدأ للتفكير المستقيم

منطقياً، والذي لاتناقض فيه، توصل الى نتيجة خاطئة مفادها أن التناقضات الداخلية في الاشياء الموجودة موضوعياً غير ممكنة • انه يقول : « اذا كان ليس بالامكان أن نكون صادقين في قولنا ، عندما نؤكد وننفي في وقت واحد شيئاً ما ، كذلك فليس بالامكان اعطاء تعريفين متناقضين في وقت واحد لشيء واحد » •

لاشك اننا لا نستطيع القبول بذلك • فلا ينبغي اطلاقاً ان نستنتج من قولنا بأن « الاعتراف ، في وقت واحد ، بوجود شيء معين ، ونفي وجوده هو فكرة غير صحيحة » ان نستنتج بأن الشيء الموجود حقيقة ، لا يتمتع بخصائص داخلية متناقضة • فليس صحيحاً أن نعتبر انعكاس هذه التناقضات الداخلية في محاكمتنا فكرة غير صحيحة • بل على العكس من ذلك ، فكلما عكس التفكير الانساني التناقضات الداخلية للظواهر ، والعمليات ، بعمق ، وعى هذا التفكير تلك التناقضات بشكل أحسن وأتم • فليس عجيباً ، لهذا ، أن تبرز منذ الخطوات الاولى لتطور التفكير الفلسفي ، فكر عن التناقض الداخلي لظواهر الطبيعة • هذه الفكرة طورها في القديم الفيلسوف اليوناني هيراقليط ، فقال ان كل شيء موجود ، وفي الوقت نفسه غير موجود ، لان كل شيء يجري ، كل شيء يتبدل باستمرار ، كل شيء موجود في عملية مستمرة للنشوء والانعدام • وقد شبه هيراقليط العملية العالمية للتبدل الخالد ، بسيل ، بنهر : « فلا نستطيع في وقت واحد أن نغطس في نهر واحد مرتين » • وابرز هيراقليط فكرة عميقة عن مصدر الحركة والتطور حين قال « كل شيء يحدث عبر النضال » • وفي مؤلفات اريسطو توجد أمثلة عبقرية عديدة عن الديالكتيك، كما توجد تلميحات منفردة عن التناقض الداخلي للاشياء • كما وجدت هذه الفكرة في الفلسفة الهندية والصينية القديمة •

وفي القرنين ١٧ ، ١٨ ، في فترة سيطرة النظرة الميكانيكية والميتافيزيكية عن العالم ، انتشر القول بأن اشياء الطبيعة وظواهرها حرة من التناقضات الداخلية • هذا النقص فرضه وضع العلوم الطبيعية آنذاك • وفيما بعد انتشرت في الفلسفة البرجوازية النظريات التي تنكر وجود التناقضات الداخلية في الاشياء رغم المعطيات العلمية ، لان ذلك يوطد اوضاع البرجوازية ومصالحها

الطبقية • كان في صالح الايديولوجيين الراسماليين ان يتصوروا القضية ، كما لو أن المجتمع البرجوازي خال من التناقضات الداخلية ، وهو مثال الانسجام الطبقي والسلم •

ويحتل (هيغل) مكاناً خاصاً بين الفلاسفة البرجوازيين في مرحلة ولادة الراسمالية • ففي الديالكتيك الهيجلي خصص مكان هام للتناقضات ، وصراع التناقضات كمصدر للتطور • ورغم أن هذه الافكار طورت في شكل مثالي وغير صائب ، فهي على كل حال وجهت ضربة للنظرة المثالية عن العالم ، التي تنكر واقع التناقضات ، وصراع التناقضات • كما يبذل الفلاسفة البرجوازيون العصريون كل ما في وسعهم ادحض تعليم الديالكتيك عن التناقضات • والسمة المميزة لهجومهم على انديالكتيك هي تفهيم التناقضات في الأشياء ذاتها ، ونقلها الى ميدان الوعي والافكار • وهذا هو شأن الهيجلية الجديدة ، احد التيارات الرجعية في الفلسفة البرجوازية لعهد الامبريالية • ان الهيجليين الجدد ينتقدون هيغل لاعترافه بتناقضية الكائن ، ويدعون تناقضات الاشياء « أوهاماً » • وفي رأيهم أن التناقضات يمكن أن توجد في التفكير فقط • ف « سيدني هول » أحد ممثلي البراغمية ، والفيلسوف الأميركي الرجعي ، يخشى الاعتراف بوجود التناقضات الداخلية في الظواهر والأشياء ذاتها ، وذلك خاصة لأن ديالكتيك تطور التناقضات الداخلية في المجتمع الراسمالي ، يولد النضال الطبقي ، والثورات الاجتماعية •

ان كثيراً من الفلاسفة البرجوازيين ، وحتى في زماننا هذا ، يضطرون الى الاعتراف بحقيقة التناقضات ، ولكنهم يحاولون القول بأن التناقضية والتناحر القائمين مثلاً في الحياة الاجتماعية للمجتمع الراسمالي ، هما خالدان ، ولا حل لهما ، وبأن جوهر العلاقات المتبادلة بين الطبقات كأنه مستقر في عدم امكانية التغلب على التناقضات الاجتماعية •

وهناك آخرون ، يرون التناقضات ، بل ويشيرون الى اهميتها ايضاً ، ولكنهم يعتبرون أن حلها ممكن فقط في ميدان الدين • ويقول أحد أنصار هذه

الأفكار « لا يمكن حل التناقضات في الواقع الحي ، بل يمكن فقط وعيها في صلاتها . ويبدو أن الشعور الديني هو المهيا وحده للتغلب عليها على أساس ما سام لاعقلاني .

واعظم ما يتميز به انفلاسة البرجوازيون هو ميلهم الى اخفاء المتناقضات، والصراع فيما بينها ، والدفاع عن فكرة المسألة بين هذه المتناقضات . وهذا ما يتميز به أيضاً الاصلاحيون والانتهازيون العاملون في الحركة العمالية . وهم يعملون كذلك على ستر التناقضات الطبقيه في المجتمع البرجوازي ، وينشرون نظرية الم المة بين الطبقات .

وامام النظرة الميتافيزيكية عن العالم ، التي تنكر المتناقضات كمصدر للتطور في العالم الموضوعي ، يقف الدياليكتيك الماركسي بتعاليمه عن وحدة وصراع المتناقضات . وهو اذ ينطلق من المعطيات العلمية الموضوعية ، والتجربة التاريخية الانسانية ، يؤكد أن جميع الاشياء والظواهر ذات تناقضات داخلية ، وأن كل شيء : هو وحدة متناقضات ، وحدة أوجه وخصائص ونزعات متضادة . ان كل أشياء العالم المحيط بنا ، وظواهره تتمتع بناحية ايجابية ، وأخرى سلبية . لها ماضيها ولها مستقبلها . فيها ما مضى زمانه وهو في طريقه الى الموت ، وفيها ما هو في طريق النمو والتطور . وصراع هذه الاتجاهات المتناقضة التي تحتويها الاشياء وظواهر العالم الموضوعي ، هو مصدر التطور ، وهو القوة المحركة له .

واذا كنا نفهم الشيء ، والظاهرة على أنهما كتلة من تطابق مطلق ، فمهمة العلم تنحصر في التغلب على خطيئة الوعي هذه ، وفي كشف تناقضات الشيء الداخلية . وكما يدلنا تاريخ العلم ، فان هذه التناقضات لا بد لها من أن تتكشف عاجلاً أم آجلاً . ولا يمكننا وعي الأشياء ، وجوهرها وقوانين تطورها ، الا عن طريق كشف التناقضات الداخلية .

ان نجاحات العلم في السنوات العشر الاخيرة تضرب لنا الامثلة الباهرة التي تؤكد صحة الدياليكتيك . وكلما تعمق العلم في نفوذه الى جوهر ظواهر الطبيعية ، تبدى طابعها التناقضي الداخلي بشكل أوضح . وتتمتع منجزات الفيزياء

الذرية النووية في هذا المجال ، بمنزلة خاصة • لقد سبق لنا أن تحدثنا عن الذرة كوحدة جزئيات ذات شحنات متعاكسة • فبين جزئيات الذرة ، وكذلك داخل النواة الذرية تعمل قوى الجذب والنبذ • وهذه التأثيرات المتقابلة بين القوى المتناقضة هي التي توضح العمليات الحادثة داخل الذرة والنواة • وهذا يؤيد صحة تأكيد انجلز القائل « بأن الجذب والنبذ لا ينفصلان عن بعضهما بعضاً ، شأن السالب والموجب » • ولقد اثبتت الفيزياء الحديثة أن الساحة والشيء (مثلاً الاليكترون) يمثلان بطبيعة بنيتهما وحدة داخلية بين هذه المتناقضات مثل الخصائص الجسيمية (الكوربوسكولارية) والتموجية • وهذا ظفر حقيقي للديالكتيك •

علينا ان نفرق بين التناقضات الداخلية والتناقضات الخارجية • فنحن نفهم من التناقض الداخلي ، العلاقة المتبادلة بين ناحيتين متناقضتين للشيء ، عندما تفرض وتشرط احدهما الأخرى ، في وقت واحد ، كما تنفي احدهما الاخرى ، وتتبادل معها • وفي نطاق الوحدة الكلية لا يستطيع ناحية من التناقض أن توجد من دون الأخرى ، وفي الوقت نفسه ، ونتيجة طابعمها التناقضي ، تنفي ناحية وتنبذ الناحية الأخرى • فهذه العلاقة المتبادلة ، وهذا النفي المتبادل هما السمة الاساسية للتناقض الداخلي • وهو أمر نستطيع رؤيته في اي مثل على الظواهر والمفاهيم المتناقضة : كالسلبى والايجابى ، القطب الشمالى والجنوبى ، الضوء والظل ، الجذب والنبذ ، الزائد والناقص ، الخير والشر • فبين جميع هذه المفاهيم توجد علاقة الارتباط المتقابل ، والتبادل المتقابل • كل منهما هو ضد الآخر ، ونفيه ، وفي الوقت نفسه وجوده الخاص ، مشروط بذلك الآخر • ان التناقض الداخلي تمكن رؤيته في مثل اسط شكل للحركة: انتقال الجسم في المكان • ان الحركة هي تناقض واضح • فلا يمكننا ان نتحدث عن الجسم المتحرك بأنه موجود ، في اية فترة من الزمن ، فقط في نقطة معينة واحدة •

صحيح اننا لا نخطئ اطلاقاً عندما نقول مثلاً ان القطار المتحرك موجود في فترة معينة ، في نقطة معينة ، وفي فترة زمنية اخرى ، في نقطة اخرى • هذا

التأكيد كاف لفهم شيء بسيط ، كمكان وجود القطار • الا انه غير كاف للتعبير عن جوهر الحركة • ذلك التأكيد يصف نتيجة الحركة لا جوهر الحركة ذاتها • وعندما نحاول فهم الحركة ، نصطدم بالتناقض : فالجسم المتحرك موجود في برهة معينة ، في نقطة معينة من المكان ، ولكنه لم يعد في هذه النقطة ، اي موجود في هذا المكان المعين وفي غيره •

ولقد حاول نقاد الديالكتيك اكثر من مرة دحض هذا الطابع التناقضي للحركة • انهم يقولون بأن الجسم المتحرك ، موجود ، عملياً ، في فترة زمنية معينة في مكان معين ، وفي فترة اخرى ، في مكان آخر • اي أنهم لم يأخذوا الا جانباً واحداً من الحركة (الانقطاع) ليجمعوه مطلقاً : فالمكان الذي عبره الجسم قسموه الى عدد من النقاط وانقطع المنفصلة بعضها عن بعض ، وقالوا بأن الجسم المتحرك موجود اما في هذه النقطة من المكان أو في تلك •

اما في الواقع فالحركة ليست توقفاً فقط ، بل واستمراراً ، والا لما امكن انتقال الجسم المتحرك من نقطة الى أخرى • فنقاط المكان المنفصلة ليست مستقلة عن بعضها بعضاً (انقطاع) ، بل ومرتبطة فيما بينها • وهذا الارتباط ليس غير استمرار المكان • فكل من الوضعين المتناقضين ، الانقطاع والاستمرار ، يفترض الآخر ، ويوجد فقط في وحدة معه • يقول لينين : « ان الحركة هي وحدة الاستمرار (الزمني والمكاني) والانقطاع (الزمني والمكاني) • ان الحركة هي تناقض ، هي وحدة التناقضات » •

ان القول بأن الجسم المتحرك يوجد ، في كل فترة زمنية ، فقط في نقطة معينة من المكان ، يميث الحركة • وتتحول هذه الى عدد من حالات السكون • في حين أن الحركة ، في الواقع ، هي وحدة السكون والتبدل : فلا شك أن الجسم المتحرك هو قائم في مكان معين ، وفي الوقت نفسه غير قائم فيه • هذان التناقضات (سكون وحركة) مرتبطان فيما بينهما ، وينفي احدهما الآخر • وخارج وحدة التناقضات هذه ، تنعدم حتى أبسط الحركات ، وهي الحركة الميكانيكية ، أي انتقال الجسم في المكان •

ان ما قيل اعلاه يطبق على اي شيء وظاهرة وعملية في العالم الموضوعي •
فلكل تناقضاته الداخلية وكل واحد هو « وحدة المتناقضات » •

ان التناقض الداخلي، إن وحدة النواحي والاتجاهات المتناقضة في الشيء، لا بد وان يشترط الصراع بين النواحي المتناقضة • والصراع بين المتناقضات هو النتيجة الطبيعية ، القانونية لواقع ان المتناقضات داخل الشيء يشترط ، في وقت واحد ، بعضها بعضاً ، وينفي بعضها بعضاً • فلو أن النواحي المتناقضة اشترطت وتطلبت بعضها بعضاً فقط ، دون أن ينفي بعضها بعضاً ، لما أمكن آنذاك وجود صراع بينها • وكذلك لو أن النواحي المتناقضة تنفي بعضها بعضاً فقط ، دون أن توجد في وحدة ، دون أن يرتبط ويتعلق بعضها ببعض ، لما أمكن ايضاً قيام حالة صراع بينها •

إن الفلاسفة والاقتصاديين البرجوازيين ، حتى ولو اضطروا الى القول بتناقضات الرأسمالية ، يشيرون الى عامل واحد فقط ، الى ناحية واحدة من العلاقة المتقابلة بين المتناقضات ، الى وحدتها ، وتطابقها ، دون ان ينبشوا بنشئة عن الناحية الثانية ، عن نفي بعضها بعضاً ، عن التناقض فما بينها • هذه الطريقة تجعلهم يتصورون المتناقضات موجودة بعضها الى جانب بعض دون أن ينفي بعضها الآخر ، ويصارع أحدهما الآخر • وهكذا يغمض الطرف عن تلك القوة التي تدفع التطور الى الامام ، وتكون مصدر كل تطور ، اي الصراع بين الطبقات المتناحرة ، بين المصالح والنزعات الطبقيّة •

ونرى في الديالكتيك الهيجلي ، الى جانب الفكرة العبقريّة القائلة بأن التناقض يدفع الى الامام ، انه يقوم ميل الى المسألة بين المتضادات • وفي هذا الميل ، يبرز ، بلا شك ، الطابع البرجوازي للفلسفة الهيجلية ، وعدم رغبة هيجل باستخلاص جميع النتائج من الديالكتيك ، « ابجدية الثورة » •

هذا وان النواحي المتناقضة داخل الشيء ، لاتقف الواحدة من الاخرى موقف اللامبالاة • فكل ناحية ، من نواحي التناقض تجسد ميلاً ما : السلبية أم الايجابية ، التأثير أو عكس التأثير ، الثورية أو المحافظّة ، ما فات أو انه وما

بدأ حياته ... • ولما كانت هذه الميول المتناقضة قائمة في الوحدة ، وتوجد في الشيء الواحد ، في جوهره ذاته ، فانها لاتقف موقف اللامبالاة الواحدة من الأخرى ، بل يجري الصراع بينها •

ثم ان التناقض القائم بين الميول ، لا بد له عاجلاً أم آجلاً ، وعلى هذا الشكل او ذلك ، ان يجد حله • فعلى أية صورة يحل؟ ان الديالكتيك الماركسي يجب قائلاً « عن طريق صراع المتناقضات » •

من هنا تتأني الأهمية العظمى للصراع بين المتناقضات في التطور • ان حل « النزاع » بين الميول المتناقضة التي تحتويها الظواهر والاشياء ، انما هو في الصراع ، وعن طريق الصراع • وكما أن الحقيقة تنشأ وتبلور في الجدل ، في اصطدام وجهات النظر ، والافكار ، والآراء ، المختلفة ، فان التطور يعبد لنفسه طريقه الى الأمام ، في الصدام ، في صراع النواحي والقوى والميول المتناقضة الخاصة بالشيء : كل ما يعيق التطور صائر الى الفشل ، ولا يظفر في نهاية الحسابات الا ما هو حامل للتطور • وهذا يعني أن صراع المتناقضات هو القوة المحركة للتطور •

لو انه لم يكن هناك تناقضات داخلية في الاشياء والظواهر ، لو انه لم يكن صراع بين النواحي والاتجاهات المتناقضة ، لبقيت الاشياء والظواهر غير متبدلة ، ولما أمكن حدوث التطور ، والتبدل النوعي ، ولبقي كل شيء في حالة الجمود • لو لم تقم ، مثلاً ، الطبقات الطليعية في المجتمع بنضال ضد الطبقات التي انقضت زمانها ، لما انحلت التناقضات القائمة بين الطرفين ، ولعجز المجتمع عن التحرك الى الامام ، والتطور • لهذا فالماركسية تبقى غريبة عن الافكار الانتهازية القائلة بانسجام الطبقات المتعادية • ان الشيوعيين هم الأنصار الحازمون للنضال الطبقي ، لان هذا النضال هو القانونية الموضوعية للمجتمع المنقسم الى طبقات متناحرة • وليس هنالك من طريق آخر لتطور هذا المجتمع ، واستبدال الجديد الطليعي بالقديم المنخور • ان تعاليم الديالكتيك الماركسي عن صراع المتناقضات يتمتع ،

كما نرى ، بأهمية ثورية عظمى : لانها تفسر فلسفياً قانونية النضال الطبقي ،
في المجتمع المقسم الى طبقات متناحرة •

لهذا أشار لينين عندما أبان السمة المميزة لجوهر التطور ، قائلاً « التطور
هو صراع المتناقضات » • هذا التعريف شمل الأمر الاساسي في التطور ، اي
مصدره ، والقوة المحركة فيه •

إن صراع المتناقضات هو عملية معقدة لنشوء وتطور وحل التناقضات •
ولهذه العملية درجاتها ومراحلها ، وطابعها الخاص في كل درجة من هذه
الدرجات • وتعبير آخر ، إن التناقضات الحسية ذات امتداد يطول أو يقصر ،
فيه بداءة واستمرار ونهاية •

ولاشك ان هذا لايعني بأن الشيء ، في درجة معينة من درجات تطوره ،
يمكن ان يمثل انسجماً مطلقاً ، أي خالياً من أي تناقض • ليس بالامكان اعتبار
الشيء منسجماً تماماً في البداءة ، ثم تنشأ فيه فيما بعد التناقضات • في الواقع ،
الاشياء تلازمها دائماً جملة من التناقضات المتنوعة ، سواء أكانت ظاهرة أم
خفية • وقد قل لينين بأن الشيء هو « مجموع من التناقضات » • فاذا لم يكن
بعد ، في الشيء ، تناقض حسي معين ، أو لم يظهر بعد ، ففيه توجد تناقضات
أخرى • إن الشيء لا يمكن أن يكون انسجماً ، مطلقاً ، ميثاً • الا أن كل
تناقض حسي ، ينشأ ، ويمر في طريق معين من التطور ، وعلينا ان ننظر إليه في
حالة الحركة لا السكون •

ليس التعبير عن التناقض مصحوباً دائماً بحددة مباشرة • فهو عادة ، يتمتع ،
في المراحل الاولى ، بطابع فارق فقط ، وهو الشكل الاولي للتناقض • ثم يتحول
الفارق ، في سير التطور ، إلى تضاد ، أي الى تناقض أكثر تطوراً ، وذلك عندما
تعتمد كل ناحية من نواحي التناقض الى نفي الناحية الاخرى بحددة • مثلاً :
إن ماركس في « رسماه » بحث الطابع الازدواجي للسلعة • فالسلعة هي وحدة
المتناقضات ، وحدة القيمة الاستعمالية والقيمة • الا أن هذا التناقض لم ينشأ
دفعه واحده في شكل متطور • ففي المجتمع المشاعي الاول لم يكن الناس

منتجين للسلع قصد التبادل ، بل كانوا ينتجون المنتجات للاستعمال الشخصي • وعندما أخذت المشاعات تتبادل فيما بينها ، مصادفة ، فائض منتجاتها ، آنذاك فقط تحولت المنتجات الى سلع ، مع ما يرافق السلع من تناقض بين القيمة والقيمة الاستعمالية • ويشير ماركس الى أن التناقض المذكور ، لم يعبر عنه ، في ذلك الزمان ، بشكل واضح ، أي لم يحدث بعد ، حسب قوله ، « تناقض مستقطب » • ان كلاً من ناحيتي التناقض بدأت فقط طريق انفرادها عن الأخرى ، والوحدة لم تنقسم بعد ، بوحدة ، الى متضادين • ولكنه مع تطور التبادل السلعي ، أصبح الأمر الذي كان من قبل فارقاً فقط ، أصبح تضاداً حاداً • ان حاجات التبادل تطلبت نشوء شكل مستقل للقيمة • وانتهى « الصراع » بين القيمة والقيمة الاستعمالية ، الى ازدواجية السلعة ، أي الى سلعة ونقد • فالقيمة ، تحت شكل النقد ، انفصلت عن القيمة الاستعمالية للسلع ، ونالت وجوداً خاصاً • وحين تكلم ماركس عن التناقض في السلعة بين القيمة والقيمة الاستعمالية ، اشار الى أن هذا الوجود الازدواجي ينبغي ان يتطور الى « فارق » ، و « الفارق » الى تضاد ، الى تناقض •

إن مفهومي « الفارق » و « التضاد » يعبران عن واقع واحد ، عن التناقضية الداخلية للظواهر • الا أن كلا منهما يعبر عن تناقضية الظواهر في المراحل المتباينة من التطور ، ونمو الصراع : وهي الفوارق ثم المراحل الاولى البدائية من « المتضادات » ، ثم التطور الاعلى لاشكال الصراع •

ان نمو التناقض على أساس صراع المتضادات يؤدي ، بالنتيجة ، الى الازدواجية المتعاطمة للوحدة (الشيء) ، وهو ، في النهاية ، يبلغ درجة في تطور التناقض ، لا تستطيع معها المتضادات البقاء في الوحدة • عندئذ يحين زمن حل التناقض • ليس من حل للتناقضات الا في الصراع ، وعن طريق الصراع • ان التناقضات لاتسالم ، لكنها تتصارع • وعملية التطور ، عملية تعاطم التناقضات ، هي عملية الصراع ، التي تعد بشكل قانوني ، المرحلة الضرورية لحل هذه التناقضات •

إن حل التناقضات الأساسية ، الجذرية إنما يعني القضاء على القديم ، ونشوء الجديد . وهكذا فالتغلب على التناقض بين الوراثة القديمة في صفوف الأحياء أو النبات وبين الدلائل الجديدة الناشئة في عملية التلاؤم مع الوسط ، يؤدي إلى استبدال الوراثة الجديدة بقديمة . وحل تناقضات أسلوب الانتاج الرأسمالي الأساسية ، يؤدي بالنتيجة إلى القضاء على هذا الأسلوب ، وإلى نشوء أسلوب جديد ، هو أسلوب الانتاج الاشتراكي .

ثم أن مرحلة حل التناقضات هامة جداً في التطور . فعندما يستنفذ القديم ذاته ، ويصبح لجاماً ، عائقاً في طريق الجديد ، فإن التناقض بين القديم والجديد ينبغي أن يحل عن طريق انعدام القديم وظفر الجديد . ولا يجد التناقض ، في العمليات المعقدة ، حال نشوئه ، حله دفعة واحدة . فهل يستطيع مثلاً حل التناقض القائم بين الوراثة والتلاؤم مع المحيط ، دفعة واحدة ؟ كلا بدون شك . هنا لا بد من نمو التناقضات ، التي تخلق مقدمات حلها .

هذه الأمثلة المضروبة تبين لنا ان التطور ، ان نمو التناقضات ، يتم بالقضاء ، على القديم ، ونشوء الجديد . فمن هنا نستنتج أن أية وحدة بين المتضادات ، كما يقول لينين ، هي أمر نسبي ، مؤقت ، عابر . أما صراع المتضادات فشيء مطلق . ان وحدة المتضادات في اي شيء كان ، تظل قائمة مادام يحدث ، في حدود الشيء المعين ، نمو وتعاضم التناقضات ، اللذان يُحضّران عامل حل التناقض والتغلب عليه . وحل التناقض هو التحول النوعي للشيء المعين ، هو انعدام القديم ونشوء الجديد . ان الظاهرة القديمة التي كانت عبارة عن وحدة متضادات معينة ، تخلى مكانها لظاهرة جديدة هي وحدة متضادات جديدة . فالأقطاعية التي كانت عبارة عن وحدة الطبقات المتناحرة ، من أقطاعين واقنان ، أعقبتها الرأسمالية ، التي هي عبارة عن وحدة متضادات أخرى ، من برجوازية وبروليتاريا .

لهذا ، فإن كل وحدة معينة بين المتضادات ، مؤقتة ، عابرة ، نسبية ، شأن أية فترة من فترات السكون ، والتوازن . أما الصراع بين المتضادات

فلا يمكن ان يكون عاملاً مؤقتاً • انه عامل فعال بشكل مستمر ، والا انقطع التطور • انه هذه القوة الخلاقة التي تحمل الى الظواهر « اللاهذوء » ، ولا تسمح لها أن تكون جامدة ، ميتة • انها تعطي الظواهر الدافع نحو التبدل والتطور ، وتشرط الاستبدال الأبدى للأشكال الجديدة بالقديمة •

لو كانت فترة وحدة المتضادات ، متواصلة ، غير متبدلة ، لما كان هنالك تطور ، وتحول نوعي للأشياء • ان نسبية وحدة المتضادات هي التعبير عن أن تواصل الشيء أمر مؤقت ، وان الشيء له بداية ونهاية • أما اطلاقاً الصراع بين المتضادات فهي التعبير عن أن الحركة لا تنقطع ولو لفترة ، وأنها تقوض تواصل الشيء ، مهينة تبذله النوعي القانوني • وبهذا تفسر الصيغة الديالكتيكية الشهيرة القائلة بأن التناقض يدفع الى الأمام •

باستطاعتنا الآن صياغة جوهر قانون وحدة وصراع المتضادات • ان وحدة وصراع المتضادات هي القانون الذي بموجبه تصبح الاتجاهات والنواحي المتناقضة داخلياً ، والكائنة في حالة الصراع ، ملازمة لجميع العمليات ، والظواهر ، والأشياء • ان صراع المتضادات يعطي الدافع الداخلي للتطور ، ويؤدي الى نمو التناقضات ، التي تجد حلها في فترة معينة ، عن طريق القضاء على القديم ، ونشوء الجديد •

وقانون وحدة وصراع المتضادات ، شأنه شأن أي قانون للديالكتيك ، ليس هو قانون العالم الموضوعي فحسب ، بل وقانون المعرفة أيضاً ، قانون المنطق الديالكتيكي • وقد انتقد لينين بليخانوف لانه لم يكشف ، في بحوثه عن الديالكتيك ، وحدة المتضادات كقانون للمعرفة • ان الاهمية الأساسية لهذا القانون الديالكتيكي للمعرفة قائمة في تطلبه انعكاس التناقضات الموضوعية لتطور الواقع ، واعادة احداثها ، في المفاهيم ، والمقولات وقوانين العلم • آنذاك فقط يستطيع التفكير أن يكون صورة للواقع ، أي يعكسه بشكل صحيح • يقول لينين : « شرط معرفة جميع عمليات العالم ... في وجودها الحي ، هو معرفتها كوحدة المتضادات » • ان المفاهيم الانسانية ينبغي أن تكون حركية ، سلسلة

كالظواهر ذاتها التي تعكسها هذه المفاهيم • يقول لينين على المفاهيم أن تكون « موحدة في المتضادات كي تحيط بالعالم » ، اي كي تتعرف عليه بشكل صحيح •

حتى في أبسط المفاهيم والمحاكمات ، نجد التناقضات الداخلية للظواهر تعبر عن نفسها • فعندما نقول « الوردة هي زهرة » فنحن نعلم على مفاهيم متقابلة ، فالوحيد (وردة) والعام (زهرة) •

ان الوردة هي وحدة الوحيد والعام ، لأنها ، كزهرة : وحدة تتمتع بشيء عام ملازم لجميع الزهور • الا أن هذا التطابق ليس جامداً ، بل تطابقاً (وحدة) مع وجود فارق • لأن الوردة تتضمن في ذاتها خصائص تميزها عن سائر الزهور • لذا ، ففي محاكمتنا القائلة بأن « الوردة هي زهرة » تبرز ما يطلبه لينين من المفاهيم الانسانية ، عندما يقول : هذان المفهومان (« الوردة » و « الزهرة » هما موحدان في المتضادات ، والمحاكمة المذكورة تعكس الشيء بشكل صحيح •

وهذا الأمر نفسه يطبق ، على نطاق واسع ، على المفاهيم العلمية المعقدة ، والمحاكمات والنظريات • لنأخذ مثلاً قضية تقسيم الذرة • ان الآراء الحديثة حول السؤال المتعلق بإمكان تقسيم الذرة ام عدم هذا الامكان ، تجيب « بالسلب والايجاب » ، أي حسب قواعد التفكير الديالكتيكي • فالذرة ممكنة التقسيم بمقدار ما تتكون من جزئيات اكثر اولية (أبسط) • وهي غير ممكنة التقسيم بمقدار ما هي أصغر جزئيات العناصر الكيماوية •

والرسمال ، حسب تصور الاقتصاديين البرجوازيين ، هو النقد ، ووسائل الانتاج • ومفهوم « الرسمال » البرجوازي لا يعكس أي تناقض في الانتاج الرأسمالي • ولكن ماركس دحض مثل هذا التصور الميتافيزيكي عن الرسمال • فأشار الى أن الرسمال ، أولاً ، ليس شيئاً بل هو تعبير عن علاقات اجتماعية معينة ، وثانياً ، ان الرسمال يجسد في نفسه علاقات اجتماعية متناقضة داخلياً ،

علاقات بين الرأسماليين والعمال • فالمفهوم الماركسي عن الرسمال ، اذن ،
ديالكتيكي ، لأنه يعكس التناقضات الحياتية بشكل صحيح •

على مفاهيمنا أن تعكس ، لا فقط التناقضات الموضوعية للأشياء والظواهر ،
بل وديناميكية تطور هذه التناقضات ، وانتقال الظواهر إلى مضاداتها ، وتحول
المضادات بعضها إلى بعض • فمثلاً اشار ماركس ، عند بحثه تطور أسلوب
الانتاج الرأسمالي ، إلى ان هذا التطور ذاته يخلق ، نتيجة قوانين المجتمع
البرجوازي الخاصة ، مقدمات نفيه ، مقدمات الانتقال إلى نقيضه ، إلى المجتمع
الاشتراكي •

وعلما الديالكتيك أنه لا يوجد أي فاصل لا يمكن اجتيازه ، بين
المضادات (الايجابي والسلبي ، الخير والشر) ، وان هذه المضادات يمكن أن
يتحول بعضها إلى بعض • فالصدق هو النوعية الايجابية في الانسان ، ولكن اذا
كان الانسان باسم « الصدق » يذيع سراً حربياً لأعداء وطنه ، فان مثل هذا
الصدق يتحول إلى نقيضه ، إلى نوعية سلبية مضرّة : وبما أن بين المضادات ،
وحتى بين أكثرها تطرفاً ، لا يوجد حد مطلق ، ويستطيع كل منها التحول إلى
الأخر ، فعلى افكارنا ومفاهيمنا أن تكون مرنة ، تتجاوب مع تحولات وتحولات
الواقع الحقيقي • وهذا احد أهم متطلبات المنطق الديالكتيكي الماركسي ، أحد
النتائج الأساسية الناشئة عن تطبيق قانون وحدة وصراع المضادات على التفكير •

غير أن القضية لا تنحصر فقط في تطلب قانون وحدة وصراع المضادات
إعادة احداث الديالكتيك الموضوعي لتناقضات تطور الأشياء ، في التفكير • فعملية
المعرفة ذاتها ، ومنطق حركة التفكير من اللامعرفة إلى المعرفة ، من المعرفة القليلة
العمق إلى معرفة قوانين العالم الموضوعي ، متناقضة كثيراً • وفهم تناقضية عملية
انعكاس الواقع في المفاهيم الانسانية ، هو وحده الذي يسمح لنا برؤية طريق
المعرفة رؤية صحيحة • ان عملية المعرفة تشكل من هذه الوسائل التوجيهية
وطرق انعكاس الواقع ، المتناقضة امثال : الحسي والعقلاني ، المحدد والمجرد ،
الحقيقة النسبية والمطلقة ••• كل ناحية من هذه المضادات لا معنى لها بدون

الأخرى ، انها مرتبطة بالأخرى ارتباطاً متبادلاً ، وتنتقل الواحدة منها الى الأخرى . في هذا يجد عمل قانون وحدة وصراع المتضادات ، في نطاق المعرفة ، تعبيره الواضح .

٢ - التناقضات الداخلية والخارجية

ان ما قيل عن التطور عن طريق نشوء التناقضات الداخلية في الاشياء ، والتغلب عليها يعطينا صورة عن طابع الحركة ، او التطور . فالحركة أو التطور ، هو حركة ذاتية للمادة ، أو تطورها الذاتي ؛ والكلام لا يجري هنا عن ان التطور في الحياة الاجتماعية ، يتم بنفسه ، وبدون تدخل الناس ، وبدون نشاطهم الفعال ، أو ان الطبيعة تستطيع أن تتحول لصالح الناس بدون تأثيرهم عليها . ان مفهوم « الحركة الذاتية » يعني أن الاشياء والظواهر تحوي في نفسها دوافع او مصادر هذا التطور . ومفهوم « التطور الذاتي » موجه ضد المفهوم الميكانيكي للتطور الذي يلصق قوانين احد أشكال الحركة الميكانيكية ، الذي يفترض الدفعة الخارجية سبباً للحركة ، يلصقه بكل حركة وتطور . ان الميتافيزيكيين عندما ينشرون نظرتهم الميكانيكية على المادة ككل ، يصورون المادة كشيء جامد ، غير متحرك ، مفترضين ، خطأ ، ان قوة علياً فقط (الاله ، الروح) تبعث فيها الحركة .

أما المفهوم الديالكتيكي للحركة الذاتية ، فهو ، خلافاً لذلك ، يعكس ذلك الواقع الموضوعي القائل بان المادة ، والطبيعة ، والحياة الاجتماعية ، تحتوي في نفسها دوافع او أسباب ، أو مصادر ، التطور . إن الطبيعة نفسها تتطور حسب قوانينها الخاصة من الاشكال الدنيا الى العليا . إن الطبيعة غير الحية خلقت ، عن طريق الحركة الذاتية ، الشيء المغاير لها ، نقيضها ، اي الطبيعة الحية . والامر كذلك في المجتمع ايضاً . ليست القوى الخارجية ، بل القوانين الخاصة بتطور التشكيلات الاجتماعية هي التي تؤدي الى نشوء قوى داخل المجتمع المعين ، تدفعه الى حثفه وتحوله الى نقيضه . اما اسباب او مصادر هذه الحركة الذاتية والتحول ، فهي التناقضات الداخلية ، وتطورها ، وحلها ،

والقضاء عليها ، على اساس صراع التناقضات • يقول ماركس : « ان تطور تناقضات شكل تاريخي للانتاج ، هو الطريق التاريخي الوحيد لتفسيخه وتكوين شكل جديد » • وهكذا يتطلب الديالكتيك فهم الحركة او التطور ، كحركة ذاتية ، وكتطور ذاتي يتم تحت تأثير صراع تطور التناقضات الداخلية • الا ان الديالكتيك لا ينفي الدور الهام ، للتناقضات الخارجية ، في سير عملية التطور • كل شيء يرتبط بأشياء اخرى عديده ، ويكون على صلة متبادلة مع هذه الاشياء •

من هنا تنتج ضرورة اعتبار التناقضات الخارجية ودورها في التطور • هل من الممكن اهمال العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات وبين الشروط الخارجية لوجودها ؟ انا لا نستطيع فهم تطور العضويات من دون أخذ هذه العلاقات المتبادلة بعين الاعتبار • توجد في البيولوجيا ما يسمى بنظرية التوالد الذاتي التي تقول بأن تطور النبات والحيوان يتم عن أسباب داخلية كلياً ، متجاهلة ، في تشكيلها ، دور الشروط الخارجية للحياة ، ودور تبادل المواد بين الجسم والوسط الخارجي • وتؤدي بنا هذه النظرية الى استنتاجات مثالية لا علمية • ان تعاليم ميتشورين في البيولوجيا حطمت هذه النظرية ، وبينت أهمية تبادل المواد في تطور العالم العضوي وتبدله • ثم ان المجتمع الانساني يتطور حسب قوانين داخلية خاصة نتيجة تطور وحل التناقضات الداخلية • ولكن من السخف عدم اعتبار دور التناقضات الخارجية بين المجتمع والطبيعة • خارج الطبيعة ، لا يوجد مجتمع ، ولا يمكن له أن يوجد ولا يوماً واحداً •

فعلى الناس ، لتأمين حياتهم أن يعملوا والعمل هو تأثير الناس على الطبيعة بهدف انتاج وسائل المعيشة الضرورية • ان طابع العلاقات المتبادلة بين الطبيعة والمجتمع ، ودرجة خضوع قوى الطبيعة العفوية للانسان يتعلقان بمستوى تطور القوى الانتاجية • إن المجتمع يشن نضالاً ضد الطبيعة ، وهذا النضال هو شكل « نضال التناقضات » • إن عملية حل التناقضات بين المجتمع والطبيعة ، هي ، من حيث الجوهر ، عملية لا نهائية ، وتشكل أحد المصادر الهامة لتطور المجتمع •

ولكن بين التناقضات الداخلية والخارجية يوجد اختلاف موضوعي ،
لا يمكن عدم اخذه بعين الاعتبار • ان التناقض الداخلي هو تناقض في جوهر
الشيء بالذات ، بحيث إن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون هذين الضدين •
التناقض الخارجي هو تناقض بين الاشياء المختلفة ، أو الجواهر المختلفة •
فالنبات والشمس التي تعطيه الدفء ، هما جوهران مختلفان ، لكل منهما
تناقضاته الداخلية • كما ان المجتمع والطبيعة هما عبارة عن تناقض جواهر
مختلفة • ان الأضداد الخارجية ، كالدخالية ، مرتبطة فيما بينها ، ولكن لا يوجد
بينها مشروطة متبادلة وثيقة كما في التناقضات الداخلية • ان الطبيعة ، أحد
طرفي التناقض ، يمكن أن توجد من دون المجتمع ، كذلك الشمس يمكن
ان توجد من دون النبات الخ •••

ان التمييز بين التناقضات الداخلية والخارجية أمر هام ، لأن دور كل منهما
في التطور ليس واحداً • ومن الطبيعي ان هذا التمييز غير مطلق بل نسبي :
فالشيء الذي يبدو في علاقة ما تناقضاً خارجياً ، يمكن ان يكون في علاقة
أخرى تناقضاً داخلياً • مثال ذلك : التناقض بين نوعين من النبات يبرز كتناقض
خارجي بالنسبة الى كل منهما • وهو في الوقت نفسه احد التناقضات الداخلية
لعالم النبات على العموم • ان التناقض الخارجي هو ، على الغالب ، تعبير عن
وجود التناقضات الداخلية وشكل هذا الوجود • وهكذا فالتناقض بين السلعة
والنقد يسميه ماركس « تناقضاً خارجياً » وتعبّر السلعة فيه عن التناقض الكامن
فيها (اي الداخلي) بين القيمة الاستعمالية والقيمة •

بين التناقض الداخلي والخارجي توجد علاقة ، ولدي دراسة اسباب
تطور الاشياء يجب اعتبار التناقض الخارجي والداخلي على السواء • التناقضات
الداخلية لا توجد ، ولا تعمل ، خارج علاقتها مع التناقضات الخارجية ،
أما تأثير التناقضات الخارجية على تطور الشيء فلا يمكن فهمه بدون اعتبار
تناقضاته الداخلية •

ان المادية الجدلية عندما لاتتجاهل قط اهمية التناقضات الخارجية ،

تؤكد ان التناقضات الداخلية تلعب دوراً رئيسياً أولاً في التطور • اما التناقضات الخارجية فتلعب دوراً ثانوياً غير رئيسي • ان التناقضات الداخلية والخارجية توجد، في عملية التطور ، في وحدة ، في علاقة ، ولكن من الخطأ الفادح تبديل الاولى ، القائدة ، بالثانية • لذلك يناضل الديالكتيك ضد النظرية المتشرفة في الفلسفة البرجوازية والاصلاحية ، نظرية التوازن • ان جوهر هذه النظرية يكمن في نفي التناقضات الداخلية للتطور وفي الاعتراف بالأهمية الحاسمة للتناقضات الخارجية وفي توازن الأضداد • ونظرية التوازن هذه تبرز الشكل البسيط الميكانيكي للحركة ، أي التصادم ، والتأثير المتبادل للقوى الخارجية كقانون للتطور العام • وتعتبر هذه النظرية ان الوضع الرئيسي للمادة ، ليس الحركة ، بل التوازن والسكون • فبين جسمين مثلاً يوجد وضع توازن • فاذا فاقت قوة أحدهما قوة الآخر يبدأ بينهما الصراع الذي يخرق التوازن السابق • وصراع التناقضات الخارجية يؤدي بعد الى توازن جديدة • وقد لخص بوغدانوف هذه النظرية وهو من المدافعين عنها بقوله : « من التوازن وعبر صراع القوتين اللتين تخلان به إلى توازن جديد » • وهكذا نرى ان نظرية التوازن تهمل التناقضات الداخلية للأشياء اهمالاً تاماً • ومن الطبيعي انه من السخف نفي عنصر التوازن • ان التوازن يوجد بهذا الشكل او ذاك ، في كل حركة ، وفي المجتمع ايضاً • ولكن التوازن هو أحد لحظات الحركة فقط ، انه نسبي ومؤقت • في حين أن الحركة مطلقة • يقول انجلز : الحركة الواحدة تميل نحو التوازن ، اما مجموع الحركة فيقضي ، من جديد ، على التوازن المفرد » •

إن انصار نظرية التوازن ، عندما يطبقونها على المجتمع ، يعتبرون ان المصدر الرئيسي للتطور الاجتماعي لا تناقضات المجتمع الداخلية بل التناقضات بين المجتمع والطبيعة • ان هذا الفهم للقضية غير صحيح نظرياً ، ويؤدي سياسياً إلى استنتاجات رجعية • لا شك انه بدون عملية حل التناقضات بين المجتمع والطبيعة يتعذر التطور الاجتماعي • فالهم في الأمر هو أن مدى تأثير ودور التناقضات الخارجية يتوقف على حالة التناقضات الداخلية • فكلما كان النظام

الاجتماعي تقدماً ، حلت التناقضات بين المجتمع والطبيعة بنجاح اعظم .
مثلا الراسمالية الحديثة تعيق تطور القوى الانتاجية في المجتمع ، وبالتالي ،
تعميق اخضاع الطبيعة لمصالح الانسانية .

إن نظرية التوازن عاجزة عن تفسير ذلك لأن القضية هنا ليست في «خرق»
التوازن بين الطبيعة والمجتمع ، بل القضية كلها في التناقضات الداخلية للمجتمع
البرجوازي . ان حل التناقضات الداخلية وحده هو الذي يفتح امكانيات جديدة
لم يسبق لها مثل امام تطور القوى المنتجة في المجتمع ، الامر الذي تشهد عليه
تجربة الدول الاشتراكية . وبتعبير آخر ، إن حل التناقضات الخارجية يتعلق
بحل التناقضات الداخلية الرئيسية في المجتمع .

وتستخدم نظرية التوازن أيضاً من أجل الدفاع عن افكار المسألة بين
الطبقات المتعادية . ومن الصعب في عصر النضال الضاري بين طبقات المجتمع
الراسمالي ، نفي التناقضات الداخلية . ان الفلاسفة الاصلاحيين والبرجوازيين
عندما يستخدمون نظرية التوازن ، يؤكدون ان الطبقات المختلفة توجد
لا في وضع الصراع ، بل في وضع توازن ، وان كل طبقة تنفذ مهمتها ، وان
الهجوم على نظرية التوازن خطر على حياة المجتمع .

وبمقدار ما تنفي نظرية التوازن الدور الحاسم للتناقضات الطبقيّة في
تطور المجتمع المتناحر فانها تخدم مصالح القوى الرجعية . وهي مجرد شغيلة
الدول الراسمالية من النضال الثوري الطبقي ، وتعميق نضالهم من اجل النظام
الاشتراكي التقدمي الجديد .

ويجب الا نفهم مفهوم المادية الجدلية عن الدور الرئيسي القيادي
للتناقضات الداخلية بشكل جامد . فهناك ظروف ، تتقدم فيها التناقضات
الخارجية الى المكانة الأولى ويكتسب حلها اهمية من الدرجة الاولى . مثال
ذلك : أنه في الحزب التحررية الوطنية لدولة ما ضد العدو المشترك الخارجي ،
يمكن ان تتحد ، كما دلت التجربة التاريخية ، القوى الاجتماعية من مختلف
الاشكال والانواع . ان التناقضات بين الطبقات المتناحرة داخل الوطن الذي

يقود حرباً تحريرية وطنية ، لا تختفي ، ولكنها توضع على الرف ، الى وقت آخر ، ولا تلعب دوراً رئيسياً . وحل التناقضات الخارجية يحتل ، في هذا الوقت ، أهمية رئيسية في تطور الوطن التالي . وهكذا فمن غير الصحيح ان نتجاهل ، على اساس الوضع العام للتناقضات الداخلية كتناقضات حاسمة ، أن نتجاهل امكانية تحوّل التناقضات الخارجية ، في هذه الظروف الحسية أو تلك ، الى رئيسية .

اذا اخذنا السير التاريخي المعاصر كله ، على العموم ، يكون التناقض بين المنظومة الاشتراكية والرأسمالية ، التناقض التناحري الداخلي للتطور التاريخي الاجتماعي العالمي . ان المنظومة العالمية الواحدة انهارت وانقسمت الى متضادين . فقد نشأ نقيض الرأسمالية - أي الاشتراكية التي اصبحت الآن منظومة عالمية ، جاءت بدل النظام المهترى . ولكن العلاقات بين الحكومات ، والتناقضات بين الدول الرأسمالية والاشتراكية هي تناقضات تناحرية خارجاً ، ولها أهمية كبيرة على سير التاريخ العالمي . ان التعايش السلمي والمباراة الاقتصادية للنظامين المتعارضين ، الاشتراكية والرأسمالية ، هو شكل خاص من اشكال حل التناقضات .

تشهد التجربة التاريخية ، على ان الجديد التقدمي يتغلب دوماً على القديم . وهذا ما تخشاه البرجوازية . انها ترى المباراة السلمية ، عاملاً في صالح الاشتراكية . فلكي تطيل القوى العدوانية الاستعمارية بقاءها ، وتبقي على الرأسمالية تعتمد إلى القوة والحرب .

إن حل التناقض الخارجي بين المنظومتين العالميتين يتعلق ، قبل كل شيء ، بالتطور الداخلي للدول الاشتراكية والرأسمالية . وكلما نجح بناء الاشتراكية في كل دولة على حدة ، تسارع سبق الاشتراكية في مباراتها مع الرأسمالية . ان انتقال الدول الرأسمالية الى الاشتراكية سيتم لا نتيجة تصدير الثورة بل نتيجة الحل القانوني للتناقضات الاجتماعية بين بروليتاريا وبرجوازية هذه الدول لصالح الشغيلة .

ان الديالكتيكية الماركسية تتطلب عدم الاقتصار على التعاليم العامة عن التناقضات كقوة محركة للتطور ، بل تطبيقها بشكل حسي بناء ، تتطلب رؤية خصائص مفعول القانون العام في كل ظاهرة ، في الشروط التاريخية المختلفة .
ان قضية خصوصية التناقضات ، في العمليات المختلفة ، هي الناحية الجوهرية لوحدة وصراع التناقضات ، وهي تتطلب دراسة خاصة .

٣ - خصائص التناقضات المختلفة

يظهر قانون وحدة وصراع التناقضات ، ككل قانون ، في العمليات المختلفة ، التي يجري تطورها بشكل خاص متناسب مع طبيعتها ومع شروط وجودها .
وعندما طور لينين ديالكتيك مفعول قانون وحدة وصراع التناقضات تطويراً تناول جميع الوجوه ، أعار أهمية خاصة لتحليل خاصية شكل ظهور هذا القانون في الشروط المختلفة .

ان كتابات لينين هي مثال ساطع على الطريقة التي يجب ، حسبها ، تطبيق النظرية الديالكتيكية العامة على تناقضية التطور تطبيقاً حسيماً . لقد طالب لينين دوماً بعدم التقييد بالمحاكمات المجردة التي تقوم بأن هذه الظاهرة تتصف بالتناقضات وأنها تتطور عبر التناقضات . فما ان تقرر حقيقة عامة حتى يطالب لينين بتوجيه كل قوة التحليل النظري ، وقوة المعالجة العملية ، لحل هذه القضية او تلك ، ولاظهار كيف ان هذه الحقيقة المتعلقة بتناقضات أي تطور ، تنعكس في هذا الشيء الحسي المبين ، وفي هذا الوضع التاريخي المعني ، وفي هذه العلاقة التاريخية المعنية . لقد علمنا ان نرى كيف ان « العام » يتبدل حتماً ويتغير شكله تبعاً لاختلاف ميادين العالم الموضوعي .

ان تطور وصراع الميول التناقضية ، في الطبيعة ، حيث تعمل قوى عمياء ، عفوية ، هو شيء ، وتطور وصراع التناقضات في المجتمع ، حيث يعمل أناس ، وطبقات ، وأحزاب لهم وعيهم ، ويسعون وراء اهدافهم ، هو شيء آخر .

وبالمقابل ، ففي كل مجالات العالم الموضوعي هذه ، توجد عمليات مختلفة

كثيراً ، يعبر بها ، بشكل متباين ، عن مفعول قوانين الديالكتيك • ففي العمليات
الفيزيائية والكيمائية تختلف ، مثلاً ، طبيعة التناقضات ، وبالتالي يختلف فيها
شكل جريان « صراع » التناقضات • كما انه ليس بالامكان ايضاً حشر التناقضات
الاجتماعية على صعيد واحد ، مادامت التشكيلات الاجتماعية يختلف بعضها عن
بعض ، اختلافاً جوهرياً • وكذلك فان عملية صراع التناقضات ، في مجال
التفكير ، وتطور العلم والفن ، تجري بشكل خاص •

لقد لاحظ لينين في كراسه « عن قضية الديالكتيك » بعض التناقضات
النوعية التي تعالجها علوم مختلفة •

- في الرياضيات : + و - التفاضل والتكامل
- في الميكانيك - الحركة وعكس الحركة
- في الفيزياء - الكهرباء السالبة والموجبة
- في الكيمياء - اتحاد الذرات وتفريقها
- في العلوم الاجتماعية - النضال الطبقي

ويمكن ان نضيف الى هذه التناقضات النوعية عدداً كبيراً آخر • كالمثل
والتفكك ، الوراثة والتبدل في البيولوجيا ، الاثارة والكبح ، في الفزيولوجيا ،
التحليل والتركيب ، الاستتاج والاستقراء ، الحسي والعقلاني في نظرية المعرفة
والمنطق •

وهناك اشكال كثيرة من التناقضات ، الصق بالطبيعة اللاعضوية مثل :
وحدة الموجب والسالب ، الحركة وعكس الحركة ، الجاذبية والدفع •
هنا لا تستعمل ابداً تقريباً مثل هذه المسميات المميزة للتناقضات كالقديم
والجديد ، الميت والمولود ، ومن باب اولى سمات مثل الثوري والمحافظ ،
الرجعي والتقدمي •

والاشكال العليا لحركة المادة ، الطبيعة العضوية ، الحياة الاجتماعية
تناقضات تحت شكل صراع بين القديم والجديد ، بين الميت والمولود ، بين
المحافظ والثوري ••• الخ • ولا شك ان لتناقضات الاشكال الدنيا من الحركة ، مكانها

في الاشكال العليا لها : فالحياة العضوية غير ممكنة بدون العمليات الفيزيا -
كيماوية مع تناقضاتها الخاصة . الا ان هذه التناقضات ليست هي الرئيسية
المحددة لتطور الحياة العضوية ، انها هنا ثانوية خاضعة للرئيسية التي تسم
الحياة (تبادل الاشياء ، التمثل وعدمه ، الوراثة والتبدل الخ) .

وفهم الحياة الاجتماعية غير ممكن اطلاقاً ، اذا عالجنها حسب هذه
التناقضات الخاصة بالطبيعة اللاعضوية امثال الجذب والنبذ مثلاً . ان طابع أو
طبيعة التناقضات يشترط طرقاً وأساليب خاصة لحلها ، وقوانين خاصة لتطور
الاشياء . لنأخذ على سبيل المثال الجذب والنبذ . فبدون تأثيرهما المتبادل تتعذر
الظواهر الفيزيائية . وبما ان الجذب والنبذ عبارة عن عمليتين باتجاهين مختلفين ،
فبينهما يقوم « صراع » . ان للفظه « صراع » هنا معنى يختلف عن معناها في
العمليات الاجتماعية ، ومع هذا فجوهر التأثير المتبادل بين الجذب والنبذ يكمن
في تصادم الميلين المتضادين اللذين ينفي أحدهما الآخر ، هذا التصادم الموجه
موضوعياً للتغلب على التناقضات القائمة بينهما ولحلها . ففي الجسم القاسي تكون
الغلبة لقوى الجذب ، والصلة بين الجزئيات تكون قوية . الا ان الحرارة تقوى
الحركة الاهتزازية لجزئيات الجسم القاسي ، وتضعف صلاتها ، ويتحول
الجسم القاسي الى سائل . والتسخين التالي يسرع حركة الجزئيات وتزداد
قوة النبذ فتحول الجسم السائل الى غاز . في هذا الحادث يتم « صراع »
التناقضات بشكل تتغير فيه النسبة بينهما لصالح النبذ .

ويكمن التأثير المتبادل لهذه التناقضات في اساس التحولات النووية . فمن
اجل تحرير الطاقة الجبارة الكامنة في نواة الذرة ، يجب التأثير عليها بمساعدة
« شحنة » نووية مثل الجزئية ألفا . فعند اطلاق الذرة ، اذا كان لدى الجزئية
الفا الكمية الكافية من الطاقة للتغلب على ما يسمى بالحاجز الكامن ، أي في مثالنا ،
قوة النبذ ، فانها تدخل في نواة الذرة ، وتستدعي تحطيم النواة . ولكي تقطع
الجزئية - ألفا نفسها من النواة ، عليها ان تغلب من الداخل على الحاجز ذاته
الذي اصبح قوة الجذب التي تؤثر على مسافات صغيرة قرب النواة .

اما التأثير المتبادل للمتناقضات في العالم العضوي فهو ذو طابع يختلف كل

الاختلاف • فالنباتات والحيوانات تتلام مع شروط معيشتها المتبدلة، وتنشأ عندها خصائص جديدة تناقض الوراثة القديمة ، ويجري صراع بين التبدل والوراثة ينتهي بتبدل الوراثة القديمة ونشوء الشكل العضوي الجديد •

ان من الاهمية بمكان أخذ الشكل الخاص لصراع التناقضات بعين الاعتبار في تطور المجتمع • هنا تنشأ التناقضات نتيجة تطور اسس المجتمع - نتيجة تطور الانتاج المادي • ان تناقضات اسلوب الانتاج في المجتمع الطبقي تنعكس في نضال الطبقات • ولصراع التناقضات في هذا المجتمع شكل صراع اقتصادي وسياسي وايدولوجي • والصراع الايدولوجي ينعكس في شكل صراع النظريات الفلسفية والاقتصادية والسياسية والحقوقية والدينية والاخلاقية والنخ • لا يوجد مجال في الطبيعة تبرز فيه التناقضات بمثل هذا التعدد والاختلاف •

ولكن القضية لا تنحصر في تمايز التناقضات الاجتماعية عن التناقضات الطبيعية • فان لكل تشكيلة اجتماعية ايضاً ، الى جانب القوانين والتناقضات العامة ، تناقضاتها الخاصة ، اي قوانين تطورها الخاصة • في التطور الاجتماعي ، وخاصة بالنسبة الى التحولات التاريخية العالمية التي تتم في العصر الحديث ، يجب تمييز نوعين من التناقضات : التناحرية واللاتناحرية •

ان قضية التناقضات التناحرية واللاتناحرية قضية اجتماعية خاصة ، رغم انه يصادف مثل هذه التناقضات في الطبيعة العضوية • هناك مثلاً ، تناحر بين بعض أشكال الجراثيم : بعضها يطرد البعض الآخر او يقضي عليه (مضادات الحيوية) • يستخدم هذا التناحر في الطب للخلاص من الامراض • وهناك تناحر بين مختلف اشكال الحيوانات والنباتات ، ينعكس في القضاء او في خنق بعض النباتات او الحيوانات بعضها بعضاً من اجل الوجود • ومع الاعتراف ببعض التشابه بين مثل هذه التناقضات في الطبيعة والمجتمع ، فانه لمن الخطأ النظر إليها كشيء واحد وعدم رؤية الخلاف الجوهرية بينها •

ان الطابع التناحري او غير التناحري للتناقضات الاجتماعية يتحدد ببنية المجتمع • التناقضات التناحرية هي عبارة عن تناقضات القوى الاجتماعية المتعادية ، والمصالح والأهداف والميول المتضاربة، التي تنتج عن الشروط الحيوية

المتناقضة للطبقات ، عن تناقض مصالحها الجذرية • وان التغلب عليها يتم ، كقاعدة ، في النضال الطبقي الضاري • أحسن مثال على التناقضات التناحرية هي العلاقات بين الاقطاعيين والفلاحين ، بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين البرجوازية والشغيلة الفلاحين ، بين المستعمرات والدول الام الاستعمارية • وكذلك فان التناقضات بين الدول الاستعمارية نفسها من اجل اعادة تقسيم العالم ، ومناطق النفوذ ، واسواق البيع ، هي تناقضات تناحرية •

من هنا نرى ان التناقضات التناحرية متعددة الاشكال ونتيجة ذلك فدرجة حدتها مختلفة • ان التناحر بين المستثمرين والمستثمرين ، وخاصة بين البرجوازية والبروليتاريا ، هو أقوى تناحر وأعمقه •

ان التاريخ يعطي الكثير من الامثلة ، التي تتحد فيها الطبقات المستثمرة العادية لبعضها او الدول الاستعمارية ، في الصراع ، ضد طبقات الشغيلة المضطهدة • ففي مثل هذه الظروف ، توضع التناقضات الحادة القائمة بين هذه الطبقات المستثمرة على الرف ، ويبرز التناقض الاساسي ، التناقض بين المستثمرين والمستثمرين ، بشكل قوي • ويحدث أيضاً وضع آخر تتحد فيه الطبقات المستثمرة ، التي هي خارج الحكم ، مع الشغيلة في النضال ضد العدو العام ، الرئيسي ، في مرحلة تاريخية معينة ، ذلك العدو المضطهد لهم جميعاً • ففي الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ مثلاً ، برزت البرجوازية مع الطبقات الشغيلة كقوة موحدة ثالثة ضد طبقة الاقطاع من الاستقراطيين ورجال الدين • وفي الحركات التحررية الوطنية الحديثة في المستعمرات ضد الاستعمار تعمل البرجوازية الوطنية او بعض فئاتها ، غالباً مع الشعب أجمع • ويجب دائماً الانتباه الى الوضع التاريخي الحسي ، وحسبان التناقضات الرئيسية في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي •

ان القانونية العامة لتطور التناقضات المتناحرة هي تعاضلها وتفاقمها اللذان يصلان الى حد النزاع الحاد بين النواحي والميول المتضادة • ان التناقضات المتناحرة في سير التطور لا تميل ، عادة ، الى ان تصبح أخف وأقل حدة ، بل تعمق متخذة أشكالاً أكثر حدة • من هنا تنتج الاشكال الخاصة لحل

التناقضات المتناحرة • ونظراً لوجود طبقات تدافع بجميع الوسائل عن القديم المهترى ، وتقاوم اقامة نظم اجتماعية جديدة ، فان النضال الطبقي الحاد والثورات الاجتماعية ، هي وسيلة حل هذه التناقضات المتناحرة •

ان التناقضات اللامتناحرة تعبر ، خلافاً للمتناحرة ، عن تناقضات أزداد غير متعادلية ، تعبر عن تناقضات تلك القوى الاجتماعية والميول التي يجمع بينها جذرياً ، الى جانب التناقضات ، شيء عام • مثال ذلك التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين ، بين عناصر المجتمع الاشتراكي المتقدمة والمتأخرة •

ان الطابع اللاتناحري لتناقضات التطور ، هو احدى اهم خصائص المجتمع الاشتراكي على خلاف التشكيلات الطبقيّة السابقة •

هذه الميزة تشترط اشكالاً خاصة لظهور ومفعول انقانون الديالكتيكي العام للتطور ، عن طريق نشوء التناقضات والتغلب عليها •

والسمة الهامة لمفعول هذا القانون في شروط الاشتراكية ، هي أن التناقضات تبرز هنا على اساس وحدة المجتمع ، الاخلاقية - السياسية والاجتماعية • ان وحدة المصالح الاقتصادية والسياسية والفكرية ، وحدة مصالح واهداف المجتمع ، تشكل العامل الأول الذي يسمح بالحل الناجح لاية صعوبات وتناقضات تنشأ في سير تطور المجتمع الاشتراكي ، بدون تلك التضحيات والعواقب التهديمية الخاصة بالمجتمع البرجوازي • ثم ، بفضل وحدة المجتمع الاشتراكي ، تميل التناقضات التي تنشأ ، لا الى التناقض ، والتحول الى أزداد متعادلية قطياً ، بل تميل الى الانفراج المستمر والانحلال • وهكذا مثلاً ، تحل التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين ، بين العناصر المتقدمة والمتأخرة ، وغيرها من تناقضات المجتمع الاشتراكي • إن وحدة المجتمع تساعد على حل التناقضات ، وحل التناقضات يزيد في توطيد وحدة المجتمع كله •

ولا شك ان القانونية العامة لحل التناقضات اللاتناحرية ، لاتعني ان هذه التناقضات ، لايمكن ان تتفاهم مؤقتاً ، نتيجة بعض الاسباب الحسية لتطبيق سياسة غير صحيحة او لارتكاب اخطاء في التطبيق •

وقد حذر لينين ، كما هو معروف ، من أن سياسة الحزب الماركسي غير الصحيحة بالنسبة الى الفلاحين كان يمكن ان تؤدي الى الانشقاق بين الطبقة العاملة والفلاحين . لذلك أعار الحزب ويعبر انتباها خاصاً لسياسة توطيد وحدة الطبقة العاملة والفلاحين ، فوجه الحزب ضربة صاعقة للتروتسكيين .

في التناقضات اللاتناحرية لاتوجد أسباب موضوعية لتعميقها وتآزمها ، مما يسمح بالتغلب عليها بشكل تدريجي بفضل السياسة الصحيحة . لذلك ففي شروط الاشتراكية يكتسب نشاط القوى القيادية للمجتمع الاشتراكي (الحزب الشيوعي) اهمية كبيرة في التناقضات الناشئة في الوقت المناسب ، وفي التغلب عليها .

ان الحزب الشيوعي الذي يسير على طريقة المادية الجدلية ، يكشف التناقضات التي تنشأ في سير تطور المجتمع الاشتراكي ، وينظم الشعب ويوجهه لحل هذه التناقضات . ولا يسمح الحزب بتعاظم هذه التناقضات في سير تطورها ، وبنسجها أو بانقلابها الى متضادات متعادية . كما أنه ينتقي اللحظة التي تنضج فيها الشروط لحلها . وتنبغي الإشارة هنا الى ان تأثير القوى الواعية على عملية تطور وحل التناقضات يجب الا يفهم بروح ذاتية . ففي الاشتراكية ، قبل ان تنشأ الامكانية الموضوعية لحل التناقضات يتطلب وقت ، ومقدمات ووسائل معينة من اجل التغلب عليها بشكل ناجح . ان اصالة الوضع هنا قائمة في ان العملية ليست عفوية ، ولا تعمل بشكل أعمى ، بل هي عملية دياكتيكية موجودة بشكل أساسي تحت مراقبة الحزب والشعب .

ومهما اختلفت التناقضات التناحرية واللاتناحرية فانها تحل في النضال ، وعن طريق نضال الجديد ضد القديم ، عن طريق النضال التقدمي ضد المهترئ ، المحافظ ، الجامد ، البيروقراطي ، البالي . ومن الخطأ اتخاذ خصائص حل التناقضات اللاتناحرية ، على انها خصائص مسالمة ، وانسجام . فلحل هذه التناقضات لابد من شن نضال مستمر للتغلب عليها ، للتغلب على كل ما هو مهترئ ، بال ، وجامد ، وكل ما يعيق تطور الجديد والتقدمي .

ان الفهم الخاطيء لجوهر التناقضات اللاتناحرية ، ظهر في النظرية المعادية للماركسية « نظرية عدم الصدام » في ميدان الأدب والفن • وقد صورت هذه النظرية القضية بصورة ، كأن التطور في المجتمع الاشتراكي يتم بشكل سهل وفي طريق مستوية معبدة ، بدون نضال ونزاع بين القديم والجديد • ان انصار هذه النظرية استقطوا من الاعتبار انه لو لم يناضل الجديد ، التقدمي في المجتمع الاشتراكي ضد المهتري ، لما كانت هنا حركة الى الامام ، بل كان هناك جمود او حركة الى الوراء •

ان مختلف التناقضات تحل فقط عن طريق النضال ، وحسب طبيعة التناقضات ، يتغير شكل النضال فقط • ومن أحد اشكال النضال الجديدة ، التي نشأت على تربة التناقضات الخاصة لبناء الاشتراكية ، هو الانتقاد والانتقاد الذاتي • وقد كتب لينين : « ان عمل البناء الحالي هو تطبيق للانتقاد وللمحتواء » أي الطابع الايجابي العملي للانتقاد ، وتوجيهه للتغلب على التناقضات ، وللقضاء على الاخطاء والنواقص •

ان الحزب يولي أهمية كبرى للانتقاد وللانتقاد الذاتي كوسيلة للنضال الجديد ضد القديم ، كوسيلة لاظهار وحل التناقضات التي تنشأ في سير تطور المجتمع الاشتراكي • ان الانتقاد والانتقاد الذاتي هو أحد أشكال مساهمة الجماهير الواعية النشيطة في بناء الشيوعية ، وفي إدارة دولتهم الاشتراكية •

ان تحول المجتمع الاشتراكي الى شيوعي يتم ايضاً على اساس التغلب على التناقضات عن طريق موت القديم وولادة الجديد • وتكمن الخاصة المميزة لذلك في انه ، على خلاف المرحلة الانتقالية من الراسمالية الى الاشتراكية ، لا يوجد هنا صراع بين الطبقات • ولا يكون علينا ان نتغلب على المقاومة الضارية لبقايا الطبقات المستثمرة • ان بناء الشيوعية في الاتحاد السوفيتي يتم في ظروف وحدة جميع فئات الشعب ، هذه الوحدة التي لم يسبق لها مثيل • وقد قيل في مؤتمر الحزب الشيوعي الثاني والعشرين : « لذلك فمن الطبيعي ان يتم بناء الشيوعية بانتهاج افضل الطرق ديموقراطية عن طريق تحسين العلاقات الاجتماعية

وتطويرها ، وعن طريق موت اشكال الحياة القديمة ونشوء الاشكال الجديدة،
عن طريق تداخلها وتأثيرها المتبادل » •

ويرى بعض الفلاسفة البرجوازيين في الاعتراف بخاصية تناقضات المجتمع
الاشتراكي ... • خيانة المديالكتيك • وهكذا فالفيلسوفان الفرنسيان المعاصران
(ميرلو بونتي) و (جان هيوليت) وغيرهما يعلنون ان تناحر القوى والطبقات
الاجتماعية المقاومة هو تناحر أبدي ولا يمكن القضاء عليه ، وانه في ذلك يكمن
جوهر المديالكتيك • ان تناقضات المرحلة التاريخية المعينة ، إن تناقضات المجتمع
التناحري تحول من قبلهم الى شيء مطلق متجاهلين ان طابع تأثير القانون العام
للتطور عن طريق صراع المتضادات ، قد تغير في الشروط التاريخية الجديدة •
وقد سمى الهيجليون الجدد هذا المديالكتيك بالمأساة ، لأنه تستتج منه حتمية
وابدية النزاعات الطبقة والحروب النخ • والواقع أن « المديالكتيك المأساوي »
هو وسيلة يحاولون بواسطتها البرهنة على الطابع غير الموقت للراسمالية ،
وللتناقضات اللاتناحرية • ولكن ظفر الشيوعية يعني القضاء تماماً على مثل هذه
التناقضات •

ان تجربة البناء الشيوعي في الاتحاد السوفيتي كشفت عن شكل لحل
التناقضات الباقية بالوراثة عن المجتمع القديم التناحري ، والتي توضع ، طوال
العصور ، بعضها فوق الاخرى ، كتحول تدريجي للمتضادات الى « فارق » ، ثم
تصفية كل بواقي التناقضات القديمة • وبهذه الصورة يتغلب مثلاً على التناقض
بين المدينة والقرية ، والتناقض بين العمل الجسدي والذهني •

ان الفارق بين اشكال ونماذج التناقضات لا يكمن فقط في كون التناقضات
المختلفة لها طبيعة مختلفة ، وبالتالي اساليب وطرق مختلفة لحلها • بل المهم هو
ان نميز بين التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، بين الاساسية وغير الاساسية في
الشبكة المعقدة للتناقضات • إن أي شيء بسيط ، وبالأحرى العمليات والظواهر
المعقدة ، تحوي في ذاتها لا تناقضاً واحداً بل كثيراً من التناقضات ، التي توجد في
صلات وعلاقات تناقضية مختلفة جداً ، مع الظواهر والعمليات الاخرى •
لذلك فمن المهم جداً - وخاصة في الحياة الاجتماعية، و استراتيجية وتكتيك

نضال الطبقات والاحزاب الاجتماعية - عدم الخلط بين التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، الاساسية وغير الاساسية ، بل رؤية الفارق بينها ، وفرز تلك التناقضات التي تلعب ، في المرحلة التاريخية المعينة ، دوراً حاسماً ، ثم تخطيط النشاط العملي حسب ذلك .

التناقضات الاساسية ، هي التناقضات التي تحدّد التناقضات النوعية وتنشأ هذه عنها . مثال التناقض الرئيسي لاسلوب الانتاج الرأسمالي هو التناقض بين الطابع الاجتماعي للإنتاج وبين طابع الحيازة الرأسمالية الخاصة . إنه يحدد جميع التناقضات الأخرى التي هي مشتقة من التناقض الاساسي . وهكذا فالتناقض بين تعاضم الانتاج في المجتمع البرجوازي وبين قدرة الجماهير الشرائية المتخلفة هو تناقض مشتق من التناقض الرئيسي ، ويبرز كمظهر وتعبير عن التناقض الرئيسي للرأسمالية .

ان التناقض الاساسي للتطور الاجتماعي العالمي الحديث هو التناقض بين المنظومتين الاجتماعيتين الاقتصاديتين - بين الاشتراكية والرأسمالية . وخارج هذا التناقض الاساسي لا يمكن فهم التناقضات الأخرى للتطور العالمي الحديث ، وكذلك لا يمكن فهم الكثير من القضايا العالمية الحالية .

ان تمييز التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، هام لاعطاء السمة الصحيحة لمختلف مراحل وفترات عملية التطور . وبالنسبة الى متطلبات التطور الموضوعية المتبدلة ، والى الوضع المتبدل في الدرجة الاولى ، يمكن ان يبرز تارة هذا التناقض ، وتارة أخرى غيره ، بصفة تناقض رئيسي .

ان التناقض الذي يبرز في شروط معينة كتناقض رئيسي يصبح في شروط أخرى غير رئيسي أو العكس . مثال ذلك : في المرحلة الاولى لوجود السلطة السوفيتية في الاتحاد السوفيتي ، كان التناقض الرئيسي هو التناقض القائم بين السلطة السياسية الأكثر تقدماً في العالم وبين الاساس التكنيكي - الاقتصادي المتأخر ، والتطور الضعيف للصناعة الثقيلة في الدرجة الاولى . وعندما حلّ هذا التناقض ، احتل مكان التناقض الرئيسي في المرحلة التالية ، التناقض بين

الصناعة الاشتراكية التقدمية وبين الزراعة المتأخرة المبعثرة الى ملايين عديدة من الاستثمارات الصغيرة • وهذا التناقض حل بنجاح أيضاً •

في الظروف العالمية الحالية ، تكتسب قضية اتقاء الحرب العالمية الجديدة أهمية كبرى • ومن أحد التناقضات الرئيسية في العصر الحديث ، التناقض بين أكثر الفئات الامبريالية رجعية ، العاملة على اشعال حرب جديدة ، وبين الاكثرية الساحقة من البشرية المهتمة باتقائها • لذلك ففي الشروط العالمية الحالية ، تكمن المهمة الاساسية في توحيد جميع القوى المناضلة من أجل سلم وطيء •

ان حساب التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية يسمح للاحزاب الشيوعية بتعيين مهمات الطبقة العاملة ، ورفع الشعارات الحقيقية للنضال ، وتجنيد الجماهير لحل القضايا الناضجة التي تقرب من الهدف النهائي • لذلك فقط سمى لينين الديالكتيك بروح الماركسية •

يعلم لينين ان الديالكتيكي للحقيقي هو الذي يستطيع في كل مرحلة من مراحل التطور ، الامساك بالحلقة المرحلية الحاسمة ، والتي تمكن السيطرة عليها ، من الامساك بكل سلسلة القضايا الاخرى •

ان تمييز التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية ، والمقدرة على رؤية سير تعاضم تناقضات جديدة ، وتحول التناقضات الرئيسية الى غير رئيسية والعكس بالعكس ، كل ذلك يمكن من السيطرة على الحلقة الحاسمة في الشروط الحسية المعينة •

٤ : - المحتوى والشكل

نشوء وحل التناقضات فيما بينهما

إن احد التعابير العامة ، والاساسية ، للتطور عن طريق صراع المتضادات هو نشوء وتطور التناقضات بين محتوى الشيء وشكله والتغلب عليها • لقد كتب لينين في « الدفاتر الفلسفية » ، معدداً عناصر الديالكتيك ، قائلاً : « نضال المحتوى

ضد الشكل ، والعكس • خلع الشكل ، واعادة المحتوى ،^(١) •

ان لمقولتي المحتوى والشكل أهمية كبيرة من أجل فهم عمليات التطور . لكل شيء محتواه وشكله اللذان لا يمكن فهمهما الا في علاقتهما الوثيقة فيما بينهما . المحتوى هو الأساس ، الناحية الرئيسية في الشيء التي تعبر عن جوهره ، وتظهر في كل عناصره • إن محتوى اسلوب الانتاج مثلاً هو القوى المنتجة التي تحدد العلاقات الانتاجية كشكل اجتماعي لها • ومحتوى الانتاج الادبي الفني هو أفكاره التي تعكس احدى نواحي الواقع ، نواحي حياة الناس ، هذا المحتوى يكون منتشرأ في الانتاج المذكور كله : موضوعه ، صورته ، لغته الخ • إن المحتوى لا يوجد خارج الشكل • الشكل هو طريقة وجود المحتوى ، هو التنظيم الداخلي ، هو بنية المحتوى التي تجعل من وجوده ممكناً • بدون البنية المورفولوجية^(١) لا يمكن للجسم ان يوجد • ان أحسن فكرة لعاجزة بنفسها ، ولوحدتها ، عن اعطاء إنتاج فني ، اذا لم يعبر عنها بشكل فني وبصورة فنية ، واذا لم يقدم الانتاج المتعة الجمالية • والقوى المنتجة لا تستطيع أن توجد بدون العلاقات الانتاجية التي هي شكل تطورها •

لا ينبغي خلط الشكل الداخلي للشيء مع شكله الخارجي • فبالنسبة الى القصة أو القصيدة الشكل البوليفرافي (شكل الكتاب وجلدته وعنوانه) هو الشكل الخارجي ، وليس له من أهمية بالنسبة الى محتوى الانتاج الفني • اما الصور الفنية واللغة والموضوع والبنية فهي عبارة عن الشكل الداخلي وتعبر عن الفكرة القائمة في المحتوى ، التي بدونها لا يوجد المحتوى • لذلك كان شكل الشيء هو شكل وجوده •

ان المحتوى والشكل كغيرهما من المقولات الديالكتيكية ، ليسا جامدين ثابتين • يمكن ان يتحول احدهما الى الاخر ؛ فليس بينهما من حد مطلق • إن الأمر الذي يبدو في بعض العلاقات والصلات ، محتوى ، يصبح شكلاً ، في علاقات وصلات أخرى • مثال ذلك : ان العلاقات الانتاجية ، هي بالنسبة الى القوى

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية ص ١٩٣ •

المنتجة ، شكل ، اما بالنسبة إلى ما ينتج عنها من بناء فوقي سياسي أو حقوقي
واشكال ايدولوجية فإنها تبرز كمحتوى لها . ان الصور الفنية واللغة، والقافية
الشعرية ، هي شكل لشعور المنتج الفني ، ولكنها يمكن ان تكون موضوع
البحث العلمي ، أن تكون محتواه .

بين الشكل والمحتوى توجد علاقات متبادلة دياكتيكية معقدة . وكما
رأينا من قبل، فإن الصلة بينهما تكمن قبل كل شيء في انهما موجودان في وحدة:
احدهما لا يوجد بدون الآخر ، فلكل شيء ، ولكل عملية محتوى وشكل .
ولكن في هذه الوحدة ، المحتوى هو الجهة الرئيسية التي تعين الشيء . ان
المحتوى يحدد الشكل ، ينشئ شكله ، والشكل يتعلق بالمحتوى . الشكل
ليس تعسفيا ، انه شكل المحتوى المعين . ورغم أن المحتوى لا يبقى محتوى
اذا لم يتجل في شكل معين ، فهو على كل حال يبقى اساس التأثير المتبادل
بينهما . وإن ذلك الدور الهام الذي يقوم به الشكل ، ليتحدد بمتطلبات
محتوى الشيء . فمن المتعذر مثلاً التعبير عن الفكرة ذات المحتوى التراجمي،
بشكل كوميدي ، أو العكس ، التعبير عن فكرة كوميديية بشكل تراجمي . ان
نظام الرأسمالية الاقتصادي يتطلب بناء فوقياً معيناً ، يختلف جذرياً عن البناء
الفوقي الاشتراكي الذي هو شكل لمحتوى مغاير ، تماماً ، هو النظام الاشتراكي
الاقتصادي .

ان الشكل ، المتعلق بمحتواه ، ليس سلبياً غير ذي تأثير ، بل هو يؤثر
تأثيراً ناشطاً على المحتوى ؛ ودوره عظيم في التطور . ان الشكل يمكن ان يلعب
دوراً مزدوجاً : يمكن أن يمكّن الشيء من التطور، أو على العكس ، يمكن أن
يلجم هذا التطور . وهناك امر يمكن أن يبدو غريباً : فاذا كان الشكل موجوداً
في وحدة مع محتواه ، ومشروطاً بهذا المحتوى ، واسلوباً أو طريقة لوجوده
فكيف يمكن له ان يعيق المحتوى ويعرقل تطوره ؟ هذا الاعتراض ليس
اساسياً ، لأنه يعتبر ناحية واحدة فقط ، من نواحي الصلات المتبادلة بين المحتوى
والشكل ، من نواحي وحدتهما .

في الواقع ان هذه الوحدة ليست وحدة ميتة ، انها وحدة دياكتيكية ،

وحدة متضادات • ومهما كان عليه المحتوى والشكل من ارتباط وثيق ، فانهما مختلفان بجوهرهما ، وهما ناحيتان مختلفتان من الشيء • ونظراً لهذا الخلاف الكائن بينهما ، فان خواص وميول هاتين الناحيتين من نواحي تطور الشيء ، مختلفة •

ان تبدل الشيء أو تطوره ، يبدأ دائماً بتبدل محتواه ، لانه ناحيته الهامة واساسه • ان المحتوى ، اذا ما قيس بالشكل يكون هو الاكثر حركة وتبدلاً • اما الشكل فاكتر استقراراً وأقل حركة • ان الشكل المتعلق بالمحتوى يتبدل على اساس تبدل المحتوى ، الا ان استقراره الكبير يؤدي الى التناقض • وفي حين يتبدل المحتوى بشكل متواصل ، يظل بعض الوقت ، بدون تبدلات جذرية • ولا ينبغي فهم استقرار الشيء كفي كلي للحركة • وحتى ولو بقي الشكل كله على حاله ، فان بعض خواصه أو عناصره يمكن ان تتبدل • لذلك فالشكل مستقر نسبياً فيما اذا قورن بالمحتوى المتبدل باستمرار • ان أخذ هذا الفارق وميول المحتوى والشكل المتباينة في سير التطور ، بعين الاعتبار ، يسمح بفهم العلاقة المتبادلة الديالكتيكية بين المحتوى والشكل ، والدور المزدوج للشكل •

يمر التأثير المتبادل بين محتوى الشيء وشكله في مراحل مختلفة • فمن الخطأ التفكير بأن استقرار الشكل النسبي هو عامل محافظ دائماً ، وفي الظروف كلها • ففي بدء المرحلة يكون الشكل متلائماً مع محتواه ويسهل تطور المحتوى • ففي فترات تلاؤم الشكل مع المحتوى يكون تحديده واستقراره عبارة عن قوة محركة للتطور • فلو تبدل الشكل في برهة واحدة لما استطاع ان يلعب هذا الدور • مثال ذلك ، ان العلاقات الانتاجية الجديدة كشكل متلائم مع محتواه ، أي القوى المنتجة ، تبقى خلال وقت طويل ، ثابتة ، وتسهل تطور القوى المنتجة • ولكن كلما تبدل المحتوى ينشأ ويتعاضم التناقض بينه وبين الشكل •

وما دامت هذه التبدلات غير كبيرة ، فان الشكل يسهل تطور الشيء ،

ولكن تفاقم التناقض يؤدي الى عدم تلاؤم الشكل مع المحتوى ، فينقلب من عامل للتطور الى عامل يلجم التطور التالي . في مرحلة التطور هذه ، يصبح استقرار الشكل عاملاً محافظاً . وكما كتب ماركس تتحول العلاقات الانتاجية، في مرحلة معينة ، من شكل عامل على تطور القوى المنتجة الى عائق لها . وهذا يمكن توضيحه بأمثلة أخرى . من المعروف ان الحزب الشيوعي يدخل من وقت لآخر بعض التعديلات على نظامه الاساسي الذي يحدد اشكال نشاطه التنظيمية . والسبب ان المحتوى الجديد ، والقضايا الجديدة التي تبرز أمام الحزب تدخل في تناقض مع بعض الاشكال التنظيمية الهرمة ، التي كانت تلعب في الشروط الماضية دوراً ايجابياً . وهكذا فال مؤتمر وافق على نظام اساسي جديد ، يحدد تنظيم نشاط الحزب وأشكال هذا النشاط ، بصورة تتلاءم مع مهمات بناء المجتمع الشيوعي .

ان التناقض بين المحتوى الجديد والشكل القديم يستدعي صراعاً بينهما . هذا الصراع هو من أهم مظاهر مفعول قانون صراع المتضادات في الطبيعة والمجتمع والتفكير . وهذا الصراع لا يتوقف ما لم يستبدل الشكل القديم، بأخر جديد ، يتلاءم والمحتوى المتبدل . ولهذا الصراع في الغالب، طابع ضراوة وامتداد في الزمن . وبما ان الشكل، عندما ينشأ محتوى جديد لا يخلع بصورة آلية بل يحوز استقلالاً نسبياً ، يمكن الشكل القديم من الاحتفاظ بوجوده ، بعض الوقت ، رغم تبدل المحتوى ، فان هذا الشكل يملك قوة كبيرة من العطالة ويقاوم التبدل . مثلاً في المجتمع التناحري تدافع الطبقات والاحزاب والفئات عن الاشكال الهرمة التي يهملها المحافظة عليها والدفاع عنها . ومهما استمرت مقاومة الشكل القديم الهرم ، لا بد له ، مع تطور المحتوى ، من التخلي عن مكانه للشكل الجديد . لذلك كان الصراع بين الشكل القديم والمحتوى الجديد ، مصدراً للتطور . وهذا الصراع يسهل استبدال الجديد بالقديم ، يسهل الحركة والتجديد الخالدين . وقد عبر تشيرنيشفسكي ، الديموقراطي الثوري الروسي ، عن اهمية دياكتيك تطور الشكل والمحتوى تعبيراً موفقاً اذ قال : « إن من يفهم

التبدل الخالد الذي يصيب الاشكال ، إن من يفهم سقوط الأشكال الذي ينشأ عن محتوى معلوم ، أو عن نزعة ، نتيجة تعاضم قوة هذه النزعة أو تطور هذا المحتوى تطوراً عالياً - ان من يفهم هذا القانون العظيم الخالد الذي يفعل في كل مكان ، ومن يستطيع ان يطبقه على كل ظاهرة ، يمكنه ان يخلق الفرص المؤاتية التي تربك الآخرين ... انه لا بأسف على أي شيء فات أو انه بل يقول: « فليكن ما يكون ، أما العيد فسيحل في شارعنا في نهاية المطاف » •

لقد وفق تشيرنيشفسكي في استنتاجاته الثورية من ديالكتيك تطور شكل ومحتوى الظواهر وفق في استنتاجاته النذاهبة الى ان الحياة الاجتماعية في حركتها التي لا تقاوم إلى أمام تكس كل الأشكال التي فات أو انها وأصبحت عائقاً مستبدلة اياها بأشكال جديدة أكثر تقدمية •

ولا ينبغي فهم تلاؤم الشكل مع المحتوى، أن المحتوى يمكن أن يُعبر عنه الزامياً بشكل واحد ما • إن المحتوى الواحد يمكن أن يتلائم مع عدد من الأشكال • فمن المعروف ان ديكتاتورية البرجوازية يمكن أن تظهر حتى في شكل جمهورية برلمانية ، وفي شكل ملكية دستورية ، وفي شكل ديكتاتورية فاشية إرهابية • ان محتوى واحداً في شروط تاريخية حسية لثطور بلدان مختلفة ، يعبر عنه بأشكال متباينة •

ان عدم فهم ديالكتيك المحتوى والشكل يؤدي من ناحية الى خطر اعتبار الشكل القديم شكلاً مطلقاً ، ويولد الخوف من هجر الاشكال المعتادة رغم أنها تلجم التطور • ان الحزب الشيوعي ، يسير في نشاطه العملي وفق تعاليم لينين القائلة ، بأن كل تبدل مفاجيء في التطور ، يؤدي حتماً الى خرق انتلاؤم بين الشكل القديم والمحتوى الجديد • والحزب يناضل ضد كل نفرة وجمود وخوف من استبدال اشكال الحياة الاقتصادية والروحية والسياسية القديمة ، بأشكال تسرع الحركة الى الامام الى حد اعظمي • ومن ناحية أخرى ، يؤدي أيضاً الى خطأ اعتبار كل شيء قديم ، عديم المنفعة ، فقط لأنه قديم • ان المحتوى الجديد لا يتطلب دوماً شكلاً جديداً • انه يمكن أن يستخدم

الشكل القديم ، ملائماً إياه مع متطلباته . فضمن الاشكال القديمة ، توجد اشكال تستطيع ، حتى ولو تغيرت الشروط ، خدمة المحتوى الجديد . ان الحزب الشيوعي يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار في نشاطه . فهو عندما قضى على الجهاز الحكومي القديم في روسيا البرجوازية الاقطاعية ، حافظ على العديد من مؤسسات النظام القديم ، ذات الشكل القديم من مصارف ، وبريد مدخلاً عليها المحتوى الاشتراكي الجديد .

كما ان الفهم الخاطيء للعلاقات المتبادلة بين المحتوى والشكل ، يمكن ان يؤدي الى الافراط في تضخيم وتشويه احدي هاتين الناحيتين المشكلتين لكل واحد . وهكذا فجوهر النظرية الشكلية المشوهة ، يكمن في أنها تعتبر الشكل مطلقاً وتهمل جوهره ومحتواه .

ان تضخيم دور الشكل في الفن يؤدي الى الشكلية (فورماليزم) ، والى تشويه أهمية الفن الاجتماعية العظيمة . ان الشكل الفني ليس هدفاً بذاته ؛ ويمكن للشكل أن يكون كاملاً فيما اذا خضع للمحتوى ، وعبر عن الافكار الاجتماعية .

ان تجاهل الشكل الفني في الفن يؤدي الى الحط من قوة تأثير الفن ودوره الاجتماعي . وقد صرح بعض المحرفين في دول الديمقراطية الشعبية ، الواقفين ضد الواقعية الاشتراكية ، ان المحتوى لا الشكل ، هو الذي يقرر فيما اذا كان الانتاج الفني واقعياً . ان مثل هذه المعارضة للمحتوى بالشكل أو للشكل بالمحتوى ، واهمال الشكل الفني الواقعي الذي يعكس الحياة ، لاتمت الى الماركسية بصلة .

ان التجريدية ، والتزيينات المائلة في الفن البرجوازي المعاصر غريبة عن الانسان الطبيعي الذي يملك ذوقاً فنياً سليماً . لان هذه التزيينات تنفي الشكل الواقعي لعكس الواقع في الفن . فخارج الشكل الفني الواقعي لا يمكن ان يكون هناك فن ذو محتوى حقيقي .

ان الحزب الشيوعي السوفييتي يعبر ، في نشاطه ، اهمية كبرى لتبدل اشكال التنظيم ، وأشكال وطرق الادارة ، ولتطبيقها بشكل ينسجم ومتطلبات البناء الشيوعي الجديدة ؛ ويشهد على ذلك ما اجراه الحزب من تبديلات في اشكال وطرق ادارة الصناعة والزراعة ، وتحسين طرق منهجة تطور الاتحاد السوفييتي ، ومن اعطاء الجمهوريات امكانيات اوسع لحل قضاياها الاقتصادية والثقافية بشل مستقل • ان تطور اشكال الحياة الاجتماعية ، وتنظيم الانتاج ، يتمتع بأهمية كبرى • فبدونه يتعذر التطور الناجح للمحتوى نفسه أي لحل قضايا الشيوعية التالية •

وهكذا ، ففي مجالات النشاط العملي المختلفة ، ينبغي اخذ دياكتيك المحتوى والشكل بعين الاعتبار ، وايجاد العلاقة الصحيحة بينهما •

ان دراسة قانون وحدة وصراع المتضادات تسمح لنا ان نفهم لماذا قدرلينين تقديراً فائقاً دور هذا القانون في الديالكتيك الماركسي ، معرقاً نظرية التناقضات بـ « نواة » الديالكتيك و « جوهره » • ان التناقضات وحلها، هي تلك القوة المحركة للتطور ، الكامنة في اساس انتقال التبدلات الكمية الى كيفية ، في اساس القفزات من الوضع القديم الى الجديد ، في اساس حركة الوجود الابدية التي لاتعرف الكلل • ان الصلات والتأثيرات المتبادلة بين المقولات من أمثال السبب والنتيجة ، الامكانية والواقع ، الوحيد والعام ، المحتوى والشكل ، الضرورة والمصادفة ، وغيرها – تقوم على ذلك الاساس ذاته لأن كلا منها لا يكون له معنى من دون تقيضه ، ومن دون التحول من الواحدة الى الاخرى • لذلك فتحليل التناقضات واتجاهها في التطور ، وطرق واساليب حلها ، تحليلاً جريئاً هو السمة الملازمة لطريقة معالجة الواقع معالجة ماركسية ، ثورية ، علمية حقاً •

الفصل الثامن

قانون نفى النفي

ان تحليل قانون انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، وقانون وحدة وصراع المتضادات يبين لنا انه نتيجة لعمل هذين القانونين تتم عملية لانهاية لها ، عملية استبدال بعض الظواهر والأشياء بأخرى ، وانتقال المتضادات بعضها إلى بعض . فهل من وجود لنزعة موضوعية ما ، لاتجاه ما ، في هذا الاستبدال الدائم للواحد بالآخر ، في هذا الصراع المتواصل بين الجديد والقديم ، بين المولود والفاني ؟ واذا كانت توجد هذه النزعات الموضوعية للتطور ، فما هي ؟

حول هذا السؤال دار أيضاً ويدور صراع بين مختلف المذاهب والنظريات . وقد اكتسب هذا الصراع طابعاً حاداً ، بشكل خاص ، في قضية اتجاه التطور الاجتماعي . ففي فترة التطور الصاعد للرأسمالية ، كان ممثلو الفلسفة البرجوازية يدينون بفكرة التقدم الاجتماعي . كان الفلاسفة يؤمنون بالانسان ، وبقدرته ، يؤمنون بإمكانية خلق عالم يسوده العقل والعدالة . لقد اعتبروا العالم البرجوازي السائر آنذاك في طريق الحلول محل الاضطهاد الاقطاعي ، والظلم الانساني ، عالماً يسوده العقل . كانت هذه اعتقادات تقدمية لا يمكن التقليل من أهميتها . بيد أنه نشأت في هذه الفترة نظريات تشاؤمية تشير الى محدودية التقدم ، والى حتمية تقهقر الانسان . وفي المراحل الاخيرة من تطور الفلسفة البرجوازية ، وخاصة في فترة الامبريالية ، اصبحت دوافع التشاؤم والسأم اكثر قوة . وأخذ ايدولوجيو البرجوازية يفهمون حتمية موت الرأسمالية التي مضى زمانها ، كانهيار للمجتمع الانساني ، والثقافة الانسانية . وبرز الفلاسفة من أمثال نيتشه ، وشبينغلر بنظريات تتبأ « بأفول نجم أوروبا » . وأخذت بالانتشار أفكار عن « الدورة الخالدة » ، وسير التاريخ الى الوراء .

وقد أصابت هذه النظرات التثاؤمية الطبيعة أيضاً . فقد عبر الفيزيائي الفلكي الانكليزي الشهير جينس في كتابه « حركة الاكوان » عن نفسية الانهيار بقوله: « الكون يعيش حياته ، ويسير في الطريق من المهد الى اللحد ، تماماً كما نسير نحن ، لان العلم لا يعرف تبديلاً غير الانتقال الى الشيخوخة ، ولا تقدماً آخر غير السير الى القبر » .

أما الديالكتيك الماركسي الذي يعمم الحركة الحقيقية في الطبيعة ، والمجتمع ، والتفكير الانساني ، ويعمم سير مهمة المعرفة العلمية كله ، يدحض هذه التصورات اللاعلمية عن الاتجاه الرئيسي للتطور . ان المادية الديالكتيكية تؤكد أن الخط الرئيسي للتطور الصاعد يشق طريقه ، عبر حركة معقدة ، مضللة أحياناً ، تبدو في الظاهر فوضوية غير نظامية ، منتقلاً من البسيط الى المعقد ، من الأدنى إلى الأعلى . هذه الناحية من التطور ، الناشئة الى حد كبير ، عن قوانين الديالكتيك المذكورة اعلاه ، تجد تعبيرها الأعمق في قانون نفي النفي . ان مكان واهمية هذا القانون في منظومة قوانين ومقولات الديالكتيك المادي ، يتحدد في اعطائه اعم واشمل مفهوم عن طابع التطور ، كاشفاً الصلة الداخلية ، والمراحل الأساسية السابقة واللاحقة في التطور ، كاشفاً الصلة التي تشترط سير الحركة الصاعد ، والشكل الحلزوني المعقد للتطور . فما هو قانون نفي النفي ؟

١ : - جوهر ودور النفي الديالكتيكي في عملية التطور

عند تحليل عملية انتقال التبدلات الكمية الى تبدلات كيفية ، وصراع المتناقضات ، رأينا أن التطور يتضمن في نفسه عاملاً قانونياً ، إلزامياً ، هو النفي . فالتبدلات النوعية تعني نفي النوعية القديمة . وبدون النفي ليس بالامكان انتقال الواحد الى الآخر . ثم ان صراع المتضادات يتم بظفر متضاد على آخر ، مما يعني أيضاً نفي الأول وتوطيد الآخر . فالنفي ، بالتالي ، ليس عاملاً ثانوياً ، مرتبطاً بعملية التطور من الخارج ، بل هو مشروط قانونياً بجوهر التطور ذاته . إن النفي هو نتيجة التطور عن طريق انشطار الوحدة ، ونشوء الجزئيات ، والاتجاهات ، والقوى ، التي ينفي بعضها بعضاً في الظواهر

والأشياء • يقول انجلز إن النفي الديالكتيكي الحقيقي هو «التقسيم الى متضادات، وصراعها ، وحلها » •

إن تضاد الأشياء والظواهر الداخلي ، يعني ، في الواقع ، أنه يوجد منها مثل هذه النواحي والاتجاهات التي تؤدي الى نفي الأشياء والظواهر • مثلاً البروليتاريا ونضالها ، هما نفي البرجوازية ، والنظام البرجوازي الذي تدافع عنه ، وهو نفي لا يأتي المجتمع الرأسمالي من الخرج ، بل هو ملاصق لجوهره • فالنفي هو عامل التطور الضروري داخلياً • وصراع المتضادات يتطور كصراع ناحية (عامل نفي) ضد الناحية التي توطد الموجود وتدافع عنه • فالبروليتاريا ، في المثل المذكور ، تناضل ضد البرجوازية كحاملة لأسلوب الانتاج الرأسمالي • وصراع المتناقضات يتم بموت أحدهما وظفر الآخر ، أي بنفي احدهما ، بنفي الذي وجد قبلا ، لكنه عاش زمانه • لهذا فالنفي اذن مرحلة ضرورية ، قانونية ، في التطور • وقد كان هيغل على حق تماماً عندما سمى «السلبية الداخلية» القوة المحركة للتطور • كذلك أبان ماركس ، عندما حدد سمات الديالكتيك المادي ، أهمية عامل النفي في التطور • ففي كتابه « الرأسمال » تحدث عن الديالكتيك المادي بأنه ، في الوقت الذي ينطوي فيه على المفهوم الايجابي للشيء القائم ، يتضمن ايضاً مفهوم نفيه ، مفهوم حتمية موته • كما أن هذا الديالكتيك ينظر الى كل شكل من الاشكال الموجودة من خلال الحركة ، وبالتالي من خلال ناحيته العابرة ، وهو لا ينحني أمام أي شيء ، أنه ناقد وثوري بجوهره ذاته » •

وللنفي دور هام في جميع عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير • وهو يتبدى بأشكال مختلفة تبعاً لاختلاف العمليات • فتحول الاورانيوم ، إشعاعياً ، الى راديوم هو مظهر « نفي » أحد العوامل الكيماوية ، وتشكل عامل كيماوي آخر منه • كما أن نفي البرعم بالزهرة ، والزهرة بالثمرة هما العاملان الضروريان لنمو النبات • وتاريخ المجتمع لا معنى له من دون نفي الانظمة الاجتماعية الدنفة من قبل الجديدة • وقد احسن بيلنسكي عندما قال بأن المجتمع ، من دون عامل النفي ، يتحول الى مستنقع راكد • ويشير تاريخ العلم الى أن حركة

المعرفة تمت عبر نفي الفرضيات التي لم تثبت ، عبر نفي النظريات والصيغ التي بلغت مرحلة التناقض مع الوقائع الجديدة ، مع النشاط العملي المتطور .

الا أن الاعتراف بعامل النفي ، في التطور ، غير كاف . لا بد من الفهم الصحيح لطبيعة النفي ، لطابعه الديالكتيكي . وعندئذ فقط يتضح الخط القانوني الأساسي ، والاتجاه ، في التطور .

ومن السهل علينا أن نلاحظ ، من خلال الامثلة السابقة ، أنه لا ينبغي فهم احد عوامل التطور ، وهو النفي ، كنفي مطلق ، اي كنفي لا يحتوي في ذاته أي شيء إيجابي . فلو أن الأمر كذلك لما أمكن التطور . لو أن نفي البرعم ، في دورة نمو النبتة ، كان نفيًا فقط ، لما حدث انتقال من البرعم إلى الزهرة . صحيح أن بالامكان قطف البرعم واتلافه ، فهذا أيضاً نفي ، ولكنه نفي تهديمي ، ولا يخلق الشروط لنمو النبتة الطبيعي . مثل هذا النفي لا يشكل شرط التطور . وعندما قضى الهنريون على الثقافة التي استغرق خلقها أجيالاً ، كان عملهم هذا نفيًا أيضاً ، ولكنه نفي دفع الانسانية إلى الوراء ، الى ظلمات العصور الوسطى . أما البروليتاريا ، فعندما تقضي على النظام الرأسمالي ، عن طريق الثورة الاجتماعية ، فهذا النفي يوطد نظاماً اجتماعياً جديداً ، أقدر على الحياة بشكل لا يقاس ، وعلى خلق إمكانيات تطور لاحد لها .

إن قانون نفي النفي الديالكتيكي هو قانون التطور . لهذا فعندما يتحدث الديالكتيك عن النفي ، فهو لا يقصد أي نفي كان ، بل يقصد النفي الذي يستخدم كمقدمة ، كشرط للتطور . يقول إنجلز «النفي في الديالكتيك لا يعني قول « لا » بساطة ، أو التصريح عن شيء بأنه غير موجود ، أو القضاء عليه بأية وسيلة كانت » . إن النفي المفهوم ديالكتيكياً ، والمعبر عنه تعبيراً صائباً ، هو هذه ال « لا » التي تحتوي في الوقت ذاته على « نعم » ، أي وحدة النفي والاثباب .

ولا يجمع المفهوم الديالكتيكي للنفي أي جامع مع العدمية والريية ،

اللتين تخضعان كل شيء للتشكك ، ولا تريان أي شيء ايجابي فيما كان ،
وفيما هو قائم • إنهما توشحان كل شيء بالأسود القائم •

وقد سمي لينين هذا النفي « ريبياً » ، « عارياً » ، « عبثياً » • مثل هذا
النفي هو أفكار ذاتية ، وليس انعكاساً للسير الموضوعي للتطور • يقول لينين :
ليس هذا النفي هو النفي الأساسي والمميز في الديالكتيكية – التي لاشك انها
تحتوي في ذاتها عنصر النفي ، كعنصر حاسم من عناصرها – كلا ، إن النفي
المقصود هو النفي كعامل صلات ، كعامل تطور ، مع توطيد الايجابي ، أي دون
أي تردد ، دون أي اصطفاء » •

لقد عكس الفن العالمي في صور ساطعة نوعين من النفي مختلفين من حيث
طبيعتهما : النوع الأول هو النفي الهدام ، الذي يتصف بالريبية والشك المطلق
في كل شيء • والثاني هو النفي الذي يعتبر مقدمة للانتقال إلى الأحسن والاكمل
ويكون بمثابة مصدر للتقدم • ان شخصية الشيطان في « فاست » للشاعر
الألماني غوته ، تمثل بتفكيرها وبكل فلسفتها النفي « العاري » النفي كهدف
بذاته مهما كلف الثمن •

انني انفي كل شيء – وفي هذا تكمن حقيقتي :
فكل هذه القذارة الموجودة على الأرض
لا تصلح إلا لأن تنهار تحت قصف الرعود ،
أفليس من الأفضل لهم أذن ألا يولدوا أصلاً •
ان كل ما يسميه الناس شراً :
الرغبة في الهدم ، والأعمال والأفكار الشريرة
ان كل هذا يشكل طبيعتي •

ان الشيطان «ميفيستوفل» يتفوه بالكثير من الأفكار النقدية الصحيحة عن
العالم القديم • وروح النفي الملازمة له تتصف ببعض النواحي الايجابية، إذ أنه

يسخر بقوة من كل ما هو آسن وفساد في الكون • بيد أنه مفعم بعدم الايمان في امكانية الانتقال إلى الأفضل • ان فاوست ينفي أيضاً ، ولكنه ينفي كل مافات أوانه وكل ما يعرقل التقدم ، فهو يؤمن بالانسان وبالعقل الانساني وهو شديد الظماً إلى كل ما هو كامل ورائع •

وبالاضافة الى أن النفي شرط التطور ، فهو أيضاً تعبير عن مواصلة التطور وتواليه ، تعبير عن الصلة بين مراحل التطور المختلفة وعوامله ، بين ما يُنفي ، وبين ما يُنفي • وهذه أهم ناحية في النفي • ان النفي الديالكتيكي لا ينبغي فهمه كاتقطاع في التطور ، كنفي للصلات بين القديم والجديد • ان الصلات بينهما قائمة بفعل ان الجديد يولد لا من لا شيء ، بل من القديم فقط • والصلة تجد تعبيرها في أن الجديد يتمسك بكل ما هو ايجابي في القديم • وعلى هذا فالقديم ، في حركته الوالدة للجديد ، لا يرمى بكل بساطة من قبل الجديد بل يزاح • والمفهوم الفلسفي لكلمة الازاحة يعني ، النفي والحفظ ، في وقت واحد ، نفي الوضع السابق ، وحفظ كل ما هو ايجابي ، في الجديد ، كل ما حققه التطور السابق •

مثلاً : لاشك أن الانسان ، والوعي الانساني ، هو نفي للحال التي تخص الحيوان مع ما يتمتع به من ملاءمة بيولوجية مع الطبيعة ، وفعالية نفسية غريزية • لقد كان الانتقال من العالم الحيواني الى العالم الانساني أعظم خطوة في تطور الطبيعة • الا أن تاريخ العالم الحيواني كان مرحلة تاريخية ضرورية ، سابقة لوجود الانسان • ويتضمن الوعي الانساني ، في شكله المتحول (التطور) ، نتاج التطور السابق لنفسية الحيوان • والعملية الديالكتيكية « للازاحة » ، اي النفي والحفظ ، توجد أيضاً في المعرفة • ان المعرفة ، اذ تنطلق من التسائل إحساسياً الى المجرد ، من الوحيد الى العام ، لا تفقد ، في المرحلة الجديدة ، ما حازته من قبل ، بل تحفظه في ذاتها ، وتغنيه ، ترفعه الى مرتبة أعلى • ففي معرفة العام تستقر معرفة الوحيد ، ولكن بشكل « مُزاح » • مثلاً ، في مفهوم المادة تنعكس اشياء العالم الموضوعي المتباينة ، إلا أنها تنعكس بشكل « مُزاح » ومن أكثر جوانبها عمومية وجوهرية - بصفتها واقعاً موضوعياً •

ان المثل التالي يثبت حاجة النشاط العملي القصوى الى دراسة النفي
الديالكتيكي في التطور ، كتعبير عن التوالي المتوارث ، والصلات الداخلية بين
النفي والمنفي . إن أمام المجتمع الذي بلغ مرحلة التحولات الاشتراكية تنتصب مهمة
تكوين ثقافة جديدة اشتراكية . كان من الخطأ الفاحش افتراض تكوين الثقافة
الجديدة بالتنكر العام للثقافة السابقة كلها . ومع هذا فقد كان لهذه النظرة
الخاطئة من يدافع عنها . لقد أكد الاشتراكي الديموقراطي « شولياتيكوف »
في كتابه « تبرير الراسمالية في فلسفة أوروبا الغربية » أن جميع فلاسفة القرنين
١٧ ، ١٨ ، يميلون فقط الى البرهنة على عدل النظام الراسمالي ، وأن نظراتهم
لا تحتوي على اي عنصر من الحقيقة الموضوعية . واستتج من هذا أن
البروليتاريا لا شأن لها بهذه الثقافة ، وانه لا يوجد ولا يمكن ان توجد اية
علاقة ، أو توال ، بين الفلسفة القديمة والماركسية . لقد سخر لينين وغيره من
الماركسيين من مثل هذه التصورات ، وغدت « الشولياتكيفية » مرادفاً للمفهوم
الساذج ، الفوضوي ، اللاديالكتيكي عن العلاقات بين القديم والجديد ، بين
المنفي والنفي . وفي السنوات الأولى من عمر السلطة السوفيتية كان قادة حركة
ما يسمى « بالثقافة البروليتارية » يصرخون أن الثقافة القديمة كلها ، إنما هي
ثقافة المستثمرين . ويؤكدون أن على الثقافة البروليتارية أن تكون بمعزل
تام عن ثقافة الماضي العريقة في التطور . هذه النظرات الفوضوية وجدت
انعكاسها في الفلسفة ، والأدب ، والموسيقى ، وغير ذلك من ميادين العلم والفن .
كان اولئك الأعداء ينعنون كتاب الماضي العظام بالايديولوجين المخلصين للنبلاء
والتجار ، دون ان يروا في فهم عناصر المحتوى الانساني العام . هؤلاء الأعداء
الذين استبدلوا التحليل الطبقي الماركسي لابداع هؤلاء الكتاب ، بالتحليل الذي
يأخذ بعين الاعتبار منشأ الكاتب الاجتماعي ويحلل فيه على هذا الأساس ، قد
أضروا بعزلهم الطبقة العاملة عن الارث الثقافي العظيم .

لقد دحض الحزب الشيوعي ، برئاسة لينين ، هذه الافكار عن الثقافة
البروليتارية . وكشف لينين ، باستخدامه طريقة الديالكتيك الماركسي ، عن
قانونية تطور الثقافة الاشتراكية ، وأشار الى أن هذه الثقافة تنفي بحزم كل

المحتوى العابر الاستثماري في الثقافة القديمة، ولكنها، في الوقت نفسه، استمرار لتطور الثقافة السابق • ان الثقافة الاشتراكية تعيد النظر في تقدير ودراسة الثقافة القديمة ، بشكل انتقادي ، لتحفظ وتدعم كل ما هو ثمين ، تقديمي •

لقد نشأت الفلسفة الماركسية كنفى للفلسفة السابقة ، ولكنها ، بعد تغلبها على الخاطيء الذي لم يتحمل وطأة تجربة الزمن، احتفظت بكل ماتضمنته هذه الفلسفة السابقة من حقائق •

هذا الفهم لجوهر النفي الديالكتيكي هو هام أيضاً في النشاط اليومي • لا شك أن النقد هو نفي • ولكننا نحن نعلم حدة هذا السلاح ، ونضعفه لو فهمنا النقد كنفى مطلق للماضي • ان النقد هو نفي الدنف ، الخاطيء ، الرتيب ، وفي الوقت نفسه ، توطيد كل ما هو قيم ، ايجابي في الشيء القديم • ان النقد الحقيقي لاينفي اللامفيد فقط ، بل ويساعد على التحرر منه ، ويدل على طريق التقدم • وتعبير آخر ، ان النقد كنفى ، ينبغي أن يكون موطداً أيضاً • موطداً لا بمعنى الاحتفاظ بالايجابي ، فقط ، بل وبمعنى الدلالة على طرق التغلب على النقائص •

ان الديالكتيك المادي يمنح النفي الاهمية الأولى ، ناظراً فيه شرط التطور ، والعامل المعبر عن العلاقة القانونية بين مختلف درجات التطور • وهذا ما يسمح بحل قضية الاتجاه الاساسي للتطور ، في الطبيعة، والمجتمع، والتفكير، حلاً صحيحاً • ولنتقل الآن الى بحث هذه القضية •

٢ : - الطابع التصاعدي للتطور وأشكاله

ان تحليل الدور الذي يلعبه النفي يؤدي الى استنتاج التطور التقدمي للواقع ، تطوراً تصاعدياً • وفي الحقيقة اذا كانت طبيعة النفي الديالكتيكي هي هذه ، وان النفي لايقضي على القديم ، بل يزيحه ، محافظاً على الشيء الايجابي ، فمن الواضح أن الدرجة الجديدة تأتي بإمكانيات كبيرة للتطور ، أكبر من إمكانيات الدرجة السابقة • ان التطور التصاعدي هو نتيجة حتمية

لقضية ان كل نفي جديد يمتص في نفسه كل ما تم التوصل اليه سابقاً ويجعل منه اساساً للحركة المقبلة . لذلك فكل درجة جديدة ، كل سيكل جديد للتطور لا يكرر الحلقة القديمة بل يمثل حلقة جديدة ، تلعو القديم ، وتستخدم القديم المكتسب من قبل التطور السابق ، كوسيلة للتطور التالي .

وهكذا فان اسلوب الانتاج الراسمالي ، بدأ تطوره باستخدام الاساس التكنيكي الذي ورثه عن الاقطاعية . واستناداً الى هذا الاساس ، خطت الراسمالية خطوات جبارة الى الامام ، فنشأت صناعة آليّة ضخمة ذات تكنيك عالي التطور .

كما ان الاشتراكية تحتل بالضرورة ، وبشكل قانوني مكان الراسمالية . فعندما تنفي الاشتراكية الراسمالية ، انما تعتمد على اساس تكنيكي أرفع من الاساس الذي استندت اليه الراسمالية في حينها . فلم يعد الانتاج الحرفي الآن نقطة انطلاق التطور ، بل الصناعة الآليّة الضخمة . ان الاشتراكية اذ تحافظ على ما حققه النظام الراسمالي من تقدم تكنيكي ، وتستخدم افضيلتها على الراسمالية ، تحوز الامكانيات لدفع الانتاج الى الامام ، دفعاً سريعاً جداً . واذا لجأنا الى المجاز قلنا ان الانسانية تكتسب من الماضي لا رماداً بل ناراً ، تبعث الحياة ، وتسمح بالسمو الى الاعلى . ففي الادوات الاولية التي حضرها الانسان البدائي ، كانت تكمن امكانيات التطور التالي لادوات الانتاج . ومن هذه الادوات الاولية استطاعت الحركة ان تنطلق الى الأمام فقط . ولا يمكن للحركة ان تعود بالانسانية الى العصر الحجري منطقة من الآلات الحديثة .

وهكذا فان الطبيعة الديالكتيكية للنفي ، ودوره الهام في التطور يوضحان لنا سبب الحركة التصاعديّة، السائرة الى الامام، والتطور من الأدنى الى الاعلى ومن البسيط الى المركب .

من الممكن طرح السؤال التالي : لماذا يسمى هذا القانون الذي ندرسه بقانون نفي النفي ؟ او لا يمكن الاكتفاء بمفهوم النفي وحده ؟ أو لا نعقد ، بشكل مصطنع ، صورة التطور عندما نعرض مفهوم النفي المزدوج ، نفي النفي ؟ جوابنا هو أن التطور الموضوعي ذاته ، يحتوي على هذا النفي المزدوج ،

ومفهوم « نفي النفي » يعكس فقط العمليات التي تتم بشكل مستقل عن وعينا •

لقد رأينا ان ما يبرز بصفة النفي ، يتبدل بدوره ، مع الزمن ، ويتحول الى نوعية جديدة اي ينفي نفسه • وهذه السلسلة من النفي لانهاية • وانه لمن الخطأ الظن بأن هذا التطور يجري بشكل سلس وبدون تناقضات • الواقع ، ان التطور التصاعدي السائر الى الامام ، عن طريق النفي ، يتم بشكل تناقضي ، وان جوهر نفي النفي ، او ضرورة النفي المزدوج في كل سيكل تطوري على حدة ، ينتج عن الطابع التناقضي للتطور بالذات وعن مفعول قانون وحدة وصراع المتناقضات •

ولتوضيح ذلك نتصور نزاعاً بين طرفين حول قضية علمية ما. ان الطرف الاول يقدم فكرة معينة (نظرية) والطرف الثاني يقدم نفي هذه الفكرة (ضد النظرية) • ان كلا من الطرفين المتعارضين يمكن أن يصيب بعض الحقيقة ، ولكنهما يعارض أحدهما الآخر من جانب واحد ويقف أحدهما من الآخر بصفته نافياً له • وتشب بين الطرفين معركة فكرية تنتهي بظهور فكرة جديدة تنفي الفكرتين السابقتين المتصارعتين فيما بينهما • ولكنها عندما تنفيهما وتنتهي الخلاف الناشب بينهما لا تنبذ تلك العناصر من الحقيقة التي كانت متمثلة في كل منهما من جانب واحد ، بل تضمها إلى بعض وتصبح بهذا « مركباً » يستفيد من الجوانب الايجابية في تطور الجدل الذي كان ناشباً • ولكن لا ينبغي فهم هذا « المركب » على أنه مزج ميكانيكي لما كان في السابق موجوداً بشكل مجزأ ، ولا على أنه ربط خارجي بين متضادين • وإنما يجب فهمه على أنه درجة جديدة تماماً في سلم التطور • وعلى هذه الدرجة الجديدة يتم ، بفضل صراع الأضداد ، التغلب على وحدة الجانب التي كانت تسم كلاً من الدرجتين السابقتين ، ويتم الوصول إلى الحقيقة العليا التي تحتفظ بكل الايجابي الذي كان في السابق ، ويختفي في الوقت نفسه عنصر الخطأ المؤقت المعارض للحقيقة • إن هذه الدرجة الجديدة بالذات هي ما نسميه نفي النفي ، وبالتالي فان نفي النفي هو النتيجة القانونية لحل صراع الأضداد •

لقد أوردنا كمثل جدالاً (صراعاً بين رأيين متعارضين) ينتهي بالتوصل إلى الحقيقة • وتاريخ العلم مليء بأمثلة من هذا النوع ، تبين حركة المعارف الإنسانية نحو الحقيقة الموضوعية •

ففي القرن السابع عشر سادت نظرية تؤكد أن الضوء يتكون من جزئيات صغيرة جداً تنتشر وفق قوانين حركة الجزيئات • وفي هذه الفترة نفسها ظهرت نظرية تقول بأن للضوء طبيعة تموجية وهو ينتشر وفق قوانين التموج • وقد وجدت هذه النظرية دعماً قوياً لها في أعمال «فرنيل» و «يونغ» في القرن التاسع عشر • وبدا آنذاك أن النظرية الثانية قد انتصرت على الأولى في هذا الصراع • ولكن العلم في القرن العشرين اكتشف الطبيعة الكوتية للضوء وبرهن عليها • وقد ظهر أن انكسار الضوء وحركاته الاهتزازية تشهد على طبيعته التموجية أما تأثيره في التصوير الكهربائي ومفعوله الكيميائي وغير هذا من الصفات فتدل على أن الضوء يتصف في الوقت نفسه بصفات الجزيئات •

وهكذا عمدت النظرية الحديثة للضوء ، بصفاتها نفيًا للنفي ، إلى جمع وتركيب العناصر الايجابية في النظريتين السابقتين وحررتهم من وحدة الجانب • وإلى جانب ذلك فإن هذه النظرية ، باعتبارها درجة عليا وحصلة قيّمة ، كان يتعذر التوصل إليها لو انعدمت الصلة بينها وبين النظريتين السابقتين ولو لم يجر الاعتماد عليهما واستخدامهما •

ان التطور في كل مكان يحدث على النحو التالي : كل درجة عليا من دورة التطور هذه او تلك ، تبرز كتركيب للحركة السابقة كلها • وهذا يمكن اظهاره بالمثل التالي من تاريخ المجتمع ، فقبل عهد المانيفاكتورة والانتاج الآلي ، كان العامل المنفرد يقوم بجميع أو قرابة جميع عمليات المنتج الذي يعده • فكان المنتج ، بهذا المعنى ، كعامل عمومي ينفذ كامل عملية انتاج منتج معين • أما في المانيفاكتورة ، وفي الصناعة الآلية خاصة ، فقد جزئت عملية الانتاج الى عدد من العمليات المنفصلة ، وأصبح كل عامل ينفذ فقط قسماً من العملية الكلية • فالعامل العمومي « نفي » من قبل الشغيل الذي ارتبط بعملية

جزئية • وفي ظروف الاشتراكية ، وخاصة الشيوعية ، وبفضل أتمتة الانتاج نشأ تشغيل من نوع جديد ، تشغيل لايقوم بتنفيذ عمليات جزئية (وهي ما يقوم به الميكانيك) ، بل يدير العملية الانتاجية كلها ، أو قسماً هاماً منها • فأصبح العامل من جديد ، بالمعنى المعروف ، عاملاً متطوراً من نواح عديدة ، يستطيع القيام بعدد من المهن المتقاربة، وملماً بعملية الانتاج كلها • ولهذا فهو ملزم أن يكون اختصاصياً ماهراً في ميدان معين • هذه الدرجة الجديدة التي تبدو نفي النفي ، تبرز تحت شكل تركيب للتطور السابق كله ، متغلباً على الاقتصار على تطوير جانب واحد ، وجامع للنواحي الثمينة الكائنة في الدرجتين السابقتين : عمومية العامل القديم ، والمستوى التكنيكي الرفيع في الانتاج الجديد • هذه الأمثلة الضرورية تبين لنا لماذا لا يتم تطور هذه العملية الحسية أو تلك ، في النفي الأول ، بل يتطلب ذلك التطور ، بدوره ، نفي هذا النفي • القديم يُنفي بالجديد ، والجديد يُنفي القديم ، هذا هو جوهر التضاد • ويلتزم كلاً من هذين المتضادين تلك العناصر والخصائص التي لايمكن فقدانها في التطور التالي ، وتلك التي تختفي ويقضى عليها • هذا المتضادان يبرزان كما لو أنهما وحيداً الجانب ، يختلفان في التطور التالي • وهو امر يحدث في درجة نفي النفي •

وهكذا فالتطور يمر في درجة تثبت وجود الظاهرة ، ثم في درجة نفيها ، وأخيراً في درجة نفي النفي • وبفضل ما « يتجمع » ، ما يُهضم ، ما يصقل في هذه الدرجة العليا من ثمين احتوته الدرجتان الاوليان ، وبفضل ما يختفي ، ما يقضى عليه من العناصر التي فات زمانها في تلك الدرجتين ، فان التطور بمجموعه يسير في خط صاعد ، من البسيط الى المعقد ، من الأدنى الى الأعلى • لهذا يتمتع قانون نفي النفي بأهمية عظيمة في توضيح الاتجاه الأساسي في التطور •

ان الاتجاه الاساسي للحركة الصاعدة يتبدى بسهولة حتى لدى القاء نظرة خاطفة على تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير • لقد تبدى أثر هذا الاتجاه في الطبيعة ، في الانتقال من الطبيعة اللاعضوية الى الطبيعة العضوية • هذا مع

العلم أن لكل من ناحيتي الطبيعة هاتين ، درجات تطورها. وكل درجة هي أكثر تعقيداً وارتفاعاً مما سبقتها . وهو امر نراه بسطوع واضح في الطبيعة العضوية . فطريق تطور المادة العضوية هو الانتقال من ابسط اشكال العضوية وأدناها الى أكثرها تعقيداً ، ورفعه ، من وحدات الخلية الى كبرياتها ، من أدنى أشكال النباتات والحيوانات الى أرفعها وأكثرها تعقيداً .

ونرى في المجتمع أن كل تشكيلة اجتماعية اقتصادية جديدة هي عبارة عن درجة تطور أعلى . وعملية الصعود من الأدنى الى الأعلى لا تشمل البنين الاجتماعي بمجموعه فقط ، بل وتشمل كل ناحية منفصلة من نواحي المجتمع: مثل : التكنيك ، الانتاج ، العلم ، الفن ، حياة الناس . . . ان طريق تطور المعرفة هو الانتقال من التصورات الأولية البسيطة المحشوة كثيراً بالاوهام ، عن العالم ، الى الذرى المشرقة التي توصلنا إليها بفضل العلم الحديث .

في كل مكان ، وفي أي ميدان طرقيه ، نرى الاتجاه الاساسي ذاته ، نرى التطور وفق خط صاعد . وواضح أن هذا هو نتيجة عمل الديالكتيك الموضوعي للتطور . ان الحركة الصاعدة هي عملية معقدة لا يمكن فهمها ببساطة . فالتطور الصاعد في الطبيعة والمجتمع يتحقق ، على أرضنا ، في كتلة من الأشكال والظواهر التي يستبدل بعضها بعضاً ، وكل منها عابر غير ثابت . ولا ينبغي أن نفهم أمر التطور على ان كل شكل من أشكال النبات او الحيوان يتطور دائماً وفق خط صاعد . ان العالم العضوي يتطور من حيث المجموع تطوراً صاعداً ، بعض الاشكال تنشأ وبعضها يموت ؛ بعضها يتحول الى بعض آخر . ومقدرة بعض الأشكال العضوية على التلاؤم مع شروط الحياة المتبدلة تقترن بعدم المقدرة على التلاؤم عند الأشكال الاخرى ، مما يؤدي الى موتها . وفي الحياة الاجتماعية تستبدل التشكيلات والانظمة الاجتماعية التي فات أوانها ، بتشكيلات وانظمة جديدة . ونتيجة لجوهر النفي الديالكتيكي يستبدل التطور الصاعد للأشياء المستقلة ، قانونياً ، بتطور هابط ، لأن الأشياء بتطورها الخاص ، تحضر شروط نفيها . إن نمو ، وتطور بعضها ترافقه ، تحت شكل نقيضه ، شيخوخة ، ودنف الآخر .

إن بعض اجزاء خط التطور ، في اتجاه الحركة التقدمي العام ، يمكن أن تتوجه لا الى الأمام ، بل الى الوراء ؛ يمكن ان تعبر عن فترات الحركة الراجعة ، عن التأخر . ففي المجتمع مثلاً لاتظفر القوى الطليعية الجديدة دفعة واحدة . فكثيراً ما تفشل أمام قوى القديم التي تكون اكثر قوة من الجديد الناشيء . من هنا كانت حتمية التعرجات في التطور ، والتراجع الموقت . كان لينين يحب تكرار كلمة تشيرنيشفسكي « ليس التاريخ رصيف شارع نهر النيفا ، على ما هو عليه من سعة ، واستواء واستقامة » . ففي المجتمع يدور صراع بين الطبقات والاحزاب المتناحرة ، وسير هذا الصراع متعلق بنسبة القوى . ففي ثورة ١٩٠٥ في روسيا ، بدت نسبة القوى في غير صالح العمال والفلاحين ففشلوا . إلا أن كل تعرج في السير العام للتطور ، له طابع العرضية ، والنسبية ، لأن القوى الطليعية تتمرس في الاندحار ، وتتوطد ، ولا بد لها في مراحل جديدة من النضال ، من ان تحوز الغلبة ، وتحقق النصر . لهذا فالخط الأساسي للتطور الصاعد ، الذي يتميز بأهميته المطلقة المستمرة ، لا النسبية الموقته ، يعبد طريقه عبر تحولات النضال المعقدة ، بين القديم والجديد ، عبر جميع الفجوات والانعطافات . ان العمال والفلاحين الذين انخذلوا في عام ١٩٠٥ ، ظفروا في عام ١٩١٧ .

كل خطوة من خطى التقدم في المجتمع التناحري تكلف ضحايا انسانية . فالطبقات المستثمرة تستخدم التقدم التكنيكي لالتخفيف اعباء العمل ، بل لاضطهاد الشغيلة . ان المنجزات العلمية العظيمة ، كالطاقة الذرية ، مثلاً لاتستخدمها تلك الطبقات في الاهداف السلمية ، بقدر استخدامها لها في تحضير الحروب . والفلاسفة وعلماء الاجتماع البرجوازيون ، إذ يرون هذه السمة التناقضية للتطور ، ينفون التقدم .

وكمثال على هذا نسوق القول التالي للاستاذ في جامعة شيكاغو اناتول رابوبورت: « بالرغم من أن التقدم التكنولوجي قد أصبح أمراً مدعوماً بالبراهين (من حيث كمية الكيلووات التي يستهلكها الفرد) وبالرغم من أن البحث الطبي المنظم يتغلب على الكثير من الأمراض ، وبالرغم من انتشار التعليم . . . فهل

أحرزنا شيئاً ما؟ وإذا كان جوابنا : نعم ، فسنسأل : في أي مضمار؟ من الطبيعي أن نشك في قيمة الأبحاث فيما يفوق سرعة الصوت إذا كانت هذه الأبحاث تؤدي بنا الى اختراع صواريخ ذرية • ولنا الحق في أن نشك بقيمة الكميات الهائلة من المطبوعات ، إذا كان الشباب الأمريكي لا يقرأ سوى المؤلفات الكوميدية ! وباختصار أقول انه إذا لم يكن هناك شك في أن التغييرات التي أحدثتها التقدم التكنولوجي هي تغييرات ثابتة ، عندئذ سيرز سؤال هام وهو : هل هذه التغييرات مرغوب بها أم لا ؟

مثل هذه الآراء عن التقدم تقوم على اساس عدم فهم أن بدون امثال هذه التناقضات لا يمكن ان تتم حركة الى الامام في المجتمع المقسم الى طبقات متناحرة • ان وجود التناقضات لا يمكن ان يكون دحضاً للتقدم ، دحضاً للحركة الصاعدة بل تنبغي دراسة كل تعقيد التقدم ، والنضال ضد القوى الرجعية ، نصيرة التأخر •

ويعرض الفلاسفة البراجوزيون برهاناً آخر ضد النظرية الديالكتيكية عن الطابع التصاعدي للتطور • فهم يقولون بأن كرتنا الأرضية لن تكون دائماً مكاناً أهلاً للحياة • وأن التقدم لن يكون فيها بشكل أبدي • إلا أن هذا البرهان الغريب لم يصب الهدف • فالكواكب التي نشأت فيها الشروط الملائمة لتمايز المادة ، وظهور الكائنات الحية ، بما فيها الانسان المفكر ، في مدى بلايين السنين ، أو مدى كون لا نهاية له ، هي كأى شكل مستقل من أشكال وجود المادة ، عابرة • الا أنه اذا كانت الكواكب المستقلة ذات نهاية ، وتتحطم مع جميع ما عليها من عظيم الاشكال المادية المتطورة ، فان المادة وقوانين تطورها لن تفتنى ، وبالتالي ، لن تفتنى مقدرة المادة على التمايز ، مقدرتها في اي مكان آخر ، من كوكب آخر ، على تجديد جميع أشكالها المتعددة ، بما فيها الشكل العلوي لظهور الحياة • يقول انجلز « إن المادة تبقى ، في جميع تحولاتها ، خالدة بذاتها • واذا كانت قوضت على الأرض لضرورة قصوى ، وفي وقت ما ، زهرتها الفواحة ، النفس المفكرة ، فسيوجب عليها ، أن تلد هذه النفس من جديد ، في مكان آخر ، وفي زمن آخر » •

ولنر الآن قضية أشكال التطور الصاعد • فالحركة المتقلة من الأدنى الى الأعلى ، من البسيط الى المركب ، يمكن تصورها بوضوح لا في شكل خط مستقيم ، او دائرة ، بل في شكل حلزون • ومفهوم « نفي النفي » يعكس هذا الشكل الحلزوني للتطور • ان الوقائع العديدة ، المأخوذة من تاريخ الطبيعة ، والمجتمع والتفكير ، تدل على ان التطور يتضمن ، عادة ، عامل العودة الى نقطة الانطلاق ، ولكن على درجة أعلى ، اي العودة على اساس جديد أعلى من قبل • هذا هو شكل التطور ، المشابه للحلزون : فنهاية كل حلقة من حلقات الحلزون تلتصق بالبداة ، ولكن في حدود لا الحلقة القديمة ، بل الحلقة الجديدة القائمة فوق القديمة • ان الدرجة العليا في التطور التي تبرز تحت شكل نفي النفي ، تتم دورة التطور ، صغرت ام كبرت • ويبدو في كثير من الظروف ، ان نقطة التطور العليا تظهر وكأنها عودة الى بدء نقطة انطلاق التطور ، ولكنها عودة على أساس أعلى •

لنوضح هذا بأمثلة • لقد أبان ماركس في « رسماله » أن شكل الملكية الراسمالي إنما نشأ نتيجة تجريد جماهير المنتجين الصغار الذين كانوا يؤمنون لأنفسهم وسائل معيشتهم ، بمساعدة وسائل الانتاج الموجودة في حوزتهم ، من هذه الوسائل • فالملكية الراسمالية الضخمة كانت نفيًا للملكية الصغيرة • الا أن الراسمالية بدورها ، تستفي من قبل الشكل الاشتراكي ، الشكل الاعلى للملكية • « فيجُرد المستثمرون من ملكيتهم لوسائل الانتاج » • هذا هو نفي النفي • فالتطور يتبدى كما لو أنه يعود الى نقطة الانطلاق ، ولكنه عملياً يعود على أساس أعلى • كما أن المنتجين المباشرين ، اي الشغيلة ، يصبحون من جديد مالكين لوسائل الانتاج ، ولكن لا في شكل فردي للملك ، بل في شكل ملكية جماعية • وهكذا فنفي النفي لا يعيد نقطة الانطلاق بكل بساطة ، بل يكس ، « يركب » جميع منجزات الدرجات السابقة للتطور ، مجدداً ، في الدرجة العليا من الدورة ، بعض سمات الدرجة الأولى •

ويتبدى الشكل الحلزوني للتطور الصاعد في تاريخ التفكير ايضاً • فالفلسفة القديمة بدأت بالمادية المتشربة بالديالكتيك العفوي • ثم فيما بعد ،

وخاصة في القرنين ١٧ ، ١٨ سادت طريقة التفكير الميتافيزيكية • كانت للمادية الميتافيزيكية نفيًا لطريقة الماديين القدامى الديالكتيكية في معالجة الطبيعة • وفي منتصف القرن التاسع عشر ، نشأت المادية الديالكتيكية التي كانت نفيًا للنفي • كانت هذه المادية كأنها أنهت سلسلة القرون العديدة من تطور الفلسفة في النقطة ذاتها التي بدأتها هذه الأخيرة ، ولكن على أساس أعلى بشكل لا يقارن •

هذا الشكل ذاته من التطور غالباً ما يشاهد في الطبيعة، ولا سيما في الطبيعة العضوية • فمن البذار ، مثلاً ، تنبت نبتة تعطي بذاراً من جديد • وهذا ، في دورة حياتية جديدة ، ينبت نبتة جديدة ليست مجرد تكرار للسابقة، بل تنطوي على تبدلات حصلت عليها في عملية تلاؤمها مع الوسط المتبدل •

ثم إن العديد من الوقائع المستقاة من ميادين مختلفة من الطبيعة والمجتمع والتفكير ، تشير الى أن التطور في درجته العليا يتضمن عامل الرجوع الى نقطة الانطلاق ، ولكن على اساس جديد ارفع • هذه الوقائع تقول بأن مثل هذا الشكل من التطور ليس عفويًا ، بل وثيق الارتباط بجوهر العملية التي نسميها نحن نفي النفي • صحيح أن النفي الثاني عندما « يزيج » ، عندما ينفي الأول تتجدد ، بهذا ذاته ، قانونياً ، بعض السمات ، بعض خصائص الحال الانطلاقية ، هذه الخصائص التي ينفيها النفي الأول • وبتعبير آخر ان النفي المزدوج يثبت ، أي يجدد ، على أساس جديد أعلى ، بعض سمات فترة انطلاق التطور • هنا ينبغي أن نشير مرة أخرى الى أن العودة الى القديم ينبغي ان نفهمها لا كتجديد حرفي لما كان حدث بل فقط كاعادة لبعض خصائص ، ونواحي القديم • انها ، حسب تعبير لينين ، « عودة الى ما يزعم انه قديم » ، أي « عودة » تنفذ فيها الحركة لا الى الوراء ، الى الدرجات التي مضت وفات زمانها ، بل الى الامام ، الى أشكال جديدة أعلى ، تكثف في ذاتها كل ما هو ثمين ، وايجابي في الشيء السابق •

• بيد انه قد يكون من الخطأ النظر الى « المراحل الثلاث » ، كمخطط سابق للتجربة ، ترتبط به جميع العمليات • فتطور شيء ما يمكن ان يمر، وغالباً

ما يمر ، لا عبر ثلاث درجات ، بل عبر أكثر او أقل . وفي بعض العمليات تلاحظ بكل وضوح العودة الى شكل الانطلاق على اساس جديد ارفع ، في حين يتم هذا الامر ، في عمليات اخرى ، بوضوح أقل ، جزئياً فقط .

ان قانون نفي النفي ، كأى قانون ديايكتيكي آخر، يشير فقط الى الاتجاه الاعم في التطور . وهو ، كأى قانون ، يتبدل ، ويغير شكله عند التنفيذ، حسب طبيعة الشيء والشروط التي يتم فيها تطور هذا الشيء . وقد نبه انجلز بشكل خاص قائلاً بأن طريقة النفي « تتعلق بالطبيعة الخاصة بكل ظرف على حدة » .

اقد سخر انجلز ولينين من اولئك الذين يهتمون الماركسية وكأنها تشير الى حتمية موت الراسمالية وظفر الاشتراكية بالاعتماد على نفي النفي ، و « المراحل الثلاث » ^(١) . ان ماركس محص في جبال الوقائع ، واكتشف قوانين تطور الراسمالية ، ولم يتوصل الى نتيجة القاضية بحتمية موت الراسمالية ، وظفر الاشتراكية ، الا على اساس العمليات الموضوعية . ولم يكن الديالكتيك ، بما فيه قانون نفي النفي ، الا طريقة تمحيص تلك الوقائع .

ان معرفة القوانين الديالكتيكية العامة للتطور ، ومقولات الديالكتيك ، تسلحنا بطريقة علمية ، هي مقدمة الطريقة الصحيحة لمعرفة الواقع ، سواء في دراسته او في النشاط العملي . فعندما نعرف قوانين الديالكتيك ومقولاته ، ونسير حسبها ، فلا بد لنا عند حل مختلف المهام العملية من ان نجد ، ونضع ، الأشكال الخاصة التي تعكس عمل القوانين العامة ، في كل ظاهرة ، وعملية ، وحادث ، على حدة ، وفي مختلف الشروط التاريخية .

في هذا تستقر الاهمية العظمى لاسلوب التفكير الديالكتيكي ، الذي يسمح ، حسب اقوال لينين ، باقامة العلاقة مع مهمات العصر العملية المعينة ، التي يمكن ان تتبدل عند كل انعطاف تاريخي جديد .

ان قانون نفي النفي يتمتع بخصائص معينة في ظروف المجتمع

(١) « الثلاثية » تعني التطور حسب المخطط التالي : النظرية ، ضد النظرية ، التركيب .

الاشتراكي • وأهم خاصة لعمله هنا تتبدى في فقدته سمته التهديمية الملازمة له في المجتمع التناحري ، حيث قوى الماضي الذي فات أوانه ، تمسك حتى بنبتات العرمت لانقاذ هذا النظام • ويمكن القول بأن طابع النفي الديالكتيكي، الايجابي الخلاق يجد في المجتمع الاشتراكي ، أسطح واتم انعكاس • ففي هذه الظروف الجديدة ، عندما تصفى الطبقات المستثمرة ، يحقق المجتمع بشكل واع «النفي» الضروري الناضج تاريخياً ، الذي يسمح باستبدال الاشكال القديمة للتطور بأشكال جديدة ، دون التعرض لخسائر فادحة •

إن المجتمع الاشتراكي يتطور منهجياً ، تسيره معرفة القوانين الاجتماعية • وهو ينفذ هذا النوع من النفي الذي لايسمح للاشكال البالية أن تعيق الحركة • والحزب الشيوعي ، القوة المحركة للمجتمع الاشتراكي ، يجمع بشكل واع ، وحكيم ، لدى كل مرحلة من مراحل التطور ، بين الاشكال الجديدة ، وبين الاشكال الاخرى القيمة التي برزت في المراحل السابقة •

والحزب الشيوعي الذي يعتقد بأن التطور هو عبارة عن عملية يلعب فيها عنصر النفي دوراً هاماً ، يعتني فائق العناية ببراغم الجديد التي ولدت في طيات القديم ، هذه البراعم التي هي ملك المستقبل • اما في المجتمع البرجوازي فالأمر على العكس • فبراعم ، فعناصر النظام الجديد ، تسحق من قبل الطبقة السائدة ، وتوضع العوائق أمام نموها ، ولا يفتح الطريق ، واسعاً امام تطورها الا تصفية ديكتاتورية البرجوازية •

والحزب ، في برنامج الجديد ، يعالج بدقة قضية الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، كعملية نفي ديالكتيكي ، بجملة من الاشكال والمبادئ التي لا بد لها ان تشيخ ، وتهرم على اسس التطور الرفيع للقوى المنتجة • مثل هذا النفي ، يتعرض له بشكل قانوني، في مرحلة انتصار الشيوعية الكامل، المبدأ الاشتراكي القائل بالتوزيع حسب العمل ، واشكال الادارة الحكومية ••• وميزة عملية النفي هذه تتبدى في أن التطور لا يتم عن طريق التحطيم ، بل ، على العكس ، عن طريق الاستخدام الاكمل لأشكال الحياة الاشتراكية ، مما يؤدي الى تنفيذ

« نفي » الماضي ، حسب نضوج مقدمات وشروط الانتقال الى الاشكال الشيوعية الجديدة للحياة ، في المراحل والدرجات المتوالية •

ان المجتمع الشيوعي ذاته ، يبرز كمرحلة عليا لتطور الانسانية العالمي السابق ، جامعاً في نفسه كل ما خلقته الشعوب في الماضي من عظيم وثمانين •
الا أن المجتمع الشيوعي الذي خلقه الشعب السوفييتي هو مجتمع 'أرفع' تطور مادي وفكري ، مجتمع وفرة الخيرات المادية والروحية ، مجتمع التطور المتناسق لجميع الامكانيات والكفاءات الانسانية •

وهكذا ، فقانون نفي النفي ، هو انقانون الذي تتحدد بفعله العلاقات والتوالي ، بين المنفي والنافي ، وبنتيجة ذلك ، يبرز النفي الديالكتيكي لا كنفي مجرد ، لا فائدة منه ، ينبذ كل تطور سابق ، بل كشرط تطور يبقي ويحفظ في نفسه كل ما هو ايجابي في المراحل السابقة ، مكرر ، على أساس أرفع ، بعض سمات المراحل الانطلاقية ، ويتمتع من حيث المجموع بطابع تقدمي •

وقانون نفي النفي ، شأنه شأن قوانين الديالكتيك المبحوثة قبلاً ، هو احد اهم قوانين الوجود وعملية المعرفة ذاتها • والامر المهم هنا هو أن عامل النفي الديالكتيكي ، كنفي مرفق بالتمسك بالاجابي ، كشروط التطور التقدمي لتعارف الانسانية ، يتبدى بقوة عظيمة في حركة المعرفة ، ومنطقها • ويورد لينين باستحسان في « الدفاتر الشيوعية » نبذة من « علم المنطق » لهيغل ، بدت فيها بكل وضوح أهمية النفي انديالكتيكي في سير المعرفة • يقول هيغل ان كل خطوة جديدة في المعرفة مرتبطة بالمراحل السابقة • وفي كل درجة من درجات التحديد التالي ، يرفع الشيء العام الجامع محتواه السابق كله الى اعلى ، وهو ، اذ لا يفقد شيئاً بفضل حركته الديالكتيكية التقدمية (حركة المعرفة - المعرب) ولا يخلف شيئاً وراءه ، إنما يحمل معه كل ما اكتسبه ، ويفتني ، ويتراص في داخله » •

هذا هو قانون العملية التاريخية لتطور التفكير، والعملية الفردية للمعرفة •

ان الحقائق العلمية ، تغتني اكثر فأكثر ، و « تتكثف » ، والمعرفة تسير الى السيطرة على الحقيقة بشكل أعمق ، نتيجة هذا القانون بالذات •

ثم إن عملية المعرفة تبين أيضاً ، بوضوح ساطع ، الناحية الأخرى من قانون نفي النفي ، القائلة بأن التطور يتم على شكل حلقة ، مع ما يحدث في أعلى نقطة من كل حلقة جديدة ما يدعى انه عود على بدء ، ولكن على اساس اكثر رفعة • فمثلاً ان معرفة الانسان للاشياء تنتقل من الحس المجسد الى المجرد ، ومن هذا يعود من جديد الى المجسد ، ولكن في مفهومه الأعمق الحادث نتيجة عملية التجريد العلمية •

وهاكم مثلاً آخر • إن النشاط العملي يبرز كبداء ، كنقطة انطلاق للنظرية • والنظرية تجيب على اسئلة ومتطلبات النشاط العملي • الا ان النظرية الحادثة على اساس النشاط العملي تتجه مجدداً الى النشاط العملي • وهذا النشاط وحده هو القادر على تبيان حقيقة النظرية • وفي نشاط الناس العملي وحده تتحقق منجزات النظرية • ان تطور المعرفة تنتقل من النشاط العملي الى النظرية ، ومن النظرية الى النشاط العملي مجدداً ، ولكن بعد ان يغتني هذا النشاط بالمعرفة النظرية للواقع • فنهاية دورة واحدة - النشاط العملي - هي في الوقت ذاته بدء دورة جديدة في تطور المعرفة • والدورة الجديدة تتألف من الحلقات ذاتها ، الا انها ستكون الحلقة الأعلى من الحلزون •

• هذا القضايا ستعالج في الفصل التالي بشكل خاص •



الفصل التاسع

ديالكتيك عمليّة المعرفة

كما سبق وذكرنا في الفصول السابقة ، فإن قوانين ومفاهيم الديالكتيك ليست فقط قوانين تطور الواقع وانما هي ايضاً قوانين تطور التفكير والمعرفة • ان عملية المعرفة الموضوعية العلمية هي ايضاً عملية ديالكتيكة كالواقع الموضوعي ذاته •

وهذا الفصل مكرس للمسائل الاساسية في ديالكتيك عملية المعرفة • وهو يبحث العلاقات الديالكتيكية المتبادلة ومنطق ونظرية المعرفة ، وعلاقة الحسي بالعقلاني في المعرفة ودور التجريد وقضية الحقيقة ومقاييسها • ان كل هذا يتم ويعمق محتوى النظرية الديالكتيكية للتطور •

١ - الديالكتيك كنظرية للمعرفة

المنطق الديالكتيكي والمنطق الشكلي

ان المعرفة انعكاس للواقع • وهي عملية ديالكتيكية معقدة ينفذ فيها العقل الى جوهر الاشياء • وتتم المعرفة من خلال نشوء التناقضات وحلها وتحمل طابعاً فعالاً خلافاً • فهي اذ تكشف قانونيات العالم الموضوعي تدل على طريق تكوينه وتبديله •

ان الديالكتيك المادي ، بحكم كونه علماً عن التفكير ايضاً ، يدرس موضوعه تاريخياً فيكشف عن منشأ وتطور المعرفة • كتب لينين يقول: « في نظرية المعرفة ، كما في كل مجالات العلم الاخرى يجب ان نفكر تفكيراً ديالكتيكياً ،

اي يجب الا تفترض ان معرفتنا جاهزة ولا تتبدل بل ان ندرس الطرق التي نشأت بها المعرفة من الـ معرفة ، وبأي شكل تصبح المعرفة غير التامة وغير الدقيقة معرفة اكثر كمالاً واكثر دقة ،^(١) .

لقد درس الكثيرون من مفكري الماضي المعرفة واشكالها دون ان يربطوا بينها وبين توضيح محتواها الموضوعي . وافترضوا ان قوانين التفكير لا تمت بصلة إلى قوانين الواقع ذاته . وكمثال على ذلك يمكن أن نأخذ نظرية المعرفة عند « كانت » الذي حاول ان يحلل معرفة الانسان واشكالها قبل عملية المعرفة الحقيقية وعلى غير ارتباط بها . وعلل « كانت » ان المهمة الأساسية لنظرية المعرفة هو تفسير الظروف والاشكال القبلانية للمعرفة . وقد فصل بين اشكال التفكير ومحتواها الموضوعي .

ان من غير الممكن فهم القوانين الواقعية للمعرفة الا عندما نحلل المحتوى الموضوعي للمعرفة . وقد اعتبر هيجل اشكال التفكير اشكالاً لمحتوى حي واقعي مرتبط باعالم الموضوعي . وهذا صحيح . ولكن فلسفة هيجل لاتقول بان قوانين واشكال التفكير تعكس قوانين الطبيعة وانما ، بالعكس ، قوانين الطبيعة هي النسخة الشاحبة لقوانين تطور الروح .

وتنطلق الفلسفة الماركسية من ان ما يسمى بالديالكتيك الذاتي (تطور تفكيرنا) هو انعكاس للديالكتيك الموضوعي (تطور ظواهر العالم المادي) : يقول انجلز : « ... ان قوانين التفكير وقوانين الطبيعة ينطبق بعضها على بعض اذا كانت معروفة معرفة صحيحة »^(٢) . ان وحدة قوانين التفكير وقوانين الواقع لاتعني عدم وجود فارق بينها . انها قوانين واحدة من حيث المحتوى فحسب ، ولكنها مختلفة من حيث اشكال وجودها . فقوانين الواقع موجودة وجوداً موضوعياً ، اما القوانين الاخرى فموجودة في وعي الانسان كانعكاس للاولى . يقول لينين : « ان قوانين المنطق هي نتاج انعكاس ما هو موضوعي في وعي الانسان الذاتي »^(٣) .

(١) ف . اي . لينين المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ٩١ .

(٢) ف . انجلز . ديالكتيك الطبيعة . الصفحة ١٧٨ .

(٣) ف . ي . لينين . الدفاتر الفلسفية ، الصفحة ١٥٨ .

وبما ان قوانين الطبيعة وقوانين التفكير واحدة بمحتواها ، فان الديالكتيك كعلم عميق وشامل عن التطور ، يشمل نظرية المعرفة والمنطق اللذين يدرسان قوانين تطور التفكير والمعرفة •

ان قدرة المعرفة الانسانية تحمل طابعاً تاريخياً وترتبط بتطور الانسان وجهاز تفكيره - الدماغ • وفي تكون وتطور القدرة على التفكير كمنشط مميز للانسان لعب المجتمع دوراً حاسماً • ان لعملية المعرفة طابعاً اجتماعياً تاريخياً وتتطور تبعاً لتطور المجتمع • والهدف الاخير للمعرفة هو ارضاء الاحتياجات الاجتماعية العملية الضرورية •

لقد اعتبرت نظرية المعرفة المادية قبل ماركس ان موضوع نظرية المعرفة هو الانسان كفرد معزول • وحاولت ان تكشف جوهر الاحساس والتفكير عند الناس ، كل على حدة ، كمشاعر طبيعية مجردة دون ان تفهم جوهرها الاجتماعي • ان المعرفة ، في الواقع ، لا تتم من قبل افراد منعزلين (فمثل هؤلاء الناس غير موجود) ، وانما من قبل اناس اعضاء في مجتمع وتتم من أجل ارضاء احتياجاتهم •

يدرس الديالكتيك قوانين تطور المعرفة على أساس تعميم كل تاريخ المعرفة • فلنكتشف هذه القوانين يجب أن نحلل تاريخ الفلسفة، وتاريخ كل من العلوم المستقلة، وتاريخ التطور العقلي للطفل ، والتاريخ السابق للتفكير الانساني (التطور النفسي عند الحيوانات) ، وتاريخ اللغة ومعطيات علم النفس وفيزيولوجيا النشاط العصبي الراقى • ان كل فرع من فروع المعرفة العلمية هذه يلقي ضوءاً على هذه الناحية أو تلك من عملية المعرفة • فتاريخ الفلسفة وتاريخ كل من العلوم المستقلة تظهر عملية تطور معرفة الانسان ، وحركته من اللامعرفة الى المعرفة ، من المعرفة غير التامة إلى المعرفة الشاملة والعميقة • وان دراسة سلوك الحيوانات الراقية والتطور العقلي عند الطفل وتاريخ اللغة تعطي امكانية فهم نشوء وتطور قدرات الانسان المعرفية (التجربة الحسية والتفكير الحسي) • ويعطي علم النفس مادة لفهم كيف تجري عملية الاحساس

والادراك والتصور والتفكير • وفيزيولوجيا الجملة العصبية الراقية تدرس وظائف اجهزة الاحساس والتفكير ، أي انها تكشف الاسس المادية للاحساس والتفكير ونشأ وتطور، في الفترة الاخيرة، فرع للمعرفة العلمية هو الكيرنيثيكا • ولمعطيات هذا العلم أيضاً أهمية كبيرة في فهم المعرفة كانعكاس للواقع • وهو يدرس التفكير من جانب واحد كعملية لتبديل التشكيلات •

وليس الديالكتيك وحده هو الذي يدرس قوانين واشكال التفكير • فيدرسها أيضاً المنطق الصوري • ولذا نشأت مسألة العلاقة بين الديالكتيك والمنطق الصوري واختلافهما في دراسة التفكير •

ان المنطق الصوري هو علم عن أشكال التفكير وقواعد واشكال استنتاج محاكمة منطقية من محاكمات أخرى • وهو يدرس اشكال التفكير من حيث بناؤها ويصف ابسط اساليب التفكير التي تستخدم في معرفة الواقع ويصوغ قواعد استنتاج محاكمة منطقية من محاكمات أخرى • ان المنطق الشكلي يحل، على وجه الخصوص ، مسائل مثل : من أية اجزاء يتكون الحكم ، وبأي شكل ترتبط الافكار فيه ، وفي أية حالة نحصل على نتيجة موثوقة ، وفي أية حالة لا نحصل على هذه النتيجة ؟ وهكذا دواليك • وتعاليم البرهان جزء هام من اجزاء المنطق الشكلي ، وهي تبحث في بناء البرهان واشكاله والاطفاء الممكنة فيه • والشرط الضروري للتفكير المثقف ثقيفاً أولاً هو القدرة على ربط الافكار في المحاكمة •

وهناك خاصة نموذجية للمنطق الشكلي هي كونه لدى دراسة بنية اشكال التفكير ينشغل عن منشئها وتطورها • ان المنطق الشكلي يأخذ المحاكمة المصاغة ، والمفهوم ، والحكم ويصفها من ناحية شكلها وبنيتها • وهو ينطلق في ذلك من قوانين محددة: قانون التطابق، وقانون نفي الثالث، وقانون التبرير الكافي، التي تصوغ شروط تحديد وانسجام وبرهان التفكير •

ويتحدث قانون المطابقة عن أن الفكرة في حدود محاكمة ما يجب أن تكون مطابقة لنفسها • أما قانون التناقض فيمنع وجود تناقضات منطقية في

التفكير : فالحكمان اللذان يقضي أحدهما بتوفر صفة ما في الشيء ، ويقضي الآخر ، في الوقت ذاته ، بعدم توفر هذه الصفة في الشيء نفسه وفي الظروف نفسها لا يمكن أن يكونا حكيمين صحيحين في آن واحد . ويذهب قانون الثالث المستثنى إلى أن الحكيمين المتناقضين اللذين ينفي أحدهما الآخر لا يمكن أن يكون كلاهما غير صحيح في آن واحد . وهناك أخيراً قانون الاثبات الكافي الذي يقضي بأن كل حكم لا يمكن اعتباره صحيحاً الا عندما تتوفر الاثباتات الكافية لصحته .

ان جميع قوانين المنطق الصوري هذه تنبغي مراعاتها عند التفكير بأي شيء . ويؤدي خرقها إلى ارتكاب الأخطاء وإلى تجريد تفكيرنا من المنطقية والسلامة . أما خرق قانون التناقض ، خاصة ، فهو يؤدي إلى الارتباك والخطأ وعدم الوضوح وعدم الاطراد في التفكير . فيمكن مثلاً أن تصادف مثل هذين الحكيمين المتناقضين : (١) «المذهب الميكانيكي في الفلسفة - ظاهرة تقدمية» و (٢) المذهب الميكانيكي في الفلسفة - ظاهرة غير تقدمية بل رجعية» . ان كلا من هذين الحكيمين المتضادين صحيح فيما إذا كنا نتحدث عن دور المذهب الميكانيكي في عصور مختلفة . فالمذهب الميكانيكي في القرنين السابع عشر ، والثامن عشر كان يتصف بالتقدمية ويعتبر خطوة إلى الامام بالمقارنة مع اللاهوت والمذهب المدرسي . أما في الظروف الراهنة ، فهو يعرقل تطور الفلسفة والعلم ، ويشدهما إلى الوراء . بيد أن هذين الحكيمين لا يتفقان منطقياً فيما إذا كنا نتحدث عن المذهب الميكانيكي في عصر واحد أي في ظروف واحدة ، ومن ناحية معينة واحدة . فإذا نحن قلنا عن المذهب الميكانيكي المعاصر من ناحية علاقته بالمادية الديالكتيكية إنه رجعي وتقدمي ، فإن هذا الحكم الصادر عنا يكون لاغياً ، متناقضاً من الوجهة المنطقية ، ولا تتفق إحدى فكرتيه مع الثانية . وقد كتب لينين يقول إن التناقض المنطقي « لا يجب أن يوجد ، لدى توفر التفكير المنطقي السليم طبعاً ، لا في التحليل الاقتصادي ولا في التحليل السياسي» (١) .

ان قانون التناقض المنطقي المفهوم على الوجه الصحيح يتفق تماماً مع

(١) ف ١٠٠ - لينين المؤلفات - الجزء ٢٣ الصفحة ٢٩ .

الاعتراف بوجود تناقضات في الاقتصاد الموضوعي وفي تطور تفكيرنا • وهو يعتبر قانوناً للعلاقة بين الافكار المتكونة ويتجرد عن صيرورتها وتطورها • فالفكرة يمكن أن تغير محتواها ، وأن تتعمق وتتطور خلال سير عملية المعرفة • ويمكن أن تقع في تناقض مع نفسها كما سنين فيما بعد •

ولا يجوز أن نخلط بين التناقضات في المعرفة ، أي التناقضات التي تعكس تناقضات العالم الموضوعي والطابع المتناقض لعملية عكسه ، وبين التناقضات المنطقية - الصورية التي تنشأ نتيجة عدم الاطراد في تفكير هذا الشخص أو ذلك • فالتناقضات الأولى هي تناقضات مقنونة وضرورية من أجل معرفة العالم من جميع الجوانب بكل ما فيه من تعقيد وتناقضات • أما الثانية فتضع العراقل أمامنا في سيرنا نحو الحقيقة ، وهي لاتعكس تناقضات موضوعية • ولهذا ينبغي تجنب التناقضات المنطقية - الصورية وازالتها لتأمين الوضوح والاطراد في التفكير •

ان قوانين التفكير التي يحتويها المنطق الصوري لاتعكس سوى أبسط العلاقات بين الأشياء • فقانون التطابق مثلاً يعكس تشابه ظواهر الواقع والثبات النسبي للأشياء وكيانها المحدد نسبياً • فالفكرة في المحاكمة يجب أن تكون واضحة ومحددة لأن الشيء نفسه ثابت نوعياً بغض النظر عن اتصافه بالتغير •

ان قوانين المنطق الصوري تعكس جانباً معيناً في الأشياء - تعكس لحظة ثبات الأشياء واستمرارها النسبي • وبما أن هذه القوانين تعكس جانباً ما من ظواهر الواقع فانها يمكن أن تخدم كطريقة، ولو محدودة، للحصول على معارف جديدة • يقول انجلز : « وحتى المنطق الصوري يخدم قبل كل شيء كطريقة للعثور على نتائج جديدة وللانتقال من المعروف إلى المجهول • والأمر نفسه، ولكن على مستوى أعلى بكثير ، نستطيع أن نقوله عن الديالكتيك الذي، الى جانب ذلك، يتجاوز الأفق الضيق للمنطق الصوري ويحتوي على رشم لوجهة نظر أوسع إلى العالم،^(١) •

وعند دراستنا الشيء يترتب علينا التجرد عن جميع جوانبه ما عدا جانب

(١) انجلز : ضد ديورينغ صفحة ١٢٦ - ١٢٧ •

واحد يتركز عليه الاهتمام ، كما هو الأمر في جميع مجالات العلم . فالرياضيات مثلاً تتجرد عن الكيان النوعي المحدد للأشياء ، وتنظر إليها من جانب علاقاتها الكمية والمكانية . وهذا التجرد أمر ضروري من أجل فهم العالم فهماً عميقاً ، ولكنه لا يجب أن ينسينا أن هناك جوانب أخرى للشئ .

والأمر نفسه ينطبق كذلك على المنطق الصوري . فعند دراسة أشكال التفكير يمكن التجرد عن تطور هذه الأشكال . بيد أن القنونات التي تعكس جانباً من جوانب الواقع - وهو الثبات النسبي الذي تتصف به الأشياء وانعكاساتها في دماغ الانسان لا يمكن أن نعتبرها القنونات الوحيدة الموجودة . فتحويل المنطق الصوري إلى العلم الوحيد عن التفكير ، وتحويل قوانينه إلى منهج عام شامل لمعرفة ظواهر الواقع ، يفضيان إلى الميتافيزيكية وإلى انكار وجود التطور والتناقضات في الواقع الموضوعي وفي معرفتنا لهذا الواقع .

ان المنطق الديالكتيكي لا ينكر أهمية المنطق الصوري بل يحدد دوره في دراسة قوانين وأشكال التفكير ويقف ضد تحويل هذا المنطق إلى العلم الوحيد الذي يدرس القوانين والأشكال المذكورة . ان التطور الذي يهمله المنطق الصوري عند دراسته للتفكير ، يدرسه الديالكتيك بعمق وشمول . ولذا فان الديالكتيك يتيح لنا امكانية ادراك اهمية الجانب الذي يدرسه المنطق الصوري من التفكير . ولا يمكن أن نفهم قوانين الصلة بين الاشكال الجاهزة من التفكير وأن ندرك بنية هذا الأخير إلاّ على أساس معرفة قوانين تطور التفكير والمعرفة .

ان مضمون المنطق الديالكتيكي هو دراسة العلاقات بين المفاهيم وانحولات والتناقضات فيها . وهذه تعكس العلاقات والتحويلات المتبادلة والتناقضات في ظواهر العالم الموضوعي . ولا يقتصر الديالكتيك على تعداد مختلف أشكال حركة التفكير (محاكمات ، مفاهيم ، أحكام) بل هو يحدد علاقة الخضوع التي بينها ، ويبين لنا كيف يتحول احد هذه الاشكال إلى الآخر أثناء عملية تطور المعرفة . ان المسألة الرئيسية التي يهتم بها المنطق الديالكتيكي هي مسألة: الحقيقة . فهو ينظر في أشكال التفكير على أنها أشكال ذات مضمون ويبين لنا كيف تتوصل إلى المعرفة الحقيقية عن العالم في هذه الأشكال .

ان المنطق الديالكتيكي يطالب بالنظر إلى الشيء وإلى انعكاسه في وعي الناس نظرة شاملة : في تطوره وحركته الذاتية وفي صلاته الجوهرية مع الأشياء الأخرى ، وعبر بروز وحل التناقضات وفي تغيراته الكمية والكيفية الخ . . .

وهذا المنطق لا يملك قوانينه الخاصة التي تتميز عن الديالكتيك . فكل قوانين هذا الأخير هي قوانين للمنطق الديالكتيكي كذلك . وبينما تعكس قوانين المنطق الصوري أبسط العلاقات بين الأشياء وبعض جوانب العالم المادي - لحظة السكون والثبات ، نجد أن قوانين المنطق الديالكتيكي تعكس أهم قنونات ظواهر الواقع ، التي ينظر إليها في حالة تطورها الذي يتضمن السكون والثبات النسيين .

وقد صاغ لينين جوهر المنطق الديالكتيكي ومتطلباته الطرائقية الأساسية لدى دراسته لموضوعه بالكلمات التالية : « لكي نعرف الشيء فعلاً يجب الاحاطة بجميع جوانبه وجميع الصلات « والوسائط » ودراستها . وانا لن نحيط بهذا أبداً احاطة تامة . بيد أن متطلب الشمول يحميننا من الأخطاء ومن التجمد وهذا أولاً . ثم ان المنطق الديالكتيكي يتطلب أخذ الشيء في تطوره ، « في حركته الذاتية » (كما يقول هيجل أحياناً) ، في تغيره ، وهذا ثانياً . ان التطبيق العملي الذي مارسه الانسان يجب أن يدخل بأجمعه في « التحديد » الكامل للشيء كقياس للحقيقة ، وكمحدد عملي لصلة الشيء بما هو لازم للإنسان ، وهذا ثالثاً . ثم ان المنطق الديالكتيكي ينص على أن « ليس هناك حقيقة مجردة ، فالحقيقة دائماً حسية »^(١) وهذا رابعاً .

ان تطبيق قوانين الديالكتيك على دراسة التفكير يخلق كل الظروف لتنفيذ الى جوهره . فالمنطق الديالكتيكي يكشف عن ديالكتيك المعرفة أي عن قوانين تطورها ، بما في هذا تطور أشكال التفكير . وهذا يعني ان المنطق المذكور هو عبارة عن تعاليم عميقة وشاملة عن تطور المعارف الانسانية بصفتها انعكاساً لتطور العالم المادي .

(١) ف ١٠٠ لينين . المؤلفات الجزء ٣٢ الصفحة ٧٢ .

٢ - الحقيقة الموضوعية

ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية

ان المسألة الرئيسية في الديالكتك ، بصفته نظرية للمعرفة ، هي مسألة :
الحقيقة • فما هي الحقيقة ومم تتألف وهل يمكن التوصل إلى المعرفة الحقيقية ؟
وكيف تحدث حركة المعرفة نحو الحقيقة وما هو مقياس صحة معارفنا ؟ هذه
هي المسائل الأساسية في نظرية المعرفة •

من الصعب أن نصادف مفكراً ما ينفي وجود الحقيقة على العموم • ولكن
المشادة بين الاتجاهات الفلسفية تدور حول ما ينبغي ان نفهمه من كلمة الحقيقة،
وهل هناك حقيقة موضوعية أي هل هناك معرفة لايتعلق مضمونها لا بالانسان
ولا بالانسانية • فقولنا مثلاً بأن الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي قد انتصرت
انصاراً تاماً ونهائياً هو حقيقة موضوعية لأن مضمون هذا القول هو شيء موجود
موضوعياً غير متعلق بكون هذا الشيء مرغوباً فيه من قبل انسان ما أم لا ؟ فعندما
تعكس المعرفة ما هو موجود في العالم الموضوعي عكساً أميناً ، فن هذه المعرفة
تعتبر حقيقة موضوعية • وقد حددنا في الفصل الرابع في معرض دراستنا لمسألة
الوعي بصفته انعكاساً للوجود ، حددنا بدقة ما تفهمه المادية الديالكتيكية من كلمة
الحقيقة الموضوعية • ونحن هنا سنوجز باختصار ما بحثناه سابقاً •

ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية يعني ان العالم وقنونه متاحة للمعرفة
كما هي موجودة بنفسها وباستقلال عن الوعي • وقد كتب لينين يقول : « ان
تكون مادياً يعني أن تعترف بالحقيقة الموضوعية التي تكشفها انا أعضاء حواسنا »^(١) •
ان الفهم الماركسي - اللينيني للحقيقة يختلف مبدئياً عن فهم المثالية
الذاتية والموضوعية لها •

فالمثالية الموضوعية تنظر إلى الحقيقة على أنها خاصة أبدية لازمانية ولامتغيرة
وغير مشروطة بالأشياء المثالية (الروح ، الأفكار وما إلى هذا) • ولكن الحقيقة

(١) لينين ، المؤلفات ، الجزء ١٤ ، صفحة ١٢٠ •

موجودة خارج الانسان وخارج حدود المعرفة الانسانية، مما يضيف على الحقيقة في المثالية الموضوعية طابع الغيبية •

أما المثالية الذاتية فتعتبر أن الحقيقة ذاتية جداً ، ويتحدد مضمونها بالوعي الانساني • ويقول بعضهم ان الحقيقة هي نتيجة اتفاق الناس، وأن كل ما يتمتع باعتراف عام فهو حقيقي • ويقول بعضهم الآخر : ان الحقيقي هو كل ما ينفع ويريح هذا الانسان أو ذلك • والحقيقة في هذه الحالة تفقد مضمونها الموضوعي وتصبح متعلقة بالانسان وبوعيه فقط •

ان الحقيقة الموضوعية شكل من أشكال المعرفة الانسانية وهي ذاتية بهذا المعنى فقط (إذ لا معنى للحديث عن الحقيقة بدون الانسان ووعيه) ، ولكنها موضوعية من حيث المضمون •

ان جوهر الحقيقة ، إن المعرفة لا تكون حقيقية موضوعياً إلا إذا عكست بأمانة ما هو موجود باستقلال عن الوعي العاكس • ولذا فان النظرية تظل ، موضوعياً ، حقيقة بغض النظر عن عدد من يأخذ بها من الناس (كثيرون أم قليلون) وعن شخصياتهم • وبما أن الحقيقة الموضوعية تعكس بأمانة ما هو موجود في الواقع فانها ستغزو عاجلاً أم آجلاً عقول الناس وستتشر على نطاق واسع • فالماركسية في فجر ظهورها لم تكن تتمتع بعدد كبير من الأنصار ولكنها أصبحت فيما بعد النظرية المعترف بها من قبل الملايين الغفيرة من الكادحين • فقد غزت الماركسية عقول وقلوب هذه الجماهير الواسعة لأنها كشفت عن الحقيقة وعن قوانين تطور الطبيعة والمجتمع •

ونحن ، من ناحية أخرى ، نعلم أن النظريات الخاطئة والعقائد البالية يمكن أن تسيطر على عقول جماهير واسعة من الكادحين لمدة طويلة ، كالعقائد الدينية وبعض الأفكار التي تروجها الدعاية البرجوازية • ولكن الزيف يبقى زيفاً بغض النظر عن عدد الناس الذين يأخذون به • وهو سيتكشف على حقيقته أمام الناس جميعاً عاجلاً أم آجلاً وسيشيع الشعب بوجهه عنه •

وهناك جانبان في حل مسألة « الحقيقة » لا ينبغي الخلط بينهما ، ويتلخص

الأول في وجود أو عدم وجود الحقيقة الموضوعية ؟ وتجب المادية الديالكتيكية عن هذا بالايجاب شأنها شأن المادية على العموم • أما الجانب الثاني فهو التالي: كيف نصل إلى الحقيقة : أنحيط بها بتمامها دفعة واحدة أم بالتدريج ؟ ان هذا السؤال يتطلب للإجابة عليه تبيان العلاقة المتبادلة بين الحقيقة الموضوعية والنسبية • ان المعرفة الانسانية مطلقة ، مستقلة ، ذلك لأنها قادرة على اعطاء الحقيقة الموضوعية ، وعلى عكس الأشياء عكساً صحيحاً • وليس هناك من حدود لمعرفتنا وليس هنا من أشياء لاتمكن معرفتها ، بل توجد أشياء لم تعرف بعد ولكنها يمكن أن تعرف خلال تطور العلم • ان بنية الذرة والطاقة التي في داخلها ظلتا مدة طويلة « شيئاً في ذاته » غير معروف ، ولكنها أصبحت الآن بفضل جهود العلماء والمهندسين « شيئاً من أجلنا » • ومنذ وقت قريب جداً لم يكن أحد يعرف شيئاً عن أشباه النواقل وعن خواصها ، أما الآن فقد أصبحت معرفة هذه الأمور تجد مجالاً واسعاً للتطبيق في التكنيك •

ان المعرفة نسبية ومحدودة (ليست مستقلة) في كل مرحلة من مراحل تطورها لدى جيل معين من الناس • وهذا التناقض القائم بين قدرة الانسان على أن يعرف كل شيء وبين عدم قدرة أناس معينين على أن يحققوا هذا في فترة زمنية محدودة ما ، لا يحل الاّ خلال الحركة التصاعدية للمجتمع الانساني ، وخلال حياة عدة أجيال متوالية في قافلة الانسانية التي لا نهاية لها عملياً بالنسبة لنا •

ان الحقيقة عبارة عن عملية ، ويقول لينين : « ان تطابق الفكرة مع الموضوع هو عبارة عن عملية ، ان الفكرة (= الانسان) لا ينبغي أن تمثل الحقيقة في شكل سكون ميت ، في شكل لوحة بسيطة (للصورة) الشاحبة (الباهتة) ، بدون طموح ، بدون حركة ، وكأنها الروح الحارسه ، وكأنها رقم ، وكأنها فكرة مجردة » (١) •

ان الحقيقة الموضوعية في شكلها التام والكامل تسمى الحقيقة المطلقة •

(١) لينين • الدفاتر الفلسفية • الصفحة ١٦٧ •

ونعني بهذه الأخيرة تلك المعرفة التي لا يمكن أن تدحض خلال التطور التالي للعلم والتطبيق • فهل هناك وجود للحقيقة المطلقة ؟ ان الماركسية تجيب عن هذا السؤال بالايجاب دون أي تردد • يقول لينين : « ان الاعتراف بالحقيقة الموضوعية أي بالحقيقة المستقلة عن الانسان وعن الانسانية يعني الاعتراف بالحقيقة المطلقة على هذا الشكل أو ذاك » (١) •

ان الحقيقة الموضوعية لا توجد فقط كحد تنزع معرفتنا إلى بلوغه دون أن تتمكن في الواقع من هذا أبداً • ان المعرفة مطلقة عندما هي تتحرك في طريق الحقيقة الموضوعية ، ولا يمكنها أن تكون مطلقة إلا في حركتها هذه • فالحقيقة المطلقة لا وجود لها خارج حركة المعرفة • والحقيقة ليست مطلقة إلا من حيث مصدرها ومن حيث نزعة الحركة • ولذا فان جميع فروع المعرفة العلمية تحتوي على نظريات صحيحة بشكل مطلق ، لا يمكن أن تدحض خلال التطور التالي للعلم • وفي كل حقيقة موضوعية توجد بعض عناصر وجوانب المطلق • وهكذا نجد أن مجمل ما نعرفه عن البنية الفيزيائية للمادة ليس كاملاً ومطلقاً ولكن توجد فيه عناصر كثيرة من المطلق (كقولنا مثلاً ان الذرة قابلة للتقسيم وان الالكترونات والبروتونات والنيوترونات هي عناصر الذرة • ان مثل هذا القول صحيح بشكل مطلق) •

ان الاعتراف بوجود الحقيقة المطلقة غير كاف بالنسبة للانسان المادي – الديالكتيكي • إذ أن من الضروري اكتشاف الطريق الموصل إليها • والوصول إليها لا يتأني للانسان دفعة واحدة ، وذلك لان هذه الحقيقة تتألف من حقائق نسبية •

ان الحقيقة النسبية هي المعرفة التي تعكس الواقع بشكل صحيح من حيث الأساس ، ولكن ليس بشكل تام ، بل ضمن حدود معينة ، وفي ظروف وعلاقات معينة • وخلال التطور التالي للعلم تزداد هذه المعرفة دقة وكمالاً وعمقاً وحسية •

ان نظريات العلم تعكس الشيء في ظروف معينة معرضة للتغير • ولذلك

(١) لينين • المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة (١٢٠) •

فان أي حكم يعتبر حقيقياً بقدر ما يعكس الشيء بدقة في هذه الظروف • أما في ظروف أخرى فان حكماً آخر هو الذي يصبح حقيقياً • فالحكم الذي يقول مثلاً : ان الماء يغلي في حرارة درجتها ١٠٠ « حسب الميزان المثوي ، هو حكم حقيقي ، ولكن بشرط أن يكون موضوع حكمنا هذا هو الماء العادي H_2O وتحت ضغط عادي • أما إذا أصدرنا هذا الحكم على ماء ثقيل أو غيرنا الضغط فانه يكف عن كونه حقيقياً • وخلال تطور المعارف العلمية تحدث باستمرار عملية تدقيق الأحكام ، والأخذ بعين الاعتبار للظروف الجديدة التي تكون فيها هذه الأحكام حقيقتية • وهكذا يقترب العلم خطوة فخطوة من المعرفة التامة الشاملة المطلقة • يقول لينين : « ان التفكير الانساني قادر من حيث طبيعته على اعطائنا الحقيقة المطلقة التي تتألف من حصيلة حقائق نسبية وهو يفعل هذا • ان كل درجة في سلم تطور العلم تضيف بذوراً جديدة إلى حصيلة الحقيقة المطلقة • بيد أن حدود حقيقة أية نظرية علمية هي حدود نسبية ، فهي إما أن تتوسع وإما أن تقلص خلال النمو التالي للمعرفة »^(١) • ان الحقيقة النسبية تشتمل على العكس التقريبي وغير التام للواقع •

ان الحقيقتين المطلقة والنسبية هما عنصرا الحقيقة الموضوعية • وهما متباينان لا من حيث المصدر بل من حيث درجة الدقة ومن حيث تطابقهما مع الواقع ودرجة الكمال التي يعكسانه بها • فالحقيقة المطلقة تتألف من حقائق نسبية ، وكل درجة في سلم تطور العلم تضيف عنصراً إلى الحقيقة المطلقة •

فالنظرية الفيزيائية القائلة بان الإلكترون موجود في تركيب الذرة كجزيء ذي شحنة سالبة ، هي حقيقة مطلقة • وقد أثبتت هذه النظرية بشكل اكيد عن طريق التجارب • بيد أن هذا كلف بذل جهود كبيرة من قبل العلماء الذين وضعوا خلال سنوات عديدة فرضيات جريئة عن وجود الإلكترون •

ففي نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر وضع ف • فيير نظرية الظواهر الكهربائية في المعادن • وهي نظرية تقوم على أساس

(١) لينين • المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ١٢٢ •

وجود جزئيات كهربائية موجبة وسالبة • وما ان انقضت فترة وجيزة حتى أعلن ج • ستونبي عن نظرات مماثلة توصل إليها أثناء دراسته لظواهر التحليل الكهربائي • وقد قدم غليمولتس في عام (١٨٨١) فرضية عن تقطع الكهرباء (الكهرباء السالبة والموجبة تنقسم إلى مجموعات أولية تتصرف وكأنها ذرات الكهرباء) • وفي التسعينيات درس العلم الأشعة السلبية، وقدم كروس وآخرون غيره فرضية تقضي بأن هذه الأشعة عبارة عن تيار من الجزئيات المادية ذات الشحنة السالبة تتحرك بسرعة هائلة • وفي عام ١٨٩٧ برهن طومسون بالتجربة على صحة هذه الفرضية • ان كل هذه الفرضيات والتجارب مهدت لاقامة البرهان على وجود الالكترون وأسهمت بقسط في احداث ذلك الانعطاف الذي حدث في الفيزياء عند اكتشاف قابلية الذرة للتقسيم •

ان الميتافيزيكيين يعتبرون المعرفة إما مطلقة فقط أو نسبية فقط • ولكن الاعتراف بالحقيقة المطلقة وحدها إنما هو جمود عقائدي • فالجامد عقائدياً لا يعتبر المعرفة النسبية حقيقة • ولكن ليس هناك علم يتألف فقط من « حقائق مطلقة خالدة في شكلها الأخير » فمثل هذا العلم لا يمكن أن يوجد • ان الجمود العقائدي في العلم يؤدي إلى الركود والانقطاع عن الحياة وعن الواقع •

إن الافتراض القائل بإمكانية بلوغ الحقائق المطلقة المتعلقة بجميع ظواهر الواقع يؤدي أولاً : إلى الاستنتاج القائل بتوقف تطور المعرفة الانسانية • ان مثل هذا الموقف الجامد عقائدياً من المعرفة يؤدي بدوره إلى الركود الفكري • فما الذي يمكن أن يحدث لو أن الفيزياء اكتفت بتلك الحقائق المطلقة التي توصلت إليها في نهاية القرن التاسع عشر واقتصرت عليها ؟ لو حدث هذا لما عرفنا شيئاً ما ثابتاً عن نواة الذرة وعن امكانية استعمال طاقتها ••• الخ •

ان الجامد عقائدياً لا يلاحظ الظواهر الجديدة في الطبيعة ولا يدرسها ولا يوسع معارفه النظرية بتعميمات جديدة • وهو يتمسك بنظريات قديمة فات أوانها لا تتناسب مع الوضع الجديد للأشياء فيقع في تناقض مع الحياة ويظل يراوح في مكانه راضياً بالأمر التي قد توصل إليها • ان الحزب الشيوعي في

الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية الأخرى شنت وتشن باستمرار نضالاً لا هوادة فيه ضد الجمود العقائدي • إن خدمة قضية الثورة الاشتراكية والشيوعية لا تتفق والجمود العقائدي في النظرية والممارسة العملية • إن الوقوف موقفاً جامداً من الماركسية - اللينينية يعود بالضرر على الحركة الثورية • أما الميتافيزيكيون الذي لا يعترفون إلاّ بالحقيقة النسبية فيدعون بالنسبويين • وهم يفسرون واقع تغير معارفنا ، وحدوث انعطافات في العلم والغاء المفاهيم البالية يفسرون كل هذا على أنه برهان على ذاتية الحقيقة • فيما أن معارفنا نسبية ، إذن فهي ، حسب زعمهم ، لا تحتوي على أي شيء صحيح موضوعياً ومطلق • فالمطلق والنسبي ينفي أحدهما الآخر ، وكل النظريات العلمية نسبية واحداها تستبدل بالأخرى • ولهذا فان نظريات العلم ، حسب زعمهم ، لا تتمتع إلاّ بقيمة الأدوات المساعدة ، فهي تحث على اجراء أبحاث جديدة ولكنها لا يمكن أن تطمح إلى الاتصاف بالحقيقة الموضوعية • إن النسبوية سائدة في الفلسفة البرجوازية المعاصرة •

والاصطلاحية هي أحد أشكال النسبوية المنتشرة • وهي تعتبر أن موضوعات العلم بمثابة اصطلاحات واتفاقات وموضوعات مشروطة باتفاقنا • يقول افري بوانكاري ، وهو أحد مؤسسي الاصطلاحية : « إذا اردنا الآن معالجة المسألة التالية : هل هندسة اقليدس صحيحة ؟ فالتنا لن نجد لهذا أي معنى • ان سؤالنا هذا سيكون كسؤالنا : هل النظام المترى صحيح بالمقارنة مع المقاييس القديمة ؟ أو كسؤالنا : هل احداثيات ديكارت أصبح من الاحداثيات القطبية ؟ إن أية هندسة لا يمكنها أن تكون أصح من غيرها : بل يمكن أن تكون أنسب من غيرها فقط » (١) •

إن التشبيه الذي يورده بوانكاري بين بديهات الهندسة ونظام المقاييس ، لا يستند إلى أساس • فنحن فعلاً نستطيع أن نقيس المسافة بالأمتار وبالأذرع • وأخذنا للمتر أو لمقياس آخر كوحدة للمقياس هو عملية ذات طابع اصطلاحي

(١) ٠١ بوانكاري : العلم والفرضية م ١٩٠٤ صفحة ٦١ •

وهي نتيجة لاتفاق مسبق • بيد أن بديهيات الهندسة ليست اصطلاحية فهي
تعكس علاقات موجودة في الطبيعة • ان بديهيات هندسة اقليدس تعكس العلاقات
في مكن الانحناء فيه مساو للصفر • أما في الأمكنة التي يكون الانحناء فيها
ايجابياً أو سلبياً فهي غير دقيقة • فاذا نحن استعملنا هذه البديهيات في الأمكنة
الأخيرة فمعنى هذا أننا نهمل انحناء المكان مما يجعلنا نحصل على نتائج تقريبية •
ان الهندسة اللاقليدسية تعكس الواقع بشكل أعمق وأكمل مما تعكسه به
الهندسة الاقليدسية التي تعتبر بديهياتها ونظرياتها حالة جزئية من بديهيات
ونظريات الهندسة اللاقليدسية • ان الحقائق العلمية ليست ذاتية وليست تعسفية
وليست اصطلاحية بل حقائق موضوعية وهي ليست نتجة لاتفاق الناس عليها
بل هي عكس للمواقع الموضوعي •

ان النسبوي عندما ينفي موضوعية المعرفة يحتج بأن تضاد الحقيقة والخطأ
أمر نسبي • فمن المعلوم أن هناك حالات ليست نادرة يظهر فيها أن الموضوعية
التي كان العلم يعتبرها صحيحة ليست بصحيحة وبالعكس ، أن الموضوعية التي
كانت تعتبر خاطئة تتمتع بجانب صحيح (١) •

بيد أن هذه الوقائع لاتدحض وجود الحقيقة الموضوعية بل تشهد فقط
على أن تطور المعرفة العلمية تسير في الطريق الموصلة إلى هذه الحقيقة ولكنها
لاتسير دائماً على خط مستقيم بل غالباً ما تنحرف إلى جانب وربما عادت التهورى
في بعض الأحيان • ان طريق المعرفة شاقة جداً وهي تحتوي على امكانية الوقوع
في الخطأ • بيد أن الخط العام لتطور المعرفة التصاعدي خط وحيد وهو أنه على

(١) ان الفلاسفة الوضعيين الجدد البرجوازيين المعاصرين ينفون عموماً امكانية التوصل الى معرفة
صحيحة لاتدحض • ويقول الدكتور في الفلسفة وبروفيسور جامعة لندن يوپير : ان النظرية
التي لا يمكن أن نجد ، عقلانيا ، دحضاً لها ليست علمية • فعدم القابلية للدحض ليس ميزة
بالنسبة للنظرية العلمية (كما يظن غالباً) بل هو عيب فيها •

واذا طبقنا أفكار يوپير حتى النهاية توصلنا الى نتيجة تقول بان على العلماء أن يضعوا
النظريات التي يمكن دحضها بشكل أسرع وأسهل • في مثل هذه الحالة يمكن أن نعتبر أن
أي هاو او حتى أي جاهل هو عالم كبير ، وذلك لان بإمكانه وضع نظرية تدحض بسرعة • هذا
هو الهراء الذي تؤدي اليه النسبوية المعاصرة •

أساس الممارسة العملية نتجه نحو عكس جوهر الظواهر عكساً كاملاً وشاملاً،
نحو الحقيقة المطلقة •

في النصف الأول من القرن التاسع عشر وضع بروت فرضية تقضي بأن
جميع العناصر تتألف من ذرات الهيدروجين بحيث أن كمية ذرات الهيدروجين
تطابق الوزن الجوهري للعناصر • وقد بنى بروت فرضيته هذه على أساس
أن الأوزان الجوهريّة التي قاسها دانتون يعبر عنها بأرقام صحيحة • ولكن
تطور الممارسة العملية اللاحق في مجال الكيمياء أدى إلى نتيجة تقول بأن
الأوزان الجوهريّة للعديد من العناصر ليست أرقاماً صحيحة • وهكذا أهملت
فرضية بروت • بيد أن العلماء اقتنعوا فيما بعد أن نطاق الممارسة العملية التي
أجروها كان ضيقاً وغير كاف • فبعد اكتشاف نظائر العناصر الذي كشف عن
سبب كون الوزن الجوهري لعناصر عديدة ليس رقماً صحيحاً ، عادت فرضية
بروت إلى الانبعاث من جديد بعد أن طرأت عليها تغييرات كبيرة جاءت نتيجة
تعميم الممارسة العملية الجديدة • وهكذا يسير العلم في طريق معقدة متعرجة
أحياناً للوصول إلى معرفة الطبيعة والمجتمع معرفة صحيحة موضوعياً وعميقة •
ان الديالكتيك المادي يتضمن عاملاً من عوامل النسبية (فهو يعترف
بنسبية معارفنا عن العالم الخارجي) ولكنه لا يتطابق مع النسبوية • فالنسبوي
يعتبر أن المعرفة النسبية نسبية فقط • بيد أنها في الواقع تتضمن الزامياً عامل
الاطلاق • وعندما تحل في العلم نظرية محل أخرى فإن النظرية الجديدة لا تبذ
القديمة فقط بل تتغلب على محدوديتها متضمنة كل ما هو صحيح موضوعياً في
النظريات السابقة • وكما لاحظ ، بحق ، الفيزيائي الروسي البارز « أوفوف » فإن ،
المنظومات العلمية تسقط ، ولكنها بانهارها لا تختفي دون أثر : إذ تقوم على
أنقاضها نظريات أكثر كمالاً وأطول عمراً «^(١) • ان الفيزياء القديمة والفيزياء
الحديثة هما نسخ عن الواقع ، ولكن احدهما تقرّبية ، تخطيطية ، والأخرى
أكثر دقة وعمقاً •

ان الاتصال في تطور النظرية يرتدي أشكالاً مختلفة في فروع العلم

(١) ن ١٠ أوموف • مجموعة مؤلفات • الجزء ٣ موسكو ١٩١٦ ص ٦١ •

المختلفة • ففي الفيزياء والرياضيات يمكن للنظرية القديمة أن تكون حالة جزئية من النظرية الجديدة التي تتصف بدقة وسعة أكبر ، كما هو شأن هندسة اقليدس ، التي تعتبر حالة جزئية من الهندسة اللاقليدسية • والفيزياء الجديدة لم تبذ كل النتائج الايجابية التي تحتويها النظريات الكلاسيكية بل جردتها من مطلقيتها وأشارت إلى الحدود التي يمكن لهذه النظريات أن تطبق ضمنها •

ان نتائج الفيزياء الكلاسيكية تطبق حتى الآن عند وضع تصميم السفن والطائرات وعند بناء المنشآت الخ ••• بيد أنها غير قابلة للتطبيق عند بناء جهاز تسريع طاقة حركة صغيريات النواة وغيره من الأجهزة المعقدة ، وعند حسابات العمليات الذرية • ان فيزياء نيوتون هي حالة جزئية من النظريات الفيزيائية المعاصرة •

ان الاتصال يجد تعبيره في انه عند وضع نظرية جديدة تؤخذ جميع الأفكار الصحيحة موضوعياً ، والتي أبدعها علماء سابقون ، بعين الاعتبار • كما يتطور كذلك كل ما كان في طور البروز لدى الأسبقين • فالاقتصاد السياسي الماركسي أخذ كل ما هو صحيح موضوعياً لدى المفكرين سميث وريكاردو وغيرهما ، وطور أساس نظريتهما عن قيمة العمل وجعل منها نظرية علمية متكاملة ومنسجمة ، وكشف عن مصدر فضل القيمة •

ان فهم دياكتيكية المطلق والنسبي في المعرفة ضروري من أجل معالجة معطيات علم الماضي معالجة صحيحة • ان تطور المعرفة هو الحركة التصاعدية التي تقوم بها المعرفة من الحقيقة النسبية نحو الحقيقة المطلقة • ومعطيات علم الماضي قامت باعداد الطريق أمام علم الحاضر كي يصل إلى المستوى الذي هو عليه الآن • فبدون كيمياء لومونوسوف ودالتون مثلاً لم تكن هناك كيمياء ميندليف •

ان الحقيقة كعملية عبارة عن حقيقة محددة تاريخياً • وتنطلق الماركسية من أن الحقيقة المجردة لا وجود لها، لان الحقيقة هي، دائماً، حسية محددة • وهذا يعني أن موضوعات العلم تعكس الشيء أو جانباً من جوانبه أو خاصة من خواصه في ظروف مكانية وزمانية محددة •

وقد كتب لينين يقول : « ان كل روح الماركسية وكل فروعها تطالب بأن ينظر إلى كل موضوع : (آ) تاريخياً • (ب) في صلتها مع الموضوعات الأخرى ، (ج) في صلتها مع التجربة التاريخية الحسية • ولا يجوز إلا هكذا » (١) •

ان نسيان مبدأ حسية الحقيقة ، ونشر الموضوعات العلمية على أشياء لا تقبل تطبيق هذه الموضوعات العلمية عليها (أي أشياء لا تعكسها الموضوعات العلمية) ، يؤديان إلى أفحش الأخطاء • كما حدث مثلاً عندما حاول بعض الفيزيائيين الغربيين أن يطبقوا نتائج النظرية النسبية الواقعية بالنسبة لجزء ما معين من الكون على الكون بأكمله • ثم أخذوا يتحدثون عن نصف قطر الكون يجمعه وعن عدد البروتونات وعن توسع الكون وتقلصه • ان مثل هذه النظرات تناقض معطيات العلم القائل بلانهاية الكون وهي في مصلحة رجال اللاهوت الذين يحاولون التمسك بكل ما يصدر عن رجال العلم ويشتمون منه رائحة الابتعاد عن العلم وعن النظرة المادية الديالكتيكية العلمية المنسجمة •

ان العلم يستطيع ، بالطبع ، أن يطبق الموضوعات المتعلقة بأشياء معينة على أشياء أخرى • فالنجاحات التي أحرزتها فيزياء النواة الذرية مثلاً أفسحت المجال أمام علماء الفلك لفهم مصدر الطاقة الشمسية • بيد أن العالم الذي يقوم بنقل المعارف التي حصلنا عليها عند دراسة جسم ما إلى جسم آخر ، يتوجب عليه اثبات صحة هذا النقل • فتطبق موضوعات علمية ما على أشياء لم تدرس بعد يجب أن يكون في البداية بشكل (فرضية فقط) ، كي يجري فيما بعد البحث اللازم للبرهنة على قابلية تطبيق هذه الموضوعات •

ان مبدأ نظرية المعرفة الماركسية الذي يطالب بحسية الحقيقة يتمتع بأهمية خاصة في مجال العلوم الاجتماعية (التي) يتغير الموضوعات المدروس فيها بسرعة كبيرة •

ونتيجة لهذا فان هذه الموضوعات النظرية أو تلك المتناسبة مع ظروف معينة ، والتي تعتبر صحيحة ، تكف عن كونها صحيحة عندما تتغير الظروف والأحوال المحيطة بها •

(١) لينين : المؤلفات ، الجزء (٣٥) الصفحة (٢٠٠) •

٣ - العلاقة بين الحسي والعقلاني في المعرفة

الجوهر والظاهرة

لقد أثبت العلم منذ القديم أن العقل والاحساس يشاركان في عملية المعرفة. بيد أن فلاسفة الاتجاهات المختلفة أعطوا إجابات مختلفة عن مسألة مكان وأهمية كل منهما في هذه العملية .

اعتبر بعض الفلاسفة ان المعرفة الحسية كافية لبلوغ الحقيقة . أما دور التفكير فينحصر ، حسب زعمهم ، في تجميع بسيط لمعطيات الحس . وما أن يتعد التفكير قليلاً عن الاحساسات والادراكات حتى يقع في الخطأ ، وينقطع عن الواقع . ان الاتجاه الفلسفي الذي يعيد المعرفة إلى التجربة يسمى المذهب التجريبي . وقد أخذ بهذا المذهب بعض الماديين (بيكون ولوك) وبعض المثاليين (بيركلي ، وهيوم ، والماخيون) . وقد كان الماديون على حق عندما اعتبروا أن وراء الاحساسات والادراكات يقف الواقع الموضوعي ، الذي ينعكس فيها . أما المثاليون فقد أنكروا أن يكون العالم الموضوعي هو مصدر الاحساسات . واعتبروا أن الاحساسات هي الأولية أما العالم الموضوعي فهو مشتق منها ناتج عنها .

ان التجريبيين على حق عندما يقولون ان الانسان قبل التجربة وقبل المعطيات الحسية لا يحوز ولا يمكنه أن يحوز على أية معارف عن العالم الخارجي . وقد عمموا ، ولكن من جانب واحد فقط ، معطيات علم الطبيعة التجريبي الذي ظهر وتطور بسرعة . والجانب الضعيف في التجربة هو غمط أتباعها دور التفكير المجرد في المعرفة ونفيهم للأصالة النوعية التي يتمتع بها التفكير بالمقارنة مع الاحساسات والادراكات .

ان موقف التجريبية في أسوأ أشكالها المثالية هو موقف مشترك بالنسبة للعديد من اتجاهات الفلسفة البرجوازية المعاصرة: الذرائعية، والوضعية المنطقية وغيرهما . وتتصف الوضعية المعاصرة بأنها أولاً : تفسر التجربة تفسيراً مثالياً : « وتنظفها » من المحتوى الموضوعي ، وثانياً : تعيد المعرفة العلمية كلها إلى تسجيل

ووصف بسيطين لوقائع مفهومة على الطريقة المثالية • وتحت راية النضال « ضد التجريدية » « والعقلانية المحضة » وفي سبيل المعرفة الوضعية (الايجابية) يشن الوضعيون حرباً ضد التجريدات العلمية التي تساعد على فهم جوهر الاشياء • ويعتبر بعض التجريبيين المعاصرين انه ليس هناك أشياء حقيقة تطابق مفاهيم « الانسانية » و « القيمة » و « العمل » وهلمجرا • وهم يفكرون على الشكل التالي : ان مفهوم « العمل على العموم » مثلاً لا يمكن تصويره بشكل حسي ولا يمكن تصويره • فمن الممكن أن نرى انساناً يحفر الأرض ليخرج البطاطا ، وأن نرى آخر يعمل على الآلة ، وثالثاً يجلس وراء الطاولة ويكتب • الخ ولكن من مناشاهد العمل على العموم ، وكيف يمكننا أن نتصوره حسيّاً ؟ صحيح أن هذه المفاهيم لا يمكن تمثيلها حسيّاً ، بيد أن التجريبي يستخلص من هذا نتيجة خاطئة وهي أن هذه المفاهيم لا تعكس أشياء وحيدة • ولكنه بهذا يغفل أن المفهوم يعكس العام الملازم للأشياء الوحيدة •

ان التجريبية التي تزحف على الأرض بعيدة كل البعد عن التفكير النظري • بيد أن الواقع يرينا أن ربط حقيقتين ببعضهما يحتاج بالضرورة إلى تفكير بمساعدة المفاهيم (١) •

لايجوز القول ان الوضعيين المعاصرين ينكرون أهمية كل المفاهيم

(١) ان التجريبية الزاحفة التي تنفي دور التفكير النظري في المعرفة ذات قابلية كبرى على الحياة ، ويقوم بالدعاية لها عدد من الفلاسفة - المثاليين المعاصرين • فالعالم اللغوي المختص بالمعاني ستيوارت تشيز يقول : « على الفيزيائي أن يأخذ بوجهة نظر التجريبية المحضة التي لا تعترف بأية مبادئ ، أو أية أشياء مطلقة لا تعتمد على التجربة ، بل تحدد أو تعين مواصفات تجربة جديدة : فالتجربة لا تتولد الا بالتجربة »

(Stuart Chase. The Tyranny of Words. N.Y. 1938, p. 126)

ويقصد ستيوارت تشيز بعبارة المبادئ والأشياء المطلقة التي لا تعتمد على التجربة يقصد المفاهيم والمقولات التي يسترشد بها العلماء في أبحاثهم • وهكذا فان تشيز يقترح نبذ كل المفاهيم العلمية باعتبارها مفاهيم كاذبة لا معنى لها ويقترح الاسترشاد بالتجربة « المحضة » فقط • ولكل عالم يعرف تمام المعرفة أن أية تجربة في العلم مرتبطة بما سبقها من الاستنتاجات النظرية • فالتجربة لا تجري مصادفة ودون أن يعرف الهدف منها بل هي فحص لبعض الموضوعات النظرية وأساس لموضوعات أخرى • ولا يمكن أن يحصل التقدم في تطور المعارف العلمية الا عن طريق التأثير المتبادل بين التجربة والتفكير النظري •

والتجريدات العلمية ، فهم يعترفون بدور مفاهيم المنطق والرياضيات ، ولكنهم يعتبرونها نتيجة الابداع الحر للذات • وهم يرون أن مفاهيم الرياضيات جيدة لأنها لا تنطمح لأن تعكس شيئاً وهي ليست مرتبطة بالتجربة الحسية للانسان • ويعتبر الوضعيون أن المفاهيم العامة كمفهوم « المادة » مثلاً و « السبب » الخ • • هي مجرد تخيلات واختراعات فكرية جوفاء تنبغي ازالتها من ميدان العلم • ان هذه المفاهيم لا تخضع للتدقيق في التجربة الشخصية ولا يمكن أن نجد لها مقابلاً (شيئاً يقابلها) • أما الوضعيون الجدد فيعتبرون ، أن المفاهيم ذات القيمة العلمية هي فقط تلك المفاهيم التي تعبر عن وقائع وحيدة وعن المعطيات المباشرة للتجربة • بيد أن هذه المفاهيم الأخيرة لا تعتبر ، حسب زعمهم ، عكساً للواقع ، بل هي مجرد اختصارات كلامية مناسبة •

ان التجريبي يعتقد أنه موجود في نطاق التجربة والادراك الحسي للوقائع حتى عندما يتعامل مع مختلف التجريدات • وهو يتصور انه يتعامل فقط مع وقائع لا تناقض • ولكن الواقع هو أن التصورات التقليدية والبالية وحتى أحياناً تلك التصورات المتعلقة بالأرواح غالباً ما تظهر تحت شكل وقائع ومعطيات « التجربة المحضة » •

ان الانسان الذي لا يتعب نفسه بتعميم معطيات التجربة يميل إلى اعتناق مختلف العقائد البالية • وليس صدفة ان يقع بعض علماء الطبيعة الآخذين بمذهب التجريبية في أسر محضري الأرواح المشعوذين وأن يقفوا موقفاً جدياً من « تجارب » تحضير الأرواح (١) •

ان التجريبية الزاحفة السائرة في طريق المثالية لا تتفق مع اللاهوت فحسب ، بل وتحاول أن تثبت ضرورته • وكمثال على هذا نجد أمانا الفيلسوف الذرائعية ، التي يقول أحد مؤسسيها وهو « ف • جيمس » ، في معرض حديثه عن تنوع التجريبية ، بضم انفعالات الناس الدينية (احساسات المؤمنين أثناء الصلاة وتقديم القرابين الخ) إلى مجال التجربة • وقد اعتبر جيمس أن « التجربة »

(١) انظر كتاب ديالكتيك الطبيعة لانجلز الصفحة ٣٦ •

الدينية صحيحة تماماً كما هي « التجربة العلمية » إذا كانت هذه الأولى تعود بالنفع • ويقول ف • جيمس : ان الفرضية عن وجود الآلهة هي ، وفقاً لمبادئ الذرائعية ، فرضية صحيحة إذا كانت تقوم بدور نافع في أوسع معاني الكلمة»^(١) بيد أن الأخذ بما وراء الطبيعة لا يخدم الحقيقة بل يخدم المستثمرين بصفته وسيلة من وسائل اضطهاد الشعب •

وقد شهد تاريخ الفلسفة نضالاً ضد التجريبية شنه العقلانيون الذين افترضوا ان التفكير يصل مباشرة إلى جوهر الأشياء متجاوزاً التجربة • ومن ممثلي هذا المذهب ديكرات ولينتز وسينوزا وغيرهم • وقد كان الجانب القوي في العقلانية هو الاعتراف بالدور الفعال للخلاق للذات والعقل والتفكير في المعرفة • وقد طور العقلانيون الموضوعة القائلة بقدرة التفكير على النفاذ إلى أسرار الأشياء • بيد أن هذه الفعالية التي تتمتع بها الذات وتفكيرها لاقت تضخماً متطرفاً على يد بعض العقلانيين الذين اعتبروا أن التفكير لا يتعلق بالتجربة •

ان العيب الأساسي للعقلانية يقوم في فصل التفكير عن التجربة الحسية وعن الاحساسات والادراكات • ويعتبر العقلانيون ان مصدر المعرفة هو الحدس الذهني ويفهمون هذا الأخير على أنه التوصل إلى الحقيقة بواسطة العقل مباشرة وتجاوز للاحاساسات والادراكات • ويقول العقلانيون : إن كل واحد منا يستطيع بحدسه (بدون تجربة) أن يدرك انه يفكر وانه موجود وأن الكرة ذات سطح واحد وان المثلث محصور بين ثلاثة خطوط الخ •••

بيد أن تفكير العقلانيين هذا غير صحيح لأن الانسان قبل أن يدرك ان المثلث محصور بين ثلاثة خطوط وان الكرة ذات سطح واحد قد لاحظ حسياً عدة مرات أشياء ذات شكل كروي وشكل مثلث • ان العقلانية تفضي بناءً بهذا الشكل أو ذاك، إلى الاعتراف بوجود معرفة فطرية أو سابقة للتجربة •

(١) ف • جيمس • الذرائعية • عام ١٩١٠ • الصفحة ١٨٢ •

فقد كان ديكارت يعتبر مثلاً أن أهم أفكار الرياضيات والمنطق وأهمها هي فطرية في الانسان •

ان التجريبية والعقلانية : نظريتان ميتافيزيكيان وحيدتا الجانب في المعرفة • وقد تبادل ممثلوهما النقد • فوقف لوك ضد نظرية الافكار الفطرية التي كان يأخذ بها ديكارت • كما أن التجريبية الوحيدة الجانب التي نادي بها لوك كانت موضع نقد لبيتز • ولكن لا التجريبية استطاعت أن تتغلب على نواقص العقلانية ولا العقلانية استطاعت ان تتغلب على نواقص الاولى • فقد كان نقد النظريتين احدهما للأخرى نقداً يجري داخل تيار التفسير الميتافيزيكي للمعرفة ، ومن موقع فصل احدي قدرتي المعرفة عن الأخرى •

ان العديد من الفلاسفة البرجوازيين المعاصرين يأخذون بمذهب الصوفية في حلهم مسألة تحديد طريق معرفة الواقع • ولا يتاح الوصول إلى الحقيقة، وفقاً لهذا المذهب ، إلا عن طريق غامض غير مفتوح لكل الناس ، وفي ظروف خاصة •

ويأخذ بهذا المذهب الفلاسفة الحدسيون الذين يعتبرون أن أساس معارفنا والشكل الأعلى للمعرفة هو الحدس الذي لا يتاح إلا لأشخاص استثنائيين في وقت معين (لحظة « الكشف » أو « الاشراق الروحي ») • ويؤكد هؤلاء ان الانسان العادي، في ظروف عادية، لا يمكنه معرفة جوهر الأشياء • ويعتبر الفيلسوف الفرنسي الحدسي برغسون ان الحدس يتطلب جهداً خارقاً خاصاً للتوصل إلى لحظة الكشف • ويعارض هؤلاء الحدس بالعقل والتفكير المنطقي • فالعقل ، في زعمهم ، يبذل جهوداً جبارة كي يتوصل فقط إلى معرفة الكيان الخارجي للشيء • أما الحدس فانه ينفذ في لحظة واحدة إلى الجوهر • وهم يميزون الحدس عن المعرفة الحسية كذلك ويعتبرونه قريباً من الغريزة ، لأنه يقدم لنا معارف لاواعية وغير مصاحبة بالتفكير • بيد أن الغريزة تتصف بطابع نفعي ، في حين ان الحدس ، في زعمهم ، يتصف بالاستقلال التام عن المنفعة العملية (المعرفة النزيهة) •

ان هذه الافكار تعود بالفلسفة البرجوازية إلى صوفية القرون الوسطى •
فإذا كانت الايديولوجية البرجوازية قد وقفت في فترة ولادتها وازدهارها ضد
التفكير الصوفي الغيبي وضد اللاهوت وحاربتها تحت راية النضال في سينل
العقل ، فإن النضال الحالي الذي يشنه ايديولوجيو البرجوازية ضد العقل هو
شاهد على تدهور الفلسفة البرجوازية وانحطاطها •

ان الديالكتيك المادي ، وفقاً لمعطيات العلم ، ينطلق من عدم وجود أي
معرفة صوفية ، خارقة للطبيعة ، حدسية ، كتلك المعرفة التي يتحدث عنها
الحدسيون • وهو يعتبر ان كل معارفنا مأخوذة من العالم الخارجي بواسطة
التجربة الحسية والتفكير الذي يتطور على أساس الاحساسات والادراكات •
كما أن الديالكتيك المادي لايعترف بالافكار الفطرية المولودة مع الانسان • فالناس
يحصلون على المعارف خلال حياتهم في الوسط الاجتماعي • والشيء الذي
يتوارث بيولوجياً ليس التصورات والمفاهيم وليس المعرفة الجاهزة لقوانين العالم
الخارجي ، بل آلية النشاط العصبي الذي يقوم بدور الأساس الفيزيولوجي
لعملية المعرفة • ان نتائج المعرفة ، والافكار لانورث بيولوجياً • ويرث الانسان
خبرة الأجيال السالفة عن طريق التعلم والتربية ، بعد الامحاطة باللغة وأشكال
الفكرة •

إن مصدر جميع معارفنا هو الاحساسات والادراكات التي تعكس العالم
الموضوعي • ويزعم المثاليون أن موضوعات الرياضيات ، وخاصة بديهياتها ،
ذات طابع سابق للتجربة (مستقل عنها) وأن العقل في الرياضيات يتفاعل مع
نتائج ابداعه الذاتي الحر • بيد أن الواقع هو أن مضمون مفاهيم الرياضيات
مأخوذ من العالم الواقعي ، وجميع مفاهيم الرياضيات هي في آخر تحليل
ذات مصدر تجريبي • والرياضيات نفسها قد نشأت على أساس ممارسة قياس
مساحات الأراضي وسعة الأواني ، وحساب الزمن الخ •••

ان من العبث الظن بأن كل فرد منا يحصل على جميع معارفه عن العالم
الواقعي من تجربته الذاتية • فالانسان يستفيد من تجربة جنسه (تجربة البشر

على العموم) • أما تجربة الانسان الفرد المباشرة فانها تظل محدودة جداً مهما كان هذا الانسان قوي الملاحظة وثاقب النظر • ان معارفنا المعاصرة هي نتيجة خبرة جميع الناس في الماضي والحاضر ، وعندما يقال ان جميع معارفنا في آخر تحليل متأية عن التجربة فان الذات صاحبة التجربة في هذه الحالة هي الانسانية •

ان معطيات اعضاء حَسْنَا لا تشكل سوى الأساس الذي تركز عليه معارفنا ولكنها ليست البناء بأكمله • ويكمل التفكير السير قدماً إلى أمام في طريق الحقيقة الموضوعية متوصلاً إلى معرفة قوانين حركة الظواهر ، مما لايتاح للاحاساس الوصول إليه مباشرة • ان التفكير مرتبط بالاحساسات ولكنه في الوقت نفسه يتميز عنها •

ان الانجاز العظيم الذي حققه الفكر الفلسفي هو ضم الممارسة إلى نظرية المعرفة • فالممارسة هي أساس المعرفة الانسانية ومقياس صحتها • ولا يمكننا أن ندرس الأساس الذي تقوم عليه الصلة بين التفكير والطبيعة إلا إذا أوضحنا الدور الذي تلعبه الممارسة في عملية المعرفة •

لقد حدد لينين طريق معرفة الحقيقة الموضوعية بالكلمات التالية : « من التأمل الحي إلى التفكير المجرد ومنه إلى الممارسة • هذا هو الطريق الديالكتيكي لمعرفة الحقيقة ، معرفة الواقع الموضوعي » (١) •

ان تطور المعرفة يحدث نتيجة للتأثير المتبادل بين العوامل الثلاثة التالية : التأمل الحي ، والتفكير ، والممارسة • وكل واحد من هذه العوامل ضروري ، لأن كلاً منها يعطي ما لا يستطيع الآخر ان اعطاه • ان هذا التأثير المتبادل يشمل كل عملية المعرفة من بدايتها حتى النهاية علماً بأن الأساس والعامل الحاسم في هذا التأثير المتبادل هو الممارسة •

ان انتقال معرفتنا من التأمل الحي إلى التفكير المجرد ومنه إلى الممارسة لا يجب أن يحملنا على الظن بأن الأول يلعب دوراً في بداية عملية المعرفة فقط

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحتان ١٤٦ - ١٤٧ •

والثاني في الوسط والثالثة في النهاية • فالإنسان يعود إلى التأمل الحي عندما يقوم بوضع النظرية كذلك • والتفكير يساهم أيضاً في عملية المعرفة التجريبية • أما فيما يخص الممارسة فإنها تشارك في عملية المعرفة من البداية حتى النهاية • ان موضوعية النظرية الماركسية عن انتقال المعرفة من الحسي إلى العقلاني ومنه إلى الممارسة تكشف عن الطريق وعن الخط الأساسي الذي تسير حسبه حركة معارفنا انطلاقاً من معرفة الظواهر الى معرفة الجوهر ، من جوهر ذي ترتيب أول إلى جوهر أكثر عمقاً وهكذا •••

الجوهر والظاهرة

الجوهر - هو الجانب الداخلي الثابت نسبياً من الواقع الموضوعي ، وهو يحدد طبيعة الظاهرة المعطاة • أما الظاهرة فهي ، خلافاً للجوهر ، الجانب الخارجي من الواقع الموضوعي الأكثر تحركاً وتغيراً • الظاهرة هي المظهر الحسي المحدد للجوهر • فجوهر الجمهورية البرلمانية في البلدان الرأسمالية هو ديكتاتورية البرجوازية التي تحدد طبيعة السلطة السياسية في المجتمع البرجوازي • ويظهر هذا الجوهر ويتجلى في أن جميع أجهزة السلطة السياسية تخضع لاشراف البرجوازية ، وفي ان جميع المؤسسات الحكومية تخدم توطيد سيطرة البرجوازية • ان بعض مظاهر ديكتاتورية البرجوازية تتغير ، بيد أن جوهر السلطة الحكومية في المجتمع الرأسمالي يبقى دون تغيير ، وهو ديكتاتورية البرجوازية •

ان مفهومي الجوهر والظاهرة قد برزا منذ بداية وجود المعرفة العلمية • إذ أن منطق تطور المعرفة ومتطلبات النشاط العملي قد أفضى بالإنسان إلى ضرورة التفريق بين ما يشكل جوهر الشيء وبين المظهر الذي يبدو عليه لنا هذا الشيء في البداية •

وتتميز الميتافيزيكية بأنها تفصل بين الظاهرة والجوهر • ويتجلى هذا الفصل بأشكال مختلفة • فهناك بعض الفلاسفة الذين يعتبرون أن الجوهر هو بداية مثالية خاصة وهو منفصل عن الظواهر التي لاتحتوي على جوهر • ويأخذ بهذه النظرة كثير من ممثلي المثالية الموضوعية • وهناك فلاسفة آخرون يعترفون

بأن الجوهر موجود في الأشياء ذاتها ، ولكنه ليس في تناول الانسان : فالمعرفة الانسانية - هي عالم الظواهر التي لاتعبر عن الجوهر الموضوعي للأشياء ، إذ أن بين الجوهر والظاهرة توجد هوة هي من صنع المعرفة الانسانية • وهذه هي وجهة نظر « كانت » وأتباعه •

ان الديالكتيكية المادية تكشف عن الصلة الداخلية الوثيقة بين الجوهر والظاهرة وعن وحدتهما • يقول لينين عن الجوهر والظاهرة « انا هنا أيضا نرى تحول أحدهما إلى الآخر وانصبابه فيه : فالجوهر يظهر ، والظاهرة جوهرية » (١) •

إن تعبير : « الجوهر يظهر » يعني انه ليس هناك جواهر محضة لاتتجلى في ظواهر ما • فكل جوهر يتجلى في عمليات واحداث وعلاقات ••• الخ حسية محددة • فجوهر الرأسمالية يتجلى في ظواهر معينة مثل الأزمات الاقتصادية والبطانة وافتقار الكادحين الخ •••

وتعبير : « الظاهرة جوهرية » يعني ان في كل ظاهرة يتجلى جوهر • فكل ظاهرة مرتبطة بهذا الشكل أو ذلك مع جوهر وهي الشكل الذي يتجلى فيه هذا الجوهر • فحتى الزبد الذي يطفو على سطح النهر مثلاً هو تعبير عن جوهر - تعبير عن المجرى العميق في الأسفل • يقول لينين : « ان الادعاءات الفلسفية المتعلقة بالحدود الخاصة بين هذا وتلك ، المتعلقة بأن الشيء في ذاته موجود « في الجانب الآخر » للظواهر (كانت) أو بأننا يمكن ويجب أن تنفصل بحاجز ما فلسفي عن العالم الذي لم يُعرف بعد هذا الجزء منه أو ذلك ولكنه موجود خارجنا (هيوم) ان كل هذا هراء فارغ ، وهذيان ، واختلاق » (٢) •

ان الجوهر والظاهرة ليسا متوحدتين فحسب ، بل وهما متضادان كذلك ، إذ أنهما لايمكن أن يتطابقا أبداً تطابقاً تاماً • ان تضادهما هو أحد اشكال التعبير

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية ، الصفحة ٢٣٧ •

(٢) لينين : المؤلفات الجزء ١٤ الصفحة ٩٠ - ٩١ •

عن التناقضات الداخلية للأشياء التي تقوم بينها علاقات مختلفة فتتجلى خلال هذا جواهرها .

ويعتبر المظهر المرئي أيضاً تجلياً للجوهر ولكنه تجل وحيد الجانب وغير مطابق للجوهر وربما كان مشوهاً أحياناً . فجوهر العلاقات الانتاجية الرأسمالية مثلاً (العلاقات بين رأس المال والعامل) يظهر بشكل علاقات بين الأشياء : فيبدو لنا أن الرأسمالي الذي وظف رأسماله تحت شكل كمية محدودة من المال يجني الربح بواسطة نقوده لا بواسطة العمال الذي يخلقون بعملهم فضل القيمة . لقد كشف الاقتصاد السياسي الماركسي وراء العلاقة بين الأشياء (البضائع ، والنقود كأشياء) كشف عن جوهر الرأسمالية – عن العلاقة الاجتماعية بين الناس في المجتمع الرأسمالي وعن استغلال الرأسماليين للعمال .

ان وحدة الظاهرة والجوهر وتباينهما يشكلان الأساس الموضوعي لوحدة الحسي والعقلاني في المعرفة ، الأساس لضرورة حركة المعرفة من الحسي إلى العقلاني أو من التجريبي إلى النظري . ان الاحساسات والادراكات تعكس (في صور حسية) الظواهر والأشياء المنفردة قبل كل شيء ، أما الجوهر فهو غير متاح للادراك الحسي المباشر . ولو أن الجوهر والظاهرة متطابقان لكان العلم من الأمور النافلة التي لا داعي لها . ولهذا فان عملية المعرفة لا يمكنها التوقف عند التأمل الحسي بل هي تنتقل إلى التفكير النظري الذي يتوصل إلى جوهر الأشياء على أساس معرفة الظواهر . يقول ماركس : « ان مهمة العلم تقوم في الوصول بالحركة الظاهرة الطافية على سطح الظواهر إلى الحركة الداخلية الواقعية . » (١)

وبما أن ما يطفو على السطح متاح للأحساس ، أما الجوهر فلا يبلغه إلا التفكير ، وبما أن المعرفة الحسية ، بالتالي ، تعتبر ، في آخر تحليل ، مصدر جميع مفاهيمنا ، فان التأمل الحسي يشكل الدرجة الأولى في عملية المعرفة ، أما التفكير النظري فيشكل الدرجة الثانية . وبما أن الممارسة ليست فقط نقطة انطلاق

(١) ماركس . رأس المال الجزء ٣ (١٩٥٥) الصفحة ٣٢٤ .

المعرفة وأساسها بل ومقياس صحتها كذلك ، فإنها تعتبر ، بالقدر ذاته ، درجة ضرورية في عملية المعرفة وخاتمة لها .

ان العلاقات بين التأمل الحي والتفكير والممارسة هي علاقات معقدة . فالتباين بينها نسبي وحدود تباينها غير ثابتة تبعاً لتطور معارفنا . فالرجل العصري لا يمكن ان يكون لديه تجربة حسية غير مرتبطة بعملية التفكير . وهذه الصلة بين المعرفة التجريبية الحسية والتفكير صلة نموذجية جداً في مجال التجربة العلمية . فمن الصعب أحياناً أن تميز التجربة عن النشاط النظري في الفيزياء المعاصرة . ولكن بالرغم من هذه النسبية فإن الفروق بين التأمل الحسي الحي والتفكير والممارسة تظل قائمة : انها درجات من نوعية خاصة في حركة المعرفة .

وتتميز التجربة الحسية للانسان عن الاحساسات والادراكات والتصورات لدى الحيوان بأنها ، قبل كل شيء ، تقوم على أساس الممارسة الاجتماعية - التاريخية . فالناس يدركون الواقع لا بصفتهم متأملين بل بصفتهم مغيرين مبدعين في غمار العمل والنشاط الخلاق . ان التجربة الحسية لدى الانسان اكثر غنى وتنوعاً وعمقاً منها لدى الحيوان ، لأن الانسان يستطيع بواسطة أدوات الانتاج والملاحظة ، يستطيع النفاذ الى مجالات غير متاحة للحيوان . لقد وجد الانسان الأدوات التي تعتبر بمثابة امتداد لأعضاء حواسه ولدماغه : مثل لاقط الصوت ، ومناظر الرصد والمجهر والآلات الحاسبة الالكترونية الخ ويعبر الانسان عن معارفه التجريبية (كما عن تفكيره) بالكلام ، باللغة ، مما يحول هذه المعارف من انعكاس لدى الفرد ، كما هي عند الحيوان ، إلى ظاهرة اجتماعية ، لأن أشكال اللغة مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

ان الانسان يملك خمسة أعضاء للحس ، وكل عضو منها متخصص في ادراك مؤثرات معينة . فالعين ، مثلاً ، تدرك الموجات الضوئية في حدود تتراوح بين ٣٨٠ و ٧٨٠ ميلي ميكرون فقط . وهنا يمكن أن تتساءل : لو أن لانسان كان يتمتع بعدد أكبر من أعضاء الحس ولو أن هذه الأعضاء كانت ذات قدرة اكبر على الادراك أما كان هذا يتيح له التعرف على العالم بشكل أفضل ؟ لقد

طرح المفكرون هذا السؤال في الماضي وكان بعضهم يعتبر أن زيادة أعضاء الحس من شأنها أن تجعل الحياة الفكرية أكثر غنى وتنوعاً .

لقد سخر فولتير في قصته الفلسفية « ميكروميغاس » وفي معرض الحوار بين ساكن كوكب الشعري اليمانية وساكن كوكب زحل ، سخر من المفكرين الذين يعتبرون ان عدد أعضاء الحس لدى الانسان غير كاف لمعرفة العالم معرفة عميقة ومختلفة الجوانب . فقد جاء في هذه القصة ما يلي : « . . . قل لي في البدء ، كم هو عدد الحواس مثلاً لدى ساكن كوكبكم؟ » - « فأجاب الأكاديمي : اثنتان وسبعون حاسة ولا يكاد يمر يوم بدون أن نشكو من قلة هذا العدد . أن خيالنا يفوق متطلباتنا . ونحن نشعر ان حواسنا الاثنتين والسبعين وحلقتنا وأقمارنا الخمسة غير كافية بالنسبة لنا . وبالرغم من حب الاستطلاع والعواطف التي تثيرها فينا حواسنا الاثنتان والسبعون فإنه يبقى لدينا الكثير من الوقت للسام » . - « فقال ميكروميغاس : هذا ليس بالأمر المستغرب ، فسكان كوكبنا يملكون قرابة ألف حاسة ومع ذلك فنحن نشعر بتوقان ما غامض وبعدم رضى عن أنفسنا لا نعرف سببه يذكرنا دائماً بأننا لا شيء وبأن هناك كائنات أكثر كمالاً منا إلى حد بعيد » .

ان تقدم المعرفة الانسانية لا يرتبط بزيادة عدد اعضاء الحس ولا بكمال هذه الأعضاء ، بقدر ما يرتبط بتطور الممارسة الاجتماعية والتفكير . فالممارسة تتطلب من الناس أن يعرفوا أكثر مما تعطينا إياه أعضاء الحس مباشرة ، وهي تسد ، مع التفكير ، هذه الحجة . فالعمل والتفكير قد وسعا بغير حدود امكانية أعضاء حسنا على المعرفة ، وجعلنا حياتنا الفكرية أكثر تنوعاً وغنى وأعمق مضموناً .

ان الانسان يملك العدد اللازم له من أعضاء الحس ، وهذه الأعضاء تقوم بادراك ما هو لازم له في الحياة . بيد ان الممارسة تخلق الحاجة لمعرفة خواص معينة في الظواهر غير متاحة مباشرة لادراك أعضاء الحس . غير ان المحدودية الطبيعية لهذه الأعضاء لا تشكل أبداً عقبة مبدئية أمام معرفة مثل هذه

الظواهر • فالإنسان مثلاً لا يرى الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء ، ولكنه يعرف خواصها بصورة أفضل من معرفة بعض الحيوانات التي ترى هذه الأشعة مباشرة ، لها •

ان التأمل الحي يبرز في مختلف فروع العلم بأشكال مختلفة • ففي مجال العلوم الطبيعية تطبق عادة طريقة الملاحظات المخبرية بما فيها التجربة • بيد أن طبيعة الظواهر التي تدرسها العلوم الاجتماعية تحد من استعمال التجربة ، بل وتستثنيه في بعض الأحيان • ان باحث الطبيعة يستطيع دائماً تقريباً ان يلاحظ الظواهر التي يدرسها ، والتي تتكرر مرات عديدة ولفترة طويلة • أما المؤرخ فمحروم من هذه الامكانية ولذا فهو يستعمل في تعميماته أكثر ما يستعمل التجربة المثبتة في مختلف المراجع التاريخية •

ان احدى الخصائص التي تتصف بها التجربة الحسية لدى الانسان تقوم في أن هذه التجربة مرتبطة بالتفكير • فالإنسان يلاحظ ظواهر الطبيعة والمجتمع مسترشداً بمفاهيم ونظريات معينة • وهناك وقائع بعينها ، وخاصة في مجال الحياة الاجتماعية ، تدرك وتصور بأشكال مختلفة من قبل أناس مختلفين • ولذا يترتب علينا أن نقف من تجربة الناس موقف الناقد ، لكي نميز بين الواقعة والظاهرة الملاحظة وبين تفسيرها الذاتي من قبل هذا الانسان المدرك لها أو ذلك •

ان معطيات الملاحظة الحسية المباشرة تعرفنا على تلك الوقائع التي ننطلق منها فيما بعد عند وضع النظرية • ولا يمكننا أن نعتبر النظرية ، أية نظرية ، صحيحة إذا كانت تناقض الوقائع •

ولكن غالباً ما نقبل ، في عملية المعرفة ، واقعة ما على أنها حقيقية مع أنها في الواقع ليست بواقعة • ويمكن أن تقع أخطاء في الملاحظات والتجارب • وقد حدث في تاريخ العلم ان وضع بعض العلماء نظريات كاملة ونقضوا تصورات علمية سابقة معتمدين على وقائع غير أكيدة ودون أن يجري التحقق منها بشكل كاف ، مما كان يعود بالضرر على تطور العلم • وقد سمي الاكاديمي بافلوف الوقائع مجازاً بـ « هواء العالم » • إذ يجب جمعها بدقة ومثابرة ويجب التحقق

من صلاحيتها باستمرار • بيد أن جمع الوقائع الأكيدة التي أمكن التوصل إليها عن طريق خبرة السنين العديدة غير كاف وحده لتشكيل العلم • فالعلم يبدأ حيث ينكشف جوهر الظواهر وقوانين حركتها وتطورها •

ان التجربة الحسية محدودة • فالوحيد والعام والصدفي والضروري والجوهر والظاهرة فيها غير منفصلة احدها عن الآخر • فقد لاحظ الناس البرق مثلاً منذ القديم ولاحظوا أشكاله المختلفة ولكنهم ظلوا وقتاً طويلاً يجهلون جوهر هذه العملية • ولم يثبت ان البرق عبارة عن شحنة كهربائية إلا في أعقاب النجاحات التي أحرزتها الفيزياء وخاصة في مجال الكهرباء ، وإلا على أساس تعميم وقائع عديدة • وكان هذا الاستنتاج حصيلة لنشاط تفكير الانسان •

ان التأمل الحي يعكس ظواهر الواقع عكساً مباشراً • أما التفكير فيعتبر درجة جديدة وأصيلة نوعياً في تطور المعرفة ، وهو يعتمد على الاحساسات والادراكات • ويتجه التفكير إلى معرفة الصلات الداخلية المقنونة للظواهر • ويمكن جوهر التفكير النظري في أن هذا الأخير ينصب على معرفة العام في الظواهر ، الأمر الذي يتعذر تحقيقه على التأمل الحي الذي يتعرف على الظواهر الوحيدة وعلى خواصها المنفردة • ان كل هذا يدل على أن الانتقال من المعرفة الحسية إلى التفكير المجرد يشكل قفزة نوعية في تطور المعرفة •

ان التفكير يعكس الواقع في شكل مفاهيم ، تجريدات (تجريد جوانب منفردة من الشيء) وهو يتعد عن التصورات المباشرة عن الشيء ليفرز ما هو رئيسي وجوهري فيه • وهكذا نجد في التفكير نقاطاً لا أبعاد لها وخطوطاً لا عرض لها في حين ان الواقع نفسه لا يحوي مثل هذه النقاط والخطوط •

بيد أن ابتعاد الفكرة عن الشيء المحسوس لا يعني الابتعاد عن الحقيقة • يقول لينين : « ان التفكير الذي يرتقي من المحسوس إلى المجرد لا يعتد - فيما إذا كان صحيحاً - عن الحقيقة بل يقترب منها • إن المفاهيم المجردة : المادة ، القانون ، الطبيعة ، القيمة الخ ••• وبكلمة واحدة جميع

التجريدات العلمية (الصحيحة) ، الجدّية (لا المختلقة) تعكس الطبيعة بشكل أعمق وأصح وأكمل « (١) .

ان التجريد يبرز جانباً واحداً ما من جوانب الشيء في « شكله المحض » الذي لا يتوفر في الواقع ، أو يكشف ويعبر عن أكثر الجوانب أهمية وجوهرية في الشيء ، في الظاهرة دون أن يتعرض للجوانب الثانوية وغير الجوهرية . ليس هناك « انتاج » على العموم ولا « قانون » على العموم ، بل هناك أشكال محسوسة للانتاج وقوانين محسوسة . بيد اننا لانستطيع فهم أي شكل محسوس من أشكال الانتاج بعمق بدون مفهوم « الانتاج » المجرد . فلكي نفهم جوهر أسلوب الانتاج الرأسمالي يجب أن نعرف ما هو الانتاج على العموم ومن أية عناصر يتألف وما هو المكان الذي يحتله في حياة المجتمع . فبواسطة التجريد يحيط الانسان بأدق العمليات التي تجري في الطبيعة والمجتمع .

ولا يكون التجريد ذا قيمة إلاّ حينما يعكس الجانب الجوهري في الشيء . أما إذا أبرز التجريد الجوانب غير الجوهرية وركز الاهتمام على العوامل الثانوية فانه يصبح تجريداً فارغاً ، سخيفاً وغير معقول . فعند دراسة الانسان مثلاً يمكن أن نعطي التعريف التالي أو التجريد التالي على غرار القدماء : الانسان هو حيوان ذو قائمتين ، مجرد من الوبر والريش . ان هذا التجريد لا يتمتع بأية قيمة علمية لأنه يعكس جوانب غير جوهرية ولا يساعد على تحديد مكان الانسان في الطبيعة .

٤ - ديالكتيكية المجرد والمحسوس ، المنطقي والتاريخي

لكي ندرك كيف يتوصل التفكير النظري إلى جوهر الظواهر وكيف يصور الشيء في وعي الناس ينبغي علينا دراسة بعض مقولات الديالكتيكية المادية مثل : المجرد والمحسوس ، المنطقي والتاريخي .

ان معرفة الشيء من عدة جوانب هي معرفة محسوسة . أما معرفة جانب

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية . الصفحة ١٤٦ .

واحد ما من جوانب الشيء فهي معرفة مجردة • وتعتبر المعرفة المحسوسة ممكنة لأن الشيء نفسه يعتبر وحدة أمور عدة : جوانب وخواص مختلفة وما شابه ذلك • فالكلمة في اللغة مثلاً تملك جانباً لفظياً (تركيباً صوتياً معيناً) وجانباً معنوياً (فالكلمة تعني شيئاً ما) وجانباً نحوياً (فهي ترتبط مع غيرها من الكلمات في الجملة حسب قواعد معينة) الخ ••• وتنحصر مهمة العلم في الكشف عن الجوانب العديدة للشيء في وحدتها •

وتعتبر المعرفة المجردة ممكنة لأن الجوانب والخواص المنفردة للشيء مستقلة نسبياً ، ونوعية ، ولذا فمن الممكن أن نبرز خلال عملية المعرفة خاصة واحدة وجانباً واحداً ونغض النظر عن الخواص والجوانب الأخرى • فعند دراسة الكلمة يمكن تركيز الانتباه على معناها كما نفعل في فرع علم اللغة الذي ندعوه بـ « السيماسبولوغيا » أي فرع « دراسة معاني الكلمات » •

أما التأمل الحي فيعرفنا على الشيء بشكل محسوس لأنه يحيط بالشيء في تنوع خواصه وجوانبه • بيد أن المعرفة الحسية - المحددة لا تكشف عن جوهر الشيء ولذا تنتقل المعرفة منه إلى التجريدات المنفردة • ان عملية المعرفة لا تنتهي بتشكيل هذه التجريدات • فلا بد من الحصول على معرفة محسوسة متعددة الجوانب • والعلم يتحرك من جديد منطلقاً من التجريدات المنفردة إلى المحسوس • بيد أن هذا لا يعني العودة إلى الحسي - المحدد بل يعني إعادة تصوير المحسوس في التفكير - الشكل الأعلى من المعرفة • يقول ماركس : « يعتبر المحسوس محسوساً لأنه في الوقت نفسه مزيج من تحديدات كثيرة ووحدة لأشكال متعددة • ولهذا فإنه يبدو في التفكير كعملية تركيب كنتيجة ، لا كنقطة انطلاق ، بالرغم من أنه في الواقع نقطة انطلاق ، وبالتالي فإنه نقطة انطلاق التأمل والتصور • ففي الطريق الأول يسمو التصور الكامل حتى درجة التحديد المجرد ؛ أما في الطريق الثاني فإن التحديدات المجردة تفضي إلى إعادة خلق المحسوس عن طريق التفكير » (١) •

(١) ماركس • حول نقد الاقتصاد السياسي ١٩٥٣ صفحة ٢١٣ •

لقد اعتبر الميتافيزيكيون أن فرز تحديدات مجردة منفردة هو نهاية البحث العلمي . وحصروا جميع عملية التفكير النظري في نطاق تشكيل التجريدات الهزيلة . كان الاقتصاد السياسي قبل ماركس ينطلق في تحليل الظواهر من الكامل الحي ، المحسوس المعطى لنا في احساساتنا وادراكاتنا . وكان يحلل هذا المحسوس ويفرز تجريدات منفردة مثل : العمل ، توزيع العمل ، قيمة التبادل الخ وكانت محدودية أبحاث هذا الاقتصاد تقوم في أن فرز تجريدات منفردة كان يعتبر النقطة النهائية في المعرفة . وكان ما يشغل هذا الاقتصاد بشكل رئيسي هو تحليل وتجزئة التام المحسوس الحي إلى جوانب منفردة ولذا فلم يكن يعطي معلومات عن الشيء في تمامه المحسوس .

وقد استعمل ماركس ما كان يسميه الاقتصاديون السابقون بالنتيجة النهائية للبحث ، استعمله من أجل متابعة أبحاثه . وبعد أن حلل وعمم معطيات واقعية ضخمة فرز أبسط التجريدات التي تعكس أبسط العلاقات الأساسية العادية التي نصادفها مليارات المرات في المجتمع البرجوازي : وهي تبادل السلع . ومن هذا المجرد والبسيط يرتقي ماركس إلى الأكثر تعقيداً وحسية . فالجزء الأول من رأس المال مكرس في الأساس لبحث عملية الانتاج الرأسمالية في شكلها العام . ويبدأ ماركس ببحث أبسط المقولات الاقتصادية : السلعة النقد - ثم ينتقل في الجزء الثاني إلى توضيح عملية التداول التي لا بد منها في الانتاج الرأسمالي ، ثم ينتهي في الجزء الثالث إلى بحث علاقات الانتاج الرأسمالي بكاملها وبصفتها وحدة الانتاج والتداول . وتبرز الرأسمالية هنا ككل محسوس مع جميع التناقضات التي تقودها إلى الهلاك . والمحسوس في هذه الحالة لا يبرز فقط كنتيجة للتأمل الحي لظواهر الرأسمالية ، بل وكمجموعة لتحديدات مجردة عديدة متعلقة بصفات الرأسمالية الأساسية .

ان التفكير النظري يعطي معرفة محسوسة متعددة الجوانب عن الامبريالية بصفتها المرحلة العليا في تطور الرأسمالية . وقد كشف لينين عن السمات الجوهرية الاساسية التالية للامبريالية :

١) تركز الانتاج ورأس المال إلى درجة عالية تؤدي إلى ظهور الاحتكارات التي تلعب دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية • ٢) اندماج رأس المال المصرفي مع رأس المال الصناعي وسيادة رأس المال المالي • ٣) الأهمية العظمى لتصدير رأس المال • ٤) تشكيل اتحادات احتكارية دولية للرأسماليين الذي يقسمون العالم فيما بينهم إلى مناطق نفوذ • ٥) إتمام تقسيم العالم بين الدول الرأسمالية الكبرى • ان كل واحد من هذه التجريدات يعبر بمفرده عن جانب جوهرى من جوانب الامبريالية ، وهي بمجموعها تعطينا معلومات متعددة الجوانب عن الامبريالية •

ان المعرفة الحسية عن الشيء لا تظهر نتيجة الربط الميكانيكي بين التجريدات الموضوعية في أوقات مختلفة ومناسبات مختلفة ، بل تظهر عن طريق تطور المجرد واغناؤه بمحتوى جديد يعكس الشيء بعمق وشمول متزايدين • وبنتيجة الانتقال من المجرد إلى المحسوس تتشكل تجريدات جديدة بمثابة تممة منطقية للسابقة • ان التجريدات المنفردة في المعرفة الحسية متحدة بمبدأ عام ، بفكرة موحدة تعكس القنونة الرئيسية في حركة الشيء • وعلى هذا نجد أن السمة الرئيسية للامبريالية هي أنها رأسمالية احتكارية ، أما السمات الأخرى فتنبع من جوهر الامبريالية المذكور • وهذه السمات موحدة ويمكن فهمها فقط في صلتها مع هذا الجوهر •

إن ارتقاء المعرفة من المجرد إلى المحسوس لا يحدث في الاقتصاد السياسي فقط • فهو قانون عام لتطور المعرفة الانسانية • وهكذا نجد أن معارفنا عن نشوء الأرض والكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية تتطور أيضاً من المجرد إلى المحسوس في التفكير • فالفرضيات الأولى في علم الكون ، التي طرحها علم العصر الحديث كانت ذات طابع تجريدي إلى الحد الأقصى لأنها كانت تجسد جانباً واحداً ما في العملية المعقدة والمتعددة الجوانب لنشوء الكواكب تجعل هذا الجانب مطلقاً. فرضيات « كانت » و« لابلاس » مثلاً تنطلق من قوانين الميكانيك فقط • أما الفرضيات الكونية المعاصرة فتعطي صورة أكثر تحديداً لعملية نشوء الأرض • وهي تحاول ، معتمدة على معارف علم الفلك والميكانيك والفيزياء والكيمياء

والجولوجيا الخ ... تحاول عن طريق دمج التجريدات العديدة أن تلقي الضوء بشكل شامل وتام على العملية المعقدة لنشوء الكواكب ، وأن تصور المحسوس بكل تمامه •

ان التجريدات توضع ، بالطبع ، كتعميم للمعرفة التجريبية ، وظهورها مسبق بالمعرفة الحسية - المحددة •

وينظر الديالكتيك المادي إلى المجرد والمحسوس كعاملين في التوصل إلى جوهر الشيء •

ان المجرد - هو وسيلة لبلوغ المحسوس • وقد كتب لينين ان العام ميت غير تام « ولكنه ليس اكثر من درجة لمعرفة المحسوس ، ذلك لأننا لايمكن أبداً أن نعرف المحسوس تمام المعرفة • ان المجموع اللانهائي للمفاهيم والقوانين الخ ... يعطينا المحسوس بتمامه » (١) •

ان المحسوس في التفكير هو اكثر المعارف عن الأشياء عمقاً واغناها محتوى • وهذه المعرفة تفوق المعرفة المجردة لأنها لاتعكس جانباً جوهرياً ما واحداً من جوانب الشيء ، بل مختلف جوانبه الجوهرية في صلتها بعضها ببعض ، أي أنها تتناول الشيء من عدة جوانب • وهي كذلك تفوق المعرفة الحسية - المحددة لأنها لاتعكس صفات الشيء السطحية الخارجية في صلتها المباشرة المتاحة للتأمل الحسي ، بل تعكس الجوانب الجوهرية في صلاتها الجوهرية كذلك •

لقد جعل المثالي هيجل من عملية الارتقاء من المجرد إلى المحسوس عملية صوفية ، مفترضاً انه بنتيجة هذه العملية، يتولد الشيء المحسوس نفسه • واذا كان الارتقاء من المجرد إلى المحسوس هو ظهور الشيء نفسه لدى هيجل، فإنه لدى ماركس « ليس اكثر من وسيلة يستعين بها التفكير لاستيعاب المحسوس ، ويعيد خلقه معنوياً كمحسوس » • ففي انتقال المعرفة من المجرد إلى المحسوس لاينشأ الشيء المحسوس نفسه (إذ أنه كان موجوداً قبل عملية المعرفة وباستقلال عنها) ،

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية • الصفحة ٢٦١ •

بل ينشأ مفهوم محسوس عن الشيء الموجود • إن هذا الارتقاء يعني لدى المادي الانتقال إلى المعرفة الشاملة لجوهر الشيء مما يؤدي إلى تغيير الصورة التي عرفنا الشيء بها وإلى اغائها ، ولكن لا يعني الشيء ذاته •

وعلى هذا فإن المنطق الديالكتيكي يعتبر ان المحسوس هو نقطة البدء والنهاية في عملية المعرفة • ان الحسي - المحدد هو نقطة الانطلاق في المعرفة • والمحسوس الذي يعيد التفكير خلقه هو نتيجة المعرفة، أما التجريدات المنفردة - فهي الوسيلة لبلوغ هذه النتيجة •

ولكي نفهم قوانين تطور المعرفة وديالكتيكية هذه الأخيرة لابد لنا من ايضاح العلاقة المتبادلة بين التاريخي والمنطقي في عملية بلوغ المعارف المحسوسة عن الشيء • واصطلاح « التاريخي » يعني هنا تطور الشيء الحقيقي نفسه ، أما « المنطقي » فهو انعكاس التاريخي • وعلى هذا فإن الأولي هو التاريخي والثانوي هو المنطقي • فليس التاريخ هو الذي يتبع المنطق ، كما هو الأمر لدى هيجل ، بل المنطق هو الذي يعكس المراحل الأساسية للتاريخ • وتطور الشيء يشتمل على المصادفات ، والتعرجات ، والانحراف عن الطريق الرئيسية إلى هذه الناحية أو تلك • ان المنطقي لا يكرر التاريخي في كل التفاصيل ، بل يعكس الرئيسي ، يعكس جوهر التاريخي في تجريدات على أساس دراسة كل ما تحويه العملية الحقيقية للتطور • ان المنطقي والتاريخي متوحدان ولكنهما ليسا متطابقين • وهما يتفقان في الرئيسي والجوهري • فالمنطقي هو التاريخي نفسه ولكن بعد تخليصه من مصادفات الشكل التاريخي • فكتاب « رأس المال » لماركس مثلاً يكشف، في مقولات منطقية ، عملية صيرورة علاقات الانتاج الرأسمالية ، أي نشوءها وتشكلها • ويعمد ماركس خلال هذا إلى التجرد عن خصائص نشوء وتطور الرأسمالية في بلدان منفردة •

ان مهمة العلم تقوم على عكس الصلة التاريخية الأساسية القائمة بين الظواهر خلال تطور الشيء المدروس • يقول لينين : « ان اكثر الأمور ضماناً في مسألة العلم الاجتماعي واكثرها ضرورة لاكتساب خبرة واقعية في تناول هذه

المسألة بشكل صحيح ولتجنب الضياع في خضم التفاصيل الصغيرة أو في خضم التنوع الضخم للآراء المتضاربة ، ان أهم الأمور الواجب توفرها لتناول هذه المسألة من وجهة النظر العلمية هو عدم نسيان الصلة التاريخية الأساسية ، والنظر إلى كل مسألة من الواجهة التالية : كيف برزت هذه الظاهرة المعينة في التاريخ ؟ وما هي المراحل الرئيسية التي مرت بها هذه الظاهرة ؟ والنظر من وجهة نظر تطورها هذا إلى ما آل إليه هذا الشيء المعين الآن ، (١) .

ان وحدة المنطقي والتاريخي المفهومة من وجهة نظر المادية هي المبدأ الرائد لبناء العلم ومنظومة مقولاته . والاطراد المتسلسل في حركة مفاهيم العلم يجب أن يعكس الصلة التاريخية الأساسية بين الظواهر التي يدرسها هذا العلم .

ان المنطقي هو الانعكاس المعمم والمصحح للتاريخي بمعنى أنه يعكس الواقع في تطوره المقنون ويوضح ضرورة هذا التطور . ومن أجل هذا الغرض يستطيع المنطقي بل ويجب عليه أحياناً أن يتعد عن التاريخي الحقيقي لهذا الشيء المعين أو ذاك ، لأن هذا الشيء يمكن أن يكون غير نموذجي في هذه الناحية أو تلك . فعند الكشف عن جوهر الثورة الاشتراكية ، مثلاً ، وعن مراحلها الأساسية يمكن للنظرية ان تتعد في بعض النقاط عن تسلسل مراحل الثورة في هذا البلد أو ذاك ، لأن هذه المراحل تعبر عن خصائص الثورة في البلد المعني . بيد أن ابتعاد العكس المنطقي هذا عن التبع الدقيق للتاريخ يحدث وفقاً لقوانين التاريخ وعلى أساس تعميم تطور ظواهر عديدة من جنس واحد ، مما يؤدي إلى كشف جوهرها . ان تجربة الثورات في روسيا والصين وغيرهما من بلدان الديمقراطيات الشعبية يفسح المجال لتباين العام والرئيسي في الثورة الاشتراكية على نحو أفضل وأدق ، كما يعطي امكانية فصل العام عن الخاص النوعي بالنسبة لهذا البلد أو ذاك .

ان تناول التاريخي بدون المنطقي يصبح عشوائياً ، والمنطقي بدون التاريخي يصبح بدون موضوع . وعلى هذا فعند دراسة تاريخ صيرورة الانسان

(١) لينين : المؤلفات الجزء ٢٩ الصفحة ٤٣٦ .

يمكن وصف العملية التاريخية الحقيقية لتغير الأذنين ، والفكين والأسنان
والقدمين والمشية الخ لدى أسلافنا • فكل هذه الظواهر مرتبطة بعملية تشكل
الانسان • بيد ان الوصف البسيط لهذه التغيرات لا يكشف عن التاريخ الفعلي
لنشوء الانسان • فبدون أن نفهم ما هو الانسان لا يمكن فهم تاريخ نشوئه •
وكذلك الأمر بالنسبة للرأسمالية مثلاً • فاذا نحن لم نكشف عن جوهرها
لا يمكننا أن نصور تاريخ علاقات الانتاج البرجوازي • ولكن بالاضافة إلى ذلك
لا يمكن الكشف عن جوهر الشيء إذا أهملنا تاريخه الواقعي • فالتناول المنطقي
قائم على أساس دراسة العملية الفعلية لتطور الشيء وهو يهدف إلى الكشف
عن جوهره • ولكي يتم التوصل إلى هذا ينبغي تناول الظواهر في تلك المرحلة
من التطور ، حين « تبلغ العملية - حسب تعبير انجلز - مرحلة نضجها التام
وشكلها الكلاسيكي » • فجوهر الانسان مثلاً يمكن أن نفهمه على أفضل نحو
عند تحليل الانسان المعاصر ، لا انسان الغاب • وجوهر الرأسمالية تمكن
الاحاطة به عن طريق دراسة العلاقات الرأسمالية الناضجة • إن دراسة ماسبق
تعيين بالطبع على دراسة ما لحق • ولكن معرفة نتيجة التطور تسمح بنفس القدر
بمعرفة المراحل السابقة بصورة أعمق • ان بإمكاننا أن نرى في الشكل الناضج
على نحو واضح وساطع ما كان في السابق رشيماً لا أكثر • فالشكل الأعلى للتطور
يشتمل على كل الأشكال الدنيا على هذا النحو أو ذاك • وعندما نحلل
جوهر اشكل الأعلى للحركة نكشف بهذا الشكل أو ذاك عن المراحل السابقة
أي عن التاريخ • وعلى هذا فان العلاقات الرأسمالية الناضجة تلخص كل تاريخ
نشوئها وتطورها •

ان مبدأ وحدة المنطقي والتاريخي لا بد من تطبيقه في دراسة عملية المعرفة
كذلك • فنظرية الشيء تشتمل على تاريخ هذه النظرية أيضاً • وبدون معرفة
جوهر النظرية العلمية الحديثة يبدو تاريخ الفكرة العلمية السابق مجرد تجميع
لأخطاء مفكرين عظماء • ولا يمكننا في هذه الحالة أن نفهم الخط الرئيسي في
التطور التاريخي • ان التاريخ الواقعي للمفزياء لا يمكن كتابته إلا إذا ارتفعنا

لمستوى العلم المعاصر ، كما أنه لا يمكننا وضع التاريخ العلمي للفلسفة إلا من مواقع الانجازات العليا للفلسفة أي - المادية الديالكتيكية والتاريخية •

ولكن قولنا بأن دراسة جوهر الشيء يكشف إلى حد ما عن تاريخ هذا الشيء لا ينتج عنه ان المنطقي يستثني دراسة التاريخ ويجعل منها أمراً نافلاً • إن العكس هو الصحيح إذ أن المنهج المادي يطالب بالضرورة بدراسة التاريخ الحقيقي للشيء مع جميع تفاصيله • فبدون دراسة تاريخ الشيء لا يمكن وضع نظرية عنه • والكشف عن تاريخ الشيء أي عن تطوره هو مهمة أي بحث علمي • ان النظرية الديالكتيكية هي نظرة تاريخية حقيقية • وبدون دراسة التاريخ لا يمكن عكس جوهر العملية منطقياً • يقول انجلز : « ان التطور المنطقي ليس ملزماً أبداً بالبقاء في المجال التجريدي المحض فقط ، بل بالعكس ، فهو يحتاج إلى استشهادات تاريخية وإلى تماس دائم مع الواقع » (١) •

ان كشف المنطق والتفكير لجوهر هذه العملية أو تلك في شكلها الناضج ليس نهاية البحث العلمي • فالمنطقي ليس إلا واسطة لمعرفة التاريخي • وهو يقدم المبدأ للدراسة الشاملة • وعندما نضع معرفة الجوهر في أساس سرد تاريخ الشيء نكون بهذا قد وضحنا جميع التفاصيل والمصادفات والانحرافات التاريخية وجعلناها مفهومة ، ووضحنا دورها في التطور الضروري للشيء ، وبذا تصبح معرفة التاريخ حية وكاملة • ولكن إذا بقيت التفاصيل التاريخية بدون رابط يربط بينها فإنها تستحيل إلى مجموعة مصادفات وكومة من الوقائع الخام • ان المزج بين المنطقي والتاريخي هو وحده الذي يفسح امكانية الفهم العميق والشامل لتطور الظواهر في الطبيعة والمجتمع والتفكير ولحركاتها المقنونة الغنية بالمحتوى •

• - أشكال التفكير ودورها في المعرفة

ان اشكال التفكير هي عوامل المعرفة ووسائلها ، إذ يعكس الانسان فيها القنونة الشاملة للطبيعة المتحركة أبداً • وتتم العملية المنطقية لوضع صورة علمية

(١) انظر : ماركس • حول نقد الاقتصاد السياسي • صفحة ٢٣٨ •

عن العالم بواسطة المحاكمات والاستنتاجات العقلية والفرضيات والنظريات
والمفاهيم والمقولات ... الخ

ان المسألة الرئيسية في المنطق الديالكتيكي هي دراسة تشكل وتطور
أشكال التفكير وتوضيح دور الممارسة في حركة هذه الأشكال • ويدرس
الديالكتيك هذه الأشكال من جميع الجوانب ويكشف عن محتواها الموضوعي
ويظهر علاقاتها المتبادلة في عملية التوصل إلى المعرفة الصحيحة عن العالم •

وتعتبر المحاكمة أحد اشكال التفكير الذي بواسطته نتعرف على مختلف
جوانب وخواص وعلاقات الأشياء • ان المحاكمة هي الفكرة التي تثبت أو تنفي
شيئاً ما عن شيء ما • وفيها تنعكس ديالكتيكية الوحيد والعام • ففي قولنا :
« الذهب - معدن » مثلاً يكون الذهب هو الوحيد والمعدن هو العام • وخلال
عملية المعرفة يتم الانتقال من احدى المحاكمات إلى الأخرى ومن أحد مستويات
المعرفة إلى مستوى آخر أعلى منه • والأشكال المختلفة للمحاكمة هي حلقات
منفردة لهذه العملية ومراحل فيها •

ان المعرفة تسير من الوحيد وعبر الخاص إلى العام • وبهذه الطريق
ذاتها يسير تطور المحاكمة: من محاكمة الوجودات وعبر محاكمة الخصوصيات
إلى محاكمة العموميات • ففي محاكمة الوجودات تتعين الصلة بين ظواهر ما ،
ثم يؤدي التطور اللاحق للمعرفة إلى صياغة محاكمة ينعكس فيها قانون الصلة
بين أشكال خاصة من الحركة (محاكمة الخصوصيات) ثم تنتهي إلى معرفة
القانون العام للتطور في محاكمة العموميات • وهكذا فقد أثبت العلم في البداية
ان ذرات عنصر منفرد ، كالراديوم مثلاً ، يمكن ان تتجزأ إلى أقسام أبسط ؛
وكان هذا محاكمة للوجودات • ثم تمت صياغة محاكمة الخصوصيات وهي ان
مجموعة كاملة من أثقل العناصر المعروفة لدينا تتصف بخاصة الاشعاع الطبيعي •
وقد بلغ العلم في الوقت الحاضر مستوى يستطيع معه أن يصيغ محاكمة العموميات
وهي ان كل عنصر كيميائي يمكن أن يتحول إلى عنصر آخر في ظروف معينة •
ومما له أهمية كبرى في عملية المعرفة هو الاستنتاج العقلي • وهو شكل

من أشكال التفكير يمكن بواسطته استخلاص معرفة جديدة على أساس معرفة سابقة مثبتة من قبل • فالإنسان مثلاً لم يقس المسافة بين الأرض والأجرام السماوية الأخرى قياساً مباشراً • بيد أنه يعرف هذه المسافات على أساس الاستنتاج العقلي • ان الأساس الموضوعي لامكانية الانتقال من المعلوم إلى المجهول هو القنونة السائدة في الطبيعة والمجتمع • فالصلة القنونة بين الظواهر تتصف بطابع الشمول، ولذا فاننا نستطيع، على أساس معرفة هذه القنونة، أن نستخلص النتائج عن الظواهر التي لاتخضع للملاحظة المباشرة ولكنها تخضع لتأثير قوانين معلومة • فالإنسان لا يدرك الذرات حسياً ولكنه يعرف على أساس الاستنتاجات العقلية من القوانين المعروفة ان جميع الذرات تحوي الكترولونات وبروتونات ونيوترونات •

ان أشكال الاستنتاج العقلي متعددة : فبعضها يعطي نتائج أكيدة وبعضها يعطي نتائج محتملة إلى هذا الحد وأذاك • وقد جرت في تاريخ الفلسفة محاولات لابرار نموذج وجيد من نماذج الاستنتاج العقلي بصفته الأسلوب الوحيد المضمون والقيم للحصول على نتائج جديدة • وهكذا اعتبر التجريبيان (بيكون ولوك) ان هذا الأسلوب هو الاستقراء حيث يجري الاستنتاج العقلي من الجزئي إلى العام، ومن الوقائع المنفردة إلى النتيجة العامة • أما العقلانيون (مثل ديكارت وغيره) فقد ضخموا دور الاستنتاج وهو الاستنتاج العقلي من العام إلى الجزئي، حيث يعمم الحكم العام على الحوادث الجزئية المنفردة • بيد أن نظرتي هؤلاء وأولئك تعتبران وحيدتي الجانب، فليس هناك فرع من فروع العلم يجري فيه الاستنتاج العقلي بواسطة الاستقراء وحده أو الاستنتاج وحده •

ان المنطق الديالكتيكي يكشف عن الصلة، عن الوحدة بين مختلف أشكال الاستنتاج العقلي في عملية معرفة الواقع • فالاستنتاج والاستقراء يكمل أحدهما الآخر بالتبادل • ويقول انجلز « بدلاً من أن نرفع أحدهما من جانب واحد إلى السماوات على حساب الآخر، ينبغي ان نجهد لتطبيق كل منهما في

المكان الملائم • ولا يمكن تحقيق هذا إلا إذا لم تغفل الصلة بينهما واكمال أحدهما للآخر بالتبادل « (١) •

أثناء عملية المعرفة يلاحظ الإنسان حالات جزئية منفردة ثم يعممها ويصنع موضوعاً ، عامة • وهذا ما يسمى بعملية الاستقراء • ثم ينشر هذا التعميم على ظواهر ووقائع وحالات جديدة • وهذا ما يسمى بالاستنتاج • فعندما درس مندلييف مثلاً عناصر كيميائية منفردة وجد صلة بين أوزان الجوهري للعناصر وبين خواصها الكيميائية ، وقاده هذا إلى صياغة القانون الدوري • ومن هذا القانون استخلص عدداً من النتائج الجزئية (الاستنتاج) بالنسبة لعناصر منفردة: فقد تنبأ بخواص عناصر جديدة غير مكتشفة بعد ، وصحح الأوزان الجوهريّة لبعض العناصر التي لم تكن مدروسة بقدر كاف ••• الخ • وهكذا يجري تطور المعارف عن طريق الصلة المتبادلة والاكمال المتبادل بين الاستقراء والاستنتاج •

ان الاستنتاج لا يمكنه الاستغناء عن الاستقراء : فلكي نستخلص نتيجة من العام لا بد لنا من الحصول على هذا العام • إذ أن الانسان لا يملك معارف فطرية مولودة معه • وكذلك فإن الاستقراء بدوره يفترض الاستنتاج بالضرورة • إذ لا يمكننا الحصول على معارف أكيدة على أساس الاستقراء وحده • والملاحظة البسيطة لتكرار خاصة ما لدى عدد من الأشياء لا تكفي بعد لاقامة البرهان على ضرورة وقانونية هذه الخاصة بالنسبة لكل أشياء النوع المعني • ولا بد لنا من التحقق من صحة التعميم الذي نحصل عليه نتيجة الاستقراء ، ثم ينبغي استخلاص كل ما ينتج عنه والتحقق من هذه النتائج بواسطة الممارسة العملية • وهكذا نرى أن المعرفة الأكيدة لا تأتي إلا عن الصلة المتبادلة بين الاستقراء والاستنتاج والممارسة •

ان العلم لا يتوصل دفعة واحدة إلى المعرفة الأكيدة لجوهر ، وقانون تطور الظواهر • فالطريق إلى هذه المعرفة تمر عبر وضع الفرضيات والتخمينات ، والتحقق من الفرضيات بواسطة الممارسة • وعندما يدرس العالم بعض الظواهر

(١) انجلز • ديالكتيك الطبيعة صفحة ١٨١ •

يقدم تفسيراً لها (يضع تخمينات عن الصلة المقنونة بين هذه الظواهر) • ثم تقوده الدراسة اللاحقة الى إكتشاف وقائع جديدة، يمكن أن يجد بينها مايتناقض مع الفرضية التي كان قد وضعها • وعندئذ تبرز الحاجة إلى أسلوب جديد في التفسير (أي إلى فرضية جديدة) • وهكذا فإن العالم بانتقاله من تفسير إلى آخر أكثر دقة يصل إلى اكتشاف القانون •

في عام ١٨٩٦ اكتشف بيكيريل ظاهرة الإشعاع في الأورانيوم ومركباته • ثم تلى ذلك اكتشاف الاشعاع في املاح عناصر أخرى ، وتم التوصل إلى اكتشاف عنصر جديد هو الراديوم • ان هذه الوقائع التي كانت غامضة في البداية لم يكن بالامكان تفسيرها انطلاقاً من الأسباب المعروفة سابقاً. وقد وضع (ريزيرفورد) و (سودي) بهذا الصدد فرضية تقول بأن ذرات جميع العناصر المشعة تتفجر وتتفكك إلى أجزاء ؛ وان الأشعة المنتشرة هي الشظايا التي تتشكل عند حدوث هذا الانفجار • وقد خدمت فرضية التفكك الاشعاعي هذه كبداية لأبحاث جديدة • وأدى التحقق منها إلى اكتشاف ظواهر جديدة خرج بعضها عن أطر هذه الفرضية • وظهرت فرضيات جديدة تكمل وتصحح فرضية ريزيرفورد وسودي إلى أن حان الوقت في لنهاية لوضع نظرية علمية •

ان الفرضية تبرز كشكل لتطور المعارف العلمية في الطريق نحو الحقيقة الموضوعية • وقد ظلت نظريات كوبرنيك وداروين وقانون مينديليف الدوري في حكم الفرضيات العلمية خلال فترة معينة • ثم أثبتت الممارسة صحتها الموضوعية وحولتها إلى نظريات علمية أكيدة • والعلم الطبيعي المعاصر محاط بغابات من الفرضيات •

ان النيل من قيمة الدور الخلاق الذي تلعبه الفرضية في المعرفة كان دائماً مصاحباً للطريقة التجريبية المحدودة في دراسة الواقع • ويعتبر الوضعيون الذين ينكرون امكانية نفاذ العلم إلى جوهر الظواهر يعتبرون الفرضية سم العلم وطاعون العقل • وهم يرون انه لا لزوم لوضع الفرضيات حول قانونيات حركة الظواهر ، فالعلم يجب أن يسجل محاضر الوقائع وكفى •

بيد أن الواقع يدلنا على أن الفرضيات تجعل من بحث الشيء أمراً هادفاً وتؤدي إلى اكتشاف قوانين الطبيعة والمجتمع • وقد شبه لومونوسوف الفرضيات بالدفعة التي تفسح الامكانية « لبلوغ المعارف التي لا تتوصل إليها أبداً عقول القاصرين الزاحفين في التراب » • ان الباحث الذي يقوم بتجارب أو ملاحظات حول وقائع جديدة يسترشد بالفرضية • فللملاحظة تقتضي معرفة المكان الذي يجب أن توجه إليه بصرك والشيء الذي تبحث عنه ، والفرضية هي التي تشير إلى الاتجاه • صحيح ان العديد من الفرضيات لم تتأكد بالوقائع بيد أن هذا ليس حجة ضد تطبيق الفرضيات في المعرفة • والفرضيات المنبوذة لعبت دوراً عظيماً في العلم ومهدت طريق الوصول إلى الحقيقة •

وعلى مثال الفرضية تتوضح الصلة بين التجريبي والنظري في المعرفة : فنحن ننتقل من الوقائع والملاحظات ، ونرتقي إلى التفكير المجرد فنعمم ونضع الفرضية • ولكي نتحقق من فرضيتنا نعود من جديد إلى الوقائع والملاحظات والتجارب • وعندما يتم البرهان على صحة الفرضية تتحول إلى نظرية علمية أكيدة مؤلفة من منظومات من المفاهيم المتصلة فيما بينها والمتوحدة بمبدأ عام •

ان المفهوم كشكل من أشكال التفكير يعكس جوهر الظواهر • فمفهوم « الرقم » مثلاً و « الالكترون » و « النقطة » و « الشكل الهندسي » و « البروليتاريا » تعتبر عكساً للعام والجوهري في مجموعة كبيرة من الظواهر • والعام المنعكس في المفاهيم لا يستتج من عقلنا ، بل هو موجود موضوعياً في الظواهر والأشياء الوحيدة • وبواسطة المفاهيم نحيط بعدد كبير من مختلف الأشياء المدركة حسيّاً • ولهذا فان تشكيل المفهوم يتطلب بحث عدد كبير من الظواهر والأشياء الوحيدة • ان تشكيل المفهوم هو نتيجة عملية تعرف طويلاً ، والتوصل إلى حصيلة ما لتطور هذه العملية •

وعملية تشكيل المفاهيم لا تشمل فقط على مقارنة ادراكات مختلفة وابرار الصفة العامة المتشابهة في الأشياء • إذ أن ابراز العام فقط لا يؤدي إلى تشكيل المفهوم العلمي • ولنضرب على هذا المثل التالي : ان اجراء المقارنة بين الحرارة

وطرق الحديد وصيد السمك وايجاد صفة عامة بين هذه العمليات « كبدل
الجهد العضلي » مثلاً لا يصلح أساساً لتشكيل مفهوم علمي عن العمل • فهذه
الصفة العامة ليست عامة جوهرياً بالنسبة للعمل ، إذ أن الحيوانات تحصل على
غذائها بواسطة الجهد الجسدي كذلك • ان العمل - هو النشاط الهادف الذي
يبدله الانسان الاجتماعي لتغيير أشياء الطبيعة بواسطة الأدوات • ان جوهر
الشيء يتكشف عن طريق التحديد الشامل لصلاته ووسائطه وعن طريق
توضيح مكانه ودوره في هذه المنظومة أو تلك •

ولتشكيل المفاهيم تستخدم أساليب البحث العلمية على اختلاف انواعها :
كالملاحظة والتجربة ومختلف أشكال الاستنتاج العقلي في وحدتها ، ووضع
الفرضيات والتحقق منها ••• الخ ويحتل التحليل والتركيب مكاناً هاماً في هذه
العملية •

ان التحليل أو التجزئة الذهنية للشيء إلى الأجزاء التي يتكون منها بقصد
تبيان أبسط عناصر المعقد ، ضروري في كل بحث علمي • فالتحليل يفسح
امكانية فرز وفهم الجوانب الجوهرية في الظاهرة المدروسة • فاذا كنا نجهل
العناصر التي يتألف منها المجتمع فاننا لن نفهم أبداً جوهره ولن نستطيع توضيح
العلاقة بين مختلف العناصر الموجودة فيه • بيد أن دراسة الشيء لا تقتصر على
التحليل • ان من شأن تضخيم دور التحليل واعتباره اسلوب الدراسة الوحيد
ان يفضي بنا إلى النظرة الميتافيزيكية عن العالم وإلى تجزئة الأشياء إلى عناصر
منفردة منعزلة وكأنها غير مرتبطة فيما بينها • والمفاهيم التي نحصل عليها نتيجة
التحليل وحده تحمل طابع الضحالة ووحدة الجانب • فالتفكير العلمي يفترض
وحدة التحليل والتركيب ، هذه الوحدة التي يتم بواسطتها إعادة خلق المحسوس
في التفكير • يقول انجلز : « بقدر ما يتألف التفكير من تقسيم أشياء الوعي إلى
عناصر ، بقدر ما يتألف كذلك من توحيد العناصر المرتبطة فيما بينها في وحدة ،
فبدون تحليل لا يوجد تركيب » (١) •

(١) انجلز • ضد ديورنغ الصفحة ٤٠ •

ان وحدة التحليل والتركيب هي من أهم متطلبات الطريقة الديالكتيكية في التفكير . فالتركيب يعرفنا على الشيء ككل واحد . بيد أن معرفتنا هذه تحصل على أساس التحليل السابق ، وهذا أولاً . ثم ان ما ينبغي ربطه في التفكير هو فقط ذلك الذي يكون مرتبطاً في الواقع وهذا ثانياً . إن العيب الذي يتصف به التركيب في الفلسفة المثالية هو في أن هذه الفلسفة توحد في التفكير بين عناصر مختلفة دون أن تنظر إلى العلاقة بين هذه الأشياء في الواقع . ومن هنا ينشأ التعسف في التركيب .

ان المفهوم العلمي لا يحتوي في مضمونه على جميع السمات الجزئية للشيء . وقد اعترض لينين في مؤلفه (المسألة الزراعية و « نقد ماركس ») اعترض ضد اولئك الذين يحاولون « أن يضمّنوا المفهوم العام كل السمات الجزئية للظواهر الوحيدة » . والمفهوم إلى جانب ذلك غير منفصل عن غنى الفردي والخاص . فهو يبلغ الوحيد الجزئي عن طريق العكس العميق الشامل لقانونيات تطوره . ولو أن المفهوم كان يطمح لشمّل كل السمات الجزئية الوحيدة للشيء لما تجاوز حد الاحساسات والادراكات في معرفة الجوهر .

ان حركة وتطور الواقع يمكن أن ينعكس فقط في المفاهيم المتطورة باستمرار . يقول لينين : « ان المفاهيم الانسانية ليست ثابتة ، بل هي تتحرك أبداً ويتحول أحدها إلى الآخر وينصب أحدها في الآخر ، وبدون هذا لا يمكنها أن تعكس الحياة الحية » (١) .

هناك كثير من الفلاسفة المثاليين المعاصرين الذين يعترفون بتغير ومرونة المفاهيم ولكنهم يؤولون هذا التغير سفسطائياً . فالسفسطائيون يعتبرون أن تغير المفاهيم هو نتيجة لتعسف الذات المفكرة : إذ ينظرون إلى حركة المفاهيم دون النظر إلى حركة الأشياء . ولكن ما الداعي لتغير المفاهيم إذا كنا لانحصل بهذا على عكس أكثر دقة للمادة لما تحركه ؟ ان تغير المفاهيم ليس غاية بحد ذاته بل وسيلة للنفاذ بشكل أعمق إلى جوهر الأشياء المتطورة .

(١) لينين : الدفاتر الفلسفية . الصفحة ٢٣٧ .

ان الديالكتيك المادي يدلنا على المصدر الموضوعي لحركة المفاهيم • وهو ينظر إلى مرونة المفاهيم العلمية على أنها انعكاس لتعدد جوانب العالم المادي ولتطوره • فحركة المفاهيم تجري على أساس حل التناقضات بين الوقائع الجديدة المكتشفة وبين المفهوم الموجود • ان المفهوم العلمي الأول عن الذرة قد ظهر في كيمياء القرن الثامن عشر ، التي كانت تعتبر ان ذرات العنصر الكيميائي تتصف بذات الخواص وهي غير قابلة للتجزئة • بيد أن الممارسة العلمية اللاحقة كشفت عن وقائع جديدة (كإكتشاف الالكترن) تخرج عن أطر مفهوم الذرة الذي كان سائداً آنذاك • وقد أدت هذه الوقائع إلى تغيير مفهوم الذرة وعدد من المفاهيم الفيزيائية الأخرى •

ان عملية تطور المفاهيم تجري في اتجاهين اثنين : ١ - تعميق وتدقيق المفاهيم السابقة ورفعها إلى مستوى تجريدي أعلى • ٢ - نشوء مفاهيم - جديدة • ان الناس لا يبنذون المفاهيم القديمة المعتادة فوراً • وتحطيم المفاهيم القديمة غالباً ما يفضي بالعلماء إلى التشتت الفكري وربما أفضى بهم إلى الأخذ بنظرات لا علمية •

ان تغير محتوى المفاهيم القديمة ونشوء مفاهيم جديدة يؤديان إلى بروز اختلافات وتناقضات بين المفاهيم المختلفة وفي قلب مفهوم واحد كذلك •

وعند هذا يجب ان نفرق بدقة بين التناقضات التي تنشأ في المفاهيم كانعكاس للتناقضات الموضوعية ، وبين التناقضات التي تظهر نتيجة خطأ هذا الانسان أو ذاك ، وعدم قدرته على التفكير باطراد وعلى نحو منطقي • ان التناقضات الأولى تفضي إلى تطور المعرفة ، بينما تقف الثانية عائقاً أمام المعرفة الصحيحة •

ان أعم المفاهيم التي تنعكس فيها أهم خواص وقانونيات العالم تسمى « المقولات » • وكل علم لديه مقولاته • فالفيزياء مثلاً تستعمل المقولات - أو المفاهيم الأساسية التالية - : الكتلة ، الطاقة ، المادة ، الساحة الخ ••• والاقتصاد السياسي لديه مقولاته الخاصة : كالسلعة ، والقيمة ، والعمل المجرد والعمل

الحسي وغيرها ... والديالكتيك لديه مقولاته الخاصة كذلك : كالنوعية والكمية ، والجوهر والظاهرة ، والتناقض وغير ذلك . ان مقولات الديالكتيك تتميز عن مقولات العلوم الأخرى بأنها تعكس أعم قوانين وخواص ظواهر الطبيعة والمجتمع والتفكير . ولذا فان القدرة على تطبيق مقولات الديالكتيك بشكل صحيح أمر ضروري من أجل بحث أي شيء .

ان المقولة هي مفهوم يتصف بعمومية واسعة إلى حد عظيم . وكل مقولة تشمل دائرة واسعة من الظواهر . فمقولة المادة مثلاً تشمل كل الأشياء والظواهر الموجودة باستقلال عن الوعي . ولكن لا يستتج أبداً من هذا أن المقولات هي تجريدات هزيلة فقيرة بالمحتوى . فالمقولات العلمية المأخوذة في صلتها المتبادلة تعكس أهم قانونيات تطور الطبيعة والمجتمع والتفكير الانساني عكساً عميقاً وشاملاً .

والمقولات ، بصفتها حصيلة معينة للمعرفة ، وبعكسها أهم خصائص وقانونيات العالم الخارجي ، تعتبر درجات في سلم تطور المعرفة . فمقولات : الحركة والسبب ، والنتيجة ، والتناقض ، والنوعية ، والجوهر ، والقانون ... الخ مثلاً ، تعتبر بمثابة مراكز أساسية تساعد الباحث على تحديد وجهته في شبكة ظواهر الواقع التي لا نهاية لتعقدها وتنوعها . ان المقولات تحوي تعميماً لكل الخبرة السابقة في المعرفة .

يستخدم الانسان المعرفة المتضمنة في المقولات من أجل وضع محاكمات واستنتاجات عقلية ومفاهيم جديدة . ويشير انجلز الى أن الانسان لا يستطيع ان يربط بين واقعتين بسيطتين بدون المقولات . فالمحاكمة التالية مثلاً وهي « ان هذا البيت أكبر من ذاك » مبنية على أساس خبرتنا السابقة المثبتة في مقولة الكمية . والمقولات التي نربط على أساسها بين معطيات التأمل الحسي قد نشأت نفسها كتعميم للتجربة الحسية . إن من الواجب علينا أن نتعلم استعمال وتطبيق المقولات بشكل صحيح في عملية معرفة العالم علمياً .

٦ - الممارسة كأساس للمعرفة ومقياس للحقيقة

تنشأ المعرفة على أساس حاجات الممارسة العملية للانسان ومن أجل سد هذه الحاجات • والممارسة هي النشاط المادي الحسي الذي يبذله الناس لتغيير أشياء وظواهر وعمليات الواقع • والممارسة التي تكمن في أساس المعرفة - هي ذلك التأثير المتبادل بين الذات (الانسان) والموضوع (الشيء المادي) الذي يؤدي إلى نتيجة مباشرة هي تغيير الموضوع • فبواسطة أدوات العمل يغير الانسان التربة : فيحراثها ويسمدها الخ •• مما يؤدي إلى ازدياد خصب التربة • والممارسة لا تغير الموضوع فقط بل وتغير الذات أيضاً • ان الانسان يتطور خلال العمل •

وتتألف الممارسة من جوانب عديدة • فأساسها يتشكل من انتاج الخيرات المادية : الغذاء والملبس وأدوات العمل وما شابه ذلك • وتدخل في نطاق الممارسة أشكال أخرى من النشاط الاجتماعي الذي يؤدي إلى تغيير العالم المادي مثل الصراع الطبقي ، وحركة التحرر الوطني والثورة • كما يدخل في نطاق الممارسة الاجتماعية كذلك النشاط المبذول في مجال التوير الشعبي والوقاية الصحية ••• الخ •

ان عملية المعرفة تدخل في نطاق النشاط النظري للناس • فالنظرية هي التعميم العلمي للممارسة وانعكاس الواقع في وعي الانسان • بيد أن النظرية بحد ذاتها لا تغير الواقع • فنحن باستطاعتنا أن نضع خطأً مثالية لتغيير العالم وأن نحقق الثورات فكراً ، ولكن العالم لن يتغير من جراء هذا وحده • ان الدور الفعال العظيم للمعرفة ، للتفكير ، للنظرية يقوم في أنها يمكن أن تدل على طريق تغيير العالم • يبدأ ن تجسيد الافكار في الحياة يتطلب الممارسة العملية •

ان النشاط النظري للناس لا يتصف بالاستقلال وعدم التبعية : فقد نشأ هذا النشاط وتطور على أساس الممارسة • ان الاحاطة عقلياً بالواقع وعكسه في دماغ الانسان ضروريان من أجل نجاح الممارسة العملية • وتعتبر الممارسة

اساس تطور النظرية وقوته المحركة • فمتطلبات الممارسة وبخاصة متطلبات الانتاج تشير إلى وجهة تطور العلم وتدفعه إلى الأمام • يقول انجلز : « إذا ظهرت في المجتمع حاجة تكنولوجية فانها تدفع العلم إلى الأمام أكثر مما تدفعه عشر جامعات » (١) •

ولكن ليست الممارسة وحدها ، وبخاصة الممارسة الانتاجية ، هي التي تدفع تطور المعرفة • فهناك عملية معاكسة أيضاً تتلخص في أن نجاحات المعرفة النظرية تدفع إلى احداث تغييرات عملية • وتبعاً لهذا تغير علاقة العلم بالانتاج « فيصبح العلم ، أكثر فأكثر ، قوة انتاجية مباشرة ، يصبح الانتاج تطبيقاً تكنولوجياً للعلم الحديث » (٢) • وفي هذه الوحدة والتأثير المتبادل بين المعرفة والممارسة يظل الدور الأول من نصيب الممارسة •

ان العلم ، إن النظرية ، ينشأ من احتياجات الممارسة وكمعم لها . فالذي أوجد علم الفلك في البداية هو احتياجات التجارة والملاحة في البحار • وقد نشأت مختلف فروع الفيزياء لسد حاجات تكتيك الانتاج المتنامي • وقد أوجد عصر البخار الدراسات المتعلقة بالحرارة • أما الانتقال إلى المحركات الكهربائية فقد تطلب دراسة تفصيلية لنظرية الكهرباء • ان الانسان يقوم قبل كل شيء بتركيز الانتباه على تلك الأشياء وتلك الجوانب التي هي نافعة وضرورية لحياته عملياً • ان الممارسة تشير إلى الجانب الذي يجب فرزه من الشيء بصفته الجانب الرئيسي الجوهرى • وقد نشأ مفهوم النوع الذي يتمتع بأهمية عظيمة في علم البيولوجيا ، نشأ على أساس الممارسة الفعلية في مجال الزراعة وتربية الحيوان • إذ أن الناس ركزوا انتباههم قبل كل شيء على النباتات والحيوانات النافعة بالنسبة لهم جامعين الأجناس والنماذج المنفردة في مجموعات متجانسة حسب سمات موضوعية معينة • ثم أخذوا فيما بعد يصنفون النباتات والحيوانات لا على أساس تشابهها فقط بل وعلى أساس جنسها ، وهكذا نشأ المفهوم الجينيستيكي (٣) عن النوع •

(١) ماركس وانجلز • رسائل مختارة ١٩٥٣ صفحة ٤٦٩ •

(٢) مواد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي • صفحة ١٤٦ •

(٣) نسبة الى علم ظواهر الوراثة وتحولات الكائنات الحية •

وعلى أساس الممارسة تنشأ وتتطور العلوم الطبيعية • فنظرية الاشتراكية العلمية نشأت كتعميم لممارسة الحركة العمالية ، ومن أجل حاجات نضال الطبقة العاملة ضد البرجوازية ، ضد الاضطهاد •

ان فصل العلوم الطبيعية والتكنيكية عن ممارسة الانتاج يؤدي إلى إهانة التقدم التكنيكي وجمود العلم • فاذا انقطع العلم عن مصدر حيويته وهو الممارسة أصيب بالهزال وأخذ يعالج مسائل ضحلة أو محاكمات عقيمة • وقد ورد في برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي : « إن ضمان التطور الخصب للعلم هو في الصلة الوثيقة مع العمل الخلاق للشعب ومع ممارسة البناء الشيوعي » • ان اضعاف صلة العلوم الاجتماعية بممارسة الحركة الثورية وبناء الاشتراكية والشيوعية يؤدي إلى الجمود العقائدي وإلى التمسك بالنصوص الجامدة وإلى تشويه العلم والنظرية الماركسية - اللينينية • ولذا فقد طرح الحزب الشيوعي أمام العلماء السوفييت مهمة البقاء بالقرب من الحياة ومن متطلبات الانتاج الاشتراكي ومن ممارسة بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي •

ان المعرفة لا تقتصر على تسجيل نتائج الممارسة إذ أن عليها أن تستشف المستقبل لكي تضيء الطريق أمام الممارسة • ان المعرفة التي تستند إلى ممارسة الوقت الراهن تفتح الآفاق أمام تطور الانتاج والثقافة ••• الخ • ولو أن النظرية كفت عن القيام بهذا لفقدت معناها • لقد تجلت عبقرية ماركس ولينين كنظرين في أن بصريهما كانا يمتدان إلى أبعد مما يمتد إليه نظر معاصريهما وكانا يريان كيف وإلى أين سيسير تطور المجتمع •

ان العلم يستطيع ان يشكل مفاهيم عن ظواهر لم تنشأ بعد • فالمفهوم العلمي عن التشكيلة الشيوعية قد نشأ قبل ظهور هذه التشكيلة بفترة بعيدة • بيد أن هذا لا يعني ابدأ أن المفهوم عن الشيوعية كان لا يستند إلى أساس ولا يعتمد على الممارسة • إن ممارسة تطور المجتمع كلها ، والنزعات الأساسية في تطور الرأسمالية ، وتجربة الصراع الطبقي للبروليتاريا ضد البرجوازية - كل هذا كان بمثابة الأساس الذي نشأت عليه التعاليم عن المجتمع الشيوعي •

ان منكري امكانية المعرفة والذين يعتقدون باستحالة معرفة العالم يستندون إلى عدم وجود مقياس مضمون للحقيقة • وقد فتن العديد من الفلاسفة عن مقياس حقيقة المعرفة في وضوح وجلاء التصورات والمفاهيم وفي اعتراف الجميع بها وفي التجربة الجماعية • بيد أن المعرفة لا يمكن أن تكون مقياساً للحقيقة ذاتها • وقد أوضحت الماركسية ان مقياس حقيقة المعرفة يجب أن يبحث عنه لا في المعرفة بل في الممارسة • يقول ماركس في « موضوعات عن فيرباخ » « ان مسألة : هل يتمتع التفكير الانساني بحقيقية مادية ؟ ليس أبداً من اختصاص النظرية بل من اختصاص الممارسة • ففي الممارسة يجب على الانسان ان يبرهن على حقيقة، أي واقعية، وقوة وشمول تفكيره • ان الجدل حول واقعية، أولاً واقعية التفكير المنزل عن الممارسة هو مسألة سكولاستية (١) محضة » (٢) •

ان الانسان يبرهن على الحقيقية الموضوعية لمفاهيمه بواسطة الممارسة • فهل هي صحيحة يا ترى تصوراتنا عن بنية الذرة وعن الطاقة الكامنة فيها ؟ ان ممارسة التجارب العلمية واستخدام الطاقة الذرية في مختلف فروع العلم والتكنيك قد أكدت الحقيقية الموضوعية لتعاليم الفيزياء عن بنية وخصائص الذرة •

ان الفهم الماركسي للممارسة ، بصفتها مقياساً للحقيقة ، تتميز عن فهم الذرائعية لها • فالذرائعية تنفي الحقيقة الموضوعية وتطرح الموضوعية التالية : ان الحقيقي هو النافع والمريح • فكل انسان يمكنه أن يعتبر أي موضوع حقيقي أو غير حقيقي تبعاً لما إذا كان يستطيع أن ينتفع منها أم لا • ويقول الذرائعي جيمس « ان التزامنا بالبحث عن الحقيقة ينبع من التزامنا العام بأن

(١) السكولاستية Scholasticism - Cxoracmuka الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة • وقد أصبحت تعني فيما بعد التمسك الشديد بالتعاليم والأساليب المنقطعة عن الحياة والواقع •

(٢) ماركس وانجلز • المؤلفات • الجزء لثالث ١٩٥٥ الصفحتان ١ - ٧ •

نقوم بفعل ما يعوض نفسه « (١) • ان الذرائعي الذي يضع نصب عينيه المنفعة والراحة يعتبر أن فكرة وجود قوى ما وراء الطبيعة هي فكرة حقيقية ، أما الموضوعة الحقيقية موضوعياً عن حتمية انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية فانه يرفضها باعتبارها ، حسب زعمه ، موضوعة غير حقيقية لأنها لا تستجيب لمصالح البرجوازية (٢) •

لاشك ان المعرفة نافعة وهي تمثل قوة كبيرة • وليس من انسان في عصرنا هذا ، عصر التقدم التكنيكي الكبير ، يشك في أهمية المعرفة بالنسبة لحياة الناس • ولكن المعرفة لا تعود بالنفع الحقيقي على المجتمع إلا عندما تكون حقيقية • وحقيقية المعرفة لا تنبع من منفعتها بل أن الأهمية العملية العظيمة للمعرفة تنبع من حقيقتها ، من أنها تعكس الواقع بشكل صحيح •

ان الأوساط الامبريالية الرجعية ومنظمي « الحرب الباردة » يجدون منفعة وفائدة لتحقيق اهدافهم الدنيئة الأنانية في الاقتراء على البلدان الاشتراكية واتهامها بروح العدوان • ان هذا التزييف والاقتراء يساعدانهم على تضخيم الصناعة الحربية وابتزاز الأرباح الطائلة • بيد أن هذا الاقتراء يعود بالضرر الكبير على الشعوب وعلى الانسانية وينفث الدخان في العيون ويؤدي إلى تقوية الاضطهاد الضرائبي ويعرقل التقدم الاجتماعي •

ان الممارسة كميّاس لحقيقية معارفنا تقف فوق التأمل الحسي والتفكير المجرد جامعة في نفسها حسنات هذا وذاك • والمعرفة التجريبية تتمتع بأفضلية الواقع المباشر ، وذلك لأنها تعكس الشيء كما هو في الواقع • ولكنها لا تستطيع بنفسها ان تكشف وتبرهن على ضرورة قانونية الصلات الملاحظة • فعند ملاحظة حادثة وحيدة ما لتبخّر الماء لا يمكن أن نستخلص قانوناً وأن ثبت

(١) ف • جيمس • الذرائعية • سانت بطرسبورغ ١٩١٠ الصفحة ١٤١ •

(٢) ان اللعبة المحببة لدى نقاد المادية الديالكتيكية هي خلط الماركسية بالذرائعية • ويزعم بعض الفلاسفة الغربيين ان الذرائعية قد أعلنت لأول مرة من قبل ماركس في السنوات الأربعينيات من القرن التاسع عشر • ولكن هذا الزعم من ضروب الهذيان • فالماركسية والذرائعية يقفان على طرفي نقيض في فهمهما لجوهر الممارسة نفسها ولدورها في المعرفة •

ضرورة هذه العملية • فمعرفة الضرورة هي من مهمات التفكير • يقول لينين: « ان المعرفة النظرية يجب أن تعطينا الموضوع في ضرورته ، في جميع جوانب علاقاته » (١) • والتفكير العلمي النظري يحقق هذه الوظيفة مستنداً إلى معطيات التأمل الحسي • إنه يتعرف على الصلات المقنونة ، ولكنه يتوصل إلى هذا عن طريق اضاءة الصلة المباشرة مع الواقع نتيجة التجرد عنها الى حد ما •

أما الممارسة فتربط بين الواقع المباشر والأمانة له وبين معرفة الضرورة لأنها من ناحية أولى : تعتبر النشاط الحسي المادي للناس ، ومن ناحية ثانية ، يتحقق الانسان بواسطتها من مفاهيمه ونظرياته ويجسدها في الواقع الخ ••• فالتجربة العلمية مثلاً تنشأ دائماً كتجسيد عملي لبناء نظري ما ، عليها أن تتأكد من صحته •

ان نظرية المجتمع العلمية تطرح مهمات محددة تتحقق عن طريق نشاط الجماهير العملي • فنظرية الثورة الاشتراكية البروليتارية التي وضعتها الماركسية - اللينينية علمياً قد تحققت عملياً في عام ١٩١٧ في روسيا ، ومن ثم في بلدان اخرى ، وهكذا فقد تم البرهان على حقيقتها الموضوعية •

ان تحقيق الأفكار عملياً يعدل دائماً هذه الأفكار ويصححها ويطورها • والممارسة ، بتأكيداتها أو بنفيها لبعض الافكار ، تخدم كأساس لظهور أفكار أخرى • وهكذا تجري باستمرار عملية تطور المعرفة على أساس الصلة المتبادلة بين النظرية والممارسة • ان التبادل القائم بين التجربة وبين مختلف التركيبات النظرية في علم الطبيعة الحديث - دليل ساطع على الصلة القائمة بين النظرية والممارسة •

ان الدراسة التجريبية للظواهر تتصف بميزة كبرى بالنسبة للملاحظة البسيطة • وقد لخص بافلوف هذه الميزة بالكلمات التالية : « الملاحظة تجمع ما تقدمه لها الطبيعة أما التجربة فتأخذ من الطبيعة ما تريد » • ان التجربة تفسح الامكانية أمام الباحث ليتدخل تدخلاً فعالاً في سير العمليات المدروسة • واللجوء

(١) لينين • الدفاتر الفلسفية • الصفحة ١٨٣ •

إلى التجربة يتم عادة للتحقق من فرضية ما يمكن للتجربة أن تثبتها أو تدحضها، ولكنها في كلتا الحالتين تؤدي إلى تطور المعرفة • فإذا أثبتت التجربة الفرضية فإن هذه الأخيرة تتوحد وتفتني أحياناً بمحتوى جديد • أما إذا دحضت التجربة الفرضية فإن الأولى تعطي في هذه الحالة مادة لوضع تركيبات نظرية جديدة أكثر عمقاً تجري على أساسها تجارب جديدة • فتجربة مايكيلسون التي دحضت الفرضية عن الأثير مثلاً ساعدت على ظهور النظرية الخاصة عن النسبية •

ان مقياس الممارسة مطلق ونسبي في آن واحد • فهو مطلق لأن كل ما تثبته الممارسة يعتبر حقيقة موضوعية • أما نسبية مقياس الممارسة فتكمن في أنه في كل مرحلة تاريخية معينة من مراحل تطورها لا تستطيع الممارسة أن تثبت أو تدحض تماماً الموضوعات النظرية الموجودة • ان جميع فروع المعرفة العلمية تحتوي على عدد ليس بقليل من الفرضيات التي لم يبرهن عليها ولم تدحض بعد ، والتي تنتظر الحكم النهائي عليها من قبل الممارسة الآتية في المستقبل • ان ما أثبتته ممارسة اليوم جزئياً ستكمله ممارسة الأيام المقبلة • وليس سوى الممارسة في تطورها يمكن أن يصلح مقياساً لحقيقة المعرفة التي تتطور باستمرار • وهكذا فإن ممارسة اليوم ليست كافية للبرهنة على الفرضيات الكونية • فنحن لا يمكننا القول بان الكواكب قد تشكلت فعلاً على النحو الذي تصوره أية فرضية من الفرضيات المعترف بها على أوسع نطاق • بيد أن تطور الممارسة وبخاصة الملاحظات الفلكية سيقودنا في النهاية إلى حل هذه المسألة • ان وجود فرضيات في العلم يدل على أن هناك الكثير من الأمور التي لم يبرهن عليها بعد في معرفتنا • ثم ان اثبات الممارسة أو دحضها لبعض الفرضيات يؤدي إلى ظهور فرضيات أخرى غيرها •

ان التطور المستمر للممارسة لا يسمح لمعارفنا بالجمود وبالتحول إلى المطلق • أما اطلاقية الممارسة كمقياس للحقيقة فانها تفسح لنا امكانية تمييز المعرفة السائرة في طريق الحقيقة الموضوعية عن الاختلاقات • ويقول لينين عن الممارسة : « كذلك هذا المقياس « ليس محددآ » بالقدر الذي يسمح لمعارف الانسان بالتحول

إلى « المطلق » وهو في الوقت نفسه محدّد بالقدر الكافي لشن نضال لا هوادة فيه ضد جميع أشكال المثالية ومذهب عدم امكانية المعرفة • وإذا كان ما تثبته ممارستنا هو الحقيقة الموضوعية النهائية الوحيدة فان هذا يقضي بنا إلى الاعتراف بأن الطريق الوحيدة لهذه الحقيقة هي طريق العلم الذي يأخذ بوجهة النظر المادية « (١) » •

ان تطور العلوم ، وبخاصة العلوم الطبيعية يؤكد صحة نظرية معرفة المادية الديالكتيكية • وكل اكتشاف عظيم جديد في العلم يقدم لنا اثباتاً جديداً لحقيقية نظرية المعرفة الماركسية - اللينينية ، وللتعاليم القائلة بعدم محدودية المعرفة العلمية •

لقد أحرز العلم التقدمي في القرن العشرين انتصاراً عظيماً جديداً باطلاق الاتحاد السوفيتي الأقمار الصناعية الأولى حول الأرض ، واطلاق الصواريخ الكونية وتحليق رواد الفضاء السوفيت الذين فتحوا عهداً كاملاً لآحراز انجازات علمية جديدة ودشنوا عصراً جديداً في تطور المعرفة • ان نفاذ الانسان إلى الفضاء الكوني يتصف بأهمية نظرية كبرى كذلك ، إذ أنزل ضربة قاصمة بالشعوذة الفكرية وبوجهة النظر اللاهوتية والمثالية •

ان المثاليين الذين يروجون لمذهب عدم امكانية المعرفة ، شأنهم شأن اللاهوتيين ، حطوا ويحطون دائماً من شأن قوة العقل البشري وقدراته على المعرفة • فهم يقولون : طأطأ رأسك ايها الانسان الجموح ، لاتطمح لمعرفة ما لا يجب أن تعرفه • ان العقل الالهي، عقل ما وراء الطبيعة، هو وحده الموجود في كل مكان والقادر على كل شيء ، أما عقل الانسان فمحدود وتافه • هذا ما يصيح به رجال اللاهوت ، ويكرره وراءهم أصحاب مذهب عدم امكانية المعرفة الذي تفوح رائحة العفن من ربيته •

أما العلم فانه يدحض هذه الخزعبلات البالية محققاً خلال القرن العشرين

(١) لينين • المؤلفات : الجزء الرابع عشر • لصفحة ١٣٠ •

اكتشافاً إثر آخر ، ومزيجاً إلى مسافات أبعد فأبعد الحدود المشروطة تاريخياً
للمعرفة ونافذاً أعمق فأعمق إلى أغوار أسرار الطبيعة مكتشفاً قوانين حركة
الصغريات والأجسام الكبيرة في الكون •

ان هذه الاكتشافات العظيمة في العلم تضيق الخناق على المثالية واللاهوت
وتجعلهما يلاقيان صعوبات متزايدة في الحفاظ على مواقعهما • ان العلم التقدمي
والعقل البشري المتحررين من قيود المثالية والغميبات يحققان انتصارات عظيمة
جديدة وجديدة •

فهرس الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
وغير ذلك	وذلك وذلك	٤	١٩
حل	خل	٧	٢٢
ياكتشافات	باكتشافات	١٠	٧٣
المادة	المدة	٢٠	٨٤
برهة	برهنة	١٧	٨٥
تتسم	نتسم	١٥	٩٠
كما لا ينبغي	كما لا ينبغي	٩	٩٩
باستمرار	باستمرارة	قبل الاخير	١٠٢
تعبيره	تعبيرة	٩	١٠٣
الكلوروفيلي	الكوروفيلي	٦	١٢٨
المادية	المدية	٨	١٢٩
نقطة	نقطرة	٤	١٣١
الديالكتيكية	الديالتيكية	١٧	١٣٥
المثاليين	المثالين	١٤	١٣٧
الطبيعية	الطبيعة	١٣	١٣٩
بالنظريات النفسية	بالنظريات النسبية	٣	١٤٠
صحيحة	صحيحا	٢١	١٤٤
ان الشمعدان	ان الشمدان	٢٢	١٤٨
من دون	من دول	٨	١٥٠
بتنشيط	بنشيط	١٣	١٥٤
للدماغ	رلدماغ	٧	١٥٧
هذه	هنف	٢٣	١٥٧
لانه بهذا	لانه بهذ	٣	١٦٠
ايجابين	ايجاين	١٩	١٦٦
وراء الطبيعة	وراء الطبيعة	قبل الاخير	١٧٨
يجير الثورة	يجير الثورة	٨	١٨٠
متبادلة	متبدله	٦	١٨٦
المادية	الملينه	١٦	١٨٨

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨٩	قبل الاخير	لكامت	لكانت
١٩٥	٢١	في البيولوجيا	في البيولوجيا
٢٠١	٢	والفينوماليون (٢)	والفينوماليون
٢٣٥	السطر الاخير	الكيمياء	الكيمياء
٢٣٦	١٢	ما بعد الغد	ما بعد الحد
٢٤٢	١٣	هذه	هذه
٢٤٤	١٧	النقابين	النقابين
٢٥٢	٢٢	هذه الفقرة	هذه القفزة
٢٥٥	١٩	والقشافي	والثقافي
٢٥٨	١٢	الناقضات	التناقضات
٢٦٣	٢٣	المتناقضات	المتناقضات
٢٦٨	٢١	من اقطاعين	من اقطاعين
٢٧٣	٤	تطور التناقضات	تطور التناقضات
٢٧٥	١٢	يؤدي بعد الى توازن جديدة	يؤدي بعد ذلك الى توازن جديد
٢٧٨	١٤	التي تقوم	التي تقول
٢٨٢	١٨	من الاستقراطيين	من الارستقراطيين
٢٩٩	قبل الاخير والاثبات	والاثبات	والاثبات
٣٠٤	١٨	الى الحصر الحجري منطقة	الى العصر الحجري منطلقة
٣٠٧	١٤	هذا المتضادان	هذان المتضادان
٣١٣	١١	الى نتيجة	الى النتيجة
٣٢٥	١١	انصارا	انتصارا
٣٢٩	١٦	خيث	حيث
٣٣١	٢٢	النذي	الذي
٣٣٢	٩	نتجة	نتيجة
٣٣٩	٨	ديكارات	ديكارت
٣٣٩	١٢	تضخيماً	تضخيماً
٣٤٤	١٩	تنفصل	نفصل
٣٤٦	٢٣	لانسان	الانسان
٣٦٣	٥	جديدة	جديدة
٣٦٥	قبل الاخير للاتحركة	المتحركة	المتحركة
٣٦٧	٢	والتناقص	والتناقض

الفهرس

الفصل الأول

صفحة

١

موضوع الفلسفة

- ١ : - سؤال الفلسفة الاساسي . المادية والمثالية هما الاتجاهان
الأساسيان في الفلسفة
- ٢ : - علاقة الفلسفة بالعلوم الأخرى
/ موضوع الفلسفة الماركسية
- ٣ : - المادية الديالكتيكية والتاريخية هما السلاح الفكري في
النضال من أجل الشيوعية

٢

١٧

٢٩

الفصل الثاني

٣٩

نشوء وتطور الفلسفة الماركسية

- ١ : - الظروف التاريخية لنشوء الفلسفة الماركسية
ماركس وانجلز المبدعان العظيمان للمادية الديالكتيكية
والتاريخية
- ٢ : - جوهر الانقلاب الثوري الذي أحدثته الماركسية في الفلسفة
- ٣ : - الطابع الإبداعي للفلسفة الماركسية وتطوير لينين لها

٣٦

٥٧

٦٥

الفصل الثالث

٧٤

المادة وأشكال وجودها

- ٧٤ : - المادة
- ٩٠ : - حركة المادة
- ١٠٤ : - المكان والزمان
- ١٢٠ : - وحدة العالم

الفصل الرابع

صفحة

١٣١

المادة والوعي

١٣١

١ : - الوعي خاصة المادة الرفيعة التنظيم

١٤١

٢ : - الوعي هو انعكاس العالم المادي

الفصل الخامس

١٧٨

العلاقة القانونية لظواهر الواقع

١٧٨

١ : - نظرية التطور الدياليكتيكية

١٨٥

٢ : - العلاقة المتبادلة بين الظواهر • السبب والنتيجة

٣ : - القانون باعتباره صيغة للعلاقة الجوهرية بين الظواهر

١٩٧

الوحيد ، والخاص والعام

٢١٣

٤ : - الضرورة والمصادفة

٢١٩

٥ : - الامكانية والواقع

الفصل السادس

قانون الانتقال

٢٢٧

من التبدلات الكمية الى التبدلات النوعية

٢٢٧

١ : - التبدلات الكمية والنوعية وانتقال بعضها الى بعض

٢ : - وحدة شكلي التطور : الشكل الارتقائي والشكل الثوري -

٢٤١

القفزات

٢٤٩

٣ : - تنوع أشكال الانتقال من النوعية القديمة الى النوعية الجديدة

الفصل السابع

٢٥٧

قانون وحدة وصراع المتناقضات

٢٥٨

١ : - الأشياء والظواهر كوحدة المتناقضات

صراع المتضادات هو مصدر التطور

صفحة

- ٢٧٢ : ٢ - التناقضات الداخلية والخارجية
٢٧٨ : ٣ - خصائص التناقضات المختلفة
٢٨٨ : ٤ - المحتوى والشكل • نشوء وحل التناقضات فيما بينهما

الفصل الثامن

- ٢٩٦ **قانون نفي النفي**
٢٩٧ : ١ - جوهر ودور النفي الديالكتيكي في عملية التطور
٣٠٢ : ٢ - الطابع التصاعدي للتطور وأشكاله

الفصل التاسع

- ٣١٧ **ديالكتيك عملية المعرفة**
٣١٧ : ١ - الديالكتيك كظرية للمعرفة • المنطق الديالكتيكي والشكلي
٣٢٥ : ٢ - الحقيقة الموضوعية • ديالكتيك الحقيقة المطلقة والنسبية
٣٣٦ : ٣ - العلاقة بين الحسي والعقلاني في المعرفة • الجوهر والظاهرة
٣٥٠ : ٤ - ديالكتيك المجرى والمحسوس • المنطقي والتاريخي
٣٥٨ : ٥ - أشكال التفكير ودورها في المعرفة
٣٦٨ : ٦ - الممارسة كأساس للمعرفة ومقياس للحقيقة



الدكتور بدر الدين السباعي

مؤلفات

- مشكلة الفلاح السوري بالفرنسية
- الحرب والشعوب بالعربية
- اضواء على الرسمال الاجنبي في سورية
- حول موازين عام ٦٣ السلعية بالعربية والروسية
- التشف في الاستهلاك الخاص بالعربية
- منجزات الخطة الخمسية الاولى على ضوء تقارير تتبع التنفيذ بالعربية

تراجم

- اصول الحرية روجيه غارودي
- الصين في طريق الاشتراكية بالاشتراك مع الدكتور نجاح ساعاتي
- مخاطر أزمة ومخاطر حرب هنري كلود
- الانسان قاهر الطبيعة بالاشتراك مع نوري الرفاعي
- الارقام الاساسية لانماء الاقتصاد الوطني (٥٩ - ٦٥) بالاشتراك مع الدكتور نجاح ساعاتي
- الدولة والثورة لينين
- معطيات تكميلية لمؤلف لينين عن الامبريالية (جزء اول) فارغا ومندلسن
- الى أين يسير الاستعمار الاميركي هنري كلود
- من الازمة الاقتصادية الى الحرب العالمية هنري كلود
- الامبريالية أعلى مراحل الراسمالية لينين
- امتان برجوازية وبروليتارية كوزلوف
- الاقتصاد السياسي (جزء ١) لنخبة من الاساتذة السوفييت
- الاقتصاد السياسي (جزء ٢ قسم ١)
- الاقتصاد السياسي (جزء ٢ قسم ٢)
- الاقتصاد السياسي (جزء ٣) الامبريالية بالاشتراك مع فؤاد مرعي
- المادة الديالكتيكية لجماعة من الاساتذة السوفييت بالاشتراك مع فؤاد مرعي وعدنان جاموس

عن الروسية
عن الروسية

- المرحلة الانتقالية
- ملكية وسائل الانتاج

للأستاذ فؤاد مرعي

تراجم

- | | |
|------------------------------|------------------------|
| لمجموعة من المؤلفين السوفييت | - علم الجمال (جزء ١) |
| لمجموعة من المؤلفين السوفييت | - علم الجمال (جزء ٢) |
| ايتمانف | - أرض الأم |
| بوشكين | - حكاية الصياد والسمكة |
| بوشكين | - الديك الذهبي |
| تولستوي | - مسيرة الآلام جزء ١ |
| | - مسيرة الآلام جزء ٢ |
| | - مسيرة الآلام جزء ٣ |
| اليشا | - عجلات متنافرة |
| مارشاك | - دب كباقي الدببة |
| | - البدناء الثلاثة |
| | - الوحوش الصغيرة |

للأستاذ عدنان جاموس

بالاشتراك مع فؤاد مرعي وبدر الدين
السباعي

- المادية الديالكتيكية

منشورات الدار

- ١ : - الاقتصاد السياسي (جزء أول)
 لنخبة من المؤلفين السوفييت
 تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
- ٢ : - اضواء على الرسمال الاجنبي في
 سورية
 تأليف الدكتور بدر الدين السباعي
- ٣ : - المادية التاريخية
 تأليف كليلي وكوفا لزون
 تعريب الاستاذ أحمد داود
 لنخبة من المؤلفين السوفييت
- ٤ : - الاقتصاد السياسي (الجزء
 الثاني القسم الاول)
 تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
- ٥ : - الاقتصاد السياسي (الجزء
 الثاني القسم الثاني)
 لنخبة من المؤلفين السوفييت
 تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
- ٦ : - الاقتصاد السياسي (الجزء
 الثالث) الامبريالية
 لنخبة من المؤلفين السوفييت
 تعريب فؤاد مرعي وبدر الدين السباعي
- ٧ : - المادية الديالكتيكية
 لجماعة من المؤلفين السوفييت
 تعريب عدنان جاموس ، بدر الدين
 السباعي ، فؤاد مرعي
 شعر ناظم حكمت
- ٨ : - الناظرون الى النجوم
 تعريب الاستاذ ثابت عزاوي
 مؤلفين سوفييت
- ٩ : - في الاقتصاد الاشتراكي
 المرحلة الانتقالية
 ملكية وسائل الانتاج
 تعريب الدكتور بدر الدين السباعي

قريباً

- الاقتصاد السياسي (الجزء الأخير ،
 المؤلفين سوفييت)
 المؤلفين سوفييت
- المعجم الاقتصادي
 لينين
- المادية ومنهـب النقد التجريبي
 تعريب الدكتور بدر الدين السباعي
- معطيات تكميلية لمؤلف لينين عن
 الاستعمار
- الحركات الفلاحية الثورية في سورية
 تعريب الاستاذ عدنان جاموس
- المنتصف الاول من القرن التاسع عشر
 الانسان والتطور
 تعريب الاستاذ عدنان جاموس

دار الجماهير

لتعريف الشعب على خير ما أنتجه الفكر الانساني التقدمي

- تنشر المعرفة في سبيل الحياة والشعب *
- تبعث التراث العربي وتربطه بالفكر المعاصر *
- تعمل على توحيد الفكر العربي لمكافحة الاستعمار وما يخلفه من
أمراض *
- تربط الفكر العربي بالتراث الانساني الاكبر *
- تربط الفكر بالعمل *

دمشق - شارع التجهيز - بناية كردوس - تلفون ٢٢٤٥٩٣

حقوق الطبع والنشر محفوظة